



من الشرق والغرب  
نافذة على الفكر العالمي



# كنفاح الأحرار

تأليف: ا. افندي

تقديم: محمود ميسور







من الشرح والغريب

# كفاية الأحرار

تأليف: ل. افلاحي

تعريب: محمود مسعود





## مقدمة

يتلقى الاستعمار في هذه الآونة الأخيرة من عمره ضربات قاصمة هي نذير فئاته المحقق . ولكن هذه النهاية المحتومة لم تكن الا بفضل معارك الاحرار في كل رقعة تكبت به ، ونضالهم لتقويض أركانه .

ومن أروع صفحات الكفاح الوطني ضد الاستعمار البريطاني ، كفاح الشعب الارلندي لنيل حريته واستقلاله ، كما صورته الكاتب الكبير ليام أفلاتي في هذا الكتاب الذي نشرت طبعته الاولى في ( الألف كتاب ) عام ١٩٥٦ ، والذي تنشر « الدار القومية » طبعته الثانية اليوم بموافقة مشكورة من الادارة العامة للثقافة بوزارة التعليم العالي .

وهذا الكتاب الوطني الانساني هو من طراز تلك الشوامخ الخالدة التي لاتجود بها سوى عبقریات أعظم الكتاب من أمثال تولستوى وهوجو ، كما قال توماس مان الفيلسوف الالماني الاشهر ، وقد عالج فيه مؤلفه لمحات عميقة من حياة الشعب الارلندي في كفاحه ضد الاستعمار البريطاني الفشوم .

ويصور الكتاب تصويرا مؤثرا أخاذا ارلندا في منتصف القرن التاسع عشر ، عندما كانت رازحة تحت النير البريطاني ، تتخذ منها بريطانيا مزرعة كبرى لتموينها بالمؤن من غلال ولحوم ، ويتقاسمها الملاك الانجليز اقطاعيات يؤجرونها للارلنديين أصحاب البلاد الشرعيين، فيشتدون في اقتضاء الايجارات الزراعية ، ويمعنون في الظلم والجور والظغيان، والشعب الارلندي يشن من هذه المظالم التي يزيد من فداحتها مايمنى به من كوارث الطبيعة ، بين آفات تصيب محصولاته الزراعية، وقحط ينشر المجاعة بين ظهرائه . . فاذا اشتكى الى ظاله بدا النفاق البريطاني والخبث الانجليزى على أشنع صورهما المعهودة . . . واذا لجأ الشعب المنكوب الى التمرد والثورة على مستلب أقيواته ، قوبل بالخسف والبطش ، مما يزيد بلاء على بلاء ويكاد يسلمه الى اليأس - لولا تلك النفوس الحرة الابية المكافحة التي تبرز من صفوفه مناضة للظلم والظغيان ، فتجتمع حولها القلوب ، وتتركز حركات المقساومة الشعبية ، ليكون منها في النهاية ذلك الجيش الجرار الذي يدك معقل الاستعمار ، ويحرر الوطن من ظله البغيض .

وعلى هذه الصورة ستكون نهاية الاستعمار فيما بقى له من جيوب وأوكار .

محمود مسعود







## الفصل الأول

ما أن تصايحت الديكة ايذانا بمطلع النهار حتى انبعثت طلائع الرعد تقصف في جنبات ( الوادى الاسود ) فتتجاوب أصداؤه فوق سفوح الجبل وبين شعابه ومفاوزه ٠٠ واذا ( بريان كيلمارتن ) ينتفض جالسا في فراشه وكان مسهدا لا يغمض له جفن وهو يعلل النفس بذهاب حدة الروماتزم السارى في عظامه .. والتفت الى زوجته المستفرقة في الرقاد الى جانبه فجعل يهزها هزا عنيفا حتى استيقظت وهى تصرخ فزعا ، وقالت وهى تنظر اليه من خلال أجفان أثقلها النوم :  
- ماذا جرى بحق الأنبياء ؟

فقال ( بريان ) وهو يثب من الفراش الى الارض : « هو الرعد ! » ففغرت الزوجة فاعا ، وأرهفت السمع الى موجة راعدة أخذت تتلاشى في بطون كهف سحيق . وقبل أن يفيبها السكون في أطوائه انطلقت في أثرها قعقة جديدة أخذت تدوى في أجواز الفضاء ، حتى لم تتمالك أن هتفت قائلة : « المجد لله في علاه ! »

وما كاد ( بريان ) يلمس الارض بقدميه حتى أمسك بركبته اليمنى متوجعا .. على أنه يمم شطر النافذة وهو يعرج وما زال بقميص نومه ، وتطلع منها ويده تحك فخذ . فلما سمع انهمار المطر هتف قائلا :

- آه ! .. ان المطر يصب كأفواه القرب ! .. ياله من يوم بديع ان قدرنا فيه على أن نغربل القرطم ! .. قومى يا (ماجى) ، وأوقدى النار ..

وأنشأ ( بريان ) يرتدى بنطلونه وهو لا يكف عن التوجع ، على حين تناولت زوجته رداءها المعلق فوق حافة الفراش ودفعت رأسها في ثيابه لتلبسه .. أما ( بريان ) فقد هرول الى داخل المطبخ وجذب مزلاج الباب الامامى ، وسرعان ما سمع كلب ينبج ، وما كاد الباب يفتح حتى مرق الكلب من بين قدمى ( بريان ) وهو ينفذ عن جلده الأشعث رماد وقود المدفأة التى اتخذها مضجعا له طوال الليل ، ثم انفلت الى ساحة الدار وهو ينبج جذلا .. ذلك ولم يتمالك ( بريان ) أن هتف قائلا : « رحماك ياربى ! .. يالهذا الصباح ! .. »

كان ( بريان ) فى الحادية والسبعين من عمره .. وراح يتطلع الى السماء وقد انفرج فمه عن لثة ليس بها سوى سنين صفراوين . وبدا جلد وجهه حول عينيه الزرقاوين النفاذتين كقماش شد بخيط .. والحق أن عينيه وأنفه الطويل المقوس قد أسبغت على وجهه العظمى



النهامي اللون مسحة كالصقر ، وبدأ في هياته كمجموعة من العظام  
شكلت في صورة هيكل مديد لا يمسكه سوى فرط الحيوية والنشاط .

ورفع ( بريان ) عقيرته لسمع زوجته قائلا : « سيكون هذا  
المطر وبالا على الوادي » .. وزفر زفرة حرى وهز منكبيه سخطا  
وخطا الى المدفأة في أثر كلبه الذي ارتد الى الداخل ، ثم عمد الى  
مسبحته المعلقة فوق جدار المدخنة وركع على ركبتيه معتمدا بذراعيه  
فوق مقعد صغير ، وطفق يرتل صلوات الصباح يمازجها تشاؤب وأنين  
لا ينقطع ، فان وطأة الطقس في هذا اليوم ضاعفت من حدة دائه العياء .

وخرجت ( ماجى ) من غرفة النوم راجفة راعشة ، فلم يكن جو  
البيت الا زمهريرا برغم الدفء في الخارج .. وكانت تعرج في مشيتها  
وهي تدب حافية القدمين فوق الارض التربة العارية ، متطلعة في  
اشفاق من خلال الباب المفتوح الى المطر المنهمر .. وما لبثت ان  
جلست القرفصاء الى المدفأة لتوقدها ، فأيقظت حركاتها ثلاثة خنازير  
راقدة في فراش من قش عن كذب من المدفأة ، واقرن خوارها بنقيق  
دجاج في عش قرب الباب .

ولم يكد ( بريان ) يفرغ من صلاته وهو يتشاءب حتى استوى  
قائما في خفة ونشاط ، ثم أقبل من فوره على الخنازير يذودها بعنف  
ويطردها الى الخارج مستعينا بكلبه الذي أعمل أسنانه فيها، فانطلقت  
تخور فزعة الى الساحة ، لتجد في المطر الدافق ما ينقيها من أدرانها .

واذ عمد العجوز الى باب عش الدجاج يفتحه قالت له ( ماجى )  
معرضة :

— أترسل الدجاج في المطر ؟

— بوسعها أن تأوى الى ( الجرن ) .. أمضى أيتها الشياطين  
الصغيرة ! .. انما التوت أمعاء ( ميخائيل ) بالامس تقززا بهذه الروائح  
الكريهة نفسها ! .. أخرجى هذا القش واغسله يا امرأة ! .. اقدنى  
فراش الخنازير وضعى قشا نظيفا مكانه وانثرى الجير فوق الارض !

فقالت له الزوجة : « ان لى يدين ، لا عشرة » .

فصاح بها : « أيقظى اذن زوجة ابنتك ! .. أيايتها خبزها من  
السماء ؟ »

وفي هذه اللحظة ارتفع من داخل غرفة النوم القائمة الى اليسار  
صوت قوى عميق يقول قائله : « يالك من شيطان مريد ! .. ما لخنجرتك  
اليوم منطلقة على اشدها كمزمار رنان ؟ .. »

بيد أن العجوز لم يجب ومضى في طرد الدجاج من عشه الى  
الساحة ، مستعينا هذه المرة بزوجته والكلب ، وفي النهاية فتح باب  
( الجرن ) ليأوى اليه الدجاج احتما من المطر .

واذ فرغت ( ماجى ) من اذكاء النار بازالة ما كان يعلوها من رماد،



عمدت الى قدر ملئء بالبطاطس فأنزلته من حيث كان مرفوعا فوق النار طوال الليل ، ثم ركعت مستندة الى مقعد صغير وأنشأت تصلي بدورها .

كانت (ماجى) تصفر زوجها بتسعة أعوام ، وان بدت متقدمة عنه فى السن . وكانت الى ذلك شديدة البدانة ، شاحبة الوجنتين، تتدلى فوقهما خصلات شعرها الأشعث ، وقد غارت عيناها الداكنتان فى محجرين حفت بهما بشرة قاتمة ، ونفرت العروق وردية فى جفونها المسدلة وهى منهمكة فى الصلاة .

ولما رجع (بريان) الى داخل البيت وهو يسعل وينفض المطر عن ملبسه ، فتحت (ماجى) عينيها وقالت وهى تنظر اليه مكتئبة :

— لا ينبغي لك أن تخرج حافيا الى الساحة المبتلة .

فكان جوابه أن قال لها :

— لا تمضى صباح يومك جامدة فى مكانك هذا !.. تحركى وارفعى رماد المدفأة ... وهلا أيقظت (مارى) من نومها ، واستدعيت (تومسى) كذلك ؟ لدينا عمل كثير لا بد من اتمامه يا امرأة !..

فضربت (ماجى) صدرها ثلاثا وهى شاخصة الى السقف ، ثم لثمت حبات مسبحتها ونهضت متباطئة ... أما العجوز فقد جلس فى الركن المجاور للمدفأة وتناول جوربه المعلق فى وتد وأخذ يفركه تمهيدا للبس بعد أن تجف قدماه المبتلتان فى حرارة اللهب المتعالى .

وبرغم انبلاج الصبح ما برح المطبخ معتما ، اذ كان خلوا من النوافذ وبابه صغيرا لا يتسرب منه الا اليسير من ضوء النهار القاتم ، حتى كان السقف فى شبه ظلام ، لا تكاد تبدو منه للعين آثار البلى والقدم ، وان ظهرت هذه الآثار واضحة فى الأرض المتربة العارية المضربة ذات الشقوق واخاديد ... ويواجه المدفأة باب يؤدى الى غرفة نوم الزوجين ، ويجاورها باب آخر يفضى الى غرفة نوم ثانية .

وما ان لبس (بريان) جوربه حتى عاد الى غرفة نومه حيث كان الضوء أجلى . وقد اشتملت الغرفة على سريرين أحدهما كبير ذو اربعة أعمدة هو الذى ينام فيه الزوجان العجوزان ، والثانى أصغر منه حجما وأدنى الى الضيق والانخفاض ، قام فى ركن الغرفة ، ونام فيه (ميخائيل) أصغر أبناء (بريان) وقد تدثر بالملابس حتى أذنيه ... وناجاه العجوز همسا فى رقة متناهية : « خيرا ؟ ... كيف حالك اليوم ؟ » ...

فانبعثت فى السرير سعلة جافة ، وما لبث الفتى أن دفع الملابس عن وجهه وجلس مستندا الى الوسادة ، وأجاب فى ضيق وتبرم :

— وكيف تكون حالى ، وأنا أوقظ من نومى عنوة على صياحك فى مستهل الفجر ؟ ...



فقال (بريان) متندما :

— ربما أيقظك الرعد ...

ومن عجب أن لهجة العجوز استحالت فجأة في مناجاته لفتاه من  
الفلظة والجفوة الى الاستكانة والرقّة ... بيد أن (ميخائيل) لم يستجب  
لهذا ، بل راح يحدق مكتئبا الى النافذة الصغيرة حيث كان المطر يسيل  
فوق زجاجها متعرجا كديدان صفراء ملتوية ٠٠٠٠ ولما قال الفتى أن  
المظهر ينهمر أجاب الشيخ وهو يدنو منه على أطراف أصابعه :

— نعم ... ولعلك تلزم فراشك اليوم حتى يخف ما بك من  
برد ؟ ...

فرد (ميخائيل) بقول مهتاجا ساخطا :

— الزم الفراش ؟ ! .. وفيما هذا ٠٠٠٠ ألا تقوم اليوم شغلبة  
القرطم ؟ ...

فقال (بريان) :

— صدقت يا بني ... لقد نسيت هذا ...

وضحك العجوز متكلفا السخرية من فكرة بقاء ولده في الفراش  
وهناك عمل لا بد من تمامه ... ولكن ضحكته احتبست حين انتابت  
(ميخائيل) أزمة سعال جعلت الشيخ يشد قبضته راجفا وهو يرقب  
فتاه يتلوى تحت الفطاء المرقع ... وألحق أن محيا الفتى ثم بجلاء وهو  
يسعل عن طبيعة الداء الذي كان يعاني وطأته . فقد انطبعت على  
وجنتيه الفائرتين الشاحبتين بقعتان حمراوان برزتا للعيان فجأة كأنما  
افتعلتهما يد ساحر ، ولمعت عيناه الزرقاوان لمعانا غير طبيعي وكانهما  
عيننا مجنون تملكته نوبة جنون حادة ، وسال عرق يسير فوق جبهته  
حتى تندى شعره الأشقر المدلى فوق الجبين ... لكن الفتى المنكود  
برغم الذي به لم يتجرد من معالم القوة ، فقد أطبقت يداه في بأس على  
حافة الفطاء وهو يسعل ، وبان صدره العريض يرتفع وينخفض دراكا  
كصدر امرئ يحاول التملص من قبضة مصارع جبار ... ويا له من  
فتى منكود حقا ! فقد وقع في قبضة مصارع عات يستحيل النجاة منه  
والافلات ! .

وكان الوالد الشيخ يرقب هذا المشهد وقد انشب الحزن مخالبه  
في صدره ، كما انشبت أنيابها الجراثيم في صدر ولده المحبوب ، تعمل  
في رثتيه تمزيقا ونهشا .. وما كان للشيخ آئذ أن يؤمن بما كان يزعمه  
دواما ويتكلفه تكلفا ، من أن (ميخائيل) لا يعاني سوى برد عارض لا يلبث  
أن يزول .. فان من يستمع الى هذا السعال الذريع ، لا يلبث أن يؤمن  
بنهايته المحتومة .. فانما هو عين السعال الذي اختطف من الشيخ خمسا  
من فلذات كبده وهم في طفولتهم يمرحون ، وها هو ذا لم يترفق به ،  
فعدت عواذيه على (ميخائيل) أيضا ، من بين أبنائه الأربعة الباقين ...

وقال الشيخ لولده حين انتهت نوبة السعال :



— يحسن على أى حال أن تحاول النوم حتى يحين موعد الافطار .

فتمتم (ميخائيل) كلاما واستلقى فى فراشه ... وتنهد العجوز وغادر الحجرة على أطراف أصابعه ، فالتقى فى المطبخ بولده (مارتن) الذى ابتدره قائلا بلهجة المرح :

— ماذا تخبىء اليوم لنا من المفاجآت فى جعبتك ، أيها الشيخ العجوز ؟...

فقال أبوه :

— ألا تستحى وأخوك مريض ؟...

فقال (مارتن) :

— وهل راعيت شعور أحد فى البيت وأنت تدور فى أرجائه صائحا هادرا ؟

وشفع هذا بضحكة وخرج الى ساحة الدار دون أن يحفل بالمطر ، بل رفع يديه فوق رأسه وهتف قائلا :

— يا له من مطر كالسيل لم يسبق له مثيل !

وهرول فى الساحة حافى القدمين وهو يصيح متكلفا الألم والتأذى من المطر .

أما العجوز فقد اتجه الى المدفأة وأخذ يلبس حذاءه الثقيل ، فبادرته (ماجى) قائلة فى تردد وهى تعد الأثناء لحلب البقرة :

— كيف حاله ؟

فرد العجوز قائلا :

— لم لا تدخلين تسألينه ؟ انى لم أكن سبب علته ..

فأجهشت المرأة المنكودة بالبكاء وقالت وهى ترفع (المريلة) الى وجهها :

— سامحك الله !...

وعند ذلك عاد (مارتن) الى الداخل وهو يرفع عقيرته بالفناء ، فما أن لمح أمه تبكى حتى جمد الفناء على لسانه ، وقال فى عنف :

— ماذا يكربك يا أماه ؟...

فأجابت الأم وهى تتناول مكنسة من الباب الخلفى :

— لا شىء يا حبيبى ..

ولكن (مارتن) نظر الى أبيه مغضبا وقال له :

— ماذا قلت لها ؟



فلم يجب العجوز ، بل انتفض قائما دون أن يتم ربط حذائه  
وحمل أناء اللبن وخرج به لا يلوى على شيء ... ولما صاح (مارتن)  
في أثره بادرته (ماجى) قائلة :

— اسكت يا بنى .. لا فائدة من المجادلة معه .

فجعل (مارتن) يرنو اليها وهو يشد حزامه حول وسطه . ولو  
نظرت اليه لرأته أكثر شبها بأبيه وإن كان أطول قامة وهو يجاوز ستة  
أقدام ، وكان يماثله في رأسه المستطيل ، وأنفه المقوس ، وعينييه  
الزرقاوين الصارمتين ، ووجنتيه العظمتين النحاسيتى اللون ...  
والواقع أنه كان أنموذجا بديعا في جمال الصورة بما اتسق له في صدره  
ومنكبیه من سمات أهل الرياضة ...

ولم يلبث أن دنا من أمه واحتضنها قائلا :

— لا تحزنى يا أماه ... اننى سألين قناته ذات يوم .

وأما العجوز فقد غطى كتفيه بكيس وجرى في المطر الى بقعة  
ممشوشية خلف الدار جعلت منها حظيرة قامت فيها بقرة سوداء  
مربوطة وجلس القرفصاء من تحتها وأخذ يحلبها ، فما لبث خريز  
اللبن المتساقط ممتزجا بالرائحة الزكية المنبعثة من الزبد الأبيض  
المتماوج أن هدأت من حدة غضبه ، وكذلك اكتسى محياه مسحة من  
الركة والوداعة ...

وفى خلال ذلك سكت الرعد وخف انهمار المطر، واستحال سيوله  
الدافقة الى تساقط رتيب يلذع أديم الأرض دراكا ، وكأنه أنشودة  
منسجمة تطرد الهم وتنفى الكدر والأحزان .



## الفصل الثانى

عاد العجوز الى المطبخ يحمل اللبن ، فالفى (مارتن) يتحدث مع زوجته الشابة لدى الخوان ، وكانت تنصت الى همسات زوجها الجوفاء وهى تصب اللبن فى الأقداح استعدادا للافطار . وكان الزوجان حديثى عهد بالزواج اذ لم يمض على زواجهما أكثر من شهر ، فهما فى أبان النشوة التى تنتاب مثلهما فى هذه الظروف ... وصحيح أن اثتلافهما كان منظرا بديعا يستهوى العين ، بيد أن مشهدهما أذكى نيران الغضب فى صدر (بريان) ... ذلك أن (مارتن) قد تزوج (مارى جليسون) هذه ضد رغبة أبيه ، وهى ابنة الفزال المحلى . لذلك كانت فى نظر العجوز أدنى مرتبة منهم . يضاف الى ذلك أن جمالها قد بدا له نابيا شاذا فى بيت فلاح .

والحق أنها امرأة موفورة الحسن ، يزينها شعر أسود غزير لامع تدلت جدائله المصفورة حتى وسطها وكأنها فتاة عذراء . وهى الى هذا هيفاء نحيلة القوام ، يروعك تناسق أطرافها وانسجام صدرها ، وذلك الثغر الملىء الناضج المنبىء بحدة العاطفة . على أن عينيها المؤتلفتين كانتا تخفقان من هذه الحدة وتخلعان على جمالها كثيرا من الصفاء .

ولما شعرت (مارى) بالنظرات الشذراء المنبعثة من عيني العجوز ، لم تلبث أن حملت أقداح اللبن الى الخوان الذى أعد فوقه طعام الإفطار، وكانت تسير بحركات رشيقة أبرزت مفاتن جسدها البديع ، حتى لم يتمالك زوجها أن راح يتبعها بنظراته مفتونا متيما ...

وقال العجوز متبرما :

— ألم يستيقظ (تومسى) بعد ؟

فأجابت (ماجى) وهى منهمكة فى اعداد طعام الخنازير قرب الباب الخلفى :

— انى ناديته مرتين ... تومسى ... انزل لتتناول فطورك !

فجاءها الجواب أيننا من الغرفة العلوية الخالية ، حتى قال (بريان) معقبا :

— يا له من شقى مخمور ؟

وجلس العجوز و (مارتن) الى الخوان فوق مقعدين صغيرين لا ظهر لهما . وكان فوق الخوان وعاء كبير من أعواد الصفصاف ملىء بيطاطس ساخن ينبعث منه البخار ، وحفت به أقداح اللبن على الجانبين ، وتوسط



البطاطس انا خشبي صغير به ملح وماء وتناثرت هنا وهناك مدى  
مدية يقشر بها الآكلون البطاطس .

وفجأة انطلق صوت أجش من ناحية الغرفة العلوية يهتف قائلا :  
- الرحمة يا اله السموات !

فلم يتمالك (مارتن) أن ضحك قائلا :

- هل سمعتم توجهه واستغاثته ؟ أى شراب قوى ذلك الذى  
تناولته يا (تومسي) ؟ هيا أنزل بيننا وقص علينا ما كان ! ..

ولكن (ماجى) قالت معترضة :

- لا تعذبه الآن يا (مارتن) ، والا ذهب عنا غاضبا واختفى اياما  
أخرى .

وأقبل (مارتن) وأبوه على الطعام يلتهمانه بسرعة بينما كانت  
(ماجى) منهمكة فى أطعام الخنازير والدجاج ، و (مارى) تعد اللبن  
الطازج . ولم يكن (مارتن) حتى وهو يتناول الطعام يكف عن ملاحقة  
زوجته بنظراته وهو يبتسم ابتسامة حاملة ، بعكس والده الذى جلس  
الى المائدة متجههم السحنة شديد الحرد يلتهم طعامه بيد معروقة شلها  
الروماتزم وهو يتلفت حواليه خلسة وكأنما يخاف أن ينتزع أحد طعامه  
قبل أن يبلغ فاه .

وفى هذه اللحظة أطل عليهم (تومسي) شقيق (ماجى) من فوق حافة  
الغرفة العلوية يقلب فيهم نظرات شاردة وهو جاث على يديه وركبتيه  
... وكانت له سحنة عجيبة حقا ، فقد تكاثفت لحيته حتى حجبت  
وجهه أو كادت ، فلم يبد منه سوى خديه المحتقنين وأنفسه الغليظ  
وشفتيه المحمرتين ... وعلت رأسه قلنسوة عتيقة زرقاء من الصوف  
توسطها زر مستدير ، وضاحت عيناه حتى ليكاد يستحيل على الرائي  
أن يتبينهما تحت حاجبيه الاشيبين الكنيفين وتراكت فوق جسده  
طبقات من الاسمال البالية جعلته يبدو متضخما ، حتى كانت صورته  
وهو جاثم فوق حافة الغرفة العلوية أقرب الى الشياطين ...

وما لبث أن هتف من مكانه قائلا :

- ماجى ، اختاه !.. هلا اقتطعت لى قطعة من السمك المقدد  
ووضعتها فوق النار ؟ ان معدتى اليوم شديدة الاضطراب حتى لا ادرى  
أنا من الأموات أم الأحياء !

فقال له (بريان) :

- لعنك الله !.. لو لم تفرط أمس فى شرب الخمر لما كانت هذه  
حالك اليوم !

فقال (تومسي) :

- كان الله فى عونى ! فانى لم استطع مقاومة الاغراء وأنا أرى



الخمير تصب صبا من حولي ، في احتفال ( بات هيلي ) بتشسيد قبر لأمه !

قال هذا وادلى سلما من الحبال الى الأرض وأنشأ يهبط في حذر وهو يهتز بتأثير ماعبه من الخمير في أمسه ، فاذا قدماه ملفوفتان في خيش على هيئة حذاء ، وأسماله شدت بحبل حول وسطه .

وقال (مارتن) معقبا :

— من أين لبات هيلي ثمن هذه الخمير الكثيرة يوم بناء قبر لأمه ، ولم يكن يوم جنازتها في العام الماضي الا شحيحا مقترا فيما سقى الناس ؟!

فأجاب (تومسي) :

— ألم يكن في انجلترا في الربيع الماضي يعمل في السكك الحديدية التي يشقونها هناك ؟

— صدقت ... وقد سمعت انهم ينقدون العامل هناك شلنين في اليوم ، نظير اشتغاله في شق هذه الطرق ... اليس مثله جديرا بالثناء وهو يبذر هذا الفنى الطائل بعد طول كدح في تحصيله ؟

وقال ( تومسي ) وقد هبط الى الأرض :

— انها خمير كانت تجرى كالأنهار !

فقالت (ماجى) وهى تلقى قطعة السمك المقدد فوق النار :

— سامحك الله ياتومسي !. انك لتقترف ذنبا فيما تتباهى به من هذا التبذير !

وقال (مارتن) .

— ياخسارة .. كان من البلاهة أن أضيع مثل هذه الفرصة .. ولكنى ظننت أنه لن يكون هناك شراب .

فقالت (مارى) :

— أحمد الله أنك لم تذهب .

فضحك (مارتن) ... وعند ذلك أمسك العجوز عن الأكل وتطلع في شراسة الى (مارى) ولسان حاله يقول :

— انها لم تمكث في البيت الا شهرا ، ومع ذلك ها هى ذى تتدخل في شئون الأسرة !...

ولكنه قال بصوت مسموع :

— ان العادات هى العادات ، طيبة او مستنكرة ، ومن الخير ان يتمسك المرء بها .



فنظرت اليه (مارى) فى صرامة ، ولم تلبث أن جلست الى الخوان بدورها دون أن تعقب .

واتجه (تومسى) الى المدفأة وهو يقول :

— ماذا فى هذه المقلاة ؟ .

فأجابت (ماجى) وهى منحنية فوق مقلاة بها ماء يغلى ويفور :

— انها بيضة دجاجة لميخائيل .

فقال (تومسى) :

— وقانا الله شر الأمراض !.. ولو أن الفقراء لا يدللون الا اذا مرضوا ! أحمد الله أنى لم أمرض طول حياتى !

فرد عليه (بريان) قائلا :

— عجباً .. لملك ان ينكر حسن حظه اذ يجد من يقوم بأوده قبل أن يفكر فيمن يدلله .

— اسمعوا وعوا !.. يا لها من دنيا غريبة ظالمة حين يعز المأوى والقوت على المرء فى بيت آبائه !

أجل !.. فقد كان هذا البيت بيت آباء (تومسى) ، وان كان (بريان) قد اضاف اليه غرفة النوم الكبرى والجرن ... وكانت (ماجى) فى الثامنة عشرة حين قضى وباء التيفوس على أبويها وأخويها وأخواتها الأربع ، ولم يبق من الأسرة الا هى وشقيقها (تومسى) ، مع الدار المتواضعة ورقعة من الأرض تبلغ عشرة أفدنة .. وقد تزوجت (بريان) كليمارتن الذى وفد على الاقاليم لا أهل له ، وان كان لديه مال يسير جمعه كعامل مهاجر متنقل .. وكان (تومسى) وقت ذاك صبيا فى الثامنة من عمره ، فنزل لزوج اخته عن نصيبه من الأرض لقاء طعامه ومأواه .. وكما يحدث عادة فى مثل هذه الحالات ، لم يلبث (تومسى) أن ساءت حاله وهو عالة على غيره ، حتى أضحي الجميع يعاملونه بالتحقير والازدراء .. وكان اذا ربح دراهم معدودة لقيامه ببعض الأعمال اليسيرة التافهة فى الاقليم ، بددها فى السكر ، وهام على وجهه بعيدا عن الأسرة حتى ينفد ما معه ... وعلى هذه الصورة ذاع أمره فى أرجاء (الوادي الأسود) ، حتى كانت الأمهات يخوفن أبناءهن المشاكسين بمثل مصيره !..

ورفع (تومسى) قطعة السمك المقددة من فوق النار وأخذ يأكلها فى مشقة لفرط ملوحتها ... ولما اكل منها قليلا رمى سائرها الى الكلب المتربص ، ثم اقترب من الخوان وازدرد جرعات من اللبن ، ثم قال بلهجة الرضى والارتياح :

— آه ... ان اللبن ترياق لا مثيل له .

وعند ذلك اقبل (ميخائيل) من غرفة النوم ، وسرعان ما تكهرب



الجو وخيم الصمت بينهم ... وقد بدا (ميخائيل) أحسن حالا وهو في ثيابه ... وكان في الرابعة والعشرين من عمره ، يصغر (مارتن) بعام واحد ... ومع انهما متماثلان في الطول ، فقد كان (ميخائيل) أضعف بنيانا وأكثر نحولا ، وقد طبع المرض على محياه مسحة من الرقة .. وكان أزرق العينين صارم النظرات ، ولكن التورود الزائف الذي كان يعلو وجنتيه الفائرتين ، اكسب نظراته طابعا أدنى الى الجنون .

وكانت أمه أول المتكلمين ، فقالت في أشفاق وتردد :

— كان يجب أن تلزم الفراش ، في هذا اليوم الشنيع .

— لماذا ؟

فاه الفتى بهذه الكلمة وهو يطرد الخنازير بعد أن شبع وتكورت بطونها . وما لبث أن رفع صدره وشهق طويلا ثم قال وهو يحبس سعدة راودته :

— ان المطر يكاد ينقطع .

فلم يجبه أحد . ذلك أنه كان رقيق الحس شأن كل الذين يعانون ذلك المرض ، وقد درج ذووه على القصد في التعقيب لئلا يحمل الكلام على محمل التعريض به والاشارة الى دأئه .. وما لبث أن انضم الى مجلسهم من الخوان وجعل يأكل البيضة التي وضعتها أمه بين يديه . ولما فرغ من التهامها تغيرت حاله فجأة كدأب من هم في مثل مرضه ، فشاع الرضى والسعادة في محياه ، ودب فيه ديب الحمية ، وعلت وجهه مسحة من الجمال الأنثوى ، وقال مخاطبا (تومسي) :

— ألم تأتينا معك بفضلة من الشراب ؟ .. ان كئوسا منه كفيلة

بشفائي من هذا البرد الذي أعانيه .

فقال (تومسي) وهو يشعل بقية من غليون عتيق :

— ولا قطرة ... من لي بكأس منه اليوم ، اذن لجرعتها بمجرد

قيامى من النوم !

وفجأة رفع الكلب أذنيه وقوس ظهره ثم اندفع الى ساحة الدار وهو ينبع ، فأفزع الدجاج في طريقه وفرقه هنا وهناك بين الصباح والضجيج ، وصاح (مارتن) في أثر الكلب قائلا :

— أوسكار ! ارجع مكانك ! ارجع يا أوسكار !

فقال (بريان) :

— دعا، وشأنه .. ان الكلب يجيد الحكم على الناس .. انه يكره

تلك اللصة الساحرة .

فقالت (ماجى)

— سامحك الله . لا ينبغي لك أن تنهش الفقراء نهش الكلاب .



— الفقراء ! لو اتبعنا رأيك ووزعنا طعامنا وشرابنا على فقراء  
الاقليم لكنا الآن في الملجأ .

وعاد الكلب متحفزا كما ذهب ، وانبعث في اثره صوت لدى الباب  
بقول :

— سلام عليكم أهل البيت .

فردت (ماجى) قائلة :

— وعليك يا سالى .

ودلفت (سالى أو هاتلون) صامته حافية القدمين كأنها شبح ..  
وكانت ضئيلة الجسم ، تناهر الرابعة والأربعين ، عجفاء الصدر ،  
مدورة البطن ، ناحلة الوجه ، مفضنة الملامح ، تكسو رأسها قلنسوة  
رجالى تدلى من تحتها شعر أشعث وخطه المشيب فوق الصدغين ،  
وقد رفعت ذيل ردائها الأحمر البالى فوق رأسها اتقاء المطر فبان من  
تحتة قميصها الصوفى الأبيض المرقع وقد خالطه الوحل في طريقها الى  
البيت ، وامسكت بيديها شيئا أخفته في طيات ردائها ..

وبعد أن حيت أهل البيت جلست القرفصاء مستندة الى الحائط  
عن يسار الباب ، فقال لها (مارتن) :

— أراك مبكرة هذا الصباح ؟

فأجابت قائلة :

— هذا شيء لا بد منه ، كان الله فى عوننا .. ان الفقراء كالطير ،  
يبكرون مع الفجر ، التماسا لقوت صفارهم .

فقال لها ( ميخائيل ) بلهجة المرح :

— ما عندك اليوم من الأخبار ؟

فأجابت قائلة :

— عندى أخبار مكدرة ، عفا الله عنى .

فشخصت أبصارهم اليها اهتماما ، واذاذاك انطلقت الكلمات من  
فيها متلاحقة :

— هى تلك الآفة الغريبة التى يتحدث عنها الناس ويعجبون من  
سرعة انتشارها فى الاقليم ، وفتكها بمحصول البطاطس .

فقال (بريان) .

— اللفحة ؟ .. ما هى أخبار هذه الآفة يا امرأة ؟

فأجابت (سالى) .

— انها أصابت وادى (جلينارى) أمس .

ف قالت (ماجى) مستعيدة .



ب خيب الله فالك !

وأما العجوز فقد انتفض قائما وهو يحرج (سالى) بنظرات شذراء،  
وكان المسكينة قد جلبت عمدا وبإيحاء منها هذه الآفة الى الوادى  
المجاور ، الذى لا يفصله عن (الوادى الأسود) سوى سلسلة جبلية  
ضيقة ... وما له لا يجزع ، ولن ينجو (الوادى الأسود) من عدوى  
الآفة اذا أصابت (وادى جلينارى) حقا ؟ ..

قال لها العجوز :

— أين سمعت بهذا النبأ ؟

فأجابت قائلة :

— من (باتسى) الذى ذهب الى (جلينارى) أمس بحثا عن عمل .  
وقد عاد ليلا فى ساعة متأخرة بعد أن تولى اصلاح السلال عند بعض  
الناس وقال أن مرض اللقحة قد انتشر فى أرجاء الوادى وأن بعض  
الحقول تنبعث منها روائح تتقرز منها النفس .

كان العجوز ينصت الى هذا الكلام فاغر الفم . وقد لبث حيناً  
جامداً فى مكانه كتمثال ، وما عثم أن اطبق فمه وحرك ما ضفيه قليلاً،  
ثم اختطف قبضته وأهوى بها على رأسه واندفع الى الخارج لا ينبس  
بكلمة ... فقالت (ماجى) فى أثره :

— الى أين تذهب ؟

فأجاب (ميخائيل) فى مرحة :

— انه يتصيد كل ريح فاسدة ليذهب فى أثرها .

فقال له (تومسى) :

— لا تجعل من المصائب مادة للتسلية .

فقال (ميخائيل) :

— لتذهب الآفة الى الشيطان ! .. نعم .. لو فسد محصول  
البطاطس كله فى جوف الأرض ، فلن تكون أسوأ حالا مما نحن فيه ! ..  
ثم ما هى حياتنا فى الواقع ، وليست سوى الجوع والعناء ، وكأنها  
حياة الكلاب ! .. هلمى يا (سالى) ورفهى عنا بالفناء ، وقوموا نرقص  
جميعاً لنبرهن للشيطان أننا لا نخاف آفته !

فقالت (سالى) :

— بارك الله فيك يا بنى ... ان لك قلباً هو أقوى من المصائب ،  
وبودى أن أكون عند حسن ظنك من السرور والمرح ، لولا أن اطفالى  
يكون من الجوع .. انهم لم يأكلوا منذ ظهر أمس .. فقد جاءهم  
(باتسى) بشيء من القرطم وضعته فوق النار لينضج ، وجئت — أكرمكم  
الله — لأرى أن كان يمكن ...



فقاطعتها (مارى) قائلة وهى تنهض :

— هاتى وعاءك .

فقالت (سالى) وهى تخرج وعاء من طيات ردائها :

— ادعوا الله أن يبارك لكم فى كل ما تملكون ، وأن يقيكم شر الجوع  
والحرمان

فتناولت (مارى) الوعاء ووضعت به لبنا طازجا ، على حين قالت  
(ماجى) محتجة :

— ان الفقير لا ينبغى أن ينتظر من مساعدته لآخيه الفقير جزاء  
ولا مثوبة ، فهكذا وصاهم الله ...

فراحت (سالى) تقول بحرارة :

— بارك الله فيكم وانتم اهل تقوى ومرحمة .. انك يا (ماجى)  
طلما انتقذتنا من الجوع منذ جئنا الى هذا الوادى من ثمانية أعوام  
مطرودين من ديارنا فى مقاطعة (تيرارى) ، فضلا عما فعله زوجك الطيب  
من منحنا قطعة أرض نزرعها ... ولو أن عجلة القدر دارت لما توانينا  
عن أسدائكم ما أسديتم لنا .. عندما كان لى بيت وأرض كان الناس  
يتوافدون على بابى أفواجا ، فلم أرد واحدا منهم صفر اليدين .

واسترسلت (سالى) فى حديثها على حين كانت (مارى) تجيئها  
باللبن وبما بقى من البطاطس المسلوق .. ثم أسبغت عليهم بركة أخيرة  
وسارت فى طريقها خفيفة الوطء لا تلوى على شيء .

وعند ذلك التفت (مارتن) الى خاله قائلا :

— هيا بنا يا (تومس) .. علينا أن نبدأ العمل .

فقال (تومس) :

— علم الله أننى اليوم فى حال لا أقوى معها على ادارة الرعى .

ولكنهما خرجا معا يتبعهما (ميخائيل) الذى نظر الى أمه ساخطا  
حين همت أن تمنعه من الخروج لمزاولة العمل .. فلما ذهبوا لم تتمالك  
الأم أن قالت لمارى :

— أرايت مبلغ عناده واعراضه عن كل نصح ؟ .. هلمى بنا الآن  
يا حبيبتي ننظف البيت .

فنظرت (مارى) الى حماتها فى رقة قائلة :

— ادعوا الله أن يجزيك فى الآخرة عن طيبتك ما حرمته فى ههنا  
الدنيا .

فأدارت (ماجى) وجهها وتمخبطت فى ردائها لتخفى ما جاش فى  
صدرها من مشاعر الانفعال والتأثر .



## الفصل الثالث

خرج الرجال الثلاثة الى ساحة الدار وقد بدأ المطر يخف والسحب تتحسر عن وجه السماء ، وقال (مارتن) وهو يسرح النظر في أرجاء الوادى :

— اف لهذا !... ليت الذى استوطن هذا الاقليم لأول مرة قد دق عنقه قبل ان يستقر فيه ...

فقال (تومسى) :

— لا تظن ان هذا المكان قد انفرد بخشونته من دون البلاد ، ففي الدنيا بقاع اقسى منه واسوأ .

وما لبث الاثنان ان انكمشا على نفسيهما وأنشأ يركضان فى المطر محتملين بالافريز الدائرى حول سقف البيت ، على حين وقف (ميخائيل) مكانه يرسل بصره عبر الوادى ...

كان الوادى يمتد شمالا قرابة ميل فى رقعة ضيقة ، تحف بها سفوح جبلية صخرية يجتلها الغمام ، وتتعاقب من بعدها هبوطا عواسج ونباتات شوكية تغطى السفوح الوسطى ، ثم تنتهى بالحقول الزراعية الضئيلة المتناثرة فى بطن الوادى ... ومن بين القمم الشاهقة فى الطرف الشمالى حيث (البحيرة السوداء) ، تفرع نهر (جوست) تجرى امواجه جنوبا فوارة جياشة بين الشعاب الصخرية ، فيكون لها هدير وخرير ...

ولما وصل (ميخائيل) الى (الجرن) الذى يخزن فيه القرطم ، وهو قائم فى بقعة صخرية مشرفة على النهر ، قال لرفيقه وهو يشير الى ناحية الجنوب :

— انظروا الى صاحبنا هناك !.. انه يدور فى كل مكان ككلب صيد فى اثر ارنب

وكان (ميخائيل) يعنى بكلامه العجوز الذى راح يطوف مهرولا بسور مزرعة بطاطس مجاورة للجرن .. والواقع أن العجوز كان يبدو حقا كالكلب يتعقب فريسته ، وهو منحرف فوق سور المزرعة ، يتشمم ، ويستقيم ويطأطأ ، ويهرول من بقعة الى أخرى فاحصا منقبضا ، حتى لم يتمالك (تومسى) ان قال معقبا وهو يخلع قميصه بباب (الجرن) :

— عجبت والله لصاحبنا !.. كيف يمكنه ان يبصر ما يبحث عنه فى هذا المطر ، وقد استحال كل شيء الى سواد ؟ .. اليست اللفحة بقعا داكنة صغيرة تظهر فوق أوراق النبات ؟ ... ان الذين شاهدوها



في المزارع المنكوبة ، يقولون انها بقع سمراء صغيرة تظهر على الاوراق  
ثم ...

فقاطعه ( مارتن ) يقول :

— انها الرائحة ... ان المرض يبدأ بالرائحة .

وقال ( ميخائيل ) :

— ان هذا الشيطان العجوز سيلقى حتفه برذا ...

وصاح يدعو ابيه للعودة من المطر ، لكن العجوز لم يحفل به ...  
وكذلك دلف الرجال الثلاثة الى داخل ( الجرن ) وتأهبوا للعمل ...

كانت حزم القرمط موضوعة بعضها فوق بعض في جانب (الجرن) فما لبثوا ان اخلوا الارض في الجانب الآخر ونصبوا فيها مجموعة من الاحجار على هيئة دائرة ، ثم جاءوا بكتلة ضخمة مستديرة من الجرانيت وضعوها في منتصف الدائرة ، وعليها راحوا يضربون الاعواد فيتساقط الحب... وسرعان ما امتلأ الجو بالذرات المتطايرة ، حتى أخذ ميخائيل يسعل ، فبدأ بجلاء ان هذا العمل فوق طاقته ، ولذلك قال له ( تومسي ) :

— خل عنك يا رجل ... اذا واصلت العمل واجهدت نفسك على هذه الصورة ، فلن تتماثل قط للشفاء .

لكن ( ميخائيل ) لم ينبس بكلمة ، بل راح يهوى بعيدانه مفضبا فوق كتلة الجرانيت ، فاستطرد ( تومسي ) يقول :

— رفقا بنفسك يا اخي .. عندما اصابك البرد لأول مرة في الربيع بعد ان وضعنا بذور البطاطس في الارض ، نصحتك ان نستريح والا ساءت العاقبة ... لكنك لم تهتم بكلامي ، لما طبعت عليه من العناد... لقد حسبت ان قوتك اعظم من قوة الطبيعة ، لكن البرد الذي تغفل حتى عظامك استحال برغم قوتك الى سعال ... ثم انك لم تكف بهذا بل اشتركت في الشهر الماضي في جنازة ( باتس دالي ) وجعلت تشرب الخمر في العراء والمطر ، دون مبالاة بصحتك ، و ...

وفجأة صاح به ( ميخائيل ) :

— اسكت ، والا لطمتك !

فقال ( تومسي ) بهدوء :

— حسنا .. سأسكت ، اذ لا فائدة من نصح احق .

فتدخل ( مارتن ) قائلا :

— انه على حق يا ( ميخائيل ) .. اجتنب الاجهاد مادمت في مرضك !

فقال ميخائيل وهو يتميز سخطا :



- انى اتحدى أن ينتج أحد مثلى !

فقال ( مارتن ) :

- قبحك الله !.. اننا نبغى خيرك ومصلحتك ... ليس بيننا من يجهل مقدرتك في العمل وأنه ليس في المقاطعة كلها من يفوقك من هذه الناحية ... تعقل يا رجل !

ولقد هم ( ميخائيل ) وهو في سورة غضبه أن يعقب مرة أخرى ، وإذا نوبة سعال عنيفة تملكه حتى ترنح من وطأتها واستند الى الحائط منحنيا على نفسه ويداه قابضتان على صدره... فجعل زميلاه ينظران اليه في قلق واشفاق طيلة الأزمة ، فلما انتهت مسح فمه بكفه وهو يتطلع اليهما بنظرات غريبة ، ثم استأنف عمله بسرعة مضاعفة ... لكنه بدا متناقضا مع نفسه وهو يحاول بقوة الإرادة وحدها أن يهزم المرض العضال الذى كان يفتك به ...

وما لبث العجوز أن عاد الى ( الجرن ) تلوح عليه أمارات السعادة والاعتباط كطفل جذل طروب ، ولم يتمالك أن هتف قائلا وهو يخلع شداؤه :

- لم أجد أثرا للآفة حتى الآن

فقال ( مارتن ) :

- هذا شيء طيب ... لقد كان من البلاهة أن نهتم بكلام (سالى) وهو أكبر كذابة في المقاطعة .

وقال ( تومسي ) :

انهم لا يعرفون طبيعة هذه الآفة ، ولا من أين جاءت

فرد الشيخ قائلا :

- لقد قال الشرطى انها جاءت من بلاد أجنبية ، وانها وباء يحتاج كل شيء في طريقه .

وأفسحوا له مكانا حول كتلة الجرانيت وأخذ يعمل بدوره معهم ... ولبشوا كذلك يعملون صامتين حينما حتى استهدف ( ميخائيل ) لنوبة سعال جديدة كانت أقسى من سابقتها ، فجعلوا يراقبونه ولجفين ، ولا سيما العجوز الذى شفت ملامح وجهه عن مبلغ ألمه وكربه ... فهو قد شهد أبناء له من قبل هلكوا على هذه الصورة ، حتى صار أخير الناس بدلالة هذه النوبات المشنومة ..

وقال لفتاه في تردد واشفاق :

- ان هذا القبار هو السبب ... فعد الى البيت واطلب من أمك أن تعد لك شرابا دافئا .

فاستقام ( ميخائيل ) في مكانه وكف عن السعال برهة ونظر الى



أبيه كمن بهم بالجواب ، بيد أنه لم يلبث أن رفع يديه فجأة الى قمه  
واندفع خارجا من ( الجرن ) ... ( فقال تومسي ) :

— لافائدة من مجادلته ... فهو عنيد كخنزير .

فتنهذ العجوز وأهوى بأعواده فوق الكتلة الصخرية وهو  
يهمهم قائلا :

— اللهم انا نسألك اللطف والرحمة !

وعاد ( ميخائيل ) وهو يمسح فمه بكفه ويقلب النظر حواليه  
خلسة ... فلم يبادره أحد بكلام ... وبدأ مشهده مروعاً ، فقد اشتد  
امتقاع وجهه ، إلا من بقعتين حمراوين فوق وجنتيه ، وحفت بعينيه  
دائرتان شديدتا السواد ، وكان يرتجف وهو يتقدم الى الكتلة الصخرية  
... بيد أنه تناول عيدانه واستأنف عمله بهمة السالفة ...

فلما كان الظهر وجاءت ( ماري ) تعلن اليهم حلول موعد الفداء  
لم يلبث ( ميخائيل ) أن تملكه أعياء مفاجيء ، فسار الى البيت مطرقاً ،  
وقصد الى غرفته رأساً حيث انطرح في فراشه ، أما الباكون فقد  
جلسوا الى الخوان وأنشئوا يتناولون طعامهم المكون هذه المرة من  
عصيدة القرطم واللبن الطازج ... ولما فطنت أمه الى غيابه ذهبت الى  
مخدعه ، فشد ما كان ارتياحها اذ شاهدته منبطحاً على وجهه ينتحب  
عالياً ... وسرعان ما هرعت الى جانبه قائلة :

— أواه يا حبيبي ! ماذا بك ؟

فلم يجب ، بل مضى في بكائه ونحيبه .. والحق أن هذا البكاء  
مزق نياط قلبها ، فقد عهدته برغم اعتلال صحته ، شديد الاعتداد  
بنفسه ، مترفعاً عن الشكوى والآتين ... وكان حتى وهو طفل صغير  
لا يعرف للشكوى معنى كلما عرض له ما يعرض عادة للأطفال ... أما  
الآن وهو في طور الرجولة فانه يسكب الدموع كالبنت ... ولذلك  
استدعت زوجها .. فخف الى جانبها وقد اطبق يديه ، وقال لها :

— يحسن بنا أن نخلع ملابسنا ونترقده .

فقالت له :

— ما كان ينبغي أن تدعه يعمل .

فرد عليها ( بريان ) يقول مفضياً :

— وهل كنت أستطيع منعه ؟

فصاحت فيه بلهجة هستيرية قائلة :

— لا تصرخ في وجهي !

فأجابها :

— أذهبي وأهدي له شراباً ساخناً ... ليس هذا وقت تبادل  
اللوم ..



فعدت ( ماجى ) الى المطبخ والدموع تنهمر على حديها ... لقد  
قضت المسكينة صباح يومها فى كد ونصب ، وهى الآن تتلقى هذه  
الصدمة ، مقترنة بشراسة زوجها وحدة طبعه ، فمن أين لها باحتمال  
هذا كله ؟ ..

على انها تناولت اثناء وجعلت تصب فيه قدرا من اللبن ، فلما سألها  
( مارتن ) ما خطبها انفجرت باكية وجعلت تنشج نشيجا عاليا ، وسرعان  
ما وثبت ( ماري ) قائمة وتناولت منها الاناء قائلة :

— اجلسى انت ... سأقوم عنك بهذه المهمة

فجلست الأم فى ركن المدفأة ورفعت ( المريلة ) فوق رأسها  
واستسلمت للبكاء ... فقال لها ( مارتن ) وكان يأكل طعامه ساهما  
واجما :

— ان البكاء لن يجدى شيئا

وعجل هو و ( تومسى ) بازدراد طعامهما وغادرا البيت فى صمت ...  
وبعد ان قطعا وقتا فى العمل انضم اليهما العجوز ، فسأله ( مارتن ) عن  
حال اخيه ، فقال :

— انه استسلم للنوم

ولم تنقضى ساعة حتى فرغوا من عمليتهم الاولى ، فتعاون ( بريان )  
و ( تومسى ) فى نقل الحب المكس الى صخرة مسطحة أمام ( الجرن ) ،  
على حين قصد ( مارتن ) الى البيت لاحضار غربال وقد انقطع المطر  
واشرقت الشمس ساطعة وسرى نسيم رقيق ، فوجد زوجته فى الساحة  
منهمكة فى العمل على المفزل حتى لم تشعر به وقد وقف عن كذب يراقبها  
باسما مفتونا ... وعلى حين غرة انقض عليها واحتواها بين ساعديه ،  
فبدرت منها صرخة فزع يسيرة واستدارت بين ذراعيه لمواجهة ،  
وهمست قائلة وهى تتفرس فى محياه مفتونة به مثل افتتانه بها :

— ما كان يصح ان تروعنى هكذا

فهمس بدوره قائلا :

— لا تجهدى نفسك فى العمل ، فان هذا كثير على مثلك

فقالت له :

— ابتعد عنى ... ان لك لسانا كثير الكلام .

فقال لها :

— هذا من فضل ربي ... وهل فتتك غير لسانى ؟ .. اعترق  
بهذا الآن أمامى ، أنت يا من كان أغنى رجال المقاطعة يخطبون ودك .



فقلت له :

- هلا تركتني اتم عملي ؟ لا بد لي من اتمام هذا الفزل حتى موعد  
العشاء ، فان آلة النسيج تنتظره في بيت ابي

فتركها ، وقال لها بلهجة الجد :

- كيف حال ( ميخائيل ) ؟

- انه نائم

- مسكين ! ... ان حالته توجب الرثاء ... كيف نشكو في الحياة  
من أى شيء اذا كنا نستمتع بنعمة الصحة ، ونرى بأعيننا ضوء الشمس  
وهي تنير لنا الكون ؟ !

- صدقت يا ( مارتن ) .. شد ما ارثي ( لميخائيل ) ... ان مثله  
لم يخلق ليكون فلاحا مستعبدا ، بل شاعرا صدادحا في بلاط ملك  
كبير ... لقد خلق المسكين ضعيف البنية فلم تحتمل صحته اثقال  
الفاقة ، ولم ينفعه عقله الحالم وخياله الخصب ، الذي يتفتق عن قصص  
بدیعة تستهوى الالباب ...

فتنهذ ( مارتن ) ، وحمل الغريال الى الصخرة المسطحة ، على حين  
تابعت ( ماري ) غزلها ... فوجد ( مارتن ) كوما من الحب قد تكدس  
فوق الصخرة ، فانهمك في غربلته ، وهنا قال له ابوه :

- كيف حال اخيك ؟

فاجاب ( مارتن ) :

- انه الآن نائم

فقال العجوز :

- حسنا ... ان هذا افضل محصول رايت منذ اعوام

ولما كان العصر جمعوا الحب في اكياس ، وقسموا القش قسمين :  
الخفيف لدعم سقف البيت و ( الجرن ) ، والكثيف غذاء للماشية ...

وبينما هم يتأهبون للعودة اذ جعل ( مارتن ) يتشمم الهواء ،  
ثم قال على الاثر :

- هذا شيء غريب

ولما سأل الشيخ عم ايعنى اجاب ( مارتن ) قائلا :

- هي تلك الرائحة . ألا تشم رائحة غريبة ؟

فقال الشيخ :

- أيمكن أن تكون اللفحة ؟ .. ترى من أين هي آتية ؟



فأجاب ( مارتن ) مشيراً الى ناحية الشمال حيث كان يهب نسيم يسير :

- من هناك ٠٠٠ أف لها من رائحة ننتة ! • انها آتية من ناحية مزرعة ( باتشى هرنون ) ٠٠٠ انظروا ٠٠٠ هناك أناس يطلون من فوق سياج المزرعة ... سأذهب لانتظر ماذا جرى .

فقال العجوز :

- ماهذا ؟ اسمع !

فقد ترامي الى أسماعهم صوت امرأة تندب وتولول ، وسرعان ما انطلق (مارتن) يركض ناحية الشمال ، على حين رجع العجوز الى البيت يحمل الفربال ... فتلقته (ماري) قائلة في قلق :

- الى أين يذهب (مارتن) ؟

فلم يجبها ... وفي هذه اللحظة بدا (ميخائيل) في مدخل البيت ، فحلق فيه العجوز قائلاً :

- حسبتك نائماً

فقال ( ميخائيل ) :

- انا الآن بخير ... الى أين ذهب (مارتن) ؟

فأجاب العجوز :

- أخشى أن اللفحة قد أصابت مزرعة (ياتشى هرنون) ... لم لم تلزم فراشك ؟

فجعل ( ميخائيل ) يحدق ناحية الشمال كالحالم دون أن ينبس بكلام ، وما لبث أن هز منكبيه وسار في الساحة كما يسير النائم ، يتبعه العجوز و ( ماري ) بنظراتهما ... ولما بلغ الطريق الذي يشق الوادي من أدناه الى أقصاه وقف برهة متردداً ، فهتف به العجوز في النهاية :

- الى أين تذهب يا (ميخائيل) ؟

فأجاب بإيجاز :

- في زيارة

وقر قراره فجأة ، فيمم شطر الجنوب ... وهنا خرجت (ماجى)، وظهر ( تومسى ) حول ركن البيت ، فالتفت اليه ( ميخائيل ) قبل أن يغيب عن الانظار ، وقال له وهو يتسم ابتسامة غريبة :

- هلا شاركتنى هذه الزيارة يا (تومسى) ؟

فقالت ( ماجى ) :

- أوقفوه بحق السماء ! ... امنعوه من الخروج !



فقلت لها ( بريان ) :

— ولماذا لم تمنعيه أنت ؟

فأجابت (ماجى) :

— انه خرج دون أن اراه ... فقد كنت فى الغرفة الصفرى .

فقال العجوز مخاطبا (تومسى) :

— اذهب معه ... اننى اعرف وجهته ... ان فى جيبه شلنين .  
منذ أن بعنا الخراف ... عليك بمراقبته ومنعه من المشاجرة متى  
لعبت الخمر برأسه .

فقال ( تومسى ) :

— لا بأس يا أخى .. سأبذل جهدى .

وقالت (ماجى) داعية مبتهلة :

— رحمتك ياربى .

تناول القوم عشاءهم فى جو تسوده الكآبة والوجوم .. وبعد  
العشاء قصد ( مارتن ) وزوجته الى بيت النساج بما معهم من خيوط  
الفلز ، فلم يرجعا الا فى وقت متأخر ، واذا (ميخائيل) و (تومسى)  
مازالا غائبين عن المنزل ، والعجوز فى شدة القلق والاضطراب ... وكان  
جالسا فى ركن المدفأة وبيده مسبحة ، على حين قبعت (ماجى) فى الركن  
المقابل تعمل بالابرة ، وانبعث من حولها غطيط الخنازير عاليا وهى  
نائمة ... وقال لهما (بريان) :

— هل رايتما صاحبينا ؟

فقال له (مارتن) :

— قم صل ونم ... انك لن تراهما هذه الليلة .

فقال له العجوز :

— اليس لك قلب ؟ ... ما أظنك تهتم لو لقي أخوك حتفه على  
قارعة الطريق .

وقبل أن يرد (مارتن) تدخلت (ماجى) قائلة :

— ناشدتكما الله أن تؤديا صلاتكما ، فلا فائدة من الانتظار .

ولما فرغوا من صلاتهم جاءت (ماجى) باناء ماء دافى وضعتة أمام  
المدفأة ليفسلوا منه أقدامهم ... وغسل العجوز قدميه ، وبينما هبوا  
يجففهما أمام النار اذ سرى الى سمعه صوت غناء ، فقال :

— ها هو ذا ! ...



وارهفوا اسماعهم جميعا ، فسمعوا غناء مطبوعا بالحزن لحنا  
ونظما :

« متبصروتنى ساريا فى الليل فوق ذرى الجبال ... وستسمعون  
الحنانى ضحى عند الغدير » .

والحق أنهم جميعا كانوا يعرفون أغنيته ( نواح الشبح ) هذه ،  
وقد تكلف العجوز الطرب وهو يسمع ولده يردد الأغنية ، حتى قال :

— الله ! ... ألا ترون صوته عذبا رخيما ؟ .

لكن (مارى) همست فى أذن حماتها قائلة :

— رباه ! ... انه سكران !

فردت عليها (ماجى) قائلة :

— اذهبى الى فراشك يا حبيبتى ... لا تخافى منه

واسرع ( مارتن ) يجفف قدميه ويلبس حذاءه مرة أخرى ، فهو  
يعلم أن (ميخائيل) يقدو صعب المراس حين يسكر ... ولما خرج الى  
الساحة يتبعه العجوز شاهدا ( ميخائيل ) يعاون ( تومسى ) على تخطى  
السياج ، وكان الأخير يقول :

— مالى ثقلت هكذا ، حتى عجزت عن رفع قدمى ؟ .

فقال (مارتن) لأخيه وهو يمسك بمنكب (تومسى) :

— دعنى أساعده .

بيد أن (ميخائيل) دفع أخاه بعنف قائلا :

— دعه وشانه !

فقال (مارتن) فى دعة :

— لا بأس ... لك ماشئت .

وتجشأ (تومسى) ، ثم تطاوح من فوق السياج وارتقى فى الساحة  
مكوما على نفسه ... فلم يجد (مارتن) بدا من أن يعود الى داخل  
البيت قائلا :

— ان ( ميخائيل ) خرج عن صوابه ... سأتركه لنفسه .

فقالت له أمه :

— ادخل مع (مارى) الى غرفتكما ... اننا سنتكفل به .

وما أن دلف الزوجان الى مخسدهما حتى انشأت ( مارى )  
تنتحب قائلة :

— أوصد الباب ... اننى خائفة منه .



فأطاع ، وعاد اليها يسرى عنها قائلا :

– لا موجب للخوف . . . ان ( ميخائيل ) أرق انسان في الدنيا ،  
وما أطاش صوابه سوى المرض ، لطف الله به .

وبلغ الرجلان المغموران المطبخ بعد لاي ، وراح العجوزان يبذلان  
كل جهد وحيلة لتهدئتهما . . بيد أن (ميخائيل) ما برح يرفع عقيرته بأغان  
مختلطة ، وكان يصيح قائلا :

– دعونى أغنى ! . . لن أعيش طويلا للفناء ! . . ولربما أغنى أيضا  
وأنا موسد فى التراب ، فتستحيل أغنياتى الى زهور يانعة تزدهر فوق  
قبرى ! دعنى يا أبتاه أغنى ، وخذ يدى بين يديك معينا مشجعا !

ولبت المغموران طويلا يصخبان فى المطبخ ، واقترن صخبهما  
بصياح الدجاج وخوار الخنازير الفرعة حتى كانت جلبة تصم الأذان ثم  
وفق العجوزان فى كبح جماحهما فى النهاية فأوى الجميع الى مضاجعهم  
مكدودين . .



## الفصل الرابع

ما أن أشرقت شمس الفد حتى كانت ( اللفحة ) قد انتشرت في أكثر حقول البطاطس في ( الوادي الاسود ) ، بيد أن الإصابة لم تكن برغم ذلك بالغة الخطورة ، فيما عدا مزرعة ( باتشي هرنون ) التي فتك بها المرض فتكا ذريعا حتى انبعثت منها روائح العطب تزكم الأنوف ، وكذلك استقر عزم الزراع جميعا على جنى المحصول دون تلبث .

واقبل (باتشي أو هائلون) وزوجته (سالي) لمساعدة آل (كيلمارتن) في عملية الجنى ، فقد كان الزوجان من اللاجئين الذين نزحوا الى الوادي أفواجا كثيرة مطرودين من ديارهم ، فأشفق عليهما رب الأسرة وسمح لهما بحقل يزرعانه لقاء نصف المحصول ، وهكذا كانا يبدلان للأسرة كل عون في أكثر المناسبات .

وبدأت عملية الجمع في الحقل المتاخم للنهر .. وكان ( مارتن ) أول من أخرج مجرفته من الأرض مليئة بثمار البطاطس ، فلم يتمالك أن هتف من الفرح !

— ان هذه الثمار لم يمسها سوء ! .. وهي تبشر بمحصول طيب .

فقال العجوز :

— الحمد لله على نعمته وفضله .

وظلوا في عملهم دائبين ساعات متعاقبة ... فلما كان الظهر جاءت (ماري) بطعام الغداء فقال لها العجوز :

— أما زال (ميخائيل) نائما ؟ .

فأجابته قائلة :

— كلا ... لقد استيقظ من نومه .

وجلسوا الى ضفة النهر يأكلون طعامهم المؤلف من البطاطس المسلوق الساخن ومن اللبن ، وقالت ( ماري ) متسائلة :

— هل دب العطب في المحصول ؟ .

فتولى ( مارتن ) الجواب قائلا :

— انه سليم فيما عدا أقل القليل .



وتناولوا طعامهم سريعاً واستأنفوا شق الأرض بفئوسهم اتّماماً لعملية الجمع ، ولكن ( سالى ) تخلفت قليلاً وأسرت كلاماً ( لمارى ) التى أومأت إيجاباً . . . فلوحت (سالى) بيدها الى ثلاثة رؤوس صغيرة كانت تطل من فوق السياج على مبعدة ، ولم تكن سوى رؤوس أبنائها الذين استجابوا لشارتها وجاءوا اليها ركضاً وهم يتوقفون بين فينة وأخرى وجلين هيايين كأنهم حيوان غير مستأنس يخشى الاقتراب من بنى الانسان ، فكانت تطمئنهم باماءاتها حتى ذهب عنهم الروح واقتربوا منها فى النهاية ، ثم احاطوا بفضلات الطعام يلتهمونها التهاماً ويأتون عليها عن آخرها ، حتى قشور البطاطس والماء المالح لم يذروا منها شيئاً . . واذ لم يبق أمامهم سوى الاناء فارغاً جلسوا منكمشين متلاصقين يلغقون شفاههم ويمسحون أنوفهم بأكمهم .

كانوا صبيها فى الرابعة عشرة وبنيتين فى العاشرة والثامنة على التعاقب، ولكنهم تماثلوا جميعاً فى الضمور والنحول حتى تساووا فى بنياتهم ، وطبع الجوع على سحناتهم مسحة مؤثرة من الشقاء والرزانة جعلتهم أبعد شبيهاً عن سائر اترابهم من الاطفال .

وثا رجعت ( مارى ) من حيث كانت تنظف وعاء اللبن على ضفة النهر، لتأخذ صفحة البطاطس الفارغة ، تفرق الصبية مذعورين ، ثم وقفوا على مبعدة وجلسوا القرفصاء مرة ثانية ، ارتقاباً لمنة أخرى تهبط عليهم . . ولم تتمالك ( مارى ) أن ناجت نفسها بهذه العبارة وهى تبصرهم مولين من أمامها :

— يالهم من صغار مساكين . . ما أبشع أن يكون هناك صغار عضهم الجوع على هذه الصورة !

وفجأة سمعت صرخة مدوية صادرة من البيت . فنظرت فرأت ( ماجى ) فى ساحة الدار تلوح بيديها منفعلة مضطربة ، فصاح ( مارتن ) قائلاً :

— ماذا جرى ؟

ولم تكن تستطيع ( ماجى ) أن تفهمهم مقصدها وهى بعيدة عنهم ، وليشت تلوح لهم بيديها حيناً . . فترك ( مارتن ) مجرفته وركض الى ناحيتها وهم فى أثره . .

وسارت ( مارى ) فى أعقابهم وقد تملكها خوف عنيف كأنما خشيت أن تقع كارثة تقضى على حبها الوليد وتدمر صرح سعادتها . . . وبينما هى تسير متثاقلة اذ رأت ( مارتن ) يجرى الى ناحيتها عمائداً من البيت ، فلما دنا منها هتف قائلاً :

— سأذهب الى الطبيب !

— ماذا جرى ؟



فاجاب لاهث الانفاس وهو يجاوزها مبتعدا :

— وجدت ( ميخائيل ) خلف البيت ! غارقا فى بركة من الدماء !!  
انه يسعل دما !!

فجمدت ( ماري ) مكانها وهي تحقق شاردة الذهن الى البقرة التي ذهبت تخور مضطربة بتأثير الجلبة التي اشتدت حولها فجأة . . . كانت بقرة عجفاء منكودة برزت عظامها الخلفية بروزا مروعاً لشدة افتقارها الى القوت ، فلم يكن مرعاها الصغير الا بقعة جرداء اجتثت اعشابها اجتثا وبدت التربة السوداء من تحتها عارية كالحة .

والحق أن ( ماري ) كادت تصرخ جزعا ويأسا من مشاهد هذه الفاقة المدقعة وهذا البؤس الشديد ، ثم سرعان ما أدركت أنها ترتكب وزرا كبيرا بهذه الثورة النفسية ، فاستغفرت ربها ، وشعرت بالسكينة تعود الى قلبها .



## الفصل الخامس

قبل الدكتور ( هاينز ) قرب العصر ممتطيا الفرس السوداء التي جاء بها ( مارتن ) ، فاستقبله جمع غفير من الاهلين كانوا ينتظرون أمام الدار . . . والواقع أن الاطباء كانوا حدثا جديدا عام ١٨٤٥ ، ودرج الناس على اعتبارهم من طبقة ( الاسياد ) ، يستجدون عطفهم أو احسانهم . . . ومع ان الدكتور ( هاينز ) هو نجل ( جون هاينز ) تاجر القرية وقد ولد في ربوع ( الوادي الأسود ) ، فقد كان الناس يعدونه برغم ذلك سييدا حقيقا بالتجلة والاحترام لمركزه ؛ وكذلك حفوا به يمسكون بزمام فرسه اللاهث المزبد ويسوون له السرج واللجام . . . أما هو فقد فاضت نفسه اشمئزا من قذارتهم وأسمالهم وضععتهم ، واختلط اشمئزازه بالارتباك اذ تذكر ان ابيه بدأ حياته من صميمهم قبل أن ينجو بنفسه من عبودية أجراء الارض وينتقل الى التجارة .

وخرج ( بريان ) مهرولا لاستقبال الطبيب وقد ارتدى ثوبا نظيفا وحذاء يوم الاحد ، حتى كان مشهده فريدا وهو يعرج في مشيته ويروض وجهه المغضن على الابتسام حفاوة بالقادم . . . ووقف بين يدي الطبيب ممسكا بزمام الفرس وهو يبالغ في الانحناء تحية واجلالا ، فقال له الطبيب في ترفع ووقار :

— أنت والد المريض ؟

فأجاب العجوز :

— نعم يا صاحب السيادة . . . بارك الله في سيادتكم للتفضل بالحضور يمثل هذه السرعة .

وأراد العجوز معاونة الطبيب على الترحل عن الفرس ، فقدم اليه ركبته المرفوعة ومنكبه ، ولكن هذه الحركة مضافة الى تصلب عضلات الطبيب بتأثير رحلته الشاقة التي لم يعتد مثلها ، انتهت بعكس المقصود منها ، اذ طوحت بالطبيب الى الارض ، فسقط في بركة ماء تخلقت أمام الدار من مطر أمس وتلوثت ملابسه بالوحل . . .

وسرعان ما ارتفع صراخ ( ماجي ) لدى الباب وهي تقول مروعة :

— اللهم اصرف عنا كل شر ! ان ملابسك الأنيقة قد تلفت يا سيدي !

وهرعت اليه باسطة مريلتها وانشأت تزيل الوحل عن ملابسه الطبيب ، فكانت النتيجة أنها زادت الطين بلة حتى لوثت ما بقي نظيفا وأحنقت الطبيب الذي قال لها مع ذلك وهو عاجز مغلوب على أمره :

– كفى أيتها المرأة الطيبة ٠٠٠ أين المريض ؟ ٠٠

فهتف (بريان ) وهو يسبقه الى الداخل :

– من هنا يا سيدى ٠٠٠ هلا طأطأت رأسك ، لان الباب منخفض ؟

لكن الطبيب لم يكن بحاجة الى هذا التحذير وهو بادى القصر ، بخلاف آل ( ييلمارتن ) بطوال القامة ٠٠٠ ولم يلبث أن دف الى الداخل حاملا حقيبتة الصغيرة وهو عابس متجهم، فصافحته روائح محتبسة زكمت أنفه ٠٠٠ ولم تتمالك ( ماري ) أن تملكها شديد الحزى والحجل وقد فطنت الى ما اعتراه ٠٠٠ أما هو فلم يكذب بصرها حتى انتفض يسيرا ونمت نظراته عن بالغ دهشته ازاء جمالها المشرط الذى فاجأه فى مثل هذا المكان ٠٠ ولئن ( مري ) غصت بصرها ولذت بغرفتها مسرعة ٠٠٠ فهم أن يتبعها وهو يحسب المريض فى تلك الغرفة لولا أن ( بريان ) أمسك بذيل سترته قائلا :

– من هنا يا صاحب السيادة .

وقاد الطبيب الى غرفة نوم العليل حيث كانت الرائحة الفاسدة على أشدها ، فقال لهم باقتضاب :

– افتحوا هذه النافذة .

فتبادل الزوجان العجوزان النظرات فاغرى الفم، حتى اضطر الطبيب الى تكرار أمره بلهجة أشد اقتضابا ، مما حدا بالعجوز أن يقول فى النهاية وهو يتقدم خطوة محييا مرة أخرى :

– ان النافذة لا تفتح .

فقال الطبيب غاضبا :

– اذن فافتحوا بالله هذا الباب على مصراعيه ! ٠٠ ادخاوا الهواء الى هذه الغرفة ! ٠٠٠ كيف تطمعون أن يشفى المريض وهو فى غرفة كهذه !؟ فقالت ( ماجى ) فى مسكنه:

– رعاك الله يا سيدى ٠٠٠ انه هو الهواء الذى نستنشق على الدوام .

ولكن الطبيب تقدم الى فراش المريض وهو يلمعهم فى سريره بالغباوة المطبقة ، وقال ( لميخائيل ) بأيجاز وهو يرفع الملابس عن صدره :

– أين موضع الالم ؟

بيد أن ( ميخائيل ) تشبث بالملابس وردها الى مكانها وهو يحجج الطبيب شزرا بنظرات حيوان أحيط به ، وقد أجاب فى شراسة :

– انى لأشكو ألما .



واذا كان الطبيب قد بوغت بهذا الاستقبال الشاذ فانه لم يلبث أن نزع عن جفوته وانحاز الى الرقة ، وخاطب ( ماجى ) قائلا :

— منى بدأت هذه الحالة ؟

فأجابت ( ماجى ) :

— عند الظهر يا سيدى .

واسترسلت تشرح فى اسهاب كيف عثرت على ولدها مغمى عليه خلف الدار فى بركة من الدم الذى كان ينبثق من فمه ، وكيف استنجدت بالرجال فحملوه الى الداخل حيث ظل مطبق القم حتى جاء الطبيب الآن ، واختتمت قائلة انها لا تعرف ما دهاه الا أن يكون وليد البرد الذى يعانىة فى الاشهر الاخيرة ، ولا سيما أنه شاب صعب اثراس عجزوا جميعا عن اسلاص قياده وحمله على الراحة والترفق بنفسه . .

فقال الطبيب مخاطبا ( ميخائيل ) :

— اذن فقد أصبت بنزيف !

ولما رأى ( ميخائيل ) أن الطبيب قد جنح الى اللين تركه أخيرا يرفع ملابسه ويفحصه . . . وقال الطبيب فى النهاية :

— حسنا . . . ان حالتك أيها الشاب ليست شديدة الخطورة . . . وسنرى ما يمكن أن نفعله لأجلك .

وبدأ الطبيب فوصف علاجاً لوقف النزيف ، وحاول تلقين الام العجوز كيف تداوى العليل ، فألفاها لا تفقه كلمة مما يقول . . . والحق أن الأم المنكودة كانت تدرك بغريزتها ان كل علاج لا نفع منه ، ووقفت تبيض شفتها بعنف لكتمان تلك الصرخات الحبيسة فى صدرها ياساً من مضير ولدها . . .

ولم يلبث ( بريان ) أن قال للطبيب :

— قل ( لمارى ) يا سيدى ما يتبغى أن تفعل ، فهى أكثر منا علماً .

وقاد الطبيب الى مخدع ( مارى ) حيث كانت مختبئة ، وقال مشيراً اليها :

— هاهى ذى ياسيدى . . . انها تكتب بخط جميل . . . اكتبى ما يملئ عليك يا ( مارى ) !

ولما قال الطبيب انه لا لزوم لكتابه شيء أصر العجوز على اظهار براعة ( مارى ) فى الكتابة قائلاً :

— ليس فى هذا أقل تعب يا سيدى . . . انها زوجة ابنى . . . بهات القلم والورقة يا ( مارى ) . . .

فلم يجد الطبيب الا أن ينزل على هذه الرغبة مجاراة للعجوز ورغبة

منه فى مشاهدة جمال ( مارى ) عن كذب أطول مدة ممكنة . . . وهكذا تقدمت ( مارى ) فى حياء الى الصندوق الكبير الذى جاءت به فى جهاز العرس وفتحته وأخرجت منه رقعة من الورق وقلما وزجاجة حبر ، وقالت انها مستعدة للكتابة . . .

وقد استرعى نظر الطبيب فى هذه الاثناء نظافة الغرفة ونقاء هوائها وما بها من زخرف يسير بالعباس الى غيرها من الغرف . . فساوره انفعال غير معهود . . بل انه انتفض حين سمع صوتها العميق الصافى الشبيه بموسيقى منبعثة من خيرير نبع جبلى دافق . . . وسرعان ما تملكه انفعال شديد حتى راح يتفردس فيها جهرا وهى تغض بصرها حياء . . . واذا هو يفكر ساخطا مزدريا فى ذلك الشاب الذى هرع اليه مستنجدا به انقاذ أخيه ، والذي عرف الان انه زوجها . . .

وأخيرا قال ( لمارى ) :

— الظاهر أنك لا تجددين فرصة لظهار مقدرتك فى الكتابة .

فأجابت ( مارى ) :

— بل ان الفرصة تسنح يا سيدى بين وقت وآخر . . . وقد كنت فى بيت أبى أتولى كتابة الرسائل لمن لهم صلات بالعالم الخارجى .

— آه . . . انك لم تتزوجى منذ أمد طويل !

فتولى العجوز البيان قائلا :

— منذ شهر فقط يا سيدى . . . ان والدها هو ( بارنى جليسون ) النساج . . . ولها أخت أخرى هى ( أيل ) التى تهازل التاسعة عشرة . . . ان آل ( جليسون ) هؤلاء أناس عباقرة . . . فعميد الاسرة متحدث عظيم فى المسائل السياسية . . . وهو يستطيع أن يحاضر فى تاريخ ايرلندا وفى المظالم التى انزلها بالشعب حكاه الانجليز الطغاة المستبدون .

وهكذا استرسل العجوز فى الثثرة والتزلف بتأثير الملمة التى نزلت به . . . أما الطبيب فكان ينصت اليه وهو يشعر بالدم يتدفق حارا فى عروقه كلما نظر الى ( مارى ) وشاهد جمالها .

وما كاد الطبيب يغادر البيت آخر الامر حتى تجمع الناس حوله سائلين ، مستعطفين ، يبثونه شجونهم ومتاعبهم ، ويسألون متى يجلى الانجليز عن بلادهم ويطردون من ديارهم ، حتى يصبح الملاك تحت رحمتهم ليحاسبوهم على ما أنزلوا بهم من مظالم . . . وفى هذا المقام هتف واحد منهم يقول له :

— أنت واحد منا ! . . . أنت كاثوليكي المنصب ، ومن صميم الشعب

مثلنا !

وكذلك ذهب عن الطبيب كل سخط على الاهلين لما هم فيه من فاقة وقذارة وهوان . . . وكان لجمال ( مارى ) من عمق الاثر فى نفسه ما جعله يفخر بأن يكون من صميمهم .



## الفصل السادس

ما أن غادر انطبيب البيت حتى أعيدت الخنازير والدجاج الى المطبخ ،  
وبقى بعض الجيران لمواساة الاسرة ٠٠ وفى المساء أقبل والد ( ماري )  
للسؤال عن صحة المريض ، وكان رجلا قصيرا قوى البنية ، خلا شعره  
الكستنائى الفزير المجعد من معالم الشيب برغم أنه ناهز الحادية والستين  
٠٠ وهو الى هذا ممتليء الوجه بادی الاعتداد ، تشف عيناه الزرقاوان عن  
حب برىء للمشاكسة ٠٠

وبعد مقدمات السلام قال ( جليسون ) وهو يشعل غليونه بقطعة  
فحم متقدة :

— لكأن الاقدار لم تكثف بما انزلته بكم من الآفات الزراعية ، فجاءت  
هذه المصيبة تنمة للبلاء .

فقال له ( مارتن ) :

— ان الآفة لم تحدث لدينا اضرازا تذكر ، ولكنها أصبحت حديث  
الناس فى كل مكان ٠٠٠ لا شك ان الاصابة خطيرة عندك يا ( باتش ) ؟  
فهتف ( باتش هرنون ) قائلا :

— انى لم أخرج ثمرة واحدة سليمة اليوم ٠٠٠ ان محصولي كله  
معطوب ٠٠٠ فى الربيع الماضى نكبت ب وفاة بقرتى ، واليوم أنكب فى  
محصولي ٠٠٠ ان اللفحة قد حلت بأرضنا .

كان ( باتش هرنون ) زوج شقيقة ( بريان ) الباقية من دون أخواتها  
على قيد حياة ، وهو مخلوق غريب الاطوار تبدو عليه سمات الحجل ٠٠ ولما  
سمعه ( جليسون ) يقول ما قاله ، بادره معقبا :

— انما حلت اللعنة على الشعب ، لا الارض ٠٠٠ ان أرض ارلندا  
طيبة مباركة غنية بخيراتها، ولكن المحتاين الطغاة المستبدين انتزعوا الارض  
من الشعب وطردهوه الى المناطق الصخرية والبقاع المجذبة ليعيش فيها  
مستهدفا للجوع والحرمان والمرض ! .

فقال عازف كان جوالا يدعى ( تيمونى ) :

— ألا قبح الله مرضا أصاب ولدك يا ( بريان ) ، وهو زينة الشيباب !  
انى ما كدت أسمع فى القرية نبأ اعتلاله حتى جئت لرؤيته والاطمئنان  
عليه .

فقال ( مارتن ) :

— بارك الله فيك أيها الرجل الطيب . . وما هي الانباء التي جئتنا بها من طوافك وترحالك ؟ .

كان عازف الكمان شيخا ناحلا محمر الانف داعم العينين يرتدى سترة للسهر حال لونها الازرق وكانت من قبل ملكا لاحد السادة الاشراف .  
وما لبث أن راح يقول ردا على سؤال ( مارتن ) :

— لقد سمعت الكثير في أسفاري . . . ففي الليلة الماضية سمعت وأنا في حانة بميناء ( كلوجر ) رجلا يقرأ جريدة ويصف للناس فتك الآفة بالمحصول بعد انتشارها في كل مكان واستهداف الناس للمجاعة . . وقال رجل كان يسمع عن كتب ان الغربان ستشبع هذا الشتاء من جثث الموتى التي ستغص بها الطرقات .

ومضى عازف الكمان يتحدث اليهم عن كثير من الاحداث التي شهدوها في شبابه والتي قد لا يعد الجوع شيئا مذكورا بالقياس اليها . . فأيده ( جليسون ) قائلا :

— ان الجوع ليس بجديد على الناس بيننا . . . فأنا نفسي منذ ثمانية عشر عاما كنت أطوف بأنحاء البلاد في التماس القوت حتى استقر بي المقام في هذا الوادي . . ويا لها من رحلة أليمة لن أنساها ما عشت ! .

وما أن سمعت ( ماري ) كلام أبيها حتى احمر وجهها وذهبت الى غرفتها ، فلم يكن أمقت الى نفسها من الاشارة الى قصة حلول أسرتها في ( الوادي الاسود ) ، هذه القصة التي كان أبوها مشغوبا بسردها على الناس مما كان يخزيها ويثير خجلها . . ولم تملك ( ماري ) وقد نال منها كد النهار كل منال الا أن ترتمي فوق الفراش وهي تسمع أباه يسهب في سرد ما لقيت أسرته من تشريد وما ذاقته من جوع ، حتى قدر له أن يلتقي خارج القرية بالقس ( كويرن ) الذي رق لحاله وبذل له العون واذ ذاك لم تتمالك ( ماري ) أن تضرعت الى الله قائلة :

— رباه ! . . هلا اخرجتني وزوجي ( مارتن ) من هذا المكان الى حيث لا يعرفنا أحد ! .

ولم تلبث أن سمعت عازف الكمان يعقب على كلام أبيها قائلا :

— صدقت . . . ان القس ( كويرن ) رجل خير لا يرد جائعا عن بابه . وهو بهذا الوصف يختلف عن سائر أفراد مذهبه من البروتستانت .  
فتلقف أبوها هذا الكلام قائلا :

— نعم . . . ان هذا القس الطيب هو الذي أعطاني قطعة أرض أقيم عليها دارا واتخذ منها مزرعة ، بعد أن طردني كثير من أبناء مذهبنا الكاثوليك وصدوني عن أبوابهم خاوي اليدين محسورا مقهورا . .  
فرد عليه ( باتش هرنون ) يقول بشراسة :



— ما أسهل على صاحبك القس البروتستانتى أن يوجد بالاموال وهو  
يبتزها من الشعب باسم الصدقات !

فقال له ( جليسون ) :

— ما كان أيسر له لو قبض يده وضمن بالمال كسوادهم الاعظم !  
ألا تراهم جميعا ينهبون الشعب نهبا ؟ ان مواطنينا الكاثوليك من  
الانتهازيين وطلاب الغنى فهم أشد خطرا على الشعب من المستعمر الغاصب،  
حتى أنهم لا يتورعون عن سحق أبناء وطنهم بالنعال ، واستنزاف دمائهم  
دون رحمة . . . وأمامنا المثل الصارخ فى شخص ( جون هاينز ) الذى  
أثرى ثراء فاحشا على حساب الشعب من تأييد مشروعات الانجليز  
المحتلين . . . وانى لاذكر ما حدث فى أعقاب حركة التحرير الكاثوليكية  
التي أعلنها زعماء لنا من أمثال (اوكنيل) و ( ريتشارد لالور ) عام ١٨٢٨ ،  
حين ذهبوا يمتنون الشعب بالوعود البراقة والامانى المعسولة . . فانه  
لم يكده ينصرم عام واحد حتى تنكر ملاك الارض للمستأجرين ، خصوصا  
بعد أن ضنوا عليهم بأصواتهم فى الانتخابات ، فسنوا اجراءات نزع  
الملكية التي أفضت الى اجلاء الفلاحين عن قرى بأسرها ، والقائهم على  
قارعة الطريق . . . وقد استمرت هذه السياسة الفاشية الى يومنا هذا ؛  
حتى أصبحنا نرى الاعيان يمعنون فى طرد الفلاحين من كل أرض  
يلجئون اليها ، فلا يبقى لهم ملاذ سوى القبور أو الهجرة الى اقاصى  
الارض مشردين يتضورون جوعا !

والى هذا الحد من الحديث الدائر بين والد ( ماري ) ورفاقه ، لم تلبث  
( ماري ) أن غلبها النعاس ، ولكن أملا بازغا برق لها من ثنايا هذا الحديث  
هو الهجرة الى أمريكا أو غيرها من البلاد التي يفرغ اليها مواطنوها  
التاعسون ، للنجاة بنفسها والهرب من ويلات الحياة فى هذا الوادى  
التعس .

وبين النوم واليقظة سمعت والدها ( جليسون ) يسترسل فى  
حديثه قائلا :

— أين ذهبت تلك الاموال الطائلة التي جمعت لتأييد حركة الاصلاح  
الزراعى الكاثوليكي ؟ . . انما ذهبت الى جيوب المتزعمين المتشددتين  
بالاصلاح ، لتزيدهم ثراء وقوة ، دون أن يتحقق من ورائها أى اصلاح !  
أى خير جناه الشعب الارلندى من دوام كفاحه طوال الاعوام الاخيرة ؟ . .  
وكيف يتاح للفلاحين العمل على تحسين أرضهم وهى ليست ملكا لهم ؟ .  
أن عليهم تسليم المحصولات كافة الى الملاك والحكام ، دون أن يبقى لهم  
سوى حظ ضئيل من البطاطس يقيمون به أودهم ويسدون رمقهم . . .  
ولو أنهم حاولوا العناية بالارض التي كانت ملكا لأبائهم وأجدادهم ، أو  
بذلوا جهدا لتحسين أحوالهم المعيشية والظهور بالمظهر الآدمى الكريم ،  
اذن لضوعفت الايجارات وشدد الملاك عليهم النكير ! . . وكذلك قضى  
عليهم أن يتقلبوا فى الفاقة والقذارة ، ويحيوا حياة الشظف الانحطاط ،

خوفا من أن يشي بهم جباة الاموال الى ساداتهم ويشتطوا في اقتضاء الاموال المقررة !.

ورأت ( ماري ) فيما يرى النائم أن ملائكا هبط عليها وطبب اليها أن تقوم وتتبعه . فقامت وتبعته الى سفينة كبيرة ذات أشعة بيضاء ارتقى كلاهما الى سطحها . . . وقد أقلت هما السفينة عبر البحار الغربية الى أرض خصبة غنية بالخيرات تنمو فيها سنابل القمح الى ما فوق قمة الانسان ولا طغاة فيها يسومون الناس العذاب . . . ولما سألت الملاك أين هي قال لها :  
- أنت في أمريكا ، فاتخذى فيها مقامك على بركة الله . . .

ولم تلبث ( ماري ) أن أفاقت من حلمها منتفضة على صوت أبيها وهو يقول :

- اننى أؤكد لكم أن الزعيم ( أوكنييل ) لم يدخل السجن الا انقاذا لماء وجهه . . . هو الآن في دبلن نائبا في البرلمان يخطب ويتكلم عن تحرير زنوج أمريكا . . . لكننا لا نريد كلاما بعد الآن ، بل نريد ذخيرة وسلاحا لطرد الانجليز الفاصبين الظلمة من أرضنا المقدسة . . . علينا أن نعرض صدورنا للرصاص والقذائف ونموت رجالا ، لا أن نبس كالأرانب في الجحور !.

واستلقت ( ماري ) فى النهاية على ظهرها تحديق فى السقف وتفكر فى الرؤيا التى تجلت لها .



## الفصل السابع

جاء اليوم التالي بشيرا بتحسن كبير فى صحة ( مينخايل ) حتى استطاع أن يتناول بعض الطعام ..

واستمر العمل فى جنى محصول البطاطس على قدم وساق ، وكانت ( مارى ) تساهم بنصيبها من هذا العمل ، تاركة لحمايتها العجوز تطبيب المريض والعناية به ..

ثم ظهر لسوء الحظ أن البطاطس الذى امتدت اليه الآفة كان هذا اليوم أكثر من سابقه ... وانما كان عزاء أسرة ( كيلمارتن ) أن العطب فى محصولهم كان أقل كثيرا مما أصاب جيرانهم ..

وبدأت عملية تخزين البطاطس عقب الفراغ من جمعه ، فكانت تشق حفر مستطيلة قليلة العمق يغطى قاعها بأوراق الشجر ويكوم فيها البطاطس ، ثم توضع فوقه طبقة أخرى من الاوراق والاغصان يهال عليها التراب وتسوى بالمجارف حتى تغدو مصمتة لا يتسرب اليها الهواء ...

وأسفر تقدير ( بريان ) للمحصول بعد تمام جمعه وتخزينه عن خسارة ما يعادل العشر بسبب الآفة ، فكانت نتيجة لا تثير القلق ... أما فداحة النكبة فقد تجلت فى زراعة ( أوهانلون ) التى يتقاسمها مع أسرة ( كيلمارتن ) ... فبعد أن كان يجنى فى المألوف نحو مائتى كيلو جرام ، لم يقدر له أن يجمع هذا العام أكثر من مائة وخمسين ، وهكذا لاحت فى الأفق سنة عصيبة مقبلة لن يجد فيها ( أوهانلون ) أكثر من نصف هذا القدر من البطاطس لطعام أسرته طوال العام ..

ولكن زوجته ( سالى ) لم تجزع لهذا الاحتمال ، اذ قالت معقبة :

— ان الله قادر على كل شئ .. وعلى كل حال يقال ان الملكة ستوزع المعونة على الشعب تخفيفا للضائقة ..

والحق أن شعورا بالطمأنينة والثقة سناد طوائف الشعب ، برغم أن منهم من فقدوا نحو ثلث المحصول، وبرغم أن كثيرين فى وادى (جلينارى) وحده قد أتت الآفة على محصولهم عن آخره ..

وقد ساعد على ترويح هذا الاعتقاد ما رآه الناس من طواف رُسل من قبل ادارة البوليس فى مقاطعة ( كروم ) بالمزارع والحقول يدقون فى سجلاتهم مقادير البطاطس التالفة ، حتى كان أناس يقول بعضهم لبعض :

— ألم نقل لكم ؟ ٠٠ ان الملكة ستحمل ملك الاراضى على تعويض  
الزراع عن كل مقدار فقدوه !

وبهذه الروح المتفائلة أقبل الاهلون ، بعد أن تم لهم جنى المحصول  
وخرزته ، على ترميم سقوف دورهم المتواضعة ، واعداد ما لديهم من دواجن  
للسبوق فى شهر اكتوبر ٠٠ واستطاع الغزال ( جليسون ) أن ينسج  
لهم أقمشة مما جمعوا من صوف الاغنام طيلة الصيف ، وهى أقمشة كان  
الحائك ( تونى ديلاند ) يطوف بدورهم فى السوديان ليخيط منها  
ثيابا لهم .

وفى الحق أن هذا الموسم كان عادة أبهج أيام السنة عندهم ، ولم  
تستطع الآفة أن تعكر كثيرا من صفو بهجتهم هذا العام ، ايماننا منهم بأن  
الحكومة عاملة لا محالة على تخفيف وطأة الحسارة لديهم ٠٠ والفقراء من  
أمثالهم معذورون وهم لا يستطيعون أن يدققوا النظر فى أطواء المستقبل ،  
فمتى تهيأ لهم سد حاجاتهم العاجلة فانهم لا يحفلون بما يدخر لهم من  
كوارث تلوح نذرها فى الافق البعيد .

ومهما يكن فان مرض ( ميخائيل ) كان فى بيت ( كيلمارتن ) أكثر  
من نقطة قاتمة فى الافق ٠٠ فقد أصبح يقضى أيامه جالسا فى ركن المدفأة  
فى مقعد من القش مدثرا الى أذنيه ، لا يتكلم الا لاما ، حتى غدت الحياة  
فى البيت بسببه ثقيلة ممضة ٠٠ ومن عجب أن مرضه لم ينل من شهيته  
أى منال ٠٠ ورغبة من الأم فى التعجيل بشفاؤه ، جعلت تذبح له الدجاج  
واحدة بعد الأخرى ، عملا بما هو متواتر من أن حساء الدجاج هو أفضل  
علاج لاهراض الرئتين ٠٠

تم استفاضة فى الوادى شائعة مؤداها أن مالك الاقطاعية سينزل  
للفلاحين عن نصف قيمة الايجار السنوى ، حتى قال قائل منهم :

— سيبقى لنا محصول القرطم ناكل منه هذا الشتاء ٠٠ وسيظل  
ثمن الخنازير فى جيوبنا نتصرف فيه كيفما نشاء .

بيد أنه حدث قبل موعد يوم السوق بأسبوع ، وهو اليوم الذى  
تؤدى فيه الايجارات عادة ، أن هبط الجابى على الأهلين فبدد مواردهم  
من أحلام ٠٠ وكان آل ( كيلمارتن ) منهمكين فى دعم سقف بيتهم بالقش ،  
حين أتاهم صوته يقول وهو واقف فى الحارة لا يكلف نفسه عناء دخول  
ساحة الدار :

— أنت يا هذا ! ٠٠ انى أريدك أنت يا بريان !

وكان ( بريان ) مقتعدا زاوية السقف الشمالية حين سمع هذا  
النداء ، فسرعان ما رفع يده الى قبعته وأخذ يهبط السلم على الفور وهو  
يبالغ فى توقير الجابى واحترامه كما فعل من قبل مع الطبيب ٠٠ وطبيعى  
أن يفعل العجوز هذا وقد كان الناس يخشون الجابى أكثر من خشيتهم  
غيره من مبعوثى الطبقة التى تحكمهم ، وكانوا يطاقون عليه كذلك اسم



( السائق ) ، مذ كان من عمله أن يسوق الدواب التى يتخلف أصحابها عن أداء ما عليهم ، لتباع فى المزاد . . وهو يقوم فوق هذا بتحريض الانذارات ، والتجسس على أحوال المستأجرين لإبلاغ ( شادويك ) وكيل المالك كل شئ عنهم . . ويرغم أن الجابى هذا كان مكروها من الناس كافة ، فانهم درجوا على أداء جعل سنوى له مصادقة له وخطبا لوده . . والويل كل الويل لمن يقصر فى هذا من المستأجرين ، اذ كانت كلمة الجابى بمثابة قانون نافذ لدى ( شادويك ) ، وهو فى الغالب مخمور لا يساهم بنصيب فعال فى ادارة شئون الاقطاعية ، الا أن يأخذ الايجارات . .

كان الجابى هذا يدعى ( سيمون هيجارتى ) ، وهو ضئيل الجسم ، مفوس الساقين ، مدبب الأنف ، بارز الأسنان العليا على نحو أكسب وجهه مسحة من البلاهة كان يعمل على إبرازها وتجسيماها ، لتدرا سوء الظن به . . وأرهب ما فيه عيناه الزرقاوان النفاذتان ، المفعمتان بآيات المكر والحتل . .

ولما دنا منه ( بريان ) قال له وهو يدفع اليه بمذكرة مكتوبة أخرجها من رزمه أوراق بين يديه :

— كيف يومك يا كيلمارتن . . انك تكسو السقف فيما أرى . . . كيف حال محصول البطاطس عندك ؟

فأجاب ( بريان ) وهو يمسح يديه فى بنطلونه :

— ويومك أطيب يا سيدى . . انه محصول لا بأس به . . . أهو الايجار السنوى ؟

فناول ( هيجارتى ) المذكرة ورد باقى الأوراق الى جيبه قائلا :

— نعم . . . هو الايجار . . . ان هذه المذكرة أعدت خصيصا . . . أتعب أن أقرأها لك ؟ . . هاتها .

وأنشأ يقرأ للعجوز ما نصه :

« على مستأجرى الارض المملوكة للميجور تومسون بمقاطعة ( كروم ) أن يدفعوا بمكتبى فى الثانى والعشرين من شهر أكتوبر جميع الايجارات الحاضرة والمتأخر سدادها حتى الخامس والعشرين من سبتمبر — والا اتخذت ضدهم اجراءات مشددة لاستيفاء الايجارات الآتفة الذكر » .

« امضاء : جوسلين شادويك — ١٠ أكتوبر سنة ١٨٤٥ »

وأعاد ( هيجارتى ) المذكرة الى ( بريان ) وبصق من فيه قشة كانت بين يديه ، ثم ثنى سوطا بين يديه ، ثم ارتكز على عقبيه وقال للعجوز وهو يتفرس فيه وقد أمال رأسه جانبا :

— ما رأيك الآن يا صاحبى ؟

فقال ( بريان ) :

— لا أدري والله ... لكن الناس كانوا يقولون ...

فقال ( هيجارتى ) :

— ما هذا الذى يقوله الناس ؟ قل ...! تكلم ...!

فراح ( بريان ) يقول متلعثما :

— ان هذا بسبب الآفة ... كانوا يظنون أن المتأخرات ... أعنى  
من هم متأخرون فى الدفع ... :

فصاح به ( هيجارتى ) وهو يسدد اليه سوطه مهددا متوعدا :

— كفى ... هناك اناس نحن نعرفهم جيدا ، يطوفون هنا وهناك  
قائلين : يجب وقف الايجارات بسبب الآفة ... ونصيحتى اليك يا  
( كيلمارتن ) ان تعرض عن هؤلاء الناس ، ولا تلتفت الى أقوالهم ، ان كنت  
حريصا على مصلحتك ... بع ما عندك من محصول القرطم وغيره مما  
تستطيع بيعه ... ادفع ما عليك تسلم وتأمين كل شر ، وبغير هذا تطرد  
الى قارة الطريق طردا ... والآن طاب يومك .

قال الجابى هذا وتابع طريقه فى الوادى وهو يصفر ويهز سوطه ...

ولما رجع ( بريان ) الى البيت قال له ( مارتن ) :

— ماذا قال لك يا أبى ؟

فقص عليه العجوز ما كان ، فقال ( مارتن ) :

— مسكين ( باتش هرنون ) ... ماذا يفعل الآن ؟ ... ان بقرته ماتت ،  
ولم يبق عنده خنازير ... وقد تراكم عليه الايجار من ستة أشهر ...  
ان قارة الطريق هى مصيره المحتوم ولا ريب .

ولما كان المساء جاءت ( كيتى ) زوجة ( هرنون ) الى بيت ( كيلمارتن ) ،  
وما ان حلت بالمطبخ حتى ألقت ( مريلتها ) فوق رأسها وجلست الى الحائط  
قرب الباب وراحت تندب بصوت عال قائلة :

— انهم حتما سيطردوننا الى عرض الطريق .

ولكن أفراد الاسرة أقبلوا عليها يطمبون خاطرها ويعدونها بالمساعدة  
اذا بقى لهم شيء من ثمن الخنازير والقرطم بعد الوفاء بما عليهم من ايجار .  
وقد قال لها العجوز فى هذا المقام :

— ثقى أنى لن أترك اناسا من الحى ودى يطردون الى عرض  
الطريق ... فلا تخافى ولا تحزنى .



## الفصل الثامن

حل يوم السوق ، فاستتيقظ آل (كليمارتن) قبل الفجر ، واحضر (مارتن) الفرس من مربطها وأسرجها، على حين انهمكت المراتن في تنظيف الحنازير وغسلها باثناء الدافىء والصابون . . . . وبعد أن تناولوا ما تيسر من الزاد لبسوا أحسن ما عندهم من الثياب ، الا (ماجى) التى اضطرت الى البقاء فى البيت للامزمة العليل . . . ثم خرجوا فى موكبهم الفريد يشقون طريقهم فى الوادى بين صفوف من الناس والدواب ، حتى اذا مروا بدار (جيسون) تخلفت عنهم (مارى) لزيارة والديها . .

وكانت فى الحق أجمل دار فى الوادى كله ، وقد شعرت (مارى) لدى بلوغها بالسعادة والزهو . . . فمن أمامها حديقة صغيرة نسقت فيها الازهار ، يشقها ممشى مكسو بالحصى ، ويحف بها سياج من الشجيرات المنسقة . . . ومن خلفها حديقة أخرى زرعت فيها خضر متنوعة ، حتى كانت هذه المزية الفريدة مثار العجب والحسد من أهل الوادى ، وهم لا يعرفون من الخضر غير البطاطس .

ولما دلفت (مارى) الى الدار وجدت أمها تتأهب للخروج الى السوق، بعد أن سبقها والد (مارى) وشقيقها (باتريك) بما لديهم من الحنازير التى كان النساك يربيها ، برغم أنه لم يكن يملك أرضا زراعية ، بفضل البطاطس التى كان ينالها من الزراع أجرا لما يصنعه لهم من أقمشة . . . وكانت الدار برغم ذلك نظيفة لا تنبعث منها تلك الروائح الفاسدة التى يهدتها (مارى) فى دار أهل زوجها .

وتعانقت الام وابنتها بحرارة وذرفتا الدموع ، فانهما لم تتلاقيا منذ تزوجت (مارى) ، طبقا للقاعدة المرعية التى توجب على العروس ألا ترى أمها أو تكلمها طيلة شهر العسل . .

وكانت بين الام وابنتها مشابهة كبيرة . . نعم ان الام فى الثانية والخمسين من عمرها وقد دب المشيب الى شعرها ، غير أنها كانت هيفاء القد رشيقة العود مودة الخدين تماثل ابنتها فى زرقة عينيها وطول أهدابها ، وفى تلك النظرات الواجمة المنبعثة من أعماق العينين ، التى ولدتها تلك الرحلة المروعة التى قاستها الاسرة وهى تضرب فى الارض طريدة شريدة قبلما أتيج لها المقام والرزق فى موطنها الحال . . وكانت الام فى رصانتها وجمالها الهادى على النقيض من زوجها القصير الثرثار ، ولعل اختلافهما فى الطباع ناجم من كونها ابنة أب انجليزى وأم ايرلندية . . .

وقالت الأم لابنتها :  
- كيف حالك يا حبيبتي في بيتك الجديد ؟  
فاجابت ( ماري ) :

- لا أدري بماذا أجيّب ... انه بيت جديد ، ومن الصعب أن اعتاد الحياة فيه ... انى أشعر بالوحشة وأنا أقيم فى ذلك الوادى محرومة من كل أنس وبهجة كأتى فى سجن سحيق ... انه بيت لا يزورنا فيه أحد وارهب ما فيه ذلك الشاب العليل الجالس طول نهاره قرب المدفأة مطبق الفم لا ينبس بكلمة واحدة .

فقالت الأم :  
- يا له من مسكين ! ... مما يثير الأسى أنه كان فتى قويا جميلا يرجى منه كل خير .

فراحت ( ماري ) تقول بلهجة امتزج فيها الغضب بالحجل :

- اننى أرثى له مثلك ... لكن ماذا سيكون مصيرى ومصير (مارتن) فى هذا البيت ؟ ... ان ( ميخائيل ) يؤثر فيه بكل شئ ... وليس معنى هذا يا أماه أنى أنفس عليه ما يناله ، لكنهم أناس لا يفكرون قط فى المستقبل ! ... ان البيت سيخلو قريبا من آخر دجاجة فيه وهم يذبحونه لميخائيل تباعا ! ... والزيد الذى كان ينبغى بيعه بثمن طيب يقدم له بغير حساب ... انى أعلم أن كل هذا لن يجديه نفعا ، فقد كتب الموت على وجهه بحروف يقرؤها كل انسان ... ثم ان محصول البطاطس يوشك أن يعطب وليس لدينا سواه ... من عجب يا أماه أنهم برغم حيازتهم للأرض المزروعة لا يكادون يدخرون شيئا ! ... فليس فى البيت سوى جنيهات معدودة ، وما سيجنونه اليوم من نقود فى السوق من بيع الخنازير والقرطم مستحق سلفا لمالك الأرض وحانوت البدال ... فلا تعجبى بعد هذا يا أماه اذا رأيتنى أستسلم للقلق والتفكير !

فقالت لها الأم :  
- ان الله رحيم يا بنيتى .

فقالت ماري :

- انما يرحم الله ويعين من يعينون أنفسهم ... انهم أناس لهم أطوار غريبة محيرة ... فهم مثلا لا يزرعون' بعض الحضر ، اشتافا من سخرية الجيران واشمئزازهم ... ولا هم يكلفون أنفسهم عناء اصطياد سمكة فى النهر أو اقتناص أرنب فى البرية ، ولو فعلوا لكان فيه غناء لهم ، ولكنهم لا يفعلون ... وقد كاد الرجل العجوز أن يفترسنى عندما اقترحت عليه مرة بناء حظيرة للخنازير أو وضع النجاس فى ( الجرن ) كما تفعلون أنتم هنا ... ترى ماذا يكون المال اذا اشتدت الآفة وزادت وطأتها ؟ ... ان البطاطس هو كل طعامهم ... ولو كان ( مارتن ) يتولى زمام الامر فى البيت لاختلف الموقف ، غير أنه لا يفعل ، فان الرجل العجوز يسيطر عليه سيطرة مطلقة .



فألت الأم :

- أليس ( مارتن ) عطوفا عليك ؟

فأجابت ( ماري ) غي غضب متزايد :

- بلى ، لكن ما غائدة العطف وانودة ؟ .. انما ينبغي له أن يظهر  
تعبه وقوته وبأسه وينازعه السلطان والنفوذ لتصبح كلمته هي العليا ..  
ولو أنه فعل لتهيا لي أن أدير أمور البيت بحيث أستطيع اقتصاد ما تيسر  
من النقود تاهبا ليوم عبوس مطير .. ما فيمه اقتناء الاسان الارض وهو  
لا يستطيع أن يجعلها تغل له مالا قل أو أكثر ؟ .. لقد كان اناس يعيرون  
أسرتنا لاننا لا نملك أرضا ، لكننا كنا ننعم بالحياة خيرا منهم .. اننى لن  
أحتمل هذه الحياة يا أماء ! .. ولو استمرت الامور على هذه الوتيرة فسأقول  
( لمارتن ) : اما أن تتولى أنت تصريف الامور في هذا البيت ، واما أن  
تهاجر بي الى أمريكا ..

فهمت الأم مروعة :

- أمريكا ؟! .. ما الذى أدخل هذه الفكرة المخيفة فى رأسك ؟

فهمت ( ماري ) بدورها :

- ولم لا ؟ .. هناك يستطيع المرء أن يثرى !

فلم تجب الأم ... ولم تلبث ( ماري ) أن ذهبت الى غرفة النوم  
حيث عذفت على تصفيف شعرها أمام المراة ، وكان بيتها الجديد خلوا من  
مثلها .. ولم تكذب تفعل حتى بدت موفورة الحسنى مما بعث الدموع فى  
عينى أمها زهوا وتيها .. وأسرعت الأم الى صندوقها الخاص فأخرجت  
منه مشطا كبيرا أعطته لماري قائلة :

- احتفظى به لديك يا حبيبتي ... أنه أكثر ملاءمة لك منى ... أنه  
مشط جاء به أبى من أسبانيا وقدمه هدية لأمى ... بارك الله بفيك  
يا بنيتى ورعاك ..

وعقدت ( ماري ) شعرها على الطريقة الاسبانية حتى غدت وقد  
رشقت المشط الكبير فى قمة الشعر الذهبى أشبه بكرائم السيدات ..  
وفجأة سمعت أمها تنتحب من خلفها ، فاستدارت اليها قائلة :

- ماذا جرى يا أماء ؟

فأجابت الأم :

- لا شيء يا حبيبتي ... اننى لسعيدة برؤيتك فى هذه الصورة  
الفاتنة .. وكم تمنيت لو أتيح لاختك ( ايلي ) أن تحيا حياة مستقرة  
مثلك ..

فألت ( ماري ) وقد انحسرت عن محياها اشراقة السعادة :

- ( ايلي ) ؟ ماذا بها ؟

فاجابت الامم :

- لا أعلم ... اننى بدأت أقلق عايمها ... ان طباعها تغيرت منذ  
ان ذهبت الى ذلك القصر الذى تعمل فيه .

- وعلى أى صورة تغيرت ؟

- هل تذكرين كيف كانت ( ايلي ) ضاحكة سعيدة ؟ لقد تغيرت  
الآن وانحازت الى الصمت المطبق ... انها كنت عندنا يوم الاحد  
الماضى ، وقد ثارت فى وجهى عندما أخذت أسائلها فيما أصبح الناس  
يتقولون به .

- وما الذى يتقول به الناس ؟

- أعنى عنها وعن مستر شادويك ...

- أهذا هو السر اذن ؟ .. وهل يعرف أبى أو ( باتريك ) شيئاً  
عن هذا الموضوع ؟

- ( باتريك ) يعرف ، أما أبوك فهو منصرف الى السياسة ، لعنة  
الله عليها ... وكل ما أخشاه هو أن يثور ( باتريك ) فى وجهها ويعمل  
على تفاقم الموقف اذا هو صادفها فى السوق ... ان أخاك حاد الطبع ،  
وربما اندفع الى حد الاعتداء على مستر ( شادويك ) نفسه .. كم تمنيت  
لو أن أختك تركت خدمة هذا القصر ! ..

فقالت ( ماري ) :

- أهذا هو الموقف اذن ؟ .. اننى سأعالجها بما يجب ..

فقالت الامم :

- حاذرى يا بنيتى ... ان الاستسلام للغضب لن يفيد ... اننا  
نعيش فى أوقات عصيبة ، ومستر ( شادويك ) رجل غريب الاطوار ..  
ليغفر لى الله اذ كنت السبب فى آلتحاقها بذلك القصر .

وجلست الامم فوق الفراش وأنشأت تبكى وتولول ... فطوقتها  
( ماري ) بساعديها وراحت تسرى عنها قائلة :

- لا تتكدرى يا أماه ... سأكلم أختى ( ايلي ) ... ربما كان  
ما سمعته وشاية حاسد موتور ... هلمى بنا ... ضعى حرملةك  
ولنذهب الى السوق .

وهكذا خرجت الام وابنتها الى سوق القرية على مسيرة نحو ميل  
من البيت ، فى طرقات منحدرية تتناثر حولها المساكن الصغيرة ، وأبرز  
ما فيها « كروم هاوس » ذلك القصر القائم العتيق المتاخم للبحيرة الصغيرة ،  
تحف به الاشجار الجرداء ويحوطه سور خرب ..



## الفصل التاسع

مرت الام وابنتها فى طريقهما الى القرية بمدخل القصر ، ولما صادفتا القس ( كويرون ) البروتستانتى بادرت به الام بتحيةة الصباح ، فرد القس بعبارة مبهمه وهو يبتسم ابتسامة مبتسرة ، ومضى فى طريقه داخل سور القصر . . . . . والحق أنه لم يعرفهما برغم عطفه وزوجته على أسرة ( جليسون ) هذه ورعايتهما لها منذ حلول الاسرة بالمقاطعة ، وقد تجلت هذه الرعاية فى منح الاسرة الطريدة الشريدة قطعة من الارض البور تبتنى فوقها دارا ، وامدادها بعد ذلك بالطعام والكساء وما تيسر من المال لتقوم على قدميها . . . . . أجل ! . . . لقد كان القس رجلا غريب الاطوار ، وقد انحاز بمشاعره من أول يوم الى النسيج ذى الجلد الحسن ، بيد أنه بدا اليوم مستغرقا فى أفكاره ، فلم يتذكر أصدقاءه القدماء .

كان القس ناحلا واهى البنية فى الخامسة والستين من عمره ، صاحب الوجه ، رقيق التقاطيع . . . . . وقد ولد فى ( دبلن ) من أبوين انجليزيين ، ولكنه قضى أكثر سنى حياته فى مقاطعة ( كروم ) منذ أن اتخذ الكهنوت مهنة ، فلم يفارقها الا مرات قلائل لزيارة البقية الباقية من ذوى قرابته المقيمين فى لندن . . . . .

وكانت واجباته كقس يسيرة محدودة تبعا لقلة عدد المعتنقين للذهب البروتستانتى فى المقاطعة ، اذ كانوا لا يتجاوزون الخمسين ، من عدد السكان البالغ وقت ذاك زهاء خمسة آلاف نسمة . . . . . ولكنه برغم هذه القلة العددية كان يعتمد فى مباشرته لواجباته الدينية على التبرعات والعشور التى كانت تجبى قسرا من سواد الاهلين الكاثوليك - أولئك الذين كانوا يمقتونه كواحد من أفراد الطبقة المحتلة الحاكمة التى تسومهم الظلم والجور . . . . . وكان من أثر شعور القس بمقت الناس له والتواء السبيل أمامه ، أن فقدت ملامحه ما كان يطبعها من امارات البساطة والسماحة ، وبدا فى صورة القلق السىء الظن بالناس والاشياء . . . . . بل ان انقطاع الصلة بينه وبين المثقفين من الناس ، وهو يتقارب فى بيئة جافية غير مصقولة المشاعر قوامها الموظفون وأعيان الناحية ، وبحكم اعتزاله سواد الاهلين من الحوارج على مذهبه البروتستانتى - كل ذلك قد أفضى به الى أن يصبح مخلوقا شاذا أقرب الى الخيال منه الى السداد والأتزان .

وفى هذا اليوم نراه وقد انحاز الى النشاط والرغبة فى خدمة فيجتمعه بعد أن تلقى رسالة جاءت من ميناء ( كلوجر ) فى مركبة البريد ، فقرر أن يقصد من فوره للقاء ( شادويك ) ، كى يحدثه فى الموضوع . . . . . والواقع أن القس كان يعتوره بين الفينة والفينة هذا التصميم المفاجىء لاداء واجبه

كرجل من رجال الدين ، وان كانت هذه النبوة الطارئة لا تلازمه ...  
أما اليوم فان الموضوع الذى دارت حوله الرسالة ، وهو موضوع الآفة  
التي حلت بمحصل البطاطس قد بدا له موضوع الساعة وعليه أن  
يواجهه بالمبادرة الى العمل والعلاج ..

بهذا الروح دلف القس الى القصر ، فاذا هو مبنى عتيق كالح مغبر  
كأنه قائم فى مهب الاعاصير الهوج والامواج المصطخبة على حافة المحيط ،  
وقد تجردت نوافذه من الستر ، وانحسر الطلاء عن بابه المفتوح ، وتشققت  
العمد القائمة فى مدخله ، وعاثت يد الاهمال فى حديقته حتى استحالت  
الى رقعة تناثر فيها الحشائش واختلطت بروث الدواب التي كان بعضها  
وقتئذ يسرح فيها طليقا ..

وشاهد القس الى يساره نفرا من الناس وقفوا قرب حافة بركة فى  
الحديقة يشاهدون جوادا يركض حول البركة امتطاه رجل منخول  
كان ذيل سترته يموج فى الهواء ، وقد أقيمت فى طريق الجواد حواجز  
كلما تخطاها صاح المتفرجون وهللوا فقابلهم الراكب بتلويح قبعته فى  
الهواء حتى لم يتمالك القس ازاء هذا المشهد الغريب أن هتف وهو يدلف  
الى باب القصر الداخلى :

— عجباً أى عجب ! .. هذه فوضى ما لها مثيل !

ومضى القس الى البهو بعد أن جذب الجرس مرة وهو يعلم بالتجربة  
أنها محاولة فاشلة ، فاستقبلته رائحة عطنة شاعت فى أرجاء البهو المجرد  
من كل أثاث .. وما لبث القس أن شاهد رجلا يهرول فى ممشى موصل  
الى المطبخ وهو يرتدى سترته ، ولما سأله ( كوبرن ) عن سيده أجابه  
فى قحة :

— انه فى الفراش يا سيدى ، وقد أرسلنا اليه فطوره منذ قليل .

ثم اندفع يجتاز البهو وهو يقول :

— يمكنك أن تصعد اليه .

وصاح الرجل صيحة مدوية وهو ينطلق الى ناحية البحيرة حيث كان  
الجواد يدور براكبه مجتازا تلك الحواجز التي أقيمت فى طريقه ، وترك  
القس يرتقى الدرج وهو يردد عباراته السالفة عن الفوضى الضاربة أطنابها  
حوله .

كان هذا القصر مقرا لآل ( تومسون ) ملاك الاقطاعية ، أقاموا فيه  
أجيالا تحوطهم مظاهر الابهة والجاه العريض ، حتى اذا كان عام ١٨٠٠  
عندما صدر قانون الاتحاد مع انجلترا ، انتقل أفراد الاسرة الى لندن  
للاقامة بها ، أسوة بأكثر الاعيان الارلنديين .. ومنذ ذلك الحين وهم  
لايزورون ( قصر كروم ) هذا الا لماما ، وخاصة قبيل موعد الانتخابات  
العامية اذ يسوقون المستأجرين سوقا الى المراكز الانتخابية لمنحهم  
أصواتهم ... فلما تغيرت الظروف بعد ثورة الزعيم ( أوكرنيل ) وأخذ



الفلاحون يؤثرون اثر شحين الوطنيين باصواتهم ، هجر آل ( تومسون )  
القصر نهائيا حتى استحال الى شبه اطلال .. وفي غضون الثلاثين عاما  
الاخيرة انتقل الاشراف على الاقطاعية الى أيدي الوكلاء الذين لم يكونوا  
يقيمون بها طويلا لضعف الاسباب التي تربطهم بها ، وقد اتخذوا من  
هذا القصر مقاما لهم ..

هذا ، ولما وصل القس الطابق الاول سار في دهليز قائم حتى بلغ  
بابا في نهايته فطرقة ، فصاح به صوت من الداخل يقول صاحبه :

كيف وجدت الحصان ياريلي ؟ .. ادخل يا مغفل !

واذ دلف (كوبرون) الى الداخل تلتفته ضحكة رنانة ، وقال المتكلم :

- معذرة ... اني حسبتك ( ريلي ) .. صباح الخير يا  
( كوبرون ) !

فغمغم القس وهو يوصد الباب خلفه :  
- العفو !

كان (شادويك) جالسا في سرير كبير ذي أربعة عمد تعلوه كلة  
مزدانة ، متكئا الى الوسائد .. والى جانب السرير خوان فوقه دجاجة  
وخبز وخمر ، وقد أمسك ( شادويك ) بيده كأسا مترعة ... وكان  
مظهره أدعى الى الغرابة وهو بفنئسوته الزرقاء ذات الزر الاحمر الطويل ،  
التي تشبه في حمرتها شعره ووجهه .. ولعل أسوأ ما فيه عيناه العسليتان  
اللتان يطل الشرر منهما تحت حاجبين دب اليهما المشيب ، حتى كان مشهده  
وهو بهذه السمات جميعا نابيا عن كل انسجام .. وكان أشد من كل  
اولئك تنافرا أن القاعة التي احتلها كانت رحة كثيرة الهواء مجردة الا  
من أيسر الاثاث ، بنافذتها فجوة سدت بالورق ..

وما لبث ( شادويك ) أن وضع كأسه وراح ينفخ في راحتي يديه  
المقوستين قائلا :

- أشعر بالبرد هنا ؟ .. اننى مسرور برؤيتك عندي ، والحق اننى  
كنت أتمنى أن يزورنى أحد .. ومع اننى كنت أتوقع أن يكون القادم هو  
( ريلي ) فمن دواعى سرورى أنك أنت الطارق ... هل لك فى كأس من  
الشراب ؟ .. ما هذا ؟ .. سحقا لفتحة النافذة هذه ! .. رحماك ربى ،  
أشتاء آخر ؟ ! اننى هالك حتما قبل انتهائه ! .. لكن لا بأس ... متى  
تم تحصيل الايجارات فاننى مرتحل الى حين .. هلا جلست ؟

ولكن القس أبى أن يجلس فى المقعد الحقيير الذى كان كل ما فى  
القاعة من مقاعد ، فمد (شادويك) يده الى حبل الجرس المجاوز للسرير ،  
ولما أخطأه سب وصخب وطلب الى القس أن يجذبه له ؛ فلما فعل دعاه  
( شادويك ) مرة أخرى الى الجلوس قائلا :

- ما وراءك من الانباء ؟ .. ان كنت جئتنى تطلب مالا للمساكين ،  
فليس لدى ..

فقاطعه ( كوبرن ) قائلا فى حدة :

— انى ما جئت أطلب مالا ، فانى أمقت المال ، انما جئت لشيء آخر .

فقال ( شادويك ) وهو يضج بالضحك ويتلوى فى الفراش :

— وأنا مثلك فى كره المال !

وانتفض فى الفراش فجأة وتجرع كأسه حتى الثمالة ، ثم ملاها من جديد قائلا :

— هل لك فى كأس معي ؟ .. تبا لتلك الفتاة ! لماذا تباطأت فى تلبية دقات الجرس ؟ .. نعله كسر ! .. كم أتمنى لو أنى لم أضطلع بمهام العمل فى هذه الاقطاعية ! .. انظر يا ( كوبرن ) وصارحنى .. كم تقلد سنى ؟

فأجاب القس ببرود :

— انك ما زلت فى ريعان سنك ، اذا عرفت كيف تعنى بصحتك .

فابتسم ( شادويك ) بخبيث ، وجعل يرتشف كأسه متمهلا وقد هز منكبيه تلك الهزة الماثورة عن مدمنى الخمر ، وما لبث أن تملكه الوجوم فجأة وقال :

— محض هراء .. اننى شخص محطم ولما أجاوز الخامسة والاربعين! هذه حياة تعسة تلك التى أحيانا ! .. لقد أصبحت شخصا آخر غير الذى كنته عند ما جئت الى هنا منذ خمسة أعوام ! .. والآن قد تقطعت بى الاسباب ، ولم تعد لى وجهة أخرى أولى وجهى شطرها ! .. ان ( مارك تومسون ) هو أفضل الناس ، وقد أراد بى خيرا عندما جعلنى وكيلا له على هذه الاقطاعية ؛ تقديرا منه لروابط الزمالة التى جمعتنا فى الخدمة العسكرية ؛ وشفقة بى بعد أن فقدت أملاكى .. لكن انظر الآن يا ( كوبرن ) ما فعلته بى هذه الاقطاعية اللعينة ! .. لقد صيرتنى سكيما مدمنا ! .. انها مكان لا يصلح لانجليزى مثلى ؟ .. هلا جلست على حافة الفراش وتناولت كأسا من الشراب ؟ .. أجل ! .. انتى سكير مدمن ، قضى عليه بالعزلة بين قوم متوحشين صخابين .. لو كنت مكانى يا ( كوبرن ) لما واثت الشجاعة لمواجهة موقفى هذا وأنا بلا زوجة ، ولا أبناء ، ولا رجاء لى فى شيء ! .. تكلم يا ( كوبرن ) وقل ما كنت تفعل لو كنت مكانى ! .. أكنت تنتحر ، أم تهرب الى المستعمرات ؟

فأجاب ( كوبرن ) :

— أنتى قطعا ما كنت أسعى الى الانتحار بالافراط فى السكر حتى الموت .

فجعل ( شادويك ) يحدج القس برهة بنظرات يتجلى فيها المقت والنفور ، وما لبث أن ضج بالضحك العنيف ، ثم مال على جانبه ومدد



ساقيه وتثأب وأغمض عينيه .. ولما فتحتها عمد الى كأسه فأفرغها في جوفه حتى الثمالة وحاول أن يتجشأ ثم قال :

– الغازات ! .. انها تهلكنى . ما هذا الذى بيدك يا فتاة ؟ ...  
أدخل ! ..

فقد طرق الباب وقتئذ ، وعندما بسط القس الرسالة التى جاء بها لكى يتحدث فى الغاية من زيارته ، دخلت ( ايلي جليسون ) فى تلك اللحظة استجابة لصيحة ( شادويك ) .. فما كاد الرجل يبصرها حتى لمعت عيناه وركز نظراته ودفع رأسه الى الامام على نحو ما يفعل الحيوان عند ما يشهد أنثاه ... والواقع أن ( ايلي ) كانت فى مثل ملاحه أختها ( ماري ) ، ولكن من النوع السوقى الرخيص .. وكانت تكبرها بعام ، وقد بدا مجيهاها يفقد نضارته ، ولاحت امارات التبذل فى شففتيها الحمراروين المليثتين وعينيها الواسعتين ... وكانت الى هذا تمتاز بشعر ذهبى جميل ؛ وقوام بديع التناسق والتكوين ، ورشاقة موفورة فى حركتها .. وقالت أخيرا وقد وقفت بين الباب والسرير مواجهة مخدومها فى جراءة :

– هل طلبتنى يا سيدى ؟

والحق أن نظرات الجرأة والاعتداد التى كانت ترسلها اليه دلت بجلاء على أن بين الاثنين روابط خاصة وثيقة .. وما لبث ( شادويك ) أن قال لها :

– احضرى كأسا للسيد ( كوبرن ) .

فاستدارت وخرجت دون كلمة ، تتبعها نظرات ( كوبرن ) .. أما ( شادويك ) فقد قال لزائره :

– والآن .. أرى معك رسالة .. أهى من سيدة ؟

فأجاب القس فى لهجة أقرب الى الصرامة :

– انها من مستر كامبل فوستر .

– وما موضوعها ؟

– انها عن آفة محصول البطاطس .. هل أقرؤها ؟

فقال ( شادويك ) :

– البطاطس ! .. انى آكره هذا اللون من الخضر .. اقرأ .. ماذا يريد فى رسالته ؟ ..

فسعل القس وأنشأ يتلو الرسالة تلاوة متعثرة لانطماس خطها فى بعض المواضع حتى ذهب يغمغم فى تلاوته مما جعل كلامه يكاد يكون غير مفهوم .. ولكن جوهر الرسالة كان يدور حول اقتراح أدلى به مستر ( فوستر ) ، لمناسبة ما يخشاه على تلك البطاطس المخزونة فى الحفر الأرضية

مؤداه اقامة ممرات للتهوية تحت الحفر ، وتغطية المنافذ على نحو يدرا  
الصقيع والمطر عن المحصول المختزن ..

وعند هذا الحد ، عادت ( ايلي ) تحمل الكأس ، فنظر القس اليها  
ثم تابع تلاوة الرسالة في حمية ، مبينا اقتراح كاتبها قيام نوع من الاكتتاب  
بين المقاطعات وتشكيل لجان من وجوه رجالها للاضطلاع بهذه المهمة ،  
وكذلك لشراء مقادير كبيرة من حبوب القرطم تختزن حتى الربيع والصيف  
ثم يصير توزيعها بالتجزئة على جميع المستهلكين ، توفيراً للقوت ، وتخفيفاً  
للمضائق ..

واسترعى نظر القس وهو ماض في تلاوته أن ( شادويك ) غير مصغ  
اليه ، فلما نبهه الى ذلك غاضباً اعتدل الرجل في مضجعه وحملق فيه  
فاغمر القم قائلاً :

— ماذا تقول ؟ .. آه انها الرسالة ! .. من هو كاتبها ؟ وما مضمونها ؟

.. غلم يتمالك القس أن هتف مهتاجاً :

— انها عن المجاعة ! ..

فقال ( شادويك ) :

— المجاعة ؟ .. ماذا تقصد ؟ .. لعلك تمزح ؟ .. اليك كأسا أخرى

فهتف القس مرة أخرى :

— ليس هذا مزاحاً .. ان ( فوستر كامبل ) خير في هذه المسائل  
... انه يذكر في رسالته .. هلاً أصغيت الى ؟ ..

— قل ما عندك .. اننى مصغ اليك ..

فتابع القس قراءة الرسالة قائلاً :

— « ... وفي يقينى الراسخ أن التهاون والجمود وروح العدا  
الفاشية فى صفوف الشعب الارلندى ، ستؤدى جميعاً الى مضاعفات خطيرة ،  
ما لم تبادر الحكومة الى اتخاذ هذه الاجراءات أو ما يماثلها ، لرعاية  
الشعب والتخفيف عنه .. بل انى أعلم من طباع الاهلين ما أوقن معه أنهم  
لن يحركوا ساكناً حتى تطبق عليهم المجاعة وتأخذ بخناقهم » ..

فقال ( شادويك ) :

— بديع جداً .. على الحكومة أن تبادر الى القيام بواجبها ، كما يقول  
كاتب الرسالة ! .. ما الذى يعنينى من هذا الامر ؟ ..

فاجاب ( كوبرن ) :

— بوسعك أن تشرح للناس تفاصيل هذه الخطط التى يشير بها  
مستر ( فوستر ) أو تعهد الى وكيلك ( هيجارتى ) باذاعتها بينهم !



فقال ( شادويك ) :

— لن يكون هذا حتى أرى هؤلاء الاوغاد فى قرار الجحيم . ان المحامى ( رتشارد ) رارنى منذ أيام للتحدث فى مسألة الديون الكثيرة التى أصبحت لاقطاعية مثقلة بها ، وهو يعرف أحوال هذه البلاد معرفة الخبير ؛ وقد أخبرنى فى سياق الحديث ان المجاملة ظاهرة معهودة هنا ، تتكرر دوريا منذ عام ١٧٤١ ، وسببها كما تعرف راجع الى أن الاهلين الكسالى يعتمدون على محصول البطاطس وحده .

فراح ( كويرن ) يقول :

— لكن هذا ليس سببا لكى . . .

غير أن ( شادويك ) قاطعه وهو يقدم اليه الكأس قائلا :

— محض هراء . . نخب صحتك ! . . ألا ترى وجهة نظرى ؟ . . انه نبات كبير الحجم ، محدود التغذية ، يتعذر خزنه من سنة الى أخرى . . ان ارلندا بلد زراعى كما قال ( رتشارد ) ، وسكانها يتزايدون بسرعة ، ومع ان الحكومة شجعتهم على زراعة القمح ، ورصدت لذلك اعانات طيبة ، فانهم ما زالوا يفضلون زراعة البطاطس . . فليس لك أن تنحى على باللائمة يا سيد ( كويرن ) اذا رأيتهم يموتون جوعا . . ان هذا ليس من شأنى ، ولا هو يعنينى فى شىء . . لقد سمح ( تومسون ) الأب لهؤلاء الاوغاد الافاقين النازحين من كل صقع باحتلال أرضه ، فانتشروا فى أرجائها ، وتكاثروا فيها كالازانب . . ورجال الدين يشجعونهم على الزواج والتوالد ، لتكثر حصيلتهم من العشور . . انما يعنينى من أمورهم شىء واحد ، هو : أن يوفوا ما عليهم من ايجارات مستحقة .

فقال له القس :

— لكنهم كائنات آدمية على الاقل . . ولن يضيرك فى شىء أن تعهد الى وكيلك ( هيجارتى ) بتفهمهم تفاصيل المشروع المقترح لتهوية المحصول المختزن فى جوف الارض .

فقال ( شادويك ) مغضبا :

— ولم لا تضطلع أنت بهذه المهمة ؟ . . أراك تتكلم وكأنى أنا الملوم لما قد يصيبهم ، وما أنا فى الواقع الا خادم مالك الارض ولا تعدو مهمتى تحصيل الايجارات وطرد المتخلفين عن الدفع ! . . أما أنت فانك تستمد مادة وجودك منهم . . انهم يؤدون لك العشور من المحصول ولك نصيب مفروض من الايجار فلم لا تتولى هذا العمل ؟ .

فلوح القس بيده محتدما ، وهتف قائلا :

— ثق أنى ما كنت أتوانى عن هذا لو تهيأت لى السلطة اللازمة . . لكن ماذا أستطيع أن أفعل ؟ . . اننى لو طفت بين الناس ناصحا مرشدا لاتهمنى قساوستهم الكاثوليك بالسعى لاستمالتهم الى المذهب البروتستانتى

كفانى ما أنا مستهدف له من المتاعب بسبب المساعدات الخيرية المحدودة  
التي يتاح لى أسداؤها .. فانا لم ألجأ اليه تكاسلا منى ولا توانيا !

فرد ( شادويك ) قائلا :

- بديع اذن .. اننى لن أدعك تحاضرنى عن القحط والشجاعات  
وترشدنى الى ما ينبغى لى حيال هؤلاء الفلاحين المناكيد .. دعهم يموتون  
جوعا ! .. هذا حل موفق للقضاء عليهم والخلص منهم .. أنت تعرف أنهم  
يكرهوننا معشر الانجليز ، ولا يترددون فى اقتناصنا بالرصاص اذا  
واتتهم الشجاعة والمقدرة .. فما الذى يحملنا على مساعدتهم ؟ .. ليهلكوا  
اذن وليبيدوا ! .. ان البلاد تضيق بالملايين منهم دون حاجة اليهم ولا نفع  
منهم .. انهم منحوا ما منحوا من الارض ليدلوا بأصواتهم فى الانتخابات،  
وقد رأيتهم تنكروا لنا وآثروا بأصواتهم زعيمهم ( أوكونيل ) .. والآن  
ها هم أولاء يستغلون هذه الآفة التى حلت بالمحصول كذريعة للتملص عن  
الوفاء بالايجارات المستحقة ! .. من الطارق ؟

وتكرر الطرق على الباب ، وقال قائل :

- أنا ( ريل ) يا صاحب السيادة .

ودلف الى القاعة رجل نحيل أخذ يدنو من الفراش على أطراف  
أصابعه ، وكان بآدى الانفعال يعلو الزبد شفثيه وقد لمعت عيناه وجعل  
يلوى قبعته بين يديه وما أن بلغ الفراش حتى راح يقول بصوت خفيض :  
- هو أعجوبة يا صاحب السيادة ! .. انه يشب كالطير ! .. ولا يتعب  
أبدا .. انى لم أشهد له مثيلا قط ! ..

فبرقت عينا ( شادويك ) حبورا وهمس بدوره لاهتا منفلا :

- أهو جواد أصيل حقا ؟

- ليس فى المقاطعة كلها جواد يدانيه فى سرعته ؟ ..

- تبارك الخلاق ! .. سأنزل لامتطائه ..

قال ( شادويك ) هذا وقد وثب من فراشه وأردف يقول :

- ان لم يكن كما وصفته فسأكسر رقبتك ! .. جثنى بينطلون  
الركوب ! خذ كأسا أخرى يا ( كويرن ) .

فقال القس :

- يمكن أن أذكرك مرة أخرى ، لتطلب الى وكيلك (هيجارتى) أن ..

فقاطعه ( شادويك ) قائلا وهو يرتدى البنطلون :

- دع هذا الآن يا ( كويرن ) .. ليس هذا وقت الكلام فى موضوع  
البطاطس ..

فلم يسع ( كويرن ) الا أن يرشف الكأس ولسان حاله يقول :  
- ان مخالطة الاوشاب تفسد المثل العليا .. من الخير لى أن أنفض  
يدى منهم جميعا .. ان ما أستطيع فعله قليل محدود ، لكن الافضل أن  
أضطلع بهذا القليل وحدى ! ..



## الفصل العاشر

كانت السوق في أوج نشاطها ، وقد اكتظ الطريق الرئيسي في بلدة ( كروم ) بالناس والدواب . . . وبرغم هبوب ريح جافة باردة من ناحية الجبال الشاهقة التي رقدت القرية في أحضانها ، فقد كانت الروائح الكريهة تنبعث من روث الدواب وبولها تفوح في كل أرجاء الطريق . . . وامتدت أكشاك الباعة على جانبي الشارع تزحمة ، وتعالى الصياح هنا وهناك ، ووقفت ثلة من رجال البوليس أمام مبنى من ثلاثة طوابق ترقب هذه الجموع المائجة بنظرات عدائية .

وكان متجر ( جون هاينز ) والفندق الملاصق له هما مركز الحركة والنشاط في هذا اليوم . . . وقد ولد ( جون ) هذا في ( الوادي الاسود ) حيث امتلك أبوه رقعة الارض البور التي سمحت الحكومة الانجليزية عام ١٧٤٢ للفلاحين الارلنديين المعدمين بامتلاكها على حوافي المستنقعات وقرب سفوح الجبال ، ولكن الأب ما لبث أن لقي حتفه قتلا بأيدي أفراد من الجمعيات السرية الوطنية لما لوحظ من اتصاله بالسلطات الحاكمة ووشايته بمواطنيه ، وقد انتهى الامر باعدام اثنين من الاهل قصاصا لمقتله ، واضطرار أرملته وأبنائها الثلاثة الى الهجرة من ( الوادي الاسود ) أمام عداة الاهل لهم . . .

وفي ذلك الحين كان ( مارك تومسون ) - والد مالك الاقطاعية الحالي - أحد القضاة الذين حوكم القتلة أمامهم ، فأخذته الشفقة على الارملة ، حتى منحها كوخا تقيم فيه في الحي الكاثوليكي ببلدة كروم ، ومبلغا من المال تنشيء به حانوتا . . . فقد كانت البلدة اذ ذاك منقسمة قسمين ، القسم الانجليزي المجاور لقصر المالك ويحتله أبناء المذهب البروتستانتي من الانجليز والضباط والتجار وتابعي القصر ، والقسم الارلندي ويقطنه اواطنون الكاثوليك وهم يتقلبون في الفاقة ويعيشون في مبان أقرب الى جحور . . . وفي أحد هذه الجحور أنشأت الارملة حانوتها وأخذت تكد وتكدح بمساعدة ولدها ( جون ) الذي كان في الثالثة عشرة من عمره ، وابنتها ( جوليا ) التي كانت تكبره بعام . . . وكان الاثنان يجوبان الاقليم وبرفقتهما حمار اشترته الأرملة بفضلة مالها ، يبيعان الاهل سلعا زهيدة في مقابل البيض والزبدة والملابس العتيقة ، وكان الفتى يستندز عطف الناس بيده المشلولة منذ طفولته حتى كفوا عن صبا نعمتهم عليه وعلى أخته وتناهاوا عن أخذ الابناء بجريرة الآباء ، وهكذا ازدهرت تجارتهم .

وقد توفيت الأرملة عند ما بلغ ( جون ) الثامنة عشرة ، وفي العام التالي نزع أخوه الاصغر الى أمريكا حيث وقع في الأسر وهو في عرض

المحيط وأكره على العمل فى البحرية الانجليزية فلقى حتفه فى الحرب  
ضد ( نابليون بونابرت ) . .

وكذلك بفى ( جون ) و ( جوليا ) وحيدين فى الحياة ، بيد أنهما  
تابعوا تجارتهمما الرابعه فى جهد ودأب متصاين . . ولم يلبث ( جون ) وهو  
فى الثلاثين من عمره ان تزوج ( لويزا هيجارتى ) شقيقة الرجل الذى  
رايناه يشغل وظيفه الجابى عند مالك الاقطاعيه، وقد جاءته الزوجه بميراث  
آل اليها من قريب لها فى امريكا مما هيا له أن يضاعف تجارتها ، فانتقل  
الى متجر أحسن موقعا ، وحاز رخصة لبيع الخمر . . بل انه استطاع ان  
يخمد عداوة الاهلين له ولاسرتة بالمساهمة فى الحركة الوطنية تحت زعامة  
( أوكونيل ) . وان كانت دوافعه الى ذلك نفعية أكثر منها وطنية ،  
وخصوصا حين ألقى الحركة قائمة على أسباب اقتصادية غايتها تقوية  
صغار التجار الكاثوليك ضد منافسيهم البروتستانت . . وقد أثرت هذه  
المساهمة من جانب ( جون ) اقبال الناس على معاملته وانصرفهم عن معاملة  
منافسه الانجليزى ( ريدر ) .

وفى خلال الثلاثين عاما التى تعاقبت منذ زواج ( جسون هاينز )  
استطاع أن يزيد فى نفوذه ويضاعف من ثرائه تبعا لتطور حرية أبناء  
الطبقة التى ينتمى اليها فى ايرلندا كلها تحت زعامة الثورى الكبير  
( أوكونيل ) . . كما استطاع المواطنون الكاثوليك فى تلك الحقبة أن  
يزحفوا من جحورهم فى الحى الغربى من بلدة ( كروم ) ويتغلغلوا حتى  
مشارف الحى البروتستانتى ، وتهيأ لهاينز أن يحتل دارى (ريدر)التاجر  
الانجليزى ويقيم فيهما متجرا وفندقا . . وقضلا عن ذلك قد أصبح ولده  
الاصغر طبيب البلدة ، وبقي ولده الاكبر يعاونه فى إدارة المتجر . . وكانت  
له بنتان دخلت احدهما الدير ، وتولت الثانية الاشراف على أمور الفندق،  
تعاونها أخته ( جوليا ) التى بدأت الكفاح معه ، فى شئون الطهى . .  
وقصارى القول أن ( جون هاينز ) قد استطاع بهذه الجهود جميعا أن  
يصبح أقوى شخصية فى المقاطعة كلها ، بعد مالك الاقطاعية . . .

ونراه يوم السوق هذا وقد وقف فى المتجر خلف الحاجز يقرأ من  
سجل بين يديه ما بقى لكل فلاح من ثمن حبوب القرطم التى اشتراها منه  
( جون ) والتى كان يكدها فى المخزن الخاص داخل المتجر . . ووقفت  
زوجته الى جانبه تناول النقود لاصحابها ممن تجمهروا فى الناحية الاخرى  
من الحاجز .

وفى الحق ان ( جون هاينز ) كان يبدو أكثر من رجل فى الستين  
بتأثير ما عانى فى طفولته من شدائد . . وكان طويل القامة نحيل الجسم  
مقوس انهماة عليه سمات البخيل الشحيح ، تختفى تحت قبعته الرحبة  
عينان ضيقتان تنضحان بالمر والجفاء والريبة ، وقد شحبت وجنتاه  
وتقوس أنفه ، ولولا قميصه الابيض المشدود وربطة عنقه السوداء لكان  
فى زيه أقرب الى الرثاءة . . .



وفي هذا الوقت كان ( هاينز ) مستهدفا لحملة شديدة سببها  
اعتراض ( هرنون ) وزوجته على القيمة التي قدمت لهما ثمنا لما باعاه من  
قرطم . . . وكانت ( كيتي ) زوجة ( هرنون ) تمت بصلة قرابة بعيدة  
لهاينز ، فكان ( هرنون ) يطمع تبعا لهذه القرابة في معاملة أكرم ،  
وخصوصا أنه الرجل الدائم التذمر والشكوى من الزمن حتى استحالة  
تدمره الى عقدة نفسية ، جعلته يعد نفسه ضحية لدهره الجائر . . .

ولم يلبث ( هاينز ) ان قال له وهو يحدجه خلسة من تحت حافة  
قبعته .

— كيف يمكن أن أتفكك الثمن الذي تريد ؟ ألا تقنع بالسعر الذي  
أتعامل به مع الجميع ؟ .

فصاح ( هرنون ) قائلا وهو يلوح بيديه الى ناحية الجمهور المحتشد  
على الجانبين :

— أو تحسبهم قانعين حقا؟ . . . اسمع رأيي الصريح يا (جون هاينز)! . . .  
ان السعر الذي حددته ما هو الا سرقة سافرة !

وهنا تدخلت زوجته ( كيتي ) قائلة له :

— انك تشهر بنفسك أمام الناس يا (باتش) . . . هات ما نستحق  
من الثمن يا مسز هاينز .

فقال ( هرنون ) وهو يبصق على الأرض :

— أنا لا أخاف أحدا ! . . . لو أن الناس كانوا في مثل شجاعتي لما  
ارتضوا هذه السرقة ! . . . لكن ماذا يستطيع رجل واحد أن يفعل ؟ . . .  
خذوا الحبوب حراما وسحتا ! . . .

وتجمع الناس حول ( هرنون ) يهدثون ثائرتة ويطيّبون خاطره ،  
منهم العجوز ( بريان كيلمارتن ) والد زوجته و ( تومسي ) السكر و ( تومي )  
زوج ( نابا ) ابنة العجوز الثانية . . . ولما ابتعدوا به الى أقصى المتجر حيث  
يباع الشراب راح يقول لهم :

— لن أسكت حتى أنال حقوقي ! . . . سيأتي اليوم الذي يحصل  
فيه الفقير على حقه كاملا ! . . . قريبا ستزول دولة الملاك والنهابين  
السلابيين الذين يمتصون دماء الشعب الارلندي ويسمنون على أكتافه !

ولكن زوجته تخلفت لأخذ حقها . وما كان أقله وهما مدينان للمتجر  
بالكثير . . . بل ان ما بقي لهما لم يكف لشراء قدر السمك المملح الذي أرادت  
شراءه ليكون منه مئونة الشتاء . . .

ولم يلبث ( هاينز ) أن سرح بصره في الوجوه بالمتجر قائلا بصوت  
أقرب الى نحيب المتسولين :

— ها قد رأيتم بأعينكم ! . . . يقول أناس منكم بأفواههم اني لص  
نهاب . ثم يتجهون الى بقلوبهم طلبا للمعونة والحير .

فردت عليه زوجه ( هرنون ) قائلة :

— بالله لا تجعل من الحبة قبة ونحن نواجه أوقاتا عصيبة .. ان بقرتنا ماتت فى الربيع ، وليس لدينا خنازير ، وما زرعناه من بطاطس حلت به لعنة الآفة .. فهل من العجب أن يغلظ الفقراء فى كلامهم ويقولوا ما لا يفهمون ؟ .. توسلنا اليك بالله أن تعطينا قدر السمك ليكون درعا تقى أطفالنا شر الجوع فى أيام الشتاء الطويلة التى تنتظرهم !

فقال لها ( هاينز ) بلهجته الناحبة :

— سأعطيك هذا القدر ما فى ذلك شك .. لكننا جميعا نعرف ما هو الفقر ، وعند ما عض الفقر بعضنا يوما كنا نلوى ألسنتنا فى حلوقنا ونمسكها عن البذاء !

وأخذت ( كيتى هرنون ) قدر السمك وانزوت به عند جدار المتجر الخلفى حيث جلست فوق حافته ، وما لبثت أختها ( نابا ) أن انضمت اليها وجلست الى جانبها .. وكانت ( كيتى ) فى الثلاثين من عمرها ، وهى وأختها الوحيدتان من بنات ( بريان كيلمارتن ) اللتان أفلتتا من براثن الموت .. وكان لها سبعة أبناء ، صحبت معها ثلاثة منهم ، وقفوا مستنديين الى الحائط وهم لفرط نحولهم وهزالهم كالاشباح .. وكانت الأم تماثلهم هزالا ونحولا ، تعلو وجهها تلك السمات المروعة الاليمة التى لا ترى مثلها الا فى وجوه الامهات البائسات اللاتى يغنين دائما بتوفر القوت لصغارهن .. أما شقيقتها ( نابا ) فكانت تصغرها بعامين ، وكانت موردة الوجنتين ، مليئة الوجه ، تلوح عليها أمارات الرضا ، اذ لم يكن لها أبناء .. وكان زوجها يعمل حدادا فى بلدة ( جلينارى ) .. وقالت ( نابا ) لاختها ، تعقيا على ما حدث :

— ان من يرى معاملة هذا البخيل لك لا يصدق أننا من أقاربه ! ماذا أنتم فاعلون الآن فى مسألة ايجار الارض ؟ .. ألسنتم مدينين أيضا بنصف يجاوز عشرة جنيهات .

فأجابت ( كيتى ) بلهجة الشكوى :

— هذا هو الواقع يا حبيبتي .. اننى لم أنم منذ أسبوعين وأنا أفكر فى هذا الامر .. و ( هرنون ) نفسه يكاد يفقد صوابه لهذا السبب .. ان كل الظروف ضدنا الآن .

فقالت ( نابا ) :

— وهل كلمت والدك فى الموضوع ؟ .. ربما كان فى امكانه المساعدة

فأجابت ( كيتى ) :

— اننى كلمته .. لكن من المؤكد أنه لا يملك سوى القليل .. وقد وعد أن يساعدنا بما يستطيع .. وان كان المبلغ الذى نحن مدينون به يجاوز عشرة جنيهات .



فقالت ( نابا ) بحدة :

— لن يستطيع أحد أن ينال شيئا من الأب بعد أن احتلت ابنة  
النساج البيت وتربعت فيه ! .. انظري اليها هناك ! .. انظري الى  
ملابسها ! .. انها تنتظر وفاة شقيقنا ( ميخائيل ) لكي تضع يدها على  
كل شيء في البيت ! .. يا للعار ! .. ابنة نساج ! ..

فقالت ( كيتي ) :

— مهما يكن فان الوالد ما زال هو القابض بيده على زمام المصروفات  
.. ولن يتخلى عن ذلك ما دام فيه رمق .. ولو كان على الوالد أن يختار  
بين بقاء ( ميخائيل ) و ( مارتن ) في البيت لاختار ( ميخائيل ) .. واذا  
كانت ابنة النساج قد سيطرت على ( مارتن ) وجعلته في أصابعها  
كالخاتم ، فسيكون لها شأن آخر مع الرجل العجوز .. الواقع أنه لا يحبها  
ولا يرتاح اليها .. انظري ! .. أمامك أمها أيضا .. انها متزينة كالملكة  
نفسها ! ..

وكانت مسز ( جليسون ) قد دلفت الى المتجر وانضمت الى ابنتها  
( ماري ) فكانت ملاحظتهما ملحوظة الاثر في هذه البيئة القاتمة ، وقد  
تضايقت الشقيقتان واشتد سخطها لما كان من حفاوة مسز ( هاينز )  
بالأم وفتاتها ، حتى قالت ( نابا ) منددة :

— ان هذا الجلباب الذي تلبسه ( ماري ) غالى الثمن ، وقد سمعت  
أنه هدية من زوجة القس .

فقالت ( كيتي ) :

— ان الأم وابنتها متداخلتان مع القس ( كوبرن ) الى حد بعيد ..  
والقس نفسه هو الذي مكن لابنتهم ( ايلي ) من الالتحاق بخدمة  
( شادويك ) ! .. أليس بعجيب أن تخطر الاثنتان في الثمين من الثياب ،  
حين لا يملك الشرفاء الاطهار غير الشيلان العتيقة ؟

فقالت ( نابا ) :

— والشائع ان ( ايلي ) هذه على علاقة شائنة مع ( شادويك ) ..  
فيالهم من أناس في بيت أبينا ! ..

فقالت ( كيتي ) :

— انهما تشتريان حلوى ! .. ليتهما تغصان بها ! ..

وردت عليها ( نابا ) قائلة :

— صه ! .. انهما شاهدتانا .. انهما قادمتان الينا ، وعلى وجههما  
ابتسامة النفاق والرياء ! ..

ومن عجب ان الشقيقتين الحاسدتين الحانقتين استحالتا الى المصانعة  
لدى اقتراب الأم وابنتها ، وقالت ( نابا ) ردا على سؤال مسز ( جليسون )

ان زوجها باع خنازيره حقا ولكن النقود لا تدخل اليد حتى تخرج من اليد الاخرى . . .

وكانت ( ماري ) مودة الوجه يتلأأ محياها اشراقا ونضرة . . . فقد أسكرها ما لمست من اهتمام الناس بها في كل مكان . . فان الطبيب وقف يتحدث اليها برهة وهو يدخل متجر أبيه ، وكان مع عضو البرلمان ومحرر الجريدة المحلية وقد جاءا للاشتراك في اجتماع وشيك . . وما من واحد من هؤلاء الناس البارزين الا أطرى جمالها واختصها بالكلام الطيب الرقيق . . وبهذه الروح المنتعشة مدت ( ماري ) يدها بكيس الحلوى الذي ابتاعته الى الاطفال الثلاثة ، ولكنهم أخفوا وجوههم خلف أكمامهم حياء . . فقالت مسر ( جليسون ) :

— يا لهم من أولاد طيبين ! . . بارك الله فيهم . . وكيف حال أخوتهم الآخرين يا ( كيتي ) ؟ . . مسكينة أنت والله ، فبيتك مليء بالافواه التي تطلب الطعام !

فراحت ( كيتي ) تردد شكواها مما تلقى من الفاقة والعوز ، ومسز ( جليسون ) تواسيها وتدعو الله أن يعينها على أمرها ، على حين قالت ( نابا ) تخاطب الاطفال :

— خذوا الحلوى يا أولاد . . كيف لا تتأدبون وتشكرون السيدة الكريمة ؟ كلوا ولا تخجلوا امكم .

وعززتها ( كيتي ) قائلة وهي تضرب على النغمة التهكمية اللاذعة نفسها :

— ان الحظ لا يسعدهم برؤية مثل هذه السيدة الكريمة في الوادي ! . . انهم لا يرون هناك أناقة ولا رقة ، فليس أمامهم سوى الحرق والاقذار ؟

فلم تتمالك ( ماري ) أن انتابها الغيظ لما تجلى لها من سوء طويه الشقيقتين ، حتى دفعت بالحلوى أمام الاطفال في حنق قائلة :

— كلوا . . . ! انها ليست سما حتى تخافوا هكذا .

فتشجع الاطفال واختطفوا ما تيسر من الحلوى . . . وتبعتهم الشقيقتان بعد تمنع وتأدب متكلف . . . وفي النهاية قالت مسز ( جليسون ) :

— أرجو ألا تحدث متاعب في اجتماع اليوم . . اني سمعت شائعات قوية عن التفكير في الامتناع عن دفع الايجارات .

وفجأة راحت ( كيتي ) تقول محتدمة وكأنما كانت ترتقب هذه الفرصة لاطلاق سورة غضبها :

— ولم لا يكون ما تخافين ! ما أسهل أن يتمنى بعضهم عدم حدوث متاعب وليس عليهم ايجارات يلزم دفعها لا . . ان من لا يستأجر أرضا مثلكم يحق لهم ألا يخافوا التشريد في الطرقات !



فقال ( ماري ) وقد تملكها الغضب بدورها :

– نعم ... ليس لهؤلاء أن يخافوا الا السنة السوء ! .. هلمى بنا  
يا أمى !

وانصرفتا كلتاها من استجر على الاثر ... فقالت الأم لابنتها :

– ما كان يصح أن تعاملهم هذه المعاملة يا ( ماري ) !

فقال ( ماري ) :

– ولم لا ؟ ... ان السكوت يطمع الناس فى الانسان ...

ولم تلبث الأم أن قالت وهى تشير الى ناحية فى الطريق :

– ها هى ذى اختك ( ايلي ) .

فقال ( ماري ) :

– سأذهب اليها لاكلهما يا أمى ... ابقى أنت هنا ، فان لى معها كلمة

على انفراد .

واجتازت ( ماري ) الطريق وقد عقدت العزم أن تصب جام غضبها

على رأس أختها ...

## الفصل الحادى عشر

كانت ( ايلي ) واقفة عند جدار بيت تتحدث الى أخيها ( باتريك ) والظاهر أن الأخ استبقى (مارى) ، بدليل أن (ايلي) أخفت وجهها فى طرف ( حرملتها ) وأخذت فى البكاء ، على حين راح ( باتريك ) يسر اليها كلاما بنهجة الانفعال ..

وقالت له ( مارى ) عندما اقتربت منهما :

— ماذا جرى يا ( باتريك ) ؟ ماذا تقول لها ؟

فالتفت اليها ( باتريك ) وأجاب بلهجة الغضب :

— انى أبين لها رأى فيها صراحة ... انى لن أسمح لها أن تلتحق باسمى بالوحل .

فقالت ( مارى ) :

— دعها واهتم بشئونك ... تعالى معى يا ( ايلي ) ..

فامتثلت ( ايلي ) وسارت معها الى طرف القرية وما زالت تنتحب ،

فانتهرتها ( مارى ) قائلة :

— جففى دموعك ولا تفضحينى فى السوق أمام الناس !

وفى بقعة خلوية يؤمها القرويون أيام الآحاد للسمر وازجاء الوقت بالحديث جلست الشقيقتان واستأنفت ( مارى ) كلامها قائلة :

— ماذا كان ( باتريك ) يقول لك ؟

فأنشأت ( ايلي ) تنتحب من جديد ، وقانت من خلال الدموع :

— لا أستطيع أن أبين لك .

— ولم لا ؟

— لانه شىء غير صحيح ...

— وما هو هذا الذى تقولين انه غير صحيح ؟

— أواه ! .. لاشىء ، سوى اننى أصبحت وحيدة فى ذلك القصر ، ولد أصبح الجميع ضدى .

فقالت ( مارى ) بغلظة :



— ولماذا يصبحون ضدك ؟ وما سبب وحدتك ؟ .. أستم ستة من  
الخدم والحشم فى القصر بين رجال ونساء ؟ ..

— انهم لا يكلموننى ! ..

والواقع أن ( مارى ) شعرت بكراهية جديدة لاختها .. لقد كانت  
( ايلى ) دائما فتاة كسولة أنانية ، وطالما كانت تتهرب من العمل ... ولما  
بلغت الخامسة عشرة من عمرها كانت محط أنظار الرجال ، وكثيرا ما تولى  
الاب تأديبها بالعصا لثلاث تجلب العار الى بيته ... ولما ألفتها ( مارى )  
تفوح منها رائحة العطور مما ينافى دموعها وذلتها البادية تضاعفت كراهيتها  
لها وشددت النكير عليها فى طلب الجواب ... فقالت ( ايلى )  
متلثمة :

— انه مخدومى ... انه ...

وانخرطت فى البكاء من جديد ، فصاحت بها ( مارى ) قائلة :

— كفى عن البكاء وصارحينى بالحقيقة .

فأجابت ( ايلى ) :

— ان خوفى شديد ! .. لو علم أبى لقتلنى ! .. لكنها ليست غلطتى .

وتطلعت ( ايلى ) الى أختها فى كرب وضنى حتى ذهب الغضب فجأة  
عن ( مارى ) وحل محله شعور العطف والرقّة ، واذا هى تطوق ( ايلى )  
بساعدىها وتهمس لها قائلة :

— يالك من مسكينة ! .. لم لاتصارحينى بكل شيء ، حتى أستطيع  
مساعدتك ؟

فأثارت هذه الكلمات دموع ( ايلى ) حتى أجهشت بالبكاء بين ذراعى  
شقيقتها ، ولما تماكنت أنشأت تقول بعبارات متلاحقة :

— لم يمض الا يومان على وجودى بالخدمة فى قصر المالك عند  
ما رآنى السيد ( شادويك ) فى البهو وهو عائد من الصيد ... وبعد أن  
سألنى عن اسمى وموطنى أمرنى أن أصعد معه لاخلع له حذاءه الكبير ،  
فامتثلت وأنا أذوب رهبة وخجلا . وقد أنهى بأن خصصنى للقيام على خدمته  
مما أوغر صدور خدم القصر وحملهم على مقاطعتى ، ظنا منهم بأن ثمة علاقة  
بينه وبينى مع أنى براء مما يقولون ... ومما قوى ظنونهم أنه جعل لى  
غرفة مجاورة لغرفته ، ليستنجد بى كلما انتابته نوبات الفزع التى تملكه  
ليلا ... وهذه النوبات تعاوده بسبب ادمان الحمر ، وبتأثير ما ارتكبه من  
فظائع أثناء وجوده فى الخدمة العسكرية فى الهند .. وحين تلم به النوبات  
يأخذ فى الصراخ والاستنجد ، ويتعلق بى كما يتعلق الطفل المذعور بأمه ،  
ولا يتمالك حتى أغنى له وألطفه ... وهو فى صحوه أقرب الى الطيبة ،  
وان كان يحلو له أحيانا أن يتظاهر بالقسوة فيهددنى بالسوط أو المديّة ثم  
يضج بالضحك عندما يرى فزعى وارتياعى .. هذا كل ما بينى وبينه ،  
وليس فيه ما يوجب هذه الحملة الغرضية التى استهدفت لها !

وهنا قالت لها (مارى) ساخطة :

— وهو الذى أعطاك هذا العطر الذى يفوح منك :

فقالت ( ايلى ) وقد استردت جاشها وثابت اليها جرأتها السالفة حتى بدا بجلاء أنها كانت تصطنع بعض التكلف فيما روت لاختها :

— انه عطر أعطانيه لكى أنثره على نفسى ، لأنه لا يطيق روائح الناس كما قال ... رأى ضرر فى هذا ؟ .. يظهر أن بعض الناس يسوؤهم أن يروا غيرهم فى خير وتقدم !

فصاحت ( مارى ) مهتاجة .

— أهذا رأيك اذن ؟ .. تتصورين أنى أحسدك ؟ .. ان كان ذلك فمن الخير أن تنزعى هذا الوهم من ذهنك ... سامحك الله يا ( ايلى ) ! .. بل لطف الله بك اذا سمع أبوك عن فعالك !

فهتفت ( ايلى ) وقد تملكها الهياج بدورها :

— لعلك ستسارعين اليه وتخبرينه ! .. افعل ما يحلو لك ، لكنه لن يجدنى بعد ذلك تحت سقف بيته ! .. انى أفضل الذهاب الى أمريكا على البقاء معرضة لتأنيبك لى أنت و ( باتريك ) ! .. وحتى أمى راحت تنحى على يوم الاحد الماضى باللوم والتوبيخ ! .. انكم جميعا تكرهوننى !

فردت ( مارى ) قائلة :

— لا أحد يكرهك يا مغفلة ! .. آه .. لا فائدة من الكلام معك ... أنت أنت لم تتغيرى ! .. لم لا تذهبين الى أمريكا اذن لئلا تجلبى العار على رءوسنا ؟

فوثبت ( ايلى ) قائمة وهتفت وهى تضرب الأرض بقدمها :

— سأفعل ما يحلو لى !

قالت هذا وهرولت عائدة الى القرية .. وللمرة الثانية رقت(مارى) لحالها وهمت أن تركض فى أثرها ، لولا أن ارتفع اذ ذاك هتاف عظيم فى شارع القرية جعلها تكف عن هذا العزم .



## الفصل الثاني عشر

كان الھتاف صادرا من ساحة الكنيسة المجاورة لمتجر ( ھاينز ) حيث عقد الاجتماع الشعبي ، ووقف راعي الكنيسة لدى باب الساحة يفتح الاجتماع وقد احتشد الناس في الشارع وفي الفناء بين راكعين وقاعدين فوق الحشائش ..

كان الاب ( روش ) راعي الكنيسة رجلا ضئيلا أصلع الرأس شديد احمرار الوجه ... وهو خطيب فاشل ، لكنه اعتاض عن قصوره وعييه بحركات ذراعية وصراخه المدوي ، وقد راح يقول للجموع المحتشدة :

« انكم غارقون الآن في الحمول والانحلال ، بعد أن كان لكم ماض مشرف مجيد ، وبعد أن كان انضواؤكم تحت لواء زعمائكم الوطنيين مضرب الامثال في الدنيا بأسرها ! »

وصمت الخطيب هنيهة ريثما اختطف متديلا أحمر كبيرا من ذيل سترته ومسح به وجهه ، على حين انبعث هتاف الجماهير حماسيا يصم الآذان برغم تنديده بهم وحملته عليهم، فهم يعرفون فيه طيبة القلب وحب الخير والايثار ، ومن ثم أرهفوا آذانهم وهو يتابع حملته قائلا :

« والآن ، في هذه الفترة العصيبة من تاريخ أمتنا ، لي أكبر الشرف والسرور أن أقدم لكم اليوم ، ممثلنا البارز في البرلمان ، والساعد الايمن لزعيم الشعب ومحرره الخالد ( دان أوكنيل ) ! »

وتوقف الخطيب عندما انبعث هتاف حماسي عظيم لدى ذكر اسم ( دانييل أوكونيل ) ... وما لبث أن أتم عبارته وهو يشير الى رجل جلس على مقعد خلفه :

« مستر مكارثي لالور ! »

واستوى ( لالور ) على قدميه بين هتاف متجدد ... وكان عملاقا بدينا مكتنز الجسم موفور الشحم واللحم، وقد استفتح خطابه قائلا بصوت جهر شق عنان السماء :

« أيها الرئيس المبجل ، والمواطنون الأعزاء » .

ومرة أخرى دوى الھتاف تتردد أصداؤه في جنبات الوادي .. والحق انه كان مشهدا فريدا يستهوي النواظر ... فمن خلف الخطيب قامت الكنيسة المستطيلة ذات الجدران البيضاء مظلة على الارض المعشوشبة التي تمتد أمامها منحدره ... ومن وراء الكنيسة سلسلة الجبال الشاهقة

المتوجة ذات القمم الزرقاء التى تطاول الافق ٠٠٠ وأمام الخطيب وفيما وراء طريق القرية الملتوية ، كانت الارض تمتد منحدره حتى تصل الى البحر البعيد ، تقوم على حوافيه بلدة ( كلوجر ) ذات الابراج غارقة فى غلاله من الغمام ٠٠٠ وفيما بين هذه المعالم احتشدت جماهير الشعب وقد أتلعوا رموسهم وفغروا أفواههم ارتقابا ( للكلمة ) التى تخرجهم من ربة العبودية والفقر ، وترفع عن كواهلهم نير الظلم والطغيان ! وعن يسارهم كانت ثكنات البوليس الانجليزى بطاقتها الضيقة المخيفة حيث وقف رجالها فى الساحة يحملون بنادقهم على أهبة الاستعداد ٠٠ وفى مهاب رياح أكتوبر الباردة كانت تنبعث أصوات الدواب وهى تساق فى منحدر الطريق الى البحر ممزوجة بصلاح الموكلين بها ٠٠

ولما هدأت الهتافات المدوية تابع الخطيب كلامه قائلا :

« زملائي المواطنين والمواطنات ٠٠٠ جئت اليوم بصفتى ممثلكم المنتخب فى البرلمان ، تنفيذاً لحملة شاملة ، نستهدف بها اذكاء انشاعر الوطنية فى البلاد ، من أقصاها الى أقصاها، لكى نحمل الحكومة على العمل، لوقف امتداد الكارثة التى تهدد بالقضاء علينا كأمة مجيدة ، وشعب عريق ! اننى أعنى بكلامى هذا تلك الآفة التى حلت بمحصول البطاطس ، وتلك المجاعة التى ستكون فى أعقابها حتما ، ما لم تبادر الحكومة الى اتخاذ اجراءات ناجعة فعالة ، لتفادى المجاعة ، ودفع أرزائها !! ٠٠ اننا معشر ممثلى الشعب، لموقنون من كفاية الاقوات فى هذه البلاد : بفضل من العناية الالهية الرحيمة ، نتيجة لوفرة محصول الحبوب ، مما يزيد عن حاجة الشعب لو اتبعت سياسة عادلة حكيمة ٠٠٠ لكن هذه الاقوات تتسرب الى خارج البلاد ، ومعها قطعان لا تحصى من الماشية ، طبقا لحطة موضوعة ، تحت أسماعنا وأبصارنا ؛ دون أن نحرك ساكنا ! »

وشفع الخطيب هذه العبارة بإشارة كاسحة من ذراعه الى الطريق المؤدى الى البحر ، حيث كانت القطعان تساق باطراد للشحن الى الخارج ٠٠ ثم استطرد قائلا :

« اننا نريد من الحكومة أن تبادر بمنع تصدير هذه المؤن ، وبفتح الموانى لدخول الاقوات الاجنبية الى بلادنا ، وبوقف تقطير الكحول من الحبوب ٠٠٠ وعلى الحكومة أن تستعين بأموالنا التى تبتزها منا عاما بعد عام فى صورة ضرائب مضاعفة ، لشراء المؤن اللازمة للتخفيف عن الشعب ! وعليها أن تمد السكك الحديدية ، وتنقد العمال أجورهم طعاما ! ٠٠ ونريد من الحكومة مضاعفة الضرائب على الملاك الغائبين عن أرضهم بنسبة خمسين فى المائة ، وتخفيضها بالنسبة الى الملاك المقيمين ، وتخصيص الحصىلة المتجمعة من هذا ، لبناء السكك الحديدية اللازمة ٠٠ أجل أيها المواطنون ! نحن نريد العدالة ، لا الصدقة والاحسان ، بوصفنا ممثلين لأمة عريقة ، وشعب كريم ! »

وما كاد الخطيب يبلغ هذا الحد حتى ارتفع الهتاف مدويا يشق أجواء الفضاء . وراح الناس يهمس بعضهم لبعض ، يقول الفاهمون منهم لمن



ثم يفهموا ، ان السكك الحديدية توشك أن تمتد ، وان ملاك الاراضي سيعوضون انزراع عن تلف محصول البطاطس ، وان الحكومة ستمددهم بالموثون والمال . . . . وما لبث أن استطرد قائلا :

« وأبشركم أن المجلس التنفيذي لمدينة ( دبلن ) ، قد شكل لجنة برلمانية برئاسة ( لورد جون أراين ) عمدة المدينة ستتعقد في الثامن والعشرين من هذا الشهر . . . وفي هذا الاجتماع سيتولى زعيمنا الجليل ( دانييل أوكونيل ) بسط المشروعات التي أعدها ممثلو الشعب لمواجهة هذه الكارثة ! »

وضاعت الكلمات الحثامية التي دعا فيها الخطيب الشعب الى التكاثر لموازة نوابه المنتخبين ، في اوار الهتافات المدوية التي انطلقت من كل جانب . . ولم يظفر باقى الخطباء من أمثال النشأى ( كونسدين ) والصحفى ( ديلون ) محرر الجريدة المحلية الا بأقل حظ من الاهتمام ، عندما تحدثا عن تاريخ الكفاح الوطنى لهذا الشعب العريق . . فقد تركزت الحماسة كلها حول الخطيب ( لالور ) ، الذى كان يتقبل هذه الحفاوة الكبرى ملوحا بيده ورافعا قبعته تقديرا وامتنانا . .

ثم انتهى الحفل أخيرا . . . وتدفعت الجماهير تحمل السيد (لالور) على المناكب الى سيارته الفخمة ، وتابعوها مسافة فى طريقها الى ميناء ( كلوجر ) وهم يوالونه بالهتاف والدعوات . . وفى النهاية توافدوا خائعين الى مكتب ايجارات ( شادويك ) ، يدفعون ما أخذوه من مال ثمنوا لمؤنهم التى كانت فى طريقها الى الخروج من ايرلندا ، أسوة بسيارة السيد ( لالور ) ، منقذ الشعب !

## الفصل الثالث عشر

ثم يشترك ( باتش هرنون ) ولا زوجته ( كيتى ) فى الحفل الشعبى المشهود ٠٠٠ ذلك أنه مهما يكن من طبيعة الاجراءات التى قد تتخذها الحكومة تحت املاء (ممثل الشعب) ، فانها لن تدركهم الا بعد فوات الاوان، ولا بد لهم من مال عاجل يستعينون به فى أداء ما عليهم لمالك الارض ٠٠ وكذلك قصدت أسرة ( هرنون ) الى مكتب الايجارات ووقفت تنتظر قدوم ( بريان ) ٠٠٠ وقالت ( كيتى ) لزوجها حين ألفته قد بلغ الغاية من الانفعال والتأثر حتى كان يرتعد من رأسه الى قدميه :

— اقفل فمك ولا تنبس بكلمة ! ٠٠ سأكلم أنا العجوز !

والواقع أن الزوجين مع أولادهما الثلاثة وقفوا صفا الى جدران المكتب ، كمتسولين يعرضون أمام الناس حاجتهم الملحة التماسا للعون .

وجاء العجوز أخيرا بصحبة ولده (مارتن) وزوجته ( مارى ) ٠٠ وقد بطلع الى أسرة ( هرنون ) جلسه مما دل بجلاء على انه راغب عن ثفاتهم ٠٠ ولكن ( كيتى ) تقدمت اليه قائلة :

— أيمكنك أن تسدى الينا معونة بحق الرحمن ؟

فقال لها العجوز :

— ماذا تقولين ؟

والحق ان العجوز ندم على كرمه وأريحته حين طولب بتحقيق وعوده ٠٠ وهو فى هذا متأثر بفزع الفلاحين التقليدى من بذل مالهم المكسوب بعرق الجبين دون داع ولا ضرورة ٠٠٠ ولم يلبث أن استخرج من صدره كيسا من قماش ونقر عليه بأصابعه العجفاء قائلا :

— لن يبقى فى هذا الكيس بعد دفع ايجار الارض أكثر من أربعة أو خمسة جنيهات ! ٠٠ فهل تطلبون منى هذا و ( ميخائيل ) مريض طريق الفراش ؟ ٠٠ كيف أعلم متى ينتقل الى جوار ربه وقد استحكمت العلة فى رئتيه ؟ ٠٠ أتريدون أن أبقي بغير مال جنازته ؟

كان العجوز كاذبا فيما قال ، فسيبقى لديه تسعة جنيهات بعد سداد الايجار ٠٠٠ ولكن كان عليه برغم ذلك أن يدبر نصف ايجار العام القادم، ولا مفر أن يسدده من هذا المبلغ الباقي ، اذ لن توجد خنازير يمكن بيعها فى مايو القادم والافادة من ثمنها فى السداد ، وقد يقع حادث للعجل الذى كان ينتفع بثمنه عادة فى الوفاء بهذا الايجار ٠٠٠ ناهيك بما نال محصول



البطاطس ، ومرض ( ميخائيل ) .. وكذلك يبدو مسلك العجوز طبيعيا  
فى مثل هذه الظروف ... ثم أنّ العجوز قد عهد ( هرنون ) شخصا عاجز  
الحيلة لا يعول عليه قط فى السداد والوفاء بالتزاماته ..

ولكن ( كيتى ) قالت له وهى تمسح دموعها بطرف ( المريلة ) :

— ان منحة جنيته واحد قد تسكت فيه .

فرد عليها العجوز قائلا :

— ان مبلغ جنيته فقط شيء آخر .. لاننى حسبتك ستطلبين المبلغ  
الذى أنتم مدينون به كله ، وهو عشرة جنيهات !

فقال لها ( مارتى ) :

— لا تخافى يا ( كيتى ) .. اذا كان جتيه واحد لا يكفيكم فلن نبخل  
عليكم بجنيهين .

فقال ( باتش هرنون ) :

— بارك الله فى أخوتك .

واذ ذاك تدخلت ( ماري ) قائلة :

— ما أسخى يدك وأنت تجود بماننا ! .. عجبت لاناس يشمخون  
بأنوفهم ويعيرون من لا أرض لهم ، وهم فى الوقت نفسه لا يستحون من  
التسول والاستجداء !

فردت عليها ( كيتى ) فى شراسة قائلة :

— اننى لأستجديك أنت ! دون هذا موتى تحت التراب !

فقال ( مارتى ) لزوجته برقة :

— ألا يمكن أن تترفقى يا ( ماري ) ؟

فهتفت ( ماري ) قائلة :

— وما الذى يدعونى الى الترفق ؟ أترك تزوجتنى أنا ، أم تزوجت  
جميع المنتمين اليك بصلة القرابة ، حتى فرع العمومة الثانى والثلاثين ؟  
... ان بيتك أولى بالمعروف . والاحسان أوجب لذويك الأول ... ماذا  
ترانا فاعلين ، اذا حلت بنا الأوقات العصيبة ؟

— ألم تسمعى النائب يقول ان الحكومة ..

فقالت ( ماري ) :

— الحكومة حقا ؟ ... اعتمد على نفسك ، ودع الحكومة وشأنها  
... ان الحكومة لا تهتم ...

وهنا همس العجوز بغلظة قائلا :

— منه ؟ ولا كلمة منكم ! تعالى يا كيتى ٠٠٠ وأنت يا ( باتش ) دع الكلام لى ، فأنت متسرع فى كلامك ٠٠٠ سأكلم مستر ( شادويك ) فى الأمر ، وهو يعرفنى مستأجرا طيبا ، محافظا على وعودى .

ودلفوا جميعا الى داخل المكتب ، فاذا هو غاص بالناس ٠٠٠ وجلس (شادويك) نفسه الى منضدة ، وأمامه سجل الايجارات ؛ ووقف عن يمينه ( هيجارتى ) الجابى ، وجلس عن شماله الكاتب يأخذ الأموال ويقدم الايصالات ٠٠٠ وقد اشتمل المكتب فوق ذلك على دولاب ذى أدراج كثيرة ، وخزانة لدى الحائط ، وصورة للملكة ( فكتوريا ) عُلقت بالجدار خلف المنضدة ٠٠٠ وكان جو الغرفة قارس البرد شديد الرطوبة ؛ حتى ظهر أثرها فى تلك البقعة السوداء الكبيرة البادية فى السقف ٠٠٠ ولم تفلح نار المدفأة الفاترة فى تدفئة جو الحجرة ٠٠٠

وكان ( شادويك ) فى لباسه بادی الشعث والتهدل ، فى كم سترته مزق وفوق عينيه عصابة ، وقد نجم كلاهما من ركوب حصانه الجديد صباح اليوم ٠٠٠ وقد ثبت بالتجربة أنه أبعد ما يكون عن الاصاله ، كما صورته ( ريلى ) ٠٠٠ وكانت نتيجة سقطة ( شادويك ) من فوق ظهر الجواد ان غدا حاد الطبع ملتهب المزاج ، حتى راح يصب جام سخطه على رهوس المستأجرين ، وجعل يصرخ فيهم صراخا جنونيا مرعبا ٠٠

كان يقول لهم :

— ماذا تقصدون ؟ ٠٠٠ ألا تستطيعون دفع الايجار كاملا ؟ ٠٠٠ هراء ! ماذا يهمنى اذا تلف محصولكم ودب اليه الفساد ! ادفعوا ما عليكم والا احتملتم النتائج ! ٠٠٠ ما رأيك فى هذا الشخص يا ( هيجارتى ) ؟

وكان الناس بين يديه أذلة صاغرين ، يتقدمون اليه مسلمين وقد شدوا قبعاتهم الى صدورهم ٠٠ وكانت ( ماري ) تسجل هذا كله فى ذهول ٠٠٠ ولم تكذ تصدق أن هذا الرجل الخفيف الأحمر الشعر البادى السلطان ، هو المخلوق المستضعف الذى يتعلق بأختها مستنجدا فى نوبات سكره ٠٠٠ لقد استهواها هذا المشهد ، وفى الوقت نفسه أفعم قلبها رعبا ٠٠٠

ولما جاء دور العجوز ( بريان ) رفع ( شادويك ) رأسه وشاهد ( ماري ) ٠٠٠ فسرعان ما سمرت نظراته فيها وأمال رأسه فوق عنقه الغليظ كعنق الثور ، تماما كما فعل حين أبصر أختها ( ايلى ) من قبل ٠٠٠ وما لبث أن همس فى أذن ( هيجارتى ) دون أن يحفل بالعجوز ، فرد ( هيجارتى ) همسا بهمس ، وأدركت أنه يسأل عنها ، ولم تتمالك أن تراجعت ما وسعها التراجع وأخفت وجهها فى طرف مريلتها ٠٠

وقال العجوز على حين كان الكاتب يعد ايصال سداد الايجار :



– سألتك العفو يا صاحب السيادة ٠٠٠ ان ( باتش هرنون ) هذا متزوج ابنتي ، وبودي أن أقول كلمة من أجله ٠٠

فقال ( شادويك ) ومازالت نظراته مسمرة في ( ماري ) :

– ماذا يقول ؟

ولكنه كان يناجي نفسه بهذه العبارة :

– هذه أختها اذن ؟ ٠٠ انها والله أحلى منها وأجمل !

وقد أجاب العجوز قائلا :

– ان ( باتش هرنون ) في موقف سييء يا صاحب السيادة ٠

وانشأ العجوز يشرح موقف ( هرنون ) التعس ويبين استحالة قيامه بسداد الايجار كاملا ٠٠٠ واذا ( شادويك ) يلتفت لحسوه بشراة ويصيح فيه قائلا :

– ما هذا ؟ ٠٠ عمن يتكلم هذا الرجل يا ( هيجارتي ) ؟

فأجاب ( هيجارتي ) :

– ان ( باتش هرنون ) الذي يتحدث عنه في موقف سييء فعلا ٠٠ ان بقرته ماتت في الربيع ٠٠ وتأخر في سداد نصف ايجار العام الفائت ٠٠٠ ثم جاءت الآفة فأصابت محصوله ٠

فقال ( شادويك ) :

– تبا للمحصول ! ٠٠ وما ذنبي أنا ؟ ٠٠ ليدفعوا ما عليهم ! ٠٠ انك تخفي النقود ! اننى أعرفك ! ٠٠ أخرج النقود من مخبئها وادفع في الحال !

فقال العجوز :

– انه خالي الوفاض ٠٠٠ وقد جئت أعرض سداد جنيه مما عليه ، حتى تنهيأ له الفرصة لبعض الكسب ، ولا أطمع الا في وقف الحجز ٠

فهتف ( شادويك ) قائلا :

– جنيه ؟! ما هو دين هذا الرجل يا سمبسون ؟

فأجاب الكاتب :

– عشرة جنيهاً وستة شلنات وثمانية بنسات حتى اليوم يا ماستر شادويك ٠

– ماذا ؟ ٠٠ وتعرض مبلغ جنيه واحد ! ٠٠ يا الهى ! انك لمجنون أيها الرجل !

فغمز ( مارتن ) العجوز الذى قال :

— بوسعى تدبير جنيهين من أجاه ، ولن يبقى لى . . .

وبيدى راعشتين أخرج العجوز من كيسه جنيهين ذهبين وضعهما فوق المنضدة ، على حين راح (هيجارتى) يهمس فى اذن (شادويك) مسترحما . . . فما لبث (شادويك) أن نظر الى (مارى) مرة أخرى ولسان حاله يقول :

— من الخير ألا أشتد عليهم . . . انها بارعة الجمال حقاً .

ثم قال بصوت مرتفع :

— حسنا . . . سأمنحك فرصة أخيرة . . ما اسمه ؟ هرنون ؟ . . لا بأس . . . عليك تدبير المبلغ كاملاً فى . . . ساءهلك ثلاثة أشهر . . . فإن لم تدبره فى هذا الموعد ، حق عليك مواجهة النتائج . . . وستكون وبالاً عليك والله ! . . . انصرفوا !

ولما تقاطروا مبتعدين عنه تبع (مارى) بنظراته ، وهمس فى اذن (هيجارتى) قائلاً :

— ما صلتها بالمدعو (هرنون) هذا ؟

فأجاب (هيجارتى) همساً :

— ان أخت زوجها متزوجة منه .

وفى الشارع وقف النساج فى نفر من الناس يتحدثون . . . ومالبث واحد من الواقفين أن هتف به وهو يجذبه من سترته :

— ألم تسمع ما قاله الخطيب (كونسيدين) عن تعريض صدورنا للرصاص دفاعاً عن الوطن ؟

فرد النساج قائلاً :

— لعنهم الله ! . . . وهذا كلام يتشدقون به ! . . . انهم لا يفعلون شيئاً ! . . . وكن على كلامى مع الشاهدين !

ولما أبصرته (مارى) قالت لنفسها :

— يجب أن أكلمه فى أمر (ايلى) . . . لكن ما الفائدة ؟ . . . انه مشغول فقط بالمسائل التى لا تعنيه !

واشتد البرد بحلول المساء . . . وعصفت الرياح . . . فولى أفراد الأسرة وجوههم شطر البيت ، وقد وضعوا ما اشتروه فى خرج الفرس . . . وعند مشارف القرية أوقف (مارتن) الفرس واركب (مارى) فوقه . . . وقال لها برقة :

— ما كان يجب أن تحملى على (كىتى) هذه الحماة .

فبادرته (مارى) قائلة :



— لو أننا أخذنا على عاتقنا دفع الإيجار عن كل مسكين محتاج ،  
لما كفانا ذهب الأرض !

فرد عليها (مارتن) قائلاً :

— لكن لا يمكن مع ذلك أن نكون قساة متحجرين !

واستاء كل منهما من الآخر حتى تابعا طريقهما الى الوادى فى  
صمت وقد تلبدت سحب سوداء مستطيرة فى السماء حتى كست أديمها،  
وبدت أغاني القرويين العائدين الى دورهم موحشة ثقيلة .

## الفصل الرابع عشر

هطل المطر هذه الليلة ، ودام هطوله سبعة أيام غزيرا دافقا حتى استحال على أبناء ( الوادى الاسود ) أن يخرجوا البطاطس المختزن من الحفر الارضية كما كان شأنهم فى أعقاب السوق ...

والحق أن هذا العائق أهاج العجوز ( كليمارتن ) وأسخطه ، واضحى لا يقر له قرار برغم عجزه عن القيام بعمل ما حيال المحصول ، اللهم الا أن يعمد الى الانتحار بالعمل فى هذا السبيل المهلك ... ناهيك بشدة البرد وانهيال الثلج على فترات بين سيول المطر ... وبرغم ذلك كان العجوز يبدى من النشاط المستغرب فى كهل مثله ما جعله فى حركة دائبة من مطلع الفجر حتى يأوى الى مضجعه فى الليل على كره منه وهو يتوجع من علة ( الروماتزم ) التى به ... وكان يغطى كتفيه بكيس ويذرع الطريق ركضا فيما بين البيت و ( الجرن ) وهو يقلب بصره فى السماء صائحا ناقما ... فان دخل البيت أطبق فمه ولزم الصمت بسبب حال (ميخائيل) الصحية ، ولكن سكوته كان أشد إثارة من صياحه ونقمتة وهو جالس متأهب تقدح عيناه شررا كمن يتحفز للوثوب ...

ولم يكن هذا القلق الشديد من جانب العجوز ناجما كله من خشية تلف المحصول تلفا تاما بفعل المطر المنهمر بعد أن نالت منه الآفة ما نالت ... فقد كان أخشى ما يخشاه أن يستفيق الزوجان الفتيان من أحلام السعادة لينازعاه السلطان فى دائرة البيت ... وكذلك جعل يراقب ولده الأكبر كما يراقب الأيل العجوز منافسا فتيا فى القطيع ...

ولكن لم يبد من ( مارتن ) حتى الآن أدنى اهتمام بشيء فى الحياة فوق سعادته بزواجه الجديد ... وانما كان يحلو للعجوز فى سورة غيرته لما يرى من افتتان الزوجين أن يفعل كل ما يؤدى الى مضايقتهما ، وكان على الأخص يعير ( مارتن ) بخموله قائلا :

— ما كان أحراك أن تبحث عن شيء كسلة تصلحها ، بدل الجلوس هكذا عاطلا ! ... ان الرجل المجد لا يعدم شيئا يفعله ! ... يا لقسوة الاقدار اذ اختارت العلة أعز ابنائى هدفا !

وكان فى الحق يسبغ على ولده العليل جل رعايته واهتمامه ... وكان العجوز يتكلف الإيمان بتمائل ولده للبراء العاجل برغم اطراد الاضمحلال فى صحته بعد ما نزف من دمه ... لكن العجوز كان يعلم أن ( مارتن ) لن يجسر على منازعته السلطان فى البيت ما بقى (ميخائيل) على قيد الحياة ... ولذلك اختص (بريان) ولده العليل بكل ما فى البيت



من طبيبات يفدقها عليه اغداقا ويبدلها له في غير ضن : من دجاج يذبح تباعا برغم عزوف ( ميخائيل ) عن لحمه واقتصاره على النزر اليسير من الحساء ، ومن زبد وبيض يؤثر بها اثارا ويذاد عنها كل انسان سواه ... فاذا انتابه السعال ليلا خف العجوز الى جانبه كالسهم يسأله عن حاله ويقدم له الشراب ويشد حوله الاغطية ويجلس اليه يسامره في سهره وأرقه ....

ولم يكن يعنى العجوز أن يقابل ( ميخائيل ) هذا كله بالفتور والاعراض ... فقد كان مدفوعا الى هذا المسلك بشيء أقوى من محبته لولده ... اذ كان يحس الشيخوخة تدب اليه وتطبق عليه ، فكل قصاراه أن يدرع بكل ما فيه من حيلة ونشاط ليبقى صاحب السلطان النافذ والكلمة العليا بين ذويه ...

فلما كان اليوم السابع وانقطع هطول المطر ظهرا ، لم يتمالك العجوز أن صاح من الفرع كفلام أطلق من محبسه ، وهتف يقول لمارتن :

— جهز الفرس واسرجها ، على حين اذهب لفتح حفر البطاطس !  
فقال له ( مارتن ) متكاسلا :

— انتظر الى ما بعد الغداء ، نقد اوشك الطعام ان يعد .

لكن العجوز جعل يسب ويلعن ، واندفع الى خارج البيت ... واذا ذاك نهض ( تومسي ) من حيث كان جالسا في ركن المدفأة ، فجعل يتمطى قائلا :

— هيا بنا يا ( مارتن ) ... يحسن ان نرافقه .

واخذا يسيران في اثر العجوز ... اما هو فقد حمل مجرفته من ( الجرن ) وجعل يركض عبر الحقول الى مزرعة البطاطس المتساخمة للنهر ... وكانت الارض غارقة في مياه الامطار حتى كان الرشاش ينبعث في اثره وهو يركض ... وقد صاح فيهما على مبعده :

— يا اله السموات ! ... لقد فاض النهر !

فقد طمت مياه النهر حتى اغرقت شاطئيه واوشكت ان تبلغ مزرعة البطاطس ... لكن الحفر بقيت برغم ذلك بمنجاة من المياه ... وسرعان ما أخذ العجوز يحفر بالمجرفة ويزيل التراب عن اوراق الشجر التي تغطي محصول البطاطس المختزن ... وما أن أزاح الاوراق حتى استقام متباطئا وجعل يحرق منعقد اللسان الى اكداش البطاطس المتعفنة التي دب اليها العطب في الحفرة ...

وتراجع العجوز خطوة وجعل ينظر الى السماء في اشفاق وقد انفقدت في وجهه ابتسامة بلهاء كأنما يسأل المقادير تفسير هذه النازلة المروعة ... وما لبث أن ركع على ركبتيه قرب الحفرة الكبيرة ودس ذراعيه حتى المرفقين في جوفها وجعل يتفقد أرجاءها بيديه ليقدر مدى العطب الذي حل بالمحصول المختزن ...

وأقبل ( تومسي ) وهو على هذه الحال ، فلم يتمالك أن ففر فاه وهتف قائلاً :

— ماذا جرى بحق الرحمن ؟

فانتفض العجوز في مكانه ، ومال الى الوراء ، ثم استوى قائماً ببطء ، ثم استدار وبسط نحو ( تومسي ) ذراعين يقطر منهما ذوب المحصول العفن ، وقال متلعثماً منعقد اللسان :

— هذا هو كل ما بقي من المحصول !

فقال ( تومسي ) وهو يرفع قبعته رهبة ووجلاً :

— الرحمة يا اله السموات !

وبارح العجوز المزرعة مقوس الظهر مدلى الذراعين وقد تجلت في هيئته فجأة علائم الشيخوخة والعجز ... فان الضربة قد استنزفت حيويته واستنفدت طاقته ...

ولم يلبث وهو يجتاز سياج المزرعة ليفضي الى الحقول المجاورة أن كف عن السير وراح يجيل نظره في أرجاء الوادي ...

كان المشهد مروعا ... فان السحب لم تنحسر بعد المطر ، وما برحت السماء قائمة ملبدة بالغيوم ، يتساقط منها الرذاذ هنا وهناك ... وفي هذا القتام السائد ، بدت الجبال المحيطة بالوادي وكأنها تحديق به وتطبق عليه ... ولاح هذا الأخدود الضيق بين الجبال ، وكأنه في أقفاره من كل زرع ، شاطئ موحش انحسرت عنه المياه بفعل الجزر ... وكانت السيول الجياشة تنحدر من سفوح الجبال الى التربة المسودة المشبعة بالبلل لتخفي عريها وتدارى سوءتها ... ولم يكن ثمة من صوت الا جيشان المياه المتساقطة من عل ...

وقال العجوز متأثراً بهذا المشهد المروع وهو يتابع طريقه الى البيت :

— انها لعنة حلت بأرضنا !

ولما وجد ( مارتن ) يسرج الفرس خارج ( الجرن ) قال له :

— وفر على نفسك هذا العناء ! لقد ضاع كل شيء !

فقال ( مارتن ) وهو يمسك عما كان بسبيله :

— ماذا تقول ؟

فكان جواب العجوز أن بسط ذراعيه الملوثتين ثم تابع سيره الى البيت ، حتى لم يملك ( مارتن ) الا أن يهرول شطر المزرعة لينظر الامر بنفسه ...

ولما دلف العجوز الى المطبخ استفهمت منه ( ماجي ) عما جرى ،



بيد انه لم يجب ، بل خلع سترته وذهب يفسل يديه من دلو خلف الدار ... وكانت (ماجى) منهمكة في ذبح دجاجة (ميخائيل) وتنظيفها. فلما رأت زوجها على هذه الحال ألقت الدجاجة على الارض وهرولت الى الفناء تتبعها (مارى) ... وبقي (ميخائيل) وحده مدثرا بغطاء قرب النار ... فما أن رجع أبوه متجها نحو المدفأة حتى قال له (ميخائيل) بصوت أقرب الى النحيب :

— الى أين تذهبان ؟ وماذا جرى ؟

فأجاب العجوز بسكون :

— ان البطاطس المختزن ناله العطب في جوف الحفرة .

وفجأة شاعت في سحنة (ميخائيل) الكاسفة أمارات جدل غامر ، وقال :

— عطب حقا ؟ هل دب فيها العطب ، مثلى ؟

وانطلق يضحك ضحكات مروعة حتى نظر اليه العجوز فاغر الفم ، وقال له :

— عفا الله عنك يا بنى !

ثم ذهب العجوز الى غرفته وتجرد من ثيابه واندس في الفراش ...

ولما رجعت (ماجى) الى المطبخ سألت (ميخائيل) عن أبيه فهز الفتى العليل منكبيه وأشار الى غرفة النوم .. فدخلت اليها .. ولم تتمالك أن انتفضت حين وقع نظرها على العجوز ممددا على ظهره في الفراش ... وقالت له :

— ماذا يؤلمك ؟

بيد أنه راح يحدجها بنظراته صامتا وقد استلقى على ظهره مشبك اليدين فوق صدره كأنه جثة مسجاة ، وقد برزت لحيته البيضاء فوق حافة الغطاء ... فكررت سؤالها له ، واذا هو يجلس في الفراش ويهتف مهتاجا وهو يلوح بقبضته شطر النافذة متوعدا :

— لقد قضيت حياتى كلها اصارع واكافح ! ... والآن قد غلبت على أمرى ! ... فلينزل (ابليس) سخطه ! ... ولتحل اللعنة !

ثم استلقى مرة أخرى وشبك يديه فوق صدره ، وجمد في مكانه ...

## الفصل الخامس عشر

تبين أن عطب البطاطس المختزن لم يكن بالقدر الذى صوره العجوز ... فقد وجدت حفرة تامة العطب ، ولكن الحفرتين الباقيتين ، ومنهما تلك التى ينال ( أوهانلون ) نصف محصولها ، سلمتا من العطب ، باستثناء بعض ثمار قليلة ... ومهما يكن من ذلك كله ، فقد تهيأ لآل ( كيلمارتن ) أن يستخلصوا لأنفسهم فى النهاية قدرا من البطاطس لا بأس به .

وقال ( مارتن ) تعقبا على هذه النتيجة :

— لن تكون أمانا فرصة لتربية الخنازير فى العام المقبل .. فلن يتوافر من البطاطس لطعامنا نحن ، وبعد ما يلزم ( للتقاوى ) ، الا القليل ، دع عنك طعام الخنازير ...

والواقع أن هذه الكارثة كشفت عن معدن أصيل ، ظل كامنا تحت مظهره الهادئ .. وقد تضاعفت محبة ( ماري ) له فى غضون الايام الثلاثة التى دأبت الأسرة فيها على نقل البطاطس المختزن الى ( الجرن ) ، وزاد تعلقها به ، اعجابا بما تجلى لها من جلده ودأبه ..

وما لبث ( مارتن ) أن نزع فجأة الى السيطرة كأيبه .. فقد حدث وهم يتناولون طعام الغداء فى ذلك اليوم الاول أن راحت أمه تندب ما نزل بالمحصول المختزن ، واذا هو يسكتها غاضبا ويرميها بتنظرات شذراء كما كان يفعل أبوه من قبل ، حتى لم يتمالك العجوز عندما سمع هذه الغضبة وهو مستلق فى فراشه أن قال لنفسه راضيا :

— مرحى ! ... ان الروح قد انتقلت اليه ، ما فى ذلك شك !

وفى الحق ان العجوز الماكر لم يكن الا متكلفا شدة الحزن لهذه النازلة ... فهو لم يلزم فراشه ويتظاهر بالاستسلام لأجله القريب ، الا لكى يسلم ولده زمام السلطة ، موفور الكرامة ، عزيز الجانب . وقد ظل فى مضجعه طيلة الايام الثلاثة التى استغرقها نقل المحصول وتنقيته وخزنه فى ( الجرن ) ، حتى اذا فرغوا من ذلك استدعى ( مارتن ) الى غرفته وقال له وهو يقدم اليه الكيس المشتعل على رأس مال البيت :

— خذ هذا واشرف على شئون البيت والارض ، والله يباركك .. اننى وامك قد اقتربت نهايتنا ، وقد حان الوقت لكى نستريح ونتأهب للقاء ربنا .

وارتعشت يد العجوز وهو يقدم الكيس وتندت عيناه بالدمع .. وفجأة دفع لحيته الى الامام وأردف بعنف :



— لكن ضمح نصب عينيك هذه الحقيقة ... ان لعنة الله خليفه  
ان تحل على رأس كل ابن يتنكر لوالديه !  
فقال له ( مارتن ) بهدوء :

— لا تخف شيئاً من هذا ... ان لكما ان تستريحا وتقرأ عينا .  
وثفا أنى و ( ماري ) سنكون مضرب المثل فى الجد والنشاط .  
فقال له العجوز :

— بارك الله فيك يا ( مارتن ) ... ولعلك تذكرنى ، اذا ذكرتنى ،  
بالخير .

واستيقظ العجوز غداة يوم التسليم هذا عند الفجر ، وأيقظ أهل  
البيت كعادته بصوته المجلجل ... بيد انه لم يخرج لحلب البقرة ،  
ولم يصدر أمره لأحد ... وما أن تناول فطوره حتى خرج يدب على  
عصاه مهرولا ، وأنشأ يطوف بأرجاء أرضه اليسيرة وما من شبر فيها  
الا وهو معروف له عزيز عنده كحبة قلبه ... وقد تفقد البقرة والعجل  
والفرس والغنم ، وقادها جميعا من مكان الى مكان ، وتحدث اليها كما  
يتحدث الى انسان عاقل ... فلما اطمأن الى أن كل شىء فى أرضه  
الحبيبة على مايرام ، وبعد أن سوى الحجارة المتساقطة من السياج  
ونثر السماد الحيوانى فى التربة ، سار فى طريق القرية وقضى نهاره فى  
الحديث والسمر مع أقرانه من الكهول ، أولئك الذين لا ينعمون فى  
حياتهم براحة الا تلك الراحة الوحيدة المتاحة للفلاح ، والتي تسبق نهاية  
الأجل ...

على أن أحاديث هؤلاء الشيوخ لم تكن كأحاديث الفلاحين فى الايام  
الخوالى ، من أسمار حلوة ، وأنباء عن الأهل والأرضين ، وحفلات  
الزواج ، وحلبات المصارعة . فان عطب المحصول ونذر الجوع شابت  
أحاديث الناس ، وطبعتها بطابع المرارة والوجوم والحزن ... والواقع  
ان هذا العطب كان عاما شاملا ، ومن الناس من أصبحوا يعولون فى قوتهم  
على ما ينالونه من صدقة الجيران ... أما المملقون منهم واللاجئون  
والمستأجرون الذين خوت أرضهم من كل زرع أو زرع ، فقد ظلوا فى  
عقر دورهم يتطلعون الى عون الحكومة واسعافها . ولئن لم يأت هذا  
العون المرتقب لساء المآل ولم يبق أمامهم سوى الطريق الى الملجأ ...  
وعلى هذه الصورة قبعوا فى أكواخهم حيارى عاجزين .

وعلى النقيض من هذه البأساء الشاملة ، كان الزوجان الفتيان  
فى بيت ( كيلمارتن ) يعملان دأبا كالنحل ... فان ( ماري ) لم تكذب  
تملك زمام السلطان فى يدها حتى عقدت عزمها على اجراء تغيير تام فى  
نمط الحياة بالدار ومن فيها ... وكانت خطواتها الاولى فى هذا ان  
حملت ( مارتن ) على استصلاح رقعة الارض الصخرية المهمة الممتدة  
خلف البيت ، وهى أرض تناهز مساحتها ربع فدان لم تمتد اليها اليد  
من قبل ، وقد قررت ( ماري ) أن تجعل منها حديقة لزراعة الخضر ...  
وقالت لزوجها فى هذا المقام :

— ان هذه الارض افضل كثيرا من الارض التى اتخذ فيها والدى  
حديقة ... وانظر الآن الى ما استنبته أبى فيها من بصل ولفت وكرنب  
مما هو خير غذاء فى الارض جميعا ... ما كان لامرئ أن يجوع قط  
وله شبر من الارض يقتنيه ... واذا فسد فى أرضه محصول كان له  
فى المحصولات الأخرى خير البديل ونعم العوض ٠٠٠ قم يا ( مارتن )  
بتمهيد هذه الارض حتى الربيع ، لكى نبذر البذور فيها وقت ذاك ...  
وليقل الناس فى ذلك ما يقولون ، لكننا سنضحك منهم ملء أنفوانا حين  
نأكل مما تنبت هذه الارض لنا !

وكذلك بثت فى ( مارتن ) من روحها وحميتها ما جعله يشمر عن ساعد  
الجد ويعمل مع ( تومسى ) فى تفتيت الارض الصخرية وتسويتها  
وخلطها بطبقة من التربة جىء بها من حفرة خلف ( الجرن ) ...

وكان العجوز يسخر من هذا العمل ويعرض عن المشاركة فيه  
بنصيب ، فهو فى نظره عمل انقلابى خطير ، حتى قال فى صدره :

— لن تجنوا من هذا غير تقرير زيادة الإيجار ، اذ يرون ما يطرا  
على الارض من اصلاح وتحسين .

فانبرت ( ماري ) ترد عليه قائلة :

— لن يكون شئ من هذا الذى تقول ، حتى لو اضطرت الى خنق  
وكيل المالك بيدى هاتين !

والحق ان ( ماري ) كانت معينة لا ينضب من النشاط والافكار  
الجديدة المتكررة فى كل شأن من شئون الحياة ... وكانت تجوب  
الارض من أقصاها الى أقصاها متناولة كل شئ بالتغيير والتبديل ،  
حتى لم تتمالك (ماجى) المسكينة أن ثارت لتغير أساليب الحياة المعهودة  
على هذا النحو الصارخ ، وكانت تقول لزوجة ابنها :

— لا فائدة من محاولة التخلص من القذارة فى هذا البيت ...  
فقد خلق الفقراء للقذارة .

فجابهتها ( ماري ) قائلة :

— اذن ... سأعمل على أن أصبح من الاغنياء ... وقد وجدت  
ان هذه القذارة هى العقبة الأولى فى طريقى .

وكان ( تومسى ) اشد المناضلين ضد حملة النظافة هذه ... فقد  
أصرت ( ماري ) على أن تكون له حلة جديدة من صوف هذا العام ...  
ولما اتم الحائك صنع الثياب اللازمة لأصحاب الدار وذهب لشأنه ،  
أراد ( تومسى ) أن يلبس حلته الجديدة فوق أسماله العتيقة ، ولكن  
( ماري ) حالت دونه قائلة :

— عليك بالاغتسال أولا ، قبل أن تضع هذه الملابس فوق  
جسدك القذر !

فقال لها ( تومسى ) :



— رحماك يا أختاه ! ... اتحبين أن أموت من البرد ؟

فقلت له :

— لا تخف ... من الآن ستحيا حياة انسان كريم

وجاءت بطشت كبير وضغطته في غرفة نومها وملأته بالماء الساخن ... ثم أمرت ( تومسي ) أن يدخل الى الغرفة قائلة :

— انزع خرقك القذرة ونظف جسدك ... ادخل معه يا (مارتن) ونظفه بالفرشاة والصابون هذين .

فهتف بها ( تومسي ) مشدوها مرتاعا :

— هل طار صوابك حتى تفعل بي ماتريدين ؟

فضج ( مارتن ) بالضحك حين شهد ارتباغ خاله على هذه الصورة ... وقالت (ماجى) بدورها ساخطة !

— ليس من الصواب أن تسخرى من المسكين هكذا !

فردت عليها (مارى) قائلة :

— أنا لا أسخر منه ... انما أبتغى خيره ... من المخزى أنه قضى حياته على هذه الصورة ... وسوف ترون فيه رجلا آخر متى فرغت منه .

وعند ذلك صاح ( تومسي ) وهو يضرب الأرض بقدمه :

— أبدا ! لن أدعك تفسليننى وحسب القديسين ! ... ان الموت والعداب والتقطيع أهون عندى من هذا !

واذ ذاك عمد ( مارتن ) الى ( تومسي ) المنكود وحمله الى داخل الغرفة غير عابىء بصراخه وهو يقول له :

— دعنى أيها الشيطان ! ... اتركنى وشائى !

وقالت ( مارى ) لزوجها :

— ناولنى خرقه متى نزعته عن جسده .

وكانت صرخات ( تومسي ) تسمع على مسافة نصف ميل وقد أخذ (مارتن) يجرده من ثيابه ويفرقه فى الماء الساخن ... وبعد أن قذف الخرق البالية الى ( مارى ) أخذ يدلكه بالفرشاة والصابون فى غير ترفق ...

أما ( مارى ) فقد حملت الاسمال الى الحوض واشعلت فيها النار ... ثم صعدت الى الغرفة العليا بمزبد من الماء والصابون وألقت مافيهما من الخرق التى هى قوام فراش ( تومسي ) وأعملت فى المكان تنظيفا ... حتى اذا مفرغت من هذا كان الفتى (تومسي) قد أتم حمامه ولباسه التنظيف الجديد ... فقلت له :

— الا تشعر الآن بأنك أصبحت احسن حالا مما كنت ؟  
فتكلف ( تومسي ) الشعور بشدة البرد وجعل يصك أسنانه صكا  
ويقول متلعثما :

— غفر الله لك ياأختاه ! .. ستقع على رأسك تبعة موتى !  
وجلس القرفصاء قرب النار يرتجف كأن زوال القدارة عن  
جسده قد أصابه بهذه الرعدة ... ولكن ما هو إلا أن قضى ليلته الاولى  
في فراشه النظيف حتى أعرب لها عن عرفانه بالجميل ، وقال مصطنعا  
التبرم وهو يهبط من عل :

— عجبا يا أختاه ! قالوا في الامثال ان استبدال سيد بسيد شيء  
كريبه ... ولكنى والحق لم أجد مصداقا لهذا الذي قالوه !

وعلى هذه الصورة تقبل افراد الأسرة هذه الحياة الجديدة التي  
اشاعتها (مارى) بينهم ، وقد اسلسوا لها القياد وهي تغرس فيهم بذور  
التحضر التي انتقلت مع أبيها النساج الى (الوادي الاسود ) ...  
وكانت ( مارى ) بدورها سعيدة كل السعادة ان يكون لها حظ تشكيل  
بيتها الجديد وفق ما تحب وتشتهى ، الى حين أنها لم تلق بالا الى  
الكارثة المخيمة في الأفق ...

لكن هذه الكارثة ما عتمت ان اتسع نطاقها فجأة وانتشرت سحبها  
فوق الوادي كله ... فقد استفاضت شائعة مؤداها أن الحكومة  
الانجليزية رفضت أن تبذل للشعب عونها ومساعدتها ... وسرعان  
ما أخذت مواكب المعدمين تجوب طرقات القرية ...



## الفصل السادس عشر

جلس الأب ( روش ) فى بيته مع ضيفه الدكتور هاينز والقس ( توماس جيلان ) يتلو عليهما مقتطفات من مقال ورد فى احدى صحف مدينة « دبلن » وهما يصطليان قرب المدفأة وينصتان اليه وهو يقرأ فى أنفعال شديد :

« لقد انقطع كل رجاء فى معونة تأتي من انجلترا للتخفيف من حدة هذه الكارثة ... فقد كان من أثر الاجتماعات الشعبية العدائية ، ومقابلة المساعدات السابقة بالجحود ونكران الجميل ، والاكتسابات الوطنية لتعزيز حركات الزعماء الوطنيين - كان من أثر هذه العوامل جميعا أن ضعفت لدى أهل البر والاحسان كل نزعة للتيسير على الشعب الأيرلندى وأسداء المساعدة له . »

والحق أن الأب ( روش ) لم يكذب يتم هذه الفقرة حتى فرك الصحيفة بعنف فى يده ونزع منظاره عن عينيه يسراه وجعل يهزه فى وجه سامعيه وقد احتقن وجهه الملىء المستدير غضبا ... ولم يلبث أن مال نحوهما وهتف قائلا وقد انعكس لهب المدفأة على صلعته فزادها بريقا :

- ذلكم هو جانب من المفتريات التى يسوقها السير روبرت بيل رئيس وزراء انجلترا الى زملائه ! .. أرايتم كيف يعدون المساعدة المنشودة لونا من الاحسان والصدقة ؟

ثم بسط الأب ( روش ) ذراعيه نحو ضيفه واستطرد قائلا :

- ان انجلترا تستولى على خمسة ملايين من الجنيهات سنويا من الايجارات الزراعية وحدها ! .. او بالأحرى ايجارات الارض التى اغتصبها اغتصابا وتضع يدها عليها بحكم الفصص والسلب ، ويحد السيف والنار ! .. أجل ! .. خمسة ملايين من الجنيهات عن الايجارات الزراعية وحدها ... ناهيك بالضرائب التى تجبىها ، وثلاثة ملايين طن من الحبوب تستولى عليها ، ومليون من رؤوس الماشية بين ابقار وأغنام وخنازير ... والآن ، فعندما ينكب الشعب الأيرلندى المسكين ، الذى يمدد هذا الثراء عاما بعد عام ، فى محصول البطاطس الذى تضطره انجلترا اضطرارا الى الاعتماد عليه وحده فى طعامه ، نراها تتحدث عن الصدقة والاحسان ! الا اننا نطلب المدالة ! .. اننا نريد ما هو حق لنا ! ..

فقال الأب ( جيلان ) باكتئاب وهو يبسط يديه نحو لهب المدفأة .

— العدالة !.. ما أيسر نيل هذه العدالة المنشودة ونحن نستجديها  
بالأيدي الخاوية .. ان الأيدي الخاوية لن تنيلنا من انجلترا سوى  
الهباء والعدم !

فلم يتمالك الدكتور ( هاينز ) أن تطلع الى الأب ( جيلان ) مشفقا  
متحيرا ... فان الطبيب لم يكن حاد الذهن سريع الخاطر ، وما كانت  
اشارات القس وعباراته الا لتزيده حيرة وبلبلة ... بيد أنه من ناحية  
اخرى كان شديد التعلق بهذا الرجل ، ومنذ عودته الى مقاطعة (كروم)  
طبيبها الرسمي وهو يزيد تأثرا بشخصية هذا القس العالم الحصيف .

والحق ان الأب ( جيلان ) كان شخصية فريدة .... فهو برغم  
غزارة علمه وحدة ذكائه لم يزد في مراتب الكهنوت عن هذه الوظيفة  
الثانوية المتواضعة في الريف مع أنه ناهز الستين من عمره ، في حين أن  
من هم دونه سنا ومقدرة قد فاقوه رقا وغدوا من رؤسائه ... لكن  
مصابه كان ناجما من تمسكه بأراء سياسية معينة ... فهو يؤمن  
بالثورة المسلحة ضد الظلم والاستبداد ... ولا شك أن ايمانه بالالتجاء  
الى السلاح للتحرر من ربة الطغيان ، كان هو العامل الاكبر في بقائه  
قسا مغمورا يعظ قوما جاهلين ...

ولم يلبث الطبيب أن قال للأب ( روش ) :

— وماذا تظن الزعيم ( اوكونيل ) سيفعل ؟ .

فضحك الأب ( جيلان ) مرة اخرى متهكما ، على حين وضع الأب  
( روش ) نظاره فوق عينيه وأجاب قائلا :

— لن تنجح مساعيه لدى الحاكم العام الانجليزي الذي ياتمر  
بأوامر رئيس وزراء انجلترا ، وقد عرفت نواياه واتجاهاته ..  
واخجلناه ! . انه لمار أي عار أن يطرق ( اوكونيل ) وزملاؤه من ممثلي  
ايرلندا المفخمين في البرلمان الانجليزي ، أبواب الحاكم العام ، سائلين  
مستجدين !

ثم بسط الأب ( روش ) الصحيفة مرة اخرى وأخذ يتلو فيها  
ما نصه :

« وقد عرضت على انظار الحاكم العام تقارير اللجنة البرلمانية  
التي شكلت لفحص الحالة ، والتي جاء فيها ان المجاعة والأوبئة ستحل  
بالبلاد عاجلا اذا لم تبادر الحكومة باتخاذ الاجراءات الكفيلة بدرونها...  
وكان من أنجع الحلول المقترحة لبلوغ هذا الهدف تشغيل الاهلين في  
اعمال تعود عليهم بالنفع ، ومنع اصدار الحبوب الى الخارج ، وانشاء  
مخازن للذخيرة في مختلف الاقاليم تباع فيها بأسعار معتدلة ، ووقف  
تقطير الكحول من الحبوب الغذائية » .

وتوقف الأب ( روش ) عن القراءة ، فقال الطبيب معقبا :

— انها مقترحات معقولة .

فقال الأب ( جيلان ) :



— ولهذا السبب ترفضها حكومة اجنبية غاصبة تتحرق لهفة لآبادتنا كأمة لها كيان متميز .

فاستطرد الأب ( روش ) يتلو من الصحيفة ما يلي :

— وكان رد الحاكم العام أن قال لأعضاء اللجنة بالحرف الواحد :

« ان حالة محصول البطاطس محل عناية بالغة لدى الحكومة .. وقد عهد الى طائفة من العلماء في انجلترا بالتعاون مع زملائهم في أيرلندا لفحص طبيعة هذه الآفة الزراعية وإبتكار الوسائل التي يمكن أن تؤدي الى وقف انتشارها ... ولم يفرغ أولئك العلماء بعد من أبحاثهم ودراساتهم ، ولكنهم أرسلوا حتى الآن تقريرين هما محل الدراسة » .

ومرة أخرى ضحك الأب ( جيلان ) ضحكة خشنة قائلا :

— لقد طلب الشعب الخبز ، فأعطوه تقارير مكتوبة !

وتابع الأب ( روش ) تلاوة أقوال الحاكم العام :

« والحكومة تتلقى تباعا تقارير رجال الحكم والإدارة في الأقاليم ، بعد أن عهدت اليهم مراقبة انتشار الآفة الزراعية وتطورات حالة المحصول ... وهذه التقارير تختلف يوما عن يوم ، وكثيرا ما تكون متضاربة ... ومن هذا يبدو استحالة تكوين صورة واضحة دقيقة لمدي الأضرار الناجمة عن الإصابة بالآفة ... وهناك ما يدعو الى الأمل في أنها أضرار جزئية في بعض المناطق ... فليست الحالة أذن متفاقمة موجبة للتعجيل ... وسأعمل على رفع مقترحاتكم الى مجلس الوزراء ... ولكن أكثر هذه المقترحات لا يمكن وضعها موضع التنفيذ إلا بتشريعات تسن خصيصا ، ولا بد الى هذا من دراستها الدراسة الوافية قبل تقريرها نهائيا ... فاته لا يمكن الفصل في هذه الأمور قبل عرضها على وزراء التاج ومستشاريه ... »

ونظر الأب ( روش ) الى ضيفيه من فوق حافة منظاره قائلا :

— وهل علمتم ماقاله وزراء التاج الانجليزى ومستشاروه في صدد هذه المقترحات ؟ اسمعوا ماورد في المقال الافتتاحى عن ذلك ، وهو فصل الخطاب .

وتلا الفقرة التالية من مقال الصحيفة الوطنية :

« ليهلكوا جوعا ! ذلك هو جوهر رد نائب الملك الانجليزى على طلبات الوفد الممثل لنواب ولوردات أيرلندا ، في صدد ملتمسهم الذى قدموه لابقاء الاقوات في البلاد ، لئلا يهلك الشعب جوعا ! .. أجل ! .. هذا هو الرد جوهرى ومعنى ، ان لم يكن لفظا ومبنى ! »

وعند هذا الحد نهض الأب ( جيلان ) من مجلسه وتمطى قائلا :

— لكنك أيها الأب ( جون ) لم تكن تتوقع حقا أن تمد الحكومة يد القوث والمساعدة !

فألقي الأب ( روش ) الصحيفة فوق المنضدة وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا وهو ينسبط يديه ويقبضهما خلف ظهره ويقول :

— لا أعرف ماذا كنت أتوقع ... انى لم يغمض لى جفن منذ رأيت الناس المساكين يتجمعون فى القرية منذ أيام قلائل ... ترى ماذا أفعل ؟ ... ان صيحات أولئك البائسين كخناجر تمزق قلبى ... انهم يأتوننى مستنجدين ، ولا أدرى ما أقول لهم !

فقال الأب ( جيلان ) ساخطا :

— لقد سبق السيف العدل ، ولا فائدة من الشكوى ... ان أقوات الشعب الارلندى تذهب الى الخارج ، لتمتلىء بها البطون الانجليزية الواسعة ... لكن يوم السوق كان مناسبة سانحة لنفعل شيئا ، ولنقول للناس ما يجب ان يقال ... كان ينبغى أن نشير عليهم بأن يحتفظوا بفلالهم ولحومهم لبطونهم هم أنفسهم .

فاستدار الأب ( روش ) نحوه فجأة وقال له مفضبا :

— ما هذا الذى تقول ياتوماس ؟ هل فقدت صوابك ؟

فما كان من الأب ( جيلان ) الا ان هز منكبيه وراح يقول بهدوء :

— كلا ... لم أفقد صوابى ... ولكن الذين فقدوا صوابهم هم زعماء الشعب ، اذ يدعون أقوات الشعب تتسرب الى خارج البلاد ، ثم يستجدون لاسترجاع مايسر منها ! .. هاها ! لم أسمع فى حياتى أسخف من هذا حقا ! .. ليس فى انجلترا من الطعام مايكفى لاشباع الانجليز ، واذن فلتكن ارلندا مخزنا للفلال واللحوم عن كذب ... اليسست هذه هى السياسة المرسومة ؟

فقال الأب ( روش ) :

— هذا كلام يلقي جزافا دون تقدير للعواقب .. لو عمد الشعب الى الامتناع عن سداد الايجارات الزراعية نقدا وعينا ، لهيئوا للحكومة الانجليزية الفرصة التى تنتظرها ، ولارسلت جنودها يعملون فى الاهلين العزل المساكين تقتيلا وتذبيحا ، ويطردونهم من الارض مشردين ، الى حيث لا رجاء لهم فى عودة ..

فقال (الأب) جيلان :

— ما أحق هذا الشعب اذا ارتضى أن يبقى أعزل مغلوبا على أمره !

فقال الأب ( روش ) وقد تزايد غضبه !

— انى أعرف ماتريد ... تريدها ثورة مسلحة ، كما حدث عام

١٧٨٩ .

فقال الأب ( جيلان ) :

— اسمعوا ... اسمعوا ! ..

واحتدم النقاش بين الرجلين ، والطبيب الشاب ينصت اليهما :  
باهتمام شديد .. والحق انه شعر بأنه مسئول الى حد ما عن الكارثة  
القومية الوشيكة ... فهو منذ طفولته كان يتنازعه عاملان متناقضان  
... أحدهما يجذبه الى صفوف الشعب الذي تربطه به وشائج الدم  
والمنشأ ... والثاني عداوته لهذا الشعب الذي اذاق جده واباه الهوان  
في أيام كفاحه الاولى ... ثم ان والديه كان لهما مطمع واحد هو ان  
ينشأ ولدهما نشأة السادة الاشراف ... ولهذا حرصا على أن يكون  
حتى في طفولته بمعزل عن أطفال القرية المساكين ، كما لقنوه في المدرسة  
أن يفاخر بانتماؤه الى الرعوية البريطانية ... والنتيجة أنه لم يكد يتم  
دراسة الطب في ( دبلن ) حتى اضحى يحتقر سواد الشعب الارلندي ،  
ويعده شعبا منحطا يجتهد ماوسعه الجهد ليتبرأ منه ويبتز ما يجمعه  
به من روابط الفكر والمذهب واللفة والتبعية ...

لكن ماهو الا ان أصبح طبيب المنطقة في ( كروم ) حتى شعر  
بضميره يثوب اليه ، واضحت وشائج الدم اقوى من ذلك اللغو الذي  
لقنوه اياه في معاهد ( دبلن ) ... وجاءت رحلته الى ( الوادي الاسود )  
والتقاؤه بماري كيلمارتن فأثارا شديدا خجله وخزيه من نفسه ...  
والحق ان تلك المخلوقة ذات المهابة الموفورة قد أظهرت له ما انطوت عليه  
آراؤه من عبث وخواء ... ومن ذلك الحين اضحى يستبشع الاحوال  
التي يتقلب فيها شعبه المنكود ، بل أصبح يعد حتى اياه اقرب الى  
الصوص وهو يحتال للاثراء على حساب الشعب ... وكذلك كان  
احساس الطبيب بأنه مسئول الى حد ما عن الكارثة القومية الوشيكة ..

ولم يلبث الطبيب ان قال للاب (روشي) :

— لكن اليس في مقدورنا ان نفعل شيئا ؟ الا يمكن ان نتعاون لاجراء  
اكتتاب أو شيء من هذا القبيل ؟

فما كان من الاب ( جيلان ) الا ان قلب جيوبه ظاهرا لباطن رداعلى  
هذا الاقتراح ... فأوما الطبيب ايجابا ، ثم قال :

— مفهوم ... لكن القس ( كوبرن ) يقوم الان بتشكيل لجنة و ..

فهتف الاب (روشي) يقاطعه قائلا :

— انما يفعل ذلك لتحويل الناس الى مذهبه البروتستانتى ! ..  
انه يناشد اصدقاءه المساهمة في اكتتاب سوف يستخدم لتغيير المعتقدات  
الدينية ! .. انه سيمنح الشعب القوت اذا استحالوا بروتستانت ! انه  
سيدخل ابناءهم المعاهد لكي يشبوا اعداء لعقائدهم المقدسة !

فقال الطبيب ا

— مفهوم ... لكن من المؤلم ان نعجز عن كل عمل ! ...

فقال الاب ( جيلان ) :

— لم يبق لنا الآن من عمل سوى الاضطلاع بواجبنا الوحيد .



وفي هذه اللحظة جاءت ( جوليا مولنز ) المشرقة على شئون البيت متأبطة مفرشا وقالت لرب البيت :

— أنت مستعد لطعام العشاء أيها الأب جون ؟ .

فقال الأب ( روش ) :

— نعم يا (جوليا) . . . وان كنت والله أستحيى أن آكل والناس يتضورون جوعا في الطريق !

فقالت له المرأة وهي تتقدم بالمفرش الى الخوان :

— أوه ! . . . دع هذا اللغو !

واستأذن الأب ( جيلان ) والدكتور ( هاينز ) للانصراف . . فتبعهما الأب ( روش ) الى الباب قائلا :

— لا ينبغي أن نفقد الأمل . . . لابد من حمل الحكومة على العمل . .

كان الظلام حالكا خارج الدار . . . وشعر الطبيب بالاستياء من الأب ( روش ) لأنه لم يستطع أن يرسم له خطة ايجابية للعمل ، وقال له مودعا :

— ان رأيت أيها الأب أن هناك ما يمكنني فعله ، فيسرني أن تزورني

— شكرا لك . . . بارك الله فيك .

وسار الرجلان في شارع القرية وهما يتلمسان طريقهما بصعوبة وليس لهما من دليل في هذا الظلام الحالك سوى مصباح حمله الأب ( جيلان ) عاليا . . .

وقال الطبيب في طريقهما الى مسكن القس المجاور للكنيسة :

— ماذا تظن أنه سيحدث أيها الأب توماس ؟

فأمسك القس بذراع الطبيب حتى أوقفه في الطريق ، وقال له مهموما :

— انى أشفق عليك من التفكير في هذا .

وارتعدت اليد القابضة على كتف الطبيب عندما استطرد القس يقول :

— قد لانكون انا وأنت على قيد الحياة لتروى ماسوف يكون . . . انى لاخشى أن تقع في أيرلندا أحداث ستجعل من أبناء امتنا مشردين يهيمون على وجوههم في الارض ! . . . انى أحلم بأمور كثيرة . . . وفي هذه الاحلام ارى تكبات جساما واقعة حتما . . . لكنى أحلم كذلك ببعث الشعب الارلندي من جديد ، وعودته الى ارض آباءه واجداده . . فاذا ذكر هذا يابنى ! . . . قلب النظر حولك .. ارهف سمعك الى زفير الريح ! .

فجعل الطبيب ينصت الى زفير الريح الدافقة الهابطة من الجبال  
مير القرية ، على حين استطرد القس يقول هامسا .

- تعلم يا بنى أن تحب ثرى ارنلدا كأنه أمك التى أرضعتك ! ..  
واذ ذاك مستجد هذا الثرى يناجيك ويفضى اليك بأعمق الأسرار وأبهى  
الحوالج التى ستكون أقوى من كل الصروف والارزاء ! ... اننى لا أمل  
الحلم كلما أرهفت سمعى الى زفير الرياح ... هلم بنا الآن ...

وشعر الطبيب بلون غريب من البهجة وهو يسير الى جانب القس  
الذى كان له شهيق وزفير يدرج بجسده البدين ... وعلى حين غرة  
ارتفع من أطواء الظلام صوت يهتف قائلا :

- استجلفكم بحق الرحمن أن تفيثوا أما جائعة وطفلها !

فرفع القس مصباحه الى مصدر الصوت ... فبدأ لهما فى الضوء  
الحسير وجه طفل يطل من ثنيات شال الام الممزق ... قدس القس يده  
فى جيبه بحركة آلية وسرعان ما قال واجما مكتئبا :

- تعالى معى ايتها المرأة الطيبة ... ليس عندى ما أعطيك سوى  
مشائى .

فقالَت المرأة :

- بارك الله فيك يا صاحب القداسة ... اننى لأرضى أن آخذ  
اللحمة من فمك وأنت فى حاجة اليها ، لكننى فى الطريق الى الملجأ هذه  
الليلة ، وأمامى مسافة عشرة أميال حتى بلدة ( كلوجر ) ... وانى لا  
أخاف الا على الطفل ، وليس فى طريقنا مكان نلجأ اليه .

فأعطاهما الطبيب بضعة دراهم ثم سلم على القس مودعا وهرولا  
فى طريقه الى فندق أبيه الذى كانت أنواره تلمع من بعيد وقد ساورته  
رعدة كأنما مسه البرد .

وما كاد يدنو من الفندق حتى رأى مركبة واقفة ببابه ، وسمع  
صوتا يناديه قائلا :

- تعالى معى حالا ياسيدى ! .. قد أصيب السيد بجرح :

كان المتكلم هو ( ريلى ) سائس ( شنادويك ) ... وقد ناقشه  
الطبيب برهة ثم أسرع الى الداخل فى طلب جقييته ...

## الفصل السابع عشر

هرول الطبيب عائداً بعد قليل وبيده الحقيبة واستقل المركبة الصغيرة ، فألهب ( ريلي ) ظهر الجواد بسوطه وأنشأ يصيح بصوته الحاد قائلاً :

— هي الخمر ! ... انه ذهب عنا بعد تحصيل الإيجارات ، ثم رجع وهو في حالة سكر شديد وعريضة ! .. لقد جاءنا اليوم السيد ( برودريك ) وانهمك الاثنان في لعب الورق ... ولما رأيناه بعد ذلك كان مصاباً بقطع في حلقه والدم ينزف منه غزيراً كأنه خنزير مذبوح !

واستحث ( ريلي ) الجواد حتى راح يركض ركضاً عنيفاً جعل المركبة تتخطى في سيرها بصورة خطيرة ، وما برح ( ريلي ) يصيح مبيناً كيف قاموا بالأسعافات الأولية لوقف النزيف ريثما يصل الطبيب ...

ولما وصلت المركبة الى القصر وقفت بعنف حتى كادت عجلتها القريبة تهشم في الدرج ... فهرع الطبيب الى البهو حيث قابلته امرأة مهذلة الثياب بادية المشيب وقالت له وهي تعصر يديها :

— أسرع ياسيدى ! ... ان الدم اخذ يتدفق منه مرة أخرى ! ..! اننا لانستطيع تهدئته وهو في فزع من الموت ! .. من هنا ياسيدى !

فارتقى الطبيب و ( ريلي ) خلفها الى غرفة ( شادويك ) وهناك شاهداً ( ايلي جليسون ) وامرأتين أخريين يصارعن ( شادويك ) فوق الفراش الذي غرق في الدم كأنه ساحة قتال ... فقد تخضب وجهه بالدم كما تخضبت الفوط التي لفت حول عنقه حتى غدت كفقدة حبل المشنقة ... وخضب الدم أغطية الفراش وملابس النسوة الثلاث جميعاً ... وقد تصور الرجل أنهن يردن قتله ، فما كاد يبصر الطبيب حتى صاح مستنجداً به :

... — انقذنى منهم !

وبنظرة واحدة من الطبيب أدرك أنه جرح غير خطير ... فان ( شادويك ) لم يعد أن أجرى النصل بسرعة فوق حلقة فشق طبقة اللحم السمكية فوق البلعوم دون القصبة الهوائية والاوردة ، وان سال الدم غزيراً برغم ذلك ...

وقد قال له الطبيب :

— تمالك نفسك ... انه لايزيد عن جرح سطحي في اللحم .... وستكون بخير .



وجعل ( شادويك ) ينتحب ويشهق كالطفل وقد زاغت عيناه وأخذته رجفة شملته من رأسه الى قدميه ...

وانشأ الطبيب يقوم بمهمته بمساعدة النسوة حتى تم له رتق الجرح وتضميده . ومن عجب أن ( شادويك ) احتمل الرتق بشجاعة لم تكن منتظرة منه ، حتى لكأنه في منعة من الالم الجثمانى ، ولكنه فزع مروع من شىء يستبد بعقله ..

وقال له الطبيب حين فرغ نهائيا :

— أرايت ؟ ... هأت ذا بكل خير !

فاضطجع (شادويك) خائر القوى يرتجف بعنف . . . وما لبث أن أغمض عينيه واستسلم لنوم مضطرب على حين كان الطبيب يفسل يديه ...

وهمس الطبيب للنسوة قائلا :

— عليكن بمراقبته جيدا ... من منكن تشرف عليه شخصا ؟

فقال ( مارى هالوران ) المرأة المهذلة الثياب البادية المشيب مشيرة الى ( ايلي جليسون ) ، بلهجة عدائية :

— انها هى التى تشرف عليه ياسيدى .

وانتفض الطبيب حين فطن من فوره الى المشابهة بين ( ايلي ) وشقيقتها ، هذه المشابهة التى كانت الآن على أشدها بسبب مااعتري الفتاة من بالغ الانفعال . فقد بدت مضطربة يلوث الدم خدها الايمن ، وقد ارتعشت شفتاها كأنما كانت مجعدة من أثر الجرى ... فقال لها الطبيب :

— هل بك مرض ؟

فاجابت وهى تهز رأسها سلبا :

— أيمكن أن أتكلم معك فى الخارج ؟

فتبعها الى خارج الغرفة ... فذهبت به الى غرفتها المجاورة وأغلقت الباب ، وراحت تقول له بانفعال شديد وقد تعلقت به :

— أنك تسدى الى جميلا ياسيدى اذا كتمت ههذه المسألة ...

لو سمع أبى بما حدث لساءت العاقبة واضطرت الى الخروج من هنا، وأنا لا ريد هذا لانه لايجد من يعنى به غيرى ، أما الآخرون فلا يهمهم اذا أهلك نفسه ! .. ان الخمر وحدها هى التى تفسده ... استحلفك ياسيدى أن تقول ان ماوقع لم يكن سوى حادث عارض ... فهلا فعلت بالله ؟

فقال لها الطبيب مندهلا :

— اننى لا أفهم !

— عدنى الا تقول شيئاً ! ..

— انى لا افهم قصدك ... ما الذى يلزمنى بوعده كهذا ؟ ...  
ما الذى جرى ؟

— هلا وعدتنى بالله ؟

— من تكونين أنت ، على أى حال ؟

— انا ( ايلى ) ، ابنة ( بارتى جليسون ) النساج ..

— آه ... هذا ما قدرته ... اريد ان تقصى على كل شيء ...

فشبكت الفتاة يديها فوق صدرها وراحت تقول :

— انها قصة يطول شرحها ... لقد جاء مستر ( برودريك ) الى هنا صباح اليوم وأخذ الاثنان فى لعب الورق .. ولبثا طول النهار يلعبان ويشربان الخمر .. وبعد انصراف مستر ( برودريك ) قال لى السيد أن الضيف غشه فى اللعب ، ومما زاده هياجاً أن مستر ( برودريك ) ربح منه الجواد الذى ابتاعه من الكولونيل ( بودكن ) ... وعند ذلك أشرت عليه بالنوم والراحة بعد أن ظل يعربد أياماً . فجلس فى فراشه يندب ويبكى ويتحدث عن أبيه ، اذ كان كلما انتابته هذه النوبات يتكلم عن أبيه وما لطح به اسمه من العار ... وبينما كنت أعاونه فى خلع حذائه الضخم اذ استدار الى فجأة وسبنى سباً قبيحاً ... ولما رددت سبابه بمثله هاج وماج وامتدت يده الى موسى قريبة منه ، وهجم بها على ... فجمدت مكاني رعباً وأيقنت انى هالكة لا محالة ، لانه كان اذا سكر فقد وعيه وتملكه الجنون ... على انه مالبث أن ضج بالضحك وقال لى :

— خذى موسى ! .. خذيها واجهزى على ! .. انا مخلوق لافائدة من وجوده ! .

فجعلت أهديء روعه واسكن ثأثرته ... ولكنه صرخ فى وضرب حلقه بالموسى ، فانفجر منه الدم غزيراً ! .

فهتف بها الطبيب قائلاً :

— يا الهى ! .. ولماذا تريدان البقاء هنا بعد هذا ؟! ... ان هذا رجل مجنون ! ... ولا بد من الابلاغ عنه .

— أواه ... كلا ياسيدى ! أنت لاتعرف ما تقول ... انه ليس مجنوناً ... ان آفته هى السكر والافراط فى شرب الخمر ! ... الايمكن على أى حال أن تتمهل حتى الصباح وتتكلم معه ؟ ... وعند ذلك تقدر بنفسك ... لو تسرب هذا الحادث الى الخارج لاضطرت الى مغادرة القصر ! ...

فقال لها الطبيب متضايقاً :

— لكن لماذا تريدان البقاء هنا ؟

فأجابت في تبرم .

— لان هذا ما أريده .

فقال الطبيب :

— هذه مسألة لا أفهم أولها من آخرها !

فهمت به وقد طوقت عنقه بساعديها :

— عدنى قبل ذهابك ألا تقول لأحد .

فقال الطبيب بصوت أجش وقد غلبه شعوره :

— أعدك .

فقالت له الفتاة مفتبطة قريرة العين :

— شكرا لك ... بارك الله فيك .

وعادا الى غرفة ( شادويك ) ... فألقيا الجميع يتهامسون ،  
وما برح ( شادويك ) مستغرقا في رقاده المضطرب ... وبعد أن لعنهم  
الطبيب تعليماته بصدد المريض أوما الى ( ريلى ) أن يتبعه ... فقال له  
هذا همسا وهما يهبطان السلم :

— لم يقع ضرر كبير برغم ذلك .. لقد أخبرتنى ( مارى هالوران )  
أن ما حدث كان بسبب خسارة الجواد فى اللعب ... لكن شيئا كهذا  
لا يمكن أن يؤدى الى هذه المتاعب ... وليس مستر ( برودريك ) بالذى  
يستغل وجود صديقه فى حالة سكر ... الا قبح الله الخمر ! ... انها  
أشد آفة ينكب بها الانسان !

ودرجت بهما المركبة الى الفندق وقد انهمر المطر ، وما أن ابتعدا  
عن القصر حتى مال ( ريلى ) فى مقعده وقال همسا :

— ان تلك الفتاة النكدة هى سبب هذه المتاعب ! .. فقد اختل  
عقل السيد منذ قدومها الى البيت ! ... انه لم يكن كذلك من قبل ! ..  
كلا ... ليقل الناس عنه ماشاءوا ، لكنه كان يعاملنا دائما معاملة كريمة  
.. ولو كنت مكانك ياسيدى لما صدقت كلمة مما قالته تلك الفتاة .

فقال له الطبيب :

— ماذا تعنى ؟

فأجاب ( ريلى ) :

— ان لها سلطانا عليه ! .. انى لم اعرفه نظر قط الى امرأة طيلة  
السنين الماضية ، حتى جاءت هذه الفتاة الى القصر ... انما كان  
الشراب كل همه ... لكنه أصبح بعد مجيئها خطرا على نفسه وعلى  
كل من حوله !

فقال له الطبيب :



— اذا لماذا تبغون معه وهو بهذه الحال ؟ ... ان رجلا كهذا يجب  
وضعه فى مستشفى الامراض العقلية .  
فقال ( ريلى ) :

— لا ياسيدى ... لاتضع تقريراً عنه ... ان الفتاة هى السبب  
... يجب حملها على الرحيل ... ان مستر (شادويك) لا يضر احداً ..  
وليس اكرم منه طبعاً وهو متمالك شعوره ... ارجو الا تبلغ عنه  
ياسيدى ، والا فقد منصبه وتكب الناس بشر منه .

فلم يتمالك الطبيب ان ناجى نفسه بهذه العبارة :

— نعم ... ما اكثر حب الناس لهذا الجابى المخيف المخور !

ولما بلغا الفندق قال له ( ريلى ) :

— اتحب ان اجد بالركبة صباحاً ؟ .

فاجاب الطبيب :

— كلا ... ساذهب سيرا ... ولك ان توقظنى فى الليل اذا حدثت  
مضاعفات . طابت ليلتك .

وشعر الطبيب باضطراب عصبى شديد وضيق بالغ ... ولما  
قابلته امه فى البهو جعلت تهول لابتنال ملابسه ، وقالت له :

— اصعد الى فوق واخلع ملابسك حالا .

فقال لها مفضياً :

— آ ! آ ! لاتضايقيننى ! ... احسبتنى واهيا ضعيفا الى هذا  
الحد ؟

وذهب الى غرفة البهو التى كانت من قبل بمثابة غرفة جلوس  
وطعام مشتركة ، ولكنها خصصت فيما بعد مكتبا للطبيب ، وقامت بها  
خزانة حديدية يضع فيها ابوه امواله ومستنداته ... وكانت غرفة  
مستطيلة ضيقة ، يتوسطها خوان اعد جانب منه لتناول طعام العشاء ،  
وتوهجت فى مدقاتها نار اشاعت الدفء فى جو الغرفة ... وما لبث  
الطبيب ان جلس امام المدفأة وبسط يديه الى اللهب ، وناجى نفسه  
قائلاً :

— ماذا دهانى ؟ .. ما الذى جعلنى اخاشن ابنى على هذه الصورة ؟

ثم اعتمد رأسه بين كفيه وقال بصوت مسموع :

— رحماك ياربى ! .. انى سأجن فى هذا البيت ؟ ... ماكان  
ينبغى ان ارجع الى هنا !

وارتعد حتى بسط يديه مرة اخرى نحو اللهب ... واقبلت اخته  
تحمل اليه طعام العشاء ... لكنها لم تكلمه ، بل دنت من الخوان

ببطء خافضة البصر متصلبة الجسم ، تسير وكأنها تشب ... وكانت كبيرة الشبه بأخيها ، ذات شعر ذهبي غزير ، وقوام أدنى الى القصر والامتلاء ، وتقاطيع صغيرة ... وكانت تشاركه نظراته القلفة واحساسه بالضعف الذاتى ، وكانت هذه الصفة اشد بروزا فيها بسبب مامنيت به من اعتلال المعدة منذ الصغر ، مما جعلها دائمة الوجوم مرهفة الاحساس ... وكان الناس يتغامزون عليها لصمتها ولانها احيانا قد تضحك وحدها ، دون سبب واضح .

وقال لها الطبيب :

- ماهذه الضجة التى اسمعها فى المطبخ يا ( بريجيت ) ؟

فتمتمت كلاما مبهما وهى تضع الطعام فوق الخوان ، ثم تسلك خارجة من الغرفة كأنها شبح ... فنظر الطبيب فى أثرها مستاء ثم أرهف سمعه الى صوت الضحك العنيف المنبعث من المطبخ ... ولمّا عرف صوت ( ريلى ) تملكه اشد الغضب حتى ناجى نفسه قائلا :

- انه يتخلف هنا لاهيا ضاحكا بدل ان يذهب للعناية بسيدته ..  
يالاه من عديم الشعور !

وبدا يتناول طعامه وهو يفكر مهموما فى حياته التعبة ... جبال موحشة جرداء ... ووديان قائمة ، ومستنقعات ممتدة ، وقرية بائسة - كل أولئك روعه ترويعا ، وضاعف من وجومه وهمومه ... لقد أوصاه القس ان يحب الثرى كما يحب أمه ... فياله من هراء ! ... لقد ريع لمجرد التفكير فى قضاء حياته كلها بين هذه المعالم المكتئبة الموحشة ، محروما من أنس الحياة وبهجتها ، لايربطه بالعالم الخارجى سوى مركبة البريد التى تأتى مرتين فى اسبوع من ميناء ( كلوجر ) ... وما تكون ( كلوجر ) هذه ؟ .. وماذا يجد الانسان فيها أكثر مما يتطلع اليه من لاتتجاوز مطالبه احتياجات الحيوان الا قليلا ؟ الا انها لاتفضل بلدة ( كروم ) التاعسة الا فى الاتساع وامتداد الرقعة ...

ولم يلبث أن لعن أسبرته اذ حاولت أن تجعل منه سيدا ، واذا أذكت فيه مدارك ورغبات لا يستطيع اشباعها ، واذا فتحت له رحابا مشرقة ثم ردت الى ظلمات قريته الراكدة الآسنة .

لقد زعمت الاسرة انها تضحى بنفسها من أجله ، وبعثت به الى المدرسة والى الكلية لتثقيفه ، وآثرت الآن أن تقيم فى المطبخ لكى تفرد حجرة خاصة لسيد الاسرة .. فما جدواه من البقاء فى هذا المكان وحيدا منزويا ، وهم يلهون فى المطبخ وينصتون الى أحاديث ( ريلى ) عما يجرى فى القصر ؟ .. أسيد هو حقا ؟ .. انهم بوالونه بالرقابة وكأنه ما يزال حدثا غريزا .. انه لا يستطيع أن يتناول الشراب ولا أن يعاين الفتيات كغيره من الرجال .

آه ! .. هنا موطن العلة ! .. ان ذكرى ( ايلى جليسون ) لم تكده تعرض له حتى وضع السكين والشوكة وجعل يحلق فى الخوان مأخوذا

مضطربا. . . ولما اشتد اضطرابه واستبد به شعوره نهض واتجه الى المدفأة راجفا راعشا .

وفي هذه اللحظة أقبل أبوه يحمل سجلا وكيسا صغيرا به حصيلة اليوم من النقود . . فتفرس في ولده من تحت حافة قبعته السوداء وهو يسهر خافض الهامة الى الخزانة الحديدية ، ثم قال بصوته الكئيب :

— كنت في القصر . . قال لنا ( ريلي ) السائس ان ( شادويك ) مريض ، بعد أن سقط وجرح . . أكانت الخمر هي السبب ؟ أين أصيب بجرحه ؟ . . وكيف وقع له هذا ؟

وكان أبوه يلقي هذه الأسئلة المتلاحقة وهو لا يحفل بارتقاب جواب عنها . . فلم يتجشم الطبيب عناء الجواب . . والزاقع أن الصلة بينه وبين أبيه كانت فريدة في بابها . . فهو يزدري هذا الأب ويكرهه ، ولكنه كان يخشاه في الوقت نفسه . بل كان الرجل العجوز موضع الازدراء والمقت من كل انسان ، لكنه كان يملك القوة ، على حد تعبير الناس ، ومن أجل هذا كان موضع الخشية . . ولم يكن موقف الطبيب منه الا صورة لشعور الناس خارج البيت . . وكذلك انعدمت بينهما كل رابطة شخصية . . . . . والحق أن (جون هاينز) لم يتحر قط أن تكون بينه وبين أحد من الناس مثل هذه الرابطة الشخصية . . فهو لم يجد في حياته وقتا لذلك ، ولا هو انبعث اليه بميل ذاتي . . وانما جعل أكبر همه تهيئة أسباب (القوة) ، ليكون فيها الترضية والعوض عما تجرع في طفولته من هوان ومذلة . . وما كان توجيه ولده ليصبح طبيبا الا جزا من سياسة (الترضية) التي شرعها لنفسه ! . . .

وقال الأب وهو يجلس في مقعد أدناه من الخزانة :

— تبا لشادويك ! . . كان أولى له أن يسدد لي ما هو مدين به .

فلم يتمالك الطبيب أن نظر الى أبيه مغضبا وهو منهمك في اخراج مفتاح الخزانة من جيبه . . بيد أنه أمسك عن التعقيب حين قسدر أن السكوت يمكن أن يكسبه الرضى وأن يهيء له الفرص التي قرر أن يقتنصها في البيت أو خارجه للترويج عن نفسه . . .

واستطرد الأب يقول وهو يدير مفتاحا عصيا في قفل الخزانة :

— انه مدين لي حتى الآن بأكثر من ثمانين جنيها . . والأمل ضعيف في أن أفوز منها ب درهم واحد . . لقد تغير الزمن . . وقلت الامانة بين السادة الاكابر .

وانفتح باب الخزانة . . ودس الرجل يده السليمة في الكيس وجعل يعد النقود في شغف واعزاز وهو يضعها داخل الخزانة . . ثم استودعها السجل أيضا وأغلقها كما كانت . . واستوى قائما وهو يدير المفتاح الكبير حول أصبعه ، والتفت الى ولده قائلا :

— ماذا قال الأب ( روش ) عن نتائج اتصال الوفد البرلماني بالحاكم



العام : ٠٠ هل فى نيتهم أن يدبروا للناس عملاً ؟ ٠٠ أم أن الوفد باء  
بنتيجة غير سارة ؟ ٠٠ ان هذا هو ما أقدره ، فان رجال الحكومة الانجليزية  
قوم من الخطافين ٠٠ وليس الشعب بخير منهم ٠٠ لم لا يذهب الناس الى  
الملجأ ؟ ٠٠ الست وأمثالى نمدهم بمالنا ؟ ٠٠ لكنهم يفضلون التسول  
والاستجداء على البقاء هناك ٠٠ هيه ! ٠٠ لم تبق فى الناس أمانة  
ولا شرف !

فلم يجب الطبيب أيضا ٠٠ فدى العجوز الكيس الخاوى فى جيب  
سترتة وسار الى الباب خافض الهامة كما جاء ، ويده العاجزة قريبة من  
جنبه كمن يحصل شيئا ٠٠ وغمغم قائلا لدى الباب :

— السيد شادويك ٠٠ ياله من سيد بديع ٠٠ ان حظى ضئيل فى  
استرداد ما ٠٠

وذهب ٠٠ ومرة أخرى وضع الطبيب رأسه بين يديه وجعل يفكر  
فى حال أبيه وهو مغم النفس كراهية ٠٠ فهو لا يجد فى سجل حياته  
الماضية ما يثير عنده الرقة والحنان من هذه الناحية ، وهو لا يذكر فى  
أبيه سوى تلك النظرات الجائعة المقيتة ، وتلك المهمة التى لا تنقطع عن  
المال ، وذلك النحيب المتصل عما يوجد فى البيت من عوالم الاسراف  
والتبذير ٠٠

وجاءت بريجيت ورفعت الصحف فى صمت ٠٠ وقد حاول الطبيب  
أن يطالع قصة قديمة عنوانها ( معركة أوجريم ) بيد أنه لم يلبث دقائق  
حتى ألقاها جانبا ونهض قائما ٠٠ وهتف فجأة وقد بسط قبضتيه  
ملوحا :

— لقد شبعنا من هذا كله ومللته ٠٠ سأعيش بعد الآن كما يحلو لى .  
وقضى الطبيب ليلة ممضة ثقيلة ذاق فيها الامر من هذه الثورة  
العاتية التى استبدت بمشاعره ٠٠ فلما كان الصباح أفطر وقد عقد العزم  
على الذهاب الى القصر ٠٠

كان اليوم صبحوا مشرق الشمس ٠٠ وفى طريق القرية الرئيسى  
انتشرت جموع الناس ممن هاموا على وجوههم قادمين من صميم الريف فى  
طلب المساعدة وقد بدت لهم القرية ملاذا ومصدرا للرزق ٠٠ فلما بلغوها  
فعلا راحوا يتسكعون هنا وهناك حيارى عاجزين ، لا يجدون ما يملئون  
به بطونهم الخاوية سوى دفء شمس الشتاء ٠٠

وفى الحق ان مشاهد الجوع الحيارى اليائسين كانت فى الايام  
الاخيرة تمض الطبيب وتملا نفسه خجلا لعجزه عن اسداء العون ٠٠ أما  
اليوم فانه لم يحفل بهذا ولم يلق اليه بالا ٠٠ فمنذ ليلته الماضية التى  
باع فيها نفسه للشيطان أصبحت مصاير الفقراء المساكين لا تعنيه فى  
كثير ولا قليل ٠٠

وما كاد الطبيب يدنو من القصر حتى شعر بقلبه يخفق عنيفا ٠٠  
وصانف فى طريقة أحد الخدم يسرى الحشائش بمنجلة ٠٠ ولما أبصره

الطبيب يحدجه بنظرات غريبة وقد اتكأ على المنجل شمس بوجهه يلتهب  
خجلا وكأنما تسلل الرجل الى ذات نفسه وأدرك ما جاء به الى هذا المكان .

على أن الرجل قال له مجيبا :

— انه أحسن حالا ياسيدى .

ودلف الطبيب الى البهو . . فوق برهة مترددا . . ولم يكن أحد  
حوله . وفجأة عرته رعلة شديدة حتى أراد أن يفر من القصر . . وتلفت  
حواليه متلصصا وهو يستعين بالله مما تملكه من اغراء الشيطان . .

## الفصل الثامن عشر

حدث في خلال الفترة المطيرة التي أعقبت يوم السوق أن اشتبكت (كيثي هرنون) مع جارة لها في معركة سباب حامية بسبب حجر القمامة أحد أبناء (كيثي) على دجاج الجارة .. وفي أثناء المعركة المحتدمة عيرت الجارة (كيثي) بما عيرتها به (ماري كيلمارتن) من قبل ، من تكلف الكبرياء مع التسول والاستجداء .. فكان هذا التعريض مدعاة لخجل كيثي وخزيها حتى ارتدت الى دارها باكية منتحبة .. فلما عاد زوجها (باتش هرنون) من الخارج وعلم بما جرى ، خرج الى زوج الجارة متحدياً مناجزاً حتى لقد خلع سترته ووقف في الحارة غير عابئ بالمطر وببئنام حجر كبير وجعل يسب جاره سبا قبيحاً .. وكان الجار المسمى (هالوران) رجلاً هادئ الطبع ، ولم يلبث أن خرج من بيته يحاول تهدئة نائرة هرنون قائلاً له :

— ان الأحق من يشترك في معارك النساء وهي كلام في كلام ..

فما كان جواب هرنون الا أن قذف الجار بالحجر في صدره حتى سقط هالوران على الارض وهو يتألم ويتوجع .. وعند ذلك فر هرنون هارباً الى الجبال معتقداً أنه قد قتل جاره ..

وقد أسرع الجيران ونقلوا هالوران الى داره حيث تبين أنه لم يصب الا بجرح من ضربة الحجر .. ولكن هرنون الذي كان يجهل هذا ظلم يجري في شعاب الجبل وقد اشتد به الخبل الذي كان يراوده منذ حين حتى جن جنونه أو كاد .. وقد خيسل اليه لفرط ما به أنه رأى العين الشريرة تطارده أينما ولى وجهه في مسالك الجبال ومغاورها ، حتى هم أن يلقي بنفسه في البحيرة السوداء المستقرة بين أحضان القمم الجبلية ، تخلصاً من مطاردة العين الشريرة له ، فلم ينقذه الا صياح زوجته التي لحقت به ورأت ما هو مقدم عليه ، فجعلت تلوح له بيديها صارخة ..

هنالك تاب الى الرجل المنكود بعض صوابه ، ووقف ينتظر حتى لحقت به كيثي التي هتفت به قائلة :

— ماذا أصابك أيها الأبله ؟ .. هل جننت ؟ أظننت أنك قتلت (ميك هالوران) ، ولهكذا هربت ؟ .. اني جئت خلفك خوفاً من أن تمضي في طريقك حتى مقاطعة (مايو) ، فأنا أخبر الناس ببجبتك !

فقال لها هرنون :

— هل مات هالوران ؟



فاجابته قائلة :

— ليس به شيء .. الآن عد الى بيتك يا ابله .

فأخذ هرنون يضحك ، وقال بلهجة غريبة :

— اذن فقد كانت العين الشريرة مخطئة !

فقالت ( كيتى ) مذهولة :

— عم تتحدث يا رجل ؟

فضحك مرة أخرى ضحكة الجنون ، قائلاً :

— انى رأيت العين الشريرة .. وكانت تتبعنى فى كل مكان بين

الجبال .. انى سأطلب الى العمة (كاتى) أن ترقىنى من العين .. اسرعى  
لكى ندرکها الليلة .

فارتاعت الزوجة من كلامه وهيئته ، ولكنها عجلت معه بالعودة الى  
القرية .. وفى الطريق لقيهما أكبر أبنائهما ، فذعر الصبي لما ارتسم فى  
عينى أبيه من علائم الجنون حتى اختبأ خلف صخرة ولم يخرج الا بعد أن  
لاطفته أمه وهدأت روعه .. وكان بعض أهل القرية قد خرجوا للبحث عن  
الهارب ، فلم يكادوا يرون نظراته حتى أيقنوا أنه رأى العين الشريرة مافى  
بذلك شك ، اذ كان ذلك وصفهم لمعنى الجنون ، وقد همسوا فى أذن كيتى  
قائلين عندما بلغت بزوجها البيت :

— عليك بطلب الحكمة .

فتركت كيتى زوجها فى رعاية بعض الجيران وسعت من فورها الى  
«حكمة الوادى» ، وكانت تمارس ألوانا من السحر والشعوذة على نحو  
ما كان شائعاً فى ذلك العهد .. وجاءت وقامت بطقوسها المريبة الغريبة  
التي وجدت تربة خصبة فى عقول الجهال ، حتى ظن الجميع أن هرنون  
شفى حقاً من لوثته وبرىء من فعل العين الشريرة ..

غير ان ( هرنون ) وان كان قد شفى من العين الشريرة ، ما برح  
مخبولاً يتخبطه المس .. فقد كان يشعر فى رأسه بضربات كوقع المطارق .  
وكان يرى فى هذه الضربات تذكيراً له بأنه سيطرده من أرضه طرداً ان  
لم يسدد متأخر الايجار .. وكانت الضربات تقول له فوق ذلك ان الناس  
قد تحالفوا ضده واجتمعوا على اهلاكه والقضاء عليه .. لكنه برغم ذلك  
قد توسل بالحيلة والمكر ..

وتطورت حاله حتى أضحت زوجته وأطفاله وجيرانه جميعاً يخافونه  
ويبتعدون عن طريقه ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً .. وسعى اليه (هالوران)  
يوماً وكان أشد الناس خوفاً منه فأهدى اليه أرنباً اقتنصه كلبه فى  
الجبل .. لكن هرنون طوح بالارنب من فوق سياج الارض وصاح بجاره  
بقائلاً :

— لن آخذ منك لحماً .. ان عندى سمكا مقددا وان لى غنما ترعى فى

الجبل .. وعندى كذلك حمار وبقرة أملأ من لحمها بطنى .. ولن  
يستطيع أى جاب أن يأخذ ماشيتى منى \*

وبعد ذلك أصبح الناس يبتعدون عنه كلما رأوه فى طريقهم ..  
وأصبح هو نفسه راغبا عن لقاءهم .. وظل الحال كذلك حتى كان يوم  
قال فيه لزوجته :

— اننى ذاهب الى (كروم) لمراقبتهم \*

قالت كيتى :

— من هم ؟

فأجابها قائلا :

— المحضر وأعوانه \*

ثم ركب حماره وقصد الى القرية .. وعندما مر ببيت ( كيلمارتن )  
رآه مارتن وتومسى وهما يفلحان حديقة الخضر الجديدة ، فصاحا مسلمين ،  
ولكنه لم يرد التحية ، فقد سلكهم فى عداد أعدائه ، اذ كانوا هم الذين  
دفعوا لشادويك جنبيين من متأخر ايجاره ، فمهدوا للناس أن يدمغوه  
بالتسول والاستجداء ..

وكذلك فعل عندما مر ببيت (جليسون) النساج ، فقد يصق وتوعد  
بالانتقام .. أليست (مارى) هى القائلة :

« عجباً لأناس يشمخون بأنوفهم ، وهم لا يستحقون من التسول  
والاستجداء ! .. »

ووصل هرنون فوق حماره الى القرية حين كان الطبيب يدلف الى  
القصر .. وسرعان ما راودت الآمال هذا المسكين حتى قال لنفسه :

— حمدا لله ياربى ! .. لعل مستر شادويك على وشك الموت ..  
وعندئذ قد أجد العون عند خلقه ..

وهمز الحمار بعقبه ليستفسر من الطبيب .. غير أنه ما كاد يبلغ  
البوابة حتى ألقى الطبيب قد اختفى عن نظره فى الداخل .. فخاف أن  
يتبعه .. وسار فى القرية حتى اذا وجد أناسا من أهل الجبل يتسكعون.  
سألهم عما دعا الطبيب الى دخول القصر ومعه حقيبتة الصغيرة .. لكن  
أحدا منهم لم يستطع أن يمد له بالجواب الشافى ..

ولم يلبث حوالى الظهر أن شاهد الطبيب عائدا من القصر الى الفندق  
.. فذهب اليه وقال له :

— رعاك الله يا صاحب السيادة .. أهناك مريض فى القصر ؟

فوقف الطبيب ونظر اليه وهو يتمايل يسيرا وقد فاحت منه رائحة  
الخمير قوية ملحوظة واحتقنت عيناه .. وما لبث أن زم شفتيه ومضى فى

طريقه دون أن يتكلم .. ففزع (هرنون) لما رأى وفقل راجعا الى داره .. ولم يحل هذا المساء حتى صعد الى الجبل وجاء بنعجة مما يملك وذبحها وذهب بها الى الدار .. فلما سأله زوجته مروعة عما دفعه الى هذا العمل قال لها في جنون :

— انهم في القصر يشربون الخمر من مالى الذى أخذوه سدادا لتلايجار ان مستر شادويك دعا الأعيان لمشاركته فى الشراب .. لقد رأيت الطبيب خارجا من القصر مخمورا .. ربح السقاء لأذبحن ماشيتى ولاكلنها أكلا ، حتى اذا جاء المحضر ومعاونوه لم يجدوا شيئا يأخذونه .

وقامت الاسرة ليلتها واليوم التالى تأكل النعجة الذبيحة .. فلما أتوا عليها ركب (هرنون) حماره وذهب الى القرية مرة أخرى .. لكنه ذهب هذه المرة أشد جرأة وأوفر عزمًا — استنبط لنفسه من هذه الخطة الجديدة القائمة على الدهاء واستغفال أعدائه ، وبما امتلأ به بطنه من هذا اللحم الموفور .. وكان من أثر هذا أن خرج هرنون عن الصمت والحيلة ، فجعل يطوف هنا وهناك فى صلف وغطرسة مفاخرًا بدهائه متوعدًا أعداءه .

ولم يلبث (هيجارتى) الجابى أن سمع بأن هرنون يذبح غنمه . وعلم بالسبب الذى من أجله يفعل هذا .. فقد كان حتماً أن يعلم بعد أن أصبح هرنون يرفع عقيرته فى شوارع القرية بين الناس الذين كانوا يجتمعون حوله لسماع هذيانه قائلا :

— أيها الناس الاخيار .. اعلموا أنه قد ورد فى كتاب القديس (كولمبيل) أن جيش الطفاة سيأتيكم من شرقكم ، وسيجرد أرضكم من كل شيء .. سيأخذ منكم كل دابة تمشى على أربع ، وسيبذر فى أرضكم الجذب فلا تنبت شيئا ، ولن يترك لكم سوى الطاعون يتفشى فى أعقابهم .. فاستعدوا لهم ، وكلوا كل ما ملكت أيديكم ، فاذا جاءوا لم يجدوا شيئا وضعفوا من شدة الجوع ، وعند ذلك يتهىء للفقراء الشرفاء أن ينقضوا عليهم ويبيدوهم عن آخرهم .. وهناك تتحرر البلاد ، وترتفع عنها اللعنة والضرر .

وسعى (هيجارتى) من فوره الى شادويك وقص عليه ما يقول هرنون وأضاف من عنده قائلا :

— ان لم تبادر يا صاحب السيادة بوضع حد لهذا الكلام وتظهير للناس قوتك وبأسك فسيعجلون جميعا بذبح أغنامهم وماشيتهم ، واذا ذاك لن يبقى هناك ايجار يدفع فى الربيع .

وكذلك استصدر هيجارتى أمرا بالحجز على هرنون .. وذات يوم . أو بالأحرى قبل عيد الميلاد بأسبوع ، سار فى الوادى وبرفته أربعة من رجال البوليس الى حيث استولوا على بقرة هرنون والنعاج الأربع التى بقيت له ، وساقوها لتباع فى (كلوجر) وفاء للمتأخر من الايجارات المطلوبة من هرنون .



أما هرنون فقد اختفى في الجبل أثناء توقيع الحجز والاستيلاء ..  
فلما كان المساء هرع الى القرية عاريا مسلحا بمنجل لقتل هيجارتي ..  
وعند ذلك اعتقله البوليس باعتباره مجنونا ، وأودع مستشفى الامراض  
العقلية في كلوجر على الاثر ..

وكانت النتيجة أن (كيتي هرنون) وأطفالها السبعة غدوا بلا معين  
وأصبحوا عائلة على أسرة (كيلمارتن) ..

## الفصل التاسع عشر

فى ليلة عيد الميلاد ، وبينما كان آل كيلمارتن يتناولون طعام العشاء ، دخلت عليهم كيتى هرنون فى المطبخ ، وبعد أن حيتهم جلست على الارض قرب الباب كالمسولة وقد حجبت وجهها تحت الشال ، وجعلت تهتز أماما وخلفا دلالة على الذلة والاسى ..

وقد أثار هذا الأمر شديد حرجهم ، بسبب حملات (باتش هرنون) على الاسرة طيلة الشهر الماضى ، وبسبب اساءة كيتى الى ماري وتشهيرها بمسلك أختها (الين) فى قصر (كروم) . وها هى ذى بعد ذلك كله تأتيهم، وتفترش الارض كالمسولة ..

لكن الناس درجوا فى مثل هذه الليلة على الصفع والتسامح وفتح أبوابهم لكل طارق .. وكذلك تقدمت ماري الى كيتى وأمسكت بيديها - وأنهضتها قائلة :

— تعالى واجلسى معنا الى المائدة بالله .. ان طعامنا ليس بالكثير ، لكن كل منة هنيئا مريئا .

فانهمرت دموع كيتى وطوقت ماري بساعدها واحتضنتها ، حين لقد رقت ماري لبلوى هذه المنكودة وصفحت عن اساءتها اليها .. لكن ما أن تلامس جسدهما حتى شعرت كيتى أن ماري حامل، واذا ذاك تملكها الغضب وراحت تقول :

— ما أمر الحياة ! .. لكن خجلي مما قيل فى حقكم أشد من المصيبة التى حلت بى .  
فقال لها مارتن :

— لقد ذهب كل ذلك فى طوايا النسيان يا كيتى .. اجلسى معنا فجلست كيتى وهى تدعو لهم .. وما لبثت أن أدارت نظرة خاطفة فى أرجاء البيت ثم تنهدت قائلة :

— انى لا أكاد أعرف بيت أبى ، فقد تغير كل شئ فيه ، وأصبح أشبه ببيوت الاغنياء وهو لامع مزدان ، لا خنزير فيه ولا دجاجة لتلوث رونقه .

فقالت أمها ماجى :

— هذه النظافة من الفقر .. فليس لدينا بطاطس لطعام الخنازير ، والدجاج ذبحناه لميخائيل .

فقالت ( كيتى ) بلهجة تقطر مرارة :

— ما أبدع أن يصبح الانسان من الاغنياء !

والظاهر أن الشيطان تقمصها منذ احتضنت ماري وعرفت سرها .  
فقد فاضت نفسها ضغنا ورغبة فى الاساءة الى هؤلاء الذين جاءت تلتهمس  
عندهم العون .

ولم تلبث كيتى أن انقضت على الطعام تأكله بشراهة برغم أنها  
لم تكن قط جائعة ، بعد أن تناولت فى بيتها عشاء أطيب وأوفر من بقايا  
النعجة الأخيرة . على أنها لم تكذ تزدد بعض لقمات حتى أنبها ضميرها  
بسبب مسلكها الباغى ، فانفجرت باكية منتحبة وراحت تقول :

— الحمد لله أن نهايتى وأولادى أصبحت قريبة . . لم يبق لنا سوى  
الكفن وحفرة باردة ساكنة فى بطن الارض !

ووثبت قائمة فجأة وهرولت الى الغرفة التى رقد فيها ميخائيل بعد  
أن أصبح يعجز عن الجلوس قرب نار المدفأة ، فارتمت على ركبتيها قرب  
الفراش وتشبثت بالغطاء وراحت تقول نادبة مولولة :

— أواه يا أخى . . لقد صرنا صنوين متشابهي . . أحدا تلتهمه  
ديدان العلة ، والثانى تنهشه أنياب الجوع . .

والواقع أن هذا الاسلوب روع الفتى العليل حتى ارتفع نواحه بدور  
وانتابته نوبة سعال . . فأسرعت ماجى فى أثر كيتى تجرها الى حيث  
كانت فى المطبخ ، وهى تقول لها :

— هدوءا يا ابنتى . . لا فائدة من استسلامك لليأس على هذه  
الصورة . . تشجعى وتجلدى . .

فاستمرت كيتى فى نواحها قائلة :

— لن نستطيع حضور القداس يوم العيد غدا ولا أملك شلنا أعطيه  
للكاهن . . فاذا مات الاولاد من الجوع فلن يأتى القس اليهم بالزيت  
المقدس ، وسنعامل كالوثنيين !

والتف حولها أفراد الاسرة جميعا يهدئون ثورتها . . ولكن ما هو الا  
أن جاءها (مارتن) بشلن من كيس المال حتى سكنت من فورها واختطفت  
المبلغ دون كلمة شكر . . وأخيرا رفعت الشال فوق رأسها وقالت بلهجة  
الغضب :

— أننى ذاهبة الآن . . انما كان حضورى لرغبتى فى ألا يحل العيد  
وبيننا خصام ومرارة .

وتبعها (مارتن) الى الفناء ، وسألها أن كان مخزونهم من البطاطس  
قد نفذ . . فلما أجابت بالإيجاب ملا سلة كبيرة بالبطاطس وحملها على  
ظهره الى دارها . . وبرغم أن (مارى) كانت تعرف ما هو بسبيله فانها لم  
تقل شيئا حتى خرج . . وعند ذلك التفتت الى العجوز (بريان) قائلة :



- لابد من وضع حد لهذا .. عليك أن تكلمه فى الأمر .. ماذا يكون الحال ومخزون البطاطس قد عطب فى الجرن ولن يبقى منه ما يكفى لتقاوى الربيع ، ناهيك باعطائه لمن لا تقف مطالبهم عند حد ؟

فقال لها العجوز :

- صدقت يا (مارى) .. كلمته فى الموضوع ... انه زوجك أكثر مما هو ابنى ! وانى لأجد فيك أثرا من دمي ! ان لك عقلا راجحا ورأيا سديدا !

وقد درج العجوز فى العهد الاخير على الانحياز الى جانب ( مارى ) فيما كان يدور من مناقشات .. فقد راقه أسلوبها فى تصريف الأمور حتى أصبح يتحمس فى مناصرتها بعد أن كان يجاهرها بالجفاء .. وكان مبعث هذا أنه ألفاها مدبرة مقتصدة صلبة العود كفلاحة أصيلة ، بل كانت فوق هذا تحب الأرض وتتعلق بها .

فلما عاد (مارتن) فى النهاية تولى العجوز مهاجمته لاسرافه ، قائلا :  
- أما كفانا ان عندنا أسرة (سالى أوهانلون) الكناسين نطعمهم مما لدينا ؟ .. اننا لن نستطيع اطعام الوادى بأكمله .

فرد عليه ( مارتن ) قائلا :

- أتقارن ابنتك (سالى أوهانلون) ؟ .. انك لاتحب ولا شك أن تدع ابنتك تموت جوعا لاحتياجها الى حبات من البطاطس .  
فانبرت له (مارى) قائلة :

- تذكر أنك ستكون أبا عما قريب .. فهل تريد أن تدع طفلك يولد وليس هناك مايقوته ؟

فتطلع اليها مارتن فى استكانة وقد تملكه العجب من أمرها حتى لكأنها أضحت غريبة عليه .. والحق أنها استحالَت الآن الى مخلوق شديد الاختلاف عن تلك الفتاة التى استأثرت بحبه .. وبرغم هذا فإنها كانت فى هذه الشخصية الحشنة التى اصطنعتها فى العهد الأخير أقرب الى نفسه مما كانت من قبل .

كانت من قبل اذا ابتسمت له أو بادلته الحب ، بدت له نائية عنه لا يكاد يتناول اليها ، وكأنها تراقبه عن كثب وتمسك عنه ثقتها الكاملة أما الآن ، وبرغم هذه الصلابة البادية فى مسلكها ، فإنها غدت أكثر حنوا عليه وكأنها أمه ، وأسخى عليه فيما تؤثره به من العطف والمحبة .

على أن (مارتن) لم يتمالك أن هتف بها غاضبا :

- ماذا دهاك يا (مارى) ؟ .. انك أصبحت أقسى من أبى .. أليس فى قلبك رحمة وبر ؟ .. تبا لهذا ! .. مادام فى هذا البيت لقمة لاكل فلن أدع انسانا يجوع ، قريبا كان أو جارا ، أو كائنا من كان ! .. اننى مؤمن بالله ! .. ان رحمة الله أقرب من كل شيء .

وتماذى ( مارتن ) فى غضبته وأبوه ينتظر راضيا قريرا •

فلما انسحب الزوجان الى غرفتهما فى النهاية ، راحت (مارى)  
تغمره بقبلاها كأنما تعوضه عما كان من خشونتها وجفوتها .. وهمست  
فى أذنه وهما يتأهبان للرقاد :

– ان الحياة فى الايام المقبلة ستكون قاسية يا (مارتن) .. فعلينا  
أن نتدبر أمورنا ... ان البيت يروعنى بعد أن خلا من كل خنزير أو  
وجاجة ! .. دع عنك كل هذه البطون الجائعة من حولنا ، والطعام شحيح  
عزيز المنال •

## الفصل العشرون

ذهبت (مارى) فى اليوم التالى الى بيت أبويها وهى فى طريقهما لحضور القداس ، فألفتها مشتبهين فى نقاش ، ولكنهما لهما الصمت عند حضورها ..

فقال لهما :

— ماذا جرى ؟ .. أتنحسان يوم العيد ؟

فتلقاهما أخوها (باتريك) بالسخط قائلا :

— لعننا لم نعد نلقى لك بعد أن صرت من الملاك ! انك أصبحت تنجلين منا ، أليس كذلك ؟

واندفع الشاب خارجا وهو ينادى أباه ، فقالت (مارى) :

— مالى يضايقه ؟

فأجاب والدها :

— انه متضايق من نفس الشيء الذى كان يجب أن يضايقك ، لو كنت تهتمين بمن هم من دمك ولحمك !

وحمل عصاه وبصق .. وخرج لايلوى على شيء .. فقالت الام وهى جالسة تبكى فى ركن المدفأة :

— هاقد رأيت بعينيك أسلوب حياتهم !

فقالت (مارى) :

— انى لاأرى شيئا سوى الغفلة ! .. هل أصابتهم جميعا جنة دون سابق انذار ؟

فأجابت الأم :

— ليس هذا .. وانما هى (ايلي) .

فجلست (مارى) أمام أمها وقالت لها :

— ماذا فعلت (ايلي) هذه المرة ؟

— كيف تسألين هذا السؤال ؟ .. حتى الأطفال أصبحوا يتصايحون علينا ..



– انى لأسمع شيئاً ٠٠ على الناس أن يلتفتوا الى ما يعنيههم فقط ٠٠  
إذا كانت أختى قد ارتكبت ذنباً ، فلم لا يؤدبها أبى ؟

– انه حاول هذا ، ولكنها لم تسمع له ٠٠ وهكذا ذهب الى القسيس  
وأغلب الظن أننا سنطرد من الكنيسة ٠

– نطرد ؟ ٠٠ وما السبب بالله ؟

– ان الأب (روش) يعذنا ملومين بسبب أسلوبنا فى تربيتها ٠٠  
انها أصبحت مسبة للأسرة بعد اقامتها فى القصر حيث يدور الشراب  
والمقامرة كل ليلة ٠٠ وقد صار القصر مجمعاً للفساد يغشاه كل ماجن من  
هنا حتى (كلوجر) ، وخصوصاً الطبيب الذى اشتد اعوجاجه حتى اضطر  
أبوه أن يذهب الى القس أيضاً طالباً منه التدخل لمنع ولده من الانحدار فى  
الهاوية ٠٠ وقد ذهبت الى أختك لنصحها ، لكنها أعرضت عني ، وهكذا  
قلت لها انى رفضت يدى منها بعد أن تمادت فى الغواية على هذد الصورة ٠

فقالت (مارى) لأمها :

– أما أنا فلن أنفض يدى منها ٠٠ هيا معى ٠٠ كان عليك أن تخجل  
اذ تتخلين عن ابنتك فى وقت حاجتها اليك ٠

فقالت الأم :

– لن أتحرك من هنا خطوة واحدة ٠٠ اننى لن أقوى على مواجهة  
القس وهو يندد بابنتى ويطردها من حظيرة الكنيسة ٠

فقالت (مارى) :

– ابقى اذن ٠٠ لاعجب اذا ضلت ابنتك ، كحمل تخلت عنه أمه  
جبنا ٠

واندفعت خارجة من البيت وهرولت شطر القرية وقد زال من نفسها  
ما كانت تحس من سخط على أختها، ولم تعد تذكر الا أن المنكودة فى حاجة  
الى معونتها ٠٠ وأخذت تناجى نفسها :

– لا بد من ابعادها عن هنا ٠٠ بإمكانها أن تذهب الى ابنه عمنا  
(جوليا) فى لفربول ، وهناك لن تعجز عن العثور على عمل تنال منه ما يفي  
بنفقات رحلتها الى أمريكا ٠٠ قبحا لهم اذ يعاملونها هذه المعاملة ٠

ووجدت (ايلى) تنتظرها عند بوابة القصر وهى دامعة العينين ٠٠  
فهرعت (مارى) اليها وانسحت بها ناحية بعيدة عن الانظار وتعانقتا ٠٠  
واذ ذاك أطلقت (ايلى) لدموعها العنان ووضعت رأسها على كتف (مارى) ٠٠  
فقالت لها :

– كفى ٠٠ ارفعى رأسك وتشجعى حتى لا يظن الناس أنك خائفة  
العزم ٠٠ تعالى معى ٠٠ ان القداس يوشك أن يبدأ ٠

فقلت (ايلي) :

— لا اسطيع مواجهة هذا الموقف وقد علمت أن الاب (روش) سيذكر اسمي من جانب الهيكل .

فقلت (ماري) :

— هيا معي ولا تكوني بلهاء .. من الآن ستفعلين كل ماأطلب منك .  
ليتك سمعت نصحي قبل الآن .

وسارت الشقيقتان الى الكنيسة .. فما أن بغتا الفناء حيث احتشد جمع غفير من الناس حتى تعلقت الأعين بهما ودار الهمس بصورة عدائية بيد أنهما اجتازتا الفناء مرفوعتي الهامة وقد بدا حسنهما موفورا وكلتاهما بالحرملة الفرملية والثوب الأزرق العاتم .

وكانت الكنيسة غاصة بالناس ، وهكذا ركعتا قرب الباب وأخذتا في الصلاة .. ولما حان موعد الخطبة الوعظية وقف الاب (روش) متجهماً الوجه وأنشأ يقول بصوت أجش من فرط الانفعال :

— هناك أعمال صارخة ترتكب في هذا الاقليم .. فبالأمس رجس الناس محضرا بالحجارة في منطقة (تورلو) .. ومن قبل سرقت بقرة من ضيعة الكولونيل (بودكن) وأكل لحمها وهي نصف حية .. ان هذه الاعمال منافية للدين ، وان كان يلتمس العذر لاصحابها بسبب تواني الحكومة في مساعدة الاهلين وهم يتضورون جوعا .. لكن مرتكبي هذه الافعال الصارخة يستحقون العقاب ، لانهم بذلك يمهدون السبيل الى الحكومة لاتخاذ اجراءات تأديبية رادعة .. على أن الأدهى من ذلك تلك الموبقات التي ترتكب في القرية ، مستوجبة من الله شديد السخط والانتقام انكم جميعا تعلمون من أعنى بهذا الكلام .. ألا يستحي أولئك الضالون لما يقتربون من هذه المعاصي ، وهؤلاء اخوانهم المساكين يموتون من الجوع ؟ الا أنه لا بد من وضع حد لهذه الآثام .. وعلى المرأة التي هي أسوأ هذا الفساد أن ترتحل عن هذا الاقليم ، قبل أن أدل الناس عليها .. ألا اني سأستمطر اللعنات عليها وعلى أولئك الذين كان ينبغي أن يكونوا قدوة للناس اذا لم يرفعوا عن غيهم قبل فوات الأوان .

ولم تستطع (ايلي) أن تحتمل أكثر من هذا ، فنهضت قائمة وهرولت خارجة تتبعها (ماري) التي أدركتها عند بوابة الكنيسة وجذبتها من ذراعها وهي تبكي وتنتحب .. وقالت لها (ماري) غاضبة :

— ليس هذا أوان البكاء .. سأدبر كل شيء لأجلك .. اذهبي الآن الى القصر واحزمي متاعك وقابليني لدى البوابة .. سأذهب الى البيت وأعود في الحال .

فأطاعت (ايلي) في انكسار وقد أفزعها وعيد القس وزلزال كيائها .. وافترقت الشقيقتان لدى بوابة القصر وهرولت (ماري) الى بيت أبويها .. فدهشت أمها لرؤيتها وسألتها عما هناك .

فقلت (مارى) :

– أين الكيس ؟

فقلت الأم :

– أى كيس ؟

فهمت (مارى) قائلة :

– جدير بكم أن تستجوا اذ تنجبون الابناء ثم تهملون تربيتهم كما  
يجب .. ان مافعلت (ايلي) لاتسأل عنه بقدر ماتسألون انتم عنه .. انها  
الآن راحلة .. سأدبر عربة تذهب بها .. أين كيس النقود .. ان أقل  
ماتفعلون هو أن تدفعوا ثمن رحلتها الى لفربول !

فجاءت الأم بالكيس وقد رفعت الصوت بالبكاء والعويل .. فأخذت  
منه (مارى) ثلاثة جنيهات وأسرعت لاتمام مهمتها .



## الفصل الحادى والعشرون

لم تعد (مارى) الى بيت أبيوها الا بعد حلول الظلام ، فوجدتهما جالسين فى صمت قرب المدفأة مع شقيقها (باتريك) . . . وكان البيت فى أمسيات الاحد يشهد عادة وفود زائرين للنساج ، أما هذا المساء فلم يحضر أحد بسبب خطبة القس . .

وقالت مارى على أثر دخولها :

— انها ارتحلت ، ولا فضل لكم فى هذا . . انى استأجرت عربة وأركبتها بعد مسير خلف الحقول حتى لا يراها الناس وهى راحلة وستقضى ليلتها فى بيت (شيل تونر) فى بلدة (كلوجر) ثم تستقل فى الصباح مركبة البريد الى دبلن . . وكنت أود البقاء معها لولا رغبتى ألا أزعج زوجى (مارتن) لطف الله بها من فتاة منكودة . . أنت المسئول يا أبى عما آلت اليه ، فقد ربيتها بالعصا والصراخ بدل أن تتولاهما بالرفق والرحمة .

قالت (مارى) هذا وغادرت البيت على الأثر . . فلم يجيبها أحد . . وخيم فى أعقابها صمت ثقيل شعر فيه (جليسون) أن زوجته وابنه يشاظران (مارى) رأيها فيما قالت . . وهكذا لم يتمالك أن استوى قائما وخرج الى الفناء حيث وقف يفكر متكئا على السياج ، وناجى نفسه قائلا :

— لن أستطيع قط أن أرفع رأسى بعد الآن . . ولن يستمع أحد الى كلامى باحترام .

واختلجت شفتاه وتصلب عنقه . . وخامرته رغبة جامحة للانتقام حتى استشعر لذة فريدة وكأنه يوشك أن يهب حياته من أجل غاية سامية نبيلة . . وطال به التفكير حتى قال لنفسه :

— ان الطاغية جنى عليها . . فليتل الطاغية قصاصه بغير مهل !

ولم يلبث أن ساقته قدماء دون تفكير الى حظيرة الحنازير خلف غرفة النسيج ، فجعل يتفقد بين القش منجلا قديما كان قد أخفاه بعد أن عثر عليه فى منطقة المستنقعات وقد تركه أحد الثوار الهاربين فى ثورة عام ١٧٩٨ وما كادت يده تلامس مقبض المنجل حتى سرت فى جسده رعدة شاملة ، وسارع باخفائه بين القش ثم عاد الى البيت ودلف الى فراشه .

لقد كان يشعر بدقات فى رأسه كدقات الساعة حتى ذات النوم عن عينيه . وكانت زوجته الى جانبه تبكى طويلا فى سكون . . فلما تكلمت

فى النهاىة قالت انه لامفر لهما من احتمال هذه المحنة بصبر وايمان ..  
لكنه لم يجيبها .. وشعر فى هذه اللحظة بوقوف دقات الساعة فى رأسه  
واستسلم فترة للضعف حتى أحس حيننا لفتاته التى ذهبت عنه ، ولكنه  
مالبث أن تمالك حين عادت الدقات الى رأسه ، وعادت اليه صلابته مرة  
أخرى ..

وبين فينة وأخرى كانت زوجته تنتفض فى منامها وتهمهم بكلام  
مبهم واذ ذاك اشتدت دقات الساعة فى رأسه وأضحت واضحة مفهومة  
تقول له :

– الموت للطاغية .. الموت للطاغية ..

وأخيرا تنفس الرجل من أعماق رئتيه ، وأوماً برأسه ايجابا ، وقال  
بصوت مسموع :

– سيكون هذا حتما .

## الفصل الثاني والعشرون

أيقن الدكتور (هاينز) أنه بآء من الله باللعة والسخط منذ أن تسلل إلى القصر غداة اليوم الذى جرح فيه (شادويك) نفسه . . . ولو سئل الطبيب أى آثام اقترفها واستحق اللعة والسخط من أجلها لما حار جوابا فالواقع أن تلك الشائعات التى راجت خارج القصر عن تبذل (ايلي) لم تكن مطابقة للحقيقة . . . فان سر العلاقة بين (شادويك) وبين الفتاة بقى مكتوما عن ضيوف القصر ممن كانوا يشاطرون الرجل عبثه ولهوه . . . وصحيح أن الطبيب كان يشاطرهم الشراب والمقامرة ، بيد أن ذلك كان ديدن الشبان الذين هم فى مركزه من أبناء الاقليم وليس لهم من أسباب اللهو والترفيه الا هذا اللون .

كان الطبيب يرى أنه لم يستوجب تلك اللعة بسبب هذه الفعال ، بل بسبب البيئة التى خالطها والصحب الذين خادتهم . . . فقد اصطفى (شادويك) ويطانته ليمارس معهم هذه الفعال ، وهو الرجل الذى قطع ما كان يربط الطبيب من صلات بقومه ، وذلك ما جعله حقيقا باللعة والسخط ، بعد أن استباح لنفسه أن يغدو منبوذا من شعبة منكورا لديهم .

وكان (شادويك) قد اختفى باختفاء (ايلي) ، ولهذا السبب انقطعت زيارات الطبيب للقصر . . . وبعد أسبوعين من اختفاء الفتاة كان الطبيب يعالج بعض المرضى فى مستوصفه ، واذا ذاك مر به (الكابتن موردو) مفتش المنطقة وهو فى طريقه الى ثكنات البوليس ، ووقف يجاذبه أطراف الحديث وكان (موردو) هذا واحدا ممن كانوا يغشون بيت (شادويك) ، وقد توطدت العلاقة بينه وبين الطبيب . . . غير أن الطبيب لم يلبث وهو واقف خارج المستوصف يجاذبه الحديث ان ساوره الحجل من مدلول هذه الصلة الوطيدة . . . بل انه شعر بالنظرات العدائية المنبعثة اليهما من جمهرة الأهلين الفقراء المنتظرين ، وكأنها تقول بأفصح لسان : « ذلكم هو ابن جون هاينز ، يخادن واحدا من الطغاة الظلمة . . . انه باع نفسه للعدو الغاصب ! » .

كان مفتش البوليس يقص على الطبيب قصة فكهة وهذا يضحك مجاملة له ، عند ما سقط شاب من بين هذا الجمع الغفير مصروعا : ولكن المفتش أتم القصة وسار فى طريقه دون أن يتكلف عناء النظر الى الشاب الصريع .

وفيما كان الطبيب ينحنى فوق الشاب لاسعافه سمع عبارات السخط واللعة تنهال من حوله ، وقالت امرأة منهم :



- ولماذا لا ينحاز الى جانب الطغاة ؟ .. ألا يجرى فى عروقه دم  
الحونة الواشين ؟

فشعر الطبيب باحمرار فى وجهه وارتعاش فى أطرافه .. بيد أنه-  
لزم الصمت ولم يكلم أحدا .

ولم يستطع الطبيب تلك الليلة أن يذوق طعامه ، بل جلس الى نار  
المدفأة يضطرم كراهية لكل انسان .. لكنه اختص نفسه بالنصيب الأوفر  
من هذه الكراهية ، اذ هيا لشادويك أن يستغفله ويعبث به حتى ذهب  
يناجى نفسه قائلا :

- انه لم يتظاهر بمصادقتى ولم يعاملنى معاملة الند للند الا لانه  
مدين لأبى ، طامع فى المزيد من ماله .. ثم انه أرادنى أن أكون عن كذب  
منه لكى أعنى به كلما ألت به نوبات السكر .

ولم ينس الطبيب أن (شادويك) ورفاقه ذهبوا يعرضون به فى  
سياق اللعب ويتغامزون عليه كواحد من (الاهالى الوطنيين) ، وقد كان  
يتوهم أنهم يعدونه خارجا عن دائرة هذا الوصف .. فلما تذكر الآن  
عباراتهم وأسلوبهم لم يبق عنده شك فى أنهم قصدوا أذلاله وتحقيره  
عامدين ، فوضع رأسه بين كفيه متوجعا وصر على أسنانه الما .

وبينما هو كذلك طرق الباب بفته ، فانتفض فى مكانه ، ووثب  
هاتفا :

- من القادم ؟

فتتح الباب ، ودخل الاب (جيلان) ، وبعد أن أغلق الباب خلفه وقف  
ينظر الى الطبيب صامتا .. ولم يتكلم الطبيب بدوره ، وانما تخرج وجهه  
بالحمرة وعرفته من فرط الارتباك رعشة يسيرة .. فهو قد تحاشى لقاء  
القس منذ رافقه فى عودتهما من دار الاب (روش) تلك الليلة .. ولم  
يتمالك أن ساوره الخوف منه هذه اللحظة لما توسم فى هيااته من نذر  
الوعيد .. غير أن الطبيب لم يلبث أن نزع عنه مخاوفه حين استجلى  
نظرات القس وهو يدنو منه فى الضوء ، فألفاها مشبعة بالركة والعطف ،  
وهكذا بسط له يده محييا مرحبا ، فجلس القس قرب المدفأة باسطا يديه  
للهب مصطليا ، وقال :

- ياله من طقس لعين متقلب ! .. لكن هل يجوز لنا ان نشكو فى  
أوقات كهذه الاوقات ؟ .. كان الله فى عون المساكين ، ممن قضى عليهم  
أن يبيتوا فى العراء ، معرضين لهذا الطقس ، وبطونهم خاوية .

وتطلع الاب (جيلان) برهة فى وجه الطبيب الذى جلس أمامه وراح  
يقول بلهجة الحالم :

- ان المجاهدة لبلوغ الكمال ، هى الغاية التى يشهدها الانسان  
المتحضر .. ألا رحمة من الله لنا ، فما زلنا بعيدين عن هذا الكمال بعد  
شاسعا !

وابتسم في كتابة ودس يده في جيب متزقة ، فلمّا أخرجها كان بها منديل كبير أحمر تخالطه نقط بيضاء ، وخرجت مع المنديل أشياء أخرى منها ثلاثة أزوار وكتيب سقط على الأرض . فرفع الطبيب الكتيب ورده الى ضيفه الذي جعل يتصفح ما اشتمل عليه من كتابة خطية قائلا :

- ان ذاكرتي ضعيفة . . . ولذلك أدون في هذا الكتيب زوائد المآثورات ولطائف الفكر التي أصادفها في مطالعاتي ، لكي أحملها معي على ما رأيته فاذا طوفت بعد ذلك في جولاتي بين الجبال ، جعلت استعيد قراءتها . . . ان الشعراء والقديسين هم وحدهم الذين يبلغون حد الكمال من دون سائر البشر . . . أو هم بالأحرى يحاولون الوصول الى السماء . . . وانهم لينسون كل شيء في كفاحهم لادراك هذه البدائع . . . وانهم ليكابدون الآلام في تساميمهم هذا ، لكن هذه المكابدة هي مصدر سعادة قصوى لهم . . . بيد ان الناس يخشون هذه المكابدة أشد الخشية . . . والا فانظر الى هذا الوطن والى مآصارت اليه أموره . . . ليس ثمة ما هو أقسى من الكفاح دفاعا عن الحرية ، والفناء في سبيلها ، تحريراً للأرض التي حملتك ، وتوفيراً للسعادة والرفاهية لمن تحبهم من أبناء عشيرتك ومواطنيك . . . لكن هذا الكفاح يجلب المكابدة ويجر الآلام ، والجبناء المستضعفون يخشون المكابدة ويشفقون من الآلام . . . وبرغم ذلك لا يستطيع هؤلاء الجبناء المستضعفون اجتناب المكابدة والآلام بالتقاعس والنكول عن الكفاح . . . ان المجاعة آتية لا ريب فيها . . . المجاعة والموت . . . ولن يطبقا على الناس الا لانهم تقاعسوا وهربوا من مواجهة الكفاح . . . أجل . . . ان اعتناق هذه المبادئ السامية هو الطريق الى الحرية ، والظفر بالحياة النقية الكريمة .

وكان الضيف يداعب الكتيب بأصابعه وهو يسوق هذا الكلام الفريد . . . وما لبث أن رد الكتيب الى جيبه . . . واذ ذاك تعالى الضحك من ناحية المطبخ ، فضحك القس بدوره ، وقال وهو يبسط يديه الى لهب المدفأة :

- دعة وابتسامة . . . بكاء هنا وضحك هناك ! . . . سيأتي يوم يبلغ فيه البشر عامة حد الكمال . . . سيحبون جيرانهم كما يحبون أنفسهم . . . لكن لا بد قبل بلوغ هذه الغاية من عملية شاقة ، هي عملية التمهيد والاعداد . . . انها عملية جميلة هي أيضا . . . لاتضارع عمل الشعراء والقديسين حقا . . . فهؤلاء يرشدون الى الطريق ويهدون الى سواء السبيل أما أنت وأنا ممن لسنا شعراء وقديسين ، بل عاملين متواضعين ، فعلينا يقع العبء في عملية التمهيد والاعداد .

وما لبث الضيف أن عبس وراح يقول للطبيب بلهجة الوعيد وهو يتفرس فيه :

- ان السلسلة لا تكون قوية الا بتكامل حلقاتها جميعا . . . ان فقراء المستأجرين ، والمهاجرين المطرودين من أرضهم ، والعاملين الاجراء ، والمعوزين المعدمين - كل أولئك هم قبلة الشعراء والقديسين . . . ومحال ان نبلغ نحن حد الكمال المنشود ، ولا أن نظفر بالسعادة وراحة الضمير،

إذا أدركنا ظهورنا لمن اختارهم الشعراء والقديسون قبلة لهم .. خذ حذرك يا بنى ! .. نحن كالبيت المنقسم على نفسه .. نحن كالبيت القائم فوق ريو ، تهدده الزوابع والأعاصير .. ان محتلا غاصيا قد استقر فى بيتنا ووطد فيه أقدامه ! .. انه وضع النير فى أعناقنا ، واستعبدنا بمعاونة مأجوريه وأذنا به من السلايين النهايين الانتهسايزيين ! .. لقد جردنا المستعمر الغشوم من كل قوة نعتدها ، واستنزف مادة حياتنا .. انه أغرى بعضنا ببعض ، وفرق بيننا ، حتى أصبحنا عاجزين ، مغلوبين على أمرنا .. والنتيجة أن ضعف النفوس منا ، يحاولون الإفلات من هذا كله ، بمصانعة الغاصب واحتذاء أسلوبه فى كل شيء ، حتى فى الملبس والكلام .. لكن مهما يغيروا فلن يستطيعوا تغيير الدماء الأصيلة التى تجرى فى عروقهم .

ومال الضيف نحو الطبيب ثم استطرد يقول هامسا فى شراسة :

— لن تستطيع أن تغير الدم الذى يجرى فى عروقك ! .. فسيصرخ دمك فى سكرينة الليل مستنكرا حماقتك ! .. لقد قلت لك من قبل ان تحب أرض وطنك كما تحب أمك .. كيف ؟ .. سل الناس ! .. علمه عندهم ! .. هو فى شرايينهم .. استمع اليهم .. أحس احساسهم .. أحن رأسك أمامهم .. اننا لانزل الا حين ننكر مشاعرنا الأصيلة طمعا أوجبنا .. فلتهدب نفسك ولتطهرها ، لا باللسان ، ولكن بالقلب والسريرة .. ان المستقبل مايزال مشرقا ظهورا .. دع الناس يرحمونك بالحجارة ان شاءوا .. فالتاس فى مجموعهم هم كتلة الشعب ، وهم أبدا على حق اذا اجتمعت كلمتهم .. وهم قد يخطئون حيناً أو جيلا بأسره .. لكن هذه الحقبة ليست الا فترة يسيرة فى تواريخ الامم والشعوب .. ولسوف يصح تقديرهم ويستوون على الجادة فى النهاية .. أدر ظهرك لاعوان المستعمر الغاصب ، واتجه الى الشعب .. ان الشعب سيتلقاك بأذرع مفتوحة .. أنك لم تبلغ مرتبة الطبيب الا على حساب الشعب ، ومن مجموع الدراهم التى كان أبوك يجمعها من المساكين .. ان هذه الدراهم لم تتجمع الا من كد رقيق الارض وهم يضربونها بالفتوس بحشا عن القوت .. هو مال الشعب .. نحن جميعا أسرة واحدة ، وكل فرد فى الأسرة عليه تبعات يؤديها للآخرين .. ان هذا البيت الذى يؤويك ، وهذا المقعد الذى تجلس عليه ، وهذه الملابس التى تكسوك ، هى جميعا من خيرات الشعب وفضله عليك .. فلترد للشعب هذا الدين ، ولتؤد له الفضل مضاعفا .

وعلى هذه الوتيرة مضى القس يتحدث ، والطبيب ينصت اليه مبهورا طروباً .. واذا هو يرى السحب القاتمة التى رانت على بصره قد تبددت فجأة ، وانبلجت له الحياة المستغلة واضحة كالصبح .. وكذلك أفعمت نفسه سعادة وغبطة ، وامتلا عقله رجاجة وسدادا ، وعمر قلبه بأسباب القوة والبأس .



## الفصل الثالث والعشرون

بينما كان الطبيب يتناول فطوره صباح اليوم التالى اذ جاءه (ريلى) وأخبره أن (شادويك) رجع وأنه يريد لقاءه حالا . . فأجفل قائلاً :

— أهو مريض ؟

فأجاب (ريلى) :

— انه ليس مريضاً بالمعنى المفهوم ، وإن كان فى حالة غير عادية .  
وربما كان السبب هو الوحدة التى يعيش فيها . . ثم انه لم يبق منا فى  
القصر غير اثنين ، بعد أن رحل الباكون .

فقال له الطبيب :

— ماذا تقصد ؟

فجعل (ريلى) يلتفت حواليه مستطعماً ، ولما اطمأن الى عدم وجود  
أحد غيرهما فى الحجرة ، مال على أذن الطبيب وقال هامساً :

— انهم قد تلقوا انذاراً . . وقد أُنذرت مثلهم ، لكنى لم أتخل عنه  
وهكذا رحل الباكون ، ولم يبق معى سوى (مارى هالوران) .

فقال له الطبيب وقد ساءه أن يعده (ريلى) من زمرة (شادويك) كما  
نجلى ذلك من همسه وحديثه .

— اننى مشغول هذا الصباح .

فقال (ريلى) مهموماً :

— لقد أمرنى أن أصبحبك معى .

فصاح به الطبيب :

— قلت اننى مشغول .

وهكذا انسحب (ريلى) مدعناً متعثراً . .

أما الطبيب فقد خرج لعيادة مرضاه ، ولما رجع حوالى الظهر وجد في  
انتظاره رسالة من (شادويك) هذا نصها :

« عزيزى هاينز — لقد أدركت ولا شك أنك أصبحت متورطاً معى  
فى الأحداث القريبية المؤسفة التى جعلت للقصر سمعة سيئة . . ولكن  
زاجب الصداقة كان يقتضيك أن تكون الى جانبى تشد أزرى . . ويعاك

يا (هاينز) . . لامناص لنا من مواجهة الواقع كرجال ، لا كأطفال يعبثون  
اننى أقصد تلك الشائعات الدائرة . . اننى ما زلت على علم بما يجرى  
برغم انى أصبحت فى شبه عزلة بعد أن هجرنى خدمى قبحهم الله ، فيما  
عدا (ريل) وامرأة عجوز . . فلا تبخل على بزيارتك أيها الصديق ، وثق  
ان تصرفاتى ستكون من الآن بعيدة عما قد يسبب لك الحرج أو المضايقة-  
المخلص : جوسلين شادويك .

والحق أن الطبيب لم يكذب يتم تلاوة هذه الرسالة الغريبة حتى ضج  
بالضحك ، وما لبث أن ألقى بها فى نار المدفأة ، ثم قصد من فوره الى قصر  
(كروم) معتزما أن (يضع حدا نهائيا لعلاقته بهذا الوحش) ، على حد تعبيره  
وحتى لا يبصره أحد من الأهلين وهو يدخل القصر ، دلف اليه من باب خلفى  
ووجد (شادويك) فى انتظاره بحجرة الاستقبال الكبرى .

كانت الحجرة صورة مجسمة للفوضى ، وراح (شادويك) يذرع  
أرضها جيئة وذهابا ، وقد لف عنقه (بكوفيه) اخفاء لجرحه . . وقال الطبيب  
وهو يصافحه باشتياق :

- انى لم أرك قادما من الباب الامامى ، فقد كنت أرقب الطريق من  
النافذة ، فمن أين جئت ؟

فأجاب الطبيب :

- جئت عن طريق الباب الخلفى .

- آه ! . . هل وصل الامر الى هذا الحد ؟

قال (شادويك) هذا وهو يحك ظهره حكا عنيفا لفرط ما كان عليه من  
قذارة وسوء حال . . فقد ظل طيلة أسبوعين منذ رحيل (ايلي) هائما على  
وجهه فى أرجاء المقاطعة مخمورا معربدا لا يقر له قرار ولا يغير ملبسه . .  
وما لبث أن استطرد مخاطبا الطبيب فى قحة :

- هل خوفوك اذن ؟ . . كنت أحسبك أشجع من هذا يا (هاينز) . .  
أم ترانى كنت مخطئا فى تقديرى لك ؟ . . تبا لهذا . . أتتوى أن تقاطعنى  
وتهرب كالأخرين ؟

فقال له الطبيب :

- انى لأعرف ماذا تقصد بهذا الكلام .

فأثارت هذه اللهجة حنق (شادويك) حتى نزع عن أسلوب الملاينة  
الذى كان يتكلفه حيال الطبيب وهو مقتقر الى رعايته الطبية ، وتجلت الآن  
غطرسته واحتقاره للطبيب وهو يقول له :

- حسنا . . سنتحدث عن هذا فيما بعد . . والمهم الآن أنك هنا  
وعلى كل حال لا بأس أن تبدأ الحديث لتسوية هذا الموضوع فى الحال .  
قال هذا واتجه الى المدفأة حيث أذكى ضرامها بركلة من قدمه .

فقال الطبيب :

— وما هو هذا الموضوع ؟

فلم يتمالك (شادويك) أن استدار بسرعة وخطا خطوتين نحو الطبيب قائلا :

— يا للشيطان . . . ألا تعرف حقا ؟ . . . انى يارجل فتحت لك بيتى على سعته ، ونعمت عندى بالكثير .

فقال الطبيب بحدة :

— انى دفعت ثمن كل مانلته هنا .

فقال (شادويك) بصوت خافت حافل بالوعيد

— لتخاطبنى بهذا الاسلوب ؟

فأجاب الطبيب بعنف وهو يرتعد انفعالا لفرط ما توسل به من شجاعة وتجلد :

— انى أخاطبك بالاسلوب الذى يعجبنى

فاستضحك (شادويك) متكلفا قلة المبالاة ، وتظاهر بالمودة قائلا :

— هذا عبث لا فائدة منه . . . علينا بالشراب يا (ريل) . . . أين هذا المخلوق . . . (هالوران) . . . أين أنت أيتها المرأة المجنونة ؟

واندفع الى خارج الحجرة . . . فوقف الطبيب مستندا الى جدار المدفأة يحاول تمالك أعصابه ويقول لنفسه :

— واجهه ولا تخف منه . . . كيف تخاف هذا الخنزير المخمور ؟

ومع ذلك لم يتمالك الطبيب أن ارتعد حين سمع (شادويك) يصيح فى البهو بصوت مجلجل . . . وما لبث أن عاد يحمل زجاجة وكاسين اترعهما وقدم احدهما الى الطبيب الذى رفض الكأس . . . فقال (شادويك) :

— ماذا . . . ألا تشرب ؟

فأجاب الطبيب :

— شكرا . . . انى قررت الامتناع عن شرب الخمر .

فرماه (شادويك) بنظرة تشف عن الحقد ثم أفرغ كأسه فى جوفه وقال له :

— اجلس .

فجلسا متواجهين . . . وأنشأ (شادويك) يقول فى نبرات تشف عن التأثير ولكنها لا تخلو من القحة :

— سأحدثك عنها . . . أعنى (ايل) . . . انها كانت عشيقتى . . . هذه



هي الحقيقة التي لا أجد بأسا من مصارحتك بها الآن .. نعم هي الحقيقة وأعتقد أنها كانت تبادلني الحب ، والا كنت مغفلا يشار اليه بالبنان .. لكن ذلك اللعين (روش) ذهب يعرض بها ، فتدخلت أختها وحملتها على الرحيل ! ولو كنت هنا وقتها لجلدت تلك الأخت اللعينة التي يسمونها (مارى) .. ماذا يريد أولئك المناكيد ، وكان الوفاق بينى وبين (ايلي) على أتمه ؟ .. ألم ترها يا (هاينز) ؟ لقد كنت تحضر الى هنا مع الآخرين متمسحا متوددا ! هل تنكر ؟ .. ولكنك لم تلبث أن وليت هاربا عندما لمحت بوادر المتاعب .

فلم يتمالك (هاينز) أن وثب قائما وهتف بصوت مرتفع :

- اسمع يا (شادويك) :

فقاطعه (شادويك) قائلا بغطرسة وهو يميل نحوه :

- اسمى الكابتن شادويك يا عزيزي المحترم .

فجعل الطبيب يحملق فيه برهة وهو يرتعد بعنف .. وما لبث أن عاد الى الجلوس دون أن يتم كلامه ، فاستطرد (شادويك) قائلا بعد أن تناول كأسا أخرى :

- انى عشت هنا حياة موحشة لم يؤنس وحشتها سوى تلك الفتاة الفلاحة .. ولكنها لم تلبث أن رحلت .. ولم تقبل قط أن تعود .. انى تبعتها حتى ميناء (كلوجر) .. وكدت أركع تحت قدميها من فرط الالحاح والرجاء .. وتابعت مركبتها بجوادى وهى متجهة الى (دبلن) محاولا اقناعها والتأثير فيها لآخر مرة .. لكن دون جدوى ! .. أنا واثق مع ذلك انها كانت فى قرارة نفسها تميل الى، لولا أولئك الملاعين الذين أفسدوا ما بينى وبينها ! .. أولئك الهمج المتوحشون .

واشتد هياجه ، فراح يقول وهو يضغط على أسنانه :

- هناك مخلوق لن أصفح عنه بعد ما كان .. اننى قد أصفح عنكم جميعا .. (بورك) وأنت وسائر الزملاء .. لكنى لن أصفح عن تلك الأخت اللعينة .. سأشفيها من داء الوقاحة .. انها عرضت بى أمام الخدم .. اننى سأجعلهم جميعا يندمون .. يقولون انى طاغية ظالم ؟ سأريهم اذن ماهو الطغيان والظلم حقيقة .. انى كنت حتى الآن متسامحا مع هؤلاء الكلاب .. أما الآن فسيعرفون من أنا .

وتناول كأسا أخرى ، ومضى يقول بلهجة المخمور :

- انى جعلت أغريها بالمال حينما رفضت مغادرة المركبة .. لكن الفلاحين الملاعين كانوا حولها ، وقد تصدى لي ملاح يريد الاشتباك معي .. وأحسبها قررت أن تصاحبها قبحها الله .. فليكن ما أرادت ، ولتتهنأ بملاحها .. أما عن ذوبها فسيكون لي معهم حساب آخر .. انهم طلبوا المناجزة ، وقد قبلت تحديهم لي .. مازال للقانون كلمة مسموعة فى هذه البلاد .. انى سأصيدهم كالقثران فى الجحور .. فصبرا يا (هاينز) سوف تشهد بعيني رأسك صيدا حافلا فى هذه البقاع أيها الفتى العتيد-

وهنا لم يتمالك (هاينز) أن تشجع قائلا :

— اتحسب هذا مادة للفكاهة والتسلية ؟ .. موت الناس من الجوع ؟  
أهذا هو مذهبك في اللهو ؟

فقال (شادويك) مستغريا :

— أى أناس تعنى ؟

فهتف الطبيب وهو يرتجف من رأسه الى قدميه :

— أنت المسئول عن هذا .. انك وقومك قد جلبتم على هذا البلد  
الخراب والانحطاط .. الناس يموتون الآن من الجوع .. ثم انك عملت  
جهدك للقضاء على .. فانك لم تستدرجنى الى هنا الا لانك مدين لآبى ،  
وكنت تسعى لطلب المزيد .. انى أعرف حقيقة صداقتك لى .. أنا  
لاأريدها .

واستوى (هاينز) على قدميه وهو يقول هذا الكلام .. فنهض  
(شادويك) بدوره وواجهه فى سخط قائلا :

— انى جلدت بالسوط رجالا لمثل هذا الكلام .

فرد عليه (هاينز) بعنف قائلا :

— كان هذا قبل أن تصبح سكيلا مخمورا .

والحق أن الطبيب فاه بكلماته تلك فى نبرات لا تخلو من البهجة ،  
فلاول مرة فى حياته أحس أنه أضحى رجلا من الاحرار .

أما (شادويك) فقال بصوت كالفحيح وقد دنا منه خطوة ورفع  
فبضته :

— أيها الوغد الحقير .. أيها الكلب !

فضحك الطبيب ضحكة ان تكن ضعيفة متخاذلة فانها أدهشت  
(شادويك) حتى تراجع فى مكانه .. وما لبث أن اتجه الى الباب وهو  
يبثسم ابتسامة غريبة وقد انحرف فى مشيته كأنما يتأهب للدفاع عن  
نفسه من هجوم مباغت .. على أنه توقف قبل أن يبارح الحجرة ، وهتف  
فأثلا :

— لك الآن أن تمضى فى السكر حتى الموت . لا تطمع فى مساعدة منى  
اذا انتابتك نوبات الفزع التى تصيبك وأنت مخمور .. ولا تكن جبانا هذه  
المررة .. فان استعمال المسدس أضمن للموت من الموصى .

وأغلق الباب خلفه وابتعد مسرعا .. ولكن (شادويك) لم يتبعه ..  
بل لزم مكانه وهو يقول بصوت مرتفع :

— يا الهى ... ماذا بعد ذلك ؟

وجمد مكانه طويلا وقد احتقن وجهه غضبا .. وما لبث أن نهالك  
فى مقعد وحجب وجهه بيديه حيناً .. ثم نهض فجأة ومد يده الى زجاجة  
الشراب ولكنه جذبها دون أن يلمس الزجاجاة ، وجعل يحرق فى السقف  
خاغر القم .. وأخيرا أطبق فمه وشد على عضلاته وأمسك بالزجاجاة ثم  
حطمها على جدار المدفأة وألقى بعنقها فى النار .. وبعد فترة حطم الكاسين  
أيضا .. وفى النهاية فرك كفيه وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة مالبثت  
أن استحالت الى ضحكة .. وفى خطى واسعة جبارة تقدم الى الباب  
وصاح قائلا :

— (ريلى) أيها المهرج ! .. أين أنت ؟ أعد جوادى حالا !



## الفصل الرابع والعشرون

استأنف الدكتور (هاينز) نشاطه الطبي بهمة مضاعفة بعد تلك المصاولة التي كانت بينه وبين (شادويك) . . . وقد زاد اتصاله بالأب (جيلان) حتى غدا كلاهما لا يفترق عن صاحبه الا قليلا . . . فكان ذلك مدعاة لسرور أبيه (جون هاينز) الذي اشتد انزعاجه عندما كان ولده مندمجا في زمرة (شادويك) منغمسا في مبادئه ، حتى أشفق اذ ذاك أن يؤدي مسلك الطبيب الى ضياع الهدف الذي رسمه لنفسه في الحياة ، وقصوده عن أدراك (القوة) التي لامزيد عليها - ذلك الهدف الذي ظل يكافح طوال حياته لأدراكه .

أما الآن وقد ثاب ولده الى الصواب بفضل الخطبة النارية التي ألقاها الأب (روش) في الكنيسة يوم العيد ، والحديث القيم الذي اختصه به الأب (جيلان) في زيارته له على ما رأينا - فقد رضى (جون هاينز) واغتبط وتبدلت أطواره من الوجوم الى البشر ، حتى عجب الناس من أمره وما عهدوه الا منطويا سييء الظن بالناس والأشياء .

ويخطيء من يظن أن انصلاح أمر الطبيب كان هو العامل الوحيد في تبدل أطوار أبيه على هذا النحو . . . فقد كان ثمة عامل آخر لفرح الأب واستبشاره ، هو ابتداء أعمال الاغاثة والترفيه التي قررتا الحكومة أخيرا فقد قررت الحكومة في النهاية أن تقوم بعمل ايجابي ازاء المجاعة الشاملة الوشيكة ، وأدرك العجوز أن هذه المساعدات قد تكون سببا في مضاعفة ثروته اذا هو أحسن انتهاز الفرصة .

كانت خطة الحكومة الانجليزية في هذا الشأن تقضى بمنح ايرلندا قرضا ماليا بفائدة قدرها خمسة في المائة ، ولكنها اشترطت عدم اتفاق هذا القرض في أى من المشروعات الانتاجية كاصلاح الاراضى الزراعية أو اقامة الصناعات ، حتى لا يكون في هذا منافسة للصناعة الانجليزية الناشئة . . . بيد أن جماهير الارلنديين الجياع تلقفوا هذه المعونة بالفرح . وكان (جون هاينز) أشدهم فرحا . . . وكما تحلق الطيور الجارحة مرحة فوق ساحة قتال غطتها الجثث والأشلاء ، فقد طرب (جون هاينز) لهذا الشقاء الذي حل بالناس ، لأن هذا الشقاء سيفعم جيوبه بالمال . . . فسان المعونة المالية التي يتلقاها الأفراد ستصب في متجره حتما ، وسيغص فندقه بالنازلين من الموظفين المنوط بهم أعمال الاغاثة والترفيه .

فهل من عجب اذا كان لسان حاله يقول :

«بارك الله في هذه المجاعة . انها نعمة وبركة» .

وقد قلق (جون هاينز) أول الامر اذ رأى الجريدة المحلية التي تصدر  
فى (كلوجر) تدعو الحكومة الى انشاء محال لتوزيع المواد الغذائية على  
الأهلين بالأسعار الأساسية ، انقاذاً لهم من الوقوع فى براثن الاستغلاليين  
الجشعين . . ولكن سرعان ما بادرت الحكومة الى نفي هذا الاتجاه ، مؤكدة  
عزمها على عدم التدخل فى حرية التجارة ، وعلى عدم انشاء محال فى  
المناطق التي يوجد بها تجار يستطيعون تزويد سكانها بحاجاتهم من هذه  
المواد . . كما أذاعت الحكومة قرارها باستيراد مقادير من القمح الاصفر  
من الولايات المتحدة لبيعها للأهلين بأسعار زهيدة . . وهكذا اطمأن (جون  
هاينز) وهدأت مخاوفه ، ولهج لسانه للحكومة الانجليزية بالدعاء .

ولكن المشكلة التي واجهت (جون هاينز) كانت تدبير المقادير الكافية  
من المواد الغذائية لتسد حاجات أهل القرية ، والا اتجهت الحكومة الى فتح  
محل تحت اشرافها . . . ومالبت أن هداه التفكير الى خطة باهرة جريئة  
توسم من ورائها نتائج طيبة .

والحق أن (جون هاينز) لم يكد يأوى الى فراشه هذه الليلة حتى  
أشار الى الموضوع أمام زوجته ، لا تقديراً منه لرأيها وهو حين عنده ،  
بل لكى يزن الفكرة فى سمعه عند ما يبرزها من عالم الخواطر والاحلام  
الى دنيا الحس ومدلول الكلام . . .

قال لها الزوج :

— أترين أن الوقت قد حان لزواج ولدنا ( تونى ) ؟ . . . أنعرفين  
من تصلح له زوجة فى (كلوجر) ؟ . . . أهذا وقت مناسب للقيام بمشروعات  
جديدة ؟ هل من الحكمة أو الحماقة أن يسحب الانسان أموالاً من البنك فى  
مثل ظروفنا الحاضرة لا استغلالها فى التوسع التجارى ؟ هل يقبل الناس على  
استهلاك هذا القمح الاصفر الذى سورد من أمريكا ؟ هل تقوم الحكومة  
بتحديد سعر معين للبيع بالتجزئة ؟ . . .

وكانت زوجته تعلم انه لا يطلب منها جواباً عن هذه الاسئلة التي  
لا تجمعها رابطة ظاهرة . . ولكن موضوع زواج ابنها (تونى) قد استأثر  
باهتمامها ، فهو قد جاوز الثامنة والعشرين وحان الوقت لاسـتـقراره  
بالزواج . . ولذا قالت لزوجها :

— لا بد من حملة على الزواج ، فهو بطبعه لا يفكر فى شىء كهذا . .  
وانى أعرف أنك تفكر فى ابنة (رابيت) زوجة له . .

فهتف بها الزوج مغضباً :

— من قال هذا ؟ . . وما الذى يحملنى على مثل هذا التفكير ؟ ألا  
يوجد عشرات من الفتيات الموسرات يمكن أن يختار منهن زوجة له ، وهو  
شقيق طيب ، وراغبة ؟ فى الواقع ان أرقى بنات الاقليم كله لا تصلح  
واحدة منهن زوجة لمن هو فى مركزه .

— لكنى كنت أقول . . .

— اسكتى !

وكذلك انتهزها وألزمها الصمت .. فقد استقر عزمه على خطة محدودة ، ولم يبق سوى المبادرة الى وضعها موضع التنفيذ .

وقد بلغ من شدة اهتمام (جون هاينز) انه استيقظ من نومه قبل الفجر خلافا لعادته ، وتسلسل من غرفة النوم على أطراف أصابعه الى حيث أيقظ ولده (تونى) فى الغرفة المجاورة ، وطلب اليه أن يتبعه فى سكون بعد أن يرتدى ملابس يوم الاحد ، ثم قصد الى المطبخ فجاء برغيف من الخبز الجاف وقده من اللبن وشطر الرغيف نصفين فاستبقى لنفسه النصف وأخذ يقطع منه لقمات يغمسها فى اللبن ويزدردوها فلا تلين تحت ماضغيه ليبسها وصلابتها .

وجاء (تونى) على الأثر ، فقال متثابرا متضجرا :

— ان الديوك لم تستيقظ بعد ، والظلام حالك ، فماذا بك هذا الصباح ؟

فقال أبوه :

— اسكت ... كل ... ستعرف قريبا ... عجل ..

وطوح اليه بنصف الرغيف فوق الحوان حتى كان لوقوعه صليل معدنى فوق الحشيب ، وقال له :

— لأريد أن يرانا أحد ونحن خارجان من القرية .. أمامنا عمل نؤديه ..

كان (تونى) أقرب الى المكر منه الى الذكاء .. وقد أدرك من فوره أن العجوز فى أثر صيد ثمين أو صفقة ضخمة، حتى لم يتمالك أن تلقى كلمات أبيه ضاحكا وكان غليظ السحنة متنافر الملامح، يمتاز ، خلافا لأبيه وشقيقه بضخامة الجسم ووفرة القوة .. ولكن ضخامة جسمه ووفرة قواه كان لهما من الأثر ما جعله أبعد عن الشعور مثلها بالضعف والضععة والحمول وهى السمات الغالبة فى سائر أفراد الأسرة .

وقال (تونى) وهو يمضغ الخبز بأسنانه القوية :

— أرى فى رأسك شيئا يختمر ! اليس كذلك ؟

فما كان من الأب العجوز إلا أن جمع فتات الخبز من فوق الحوان فى كفه وغيبها فى فمه ، ثم نهض قائلا :

— سأخبر (جوليا) بخروجنا .

وكانت شقيقته جوليا راقدة فى غرفة صغيرة مجاورة للمطبخ .. زهى هى (جوليا) التى طالما جابت معه الأزقة فى طفولتهما مع الحمار .. وكان يثق بها أكثر مما يثق بزوجته .. فهى مثال الشح والتقتير ، وان كانت لا تطلب أجرا عن خدماتها .. وهى مازالت برغم شيخوختها تتولى شئون الطهى للأسرة ولنزلاء الفندق ، تلافيا لاسباب السرف والتبذير .



ولما دخل عليها وجدها مستغرقة في النوم في فراشها الرث .. وما  
كاد يلمس منكبها حتى هبت جالسة ومدت يدها الى ثوبها دون كلام ..  
فلقنها ما كان يريد من التعليمات وهي ماضية في لبسها دون أن تقوم  
بكلمة ..

وفي عودته الى المطبخ أبصر زوجته تهبط السلم حافية وبيدها شمعة  
مضاءة ، فقال لها مفضيا :

— ما الذي أيقظك ؟

فجاءت آليه وبيدها اليسرى زجاجة صغيرة بها ماء مقدس وقالت له  
بأنفعال وتأثر

— لم أرد أن أدعكما تذهبان دون تلقي البركة

فقال لها مكابرا :

— نعم .. والى أين تظنين أننا ذاهبان ؟

ومهما يكن فقد تركها الأب تنثر الماء عليه وعلى ولده بركة وتيمنا ،  
وبعد برهة تسلس الاثنان الى الاسطبل حيث أسرجا فرسا أشهب شدا الى  
مركبة مكشوفة فاستقلها وخرجا بها من القرية والبرد قارس يكاد يهرا  
الاجسام حتى رفع كلاهما ياقة معطفه وجعلا يضربان أكفهما ببعضا ببعض.  
التماسا لشيء من الدفء .. وكان الثلج قد تساقط يسيرا في الليل مما  
هيا للمركبة أن تدرج دون أن يسمع لها ولحوافر الفرس صوت في هدأة  
القبحر البازغ ..

وعندما ابتعدا عن القرية تكلم الأب أخيرا ونفض الى ولده حقيقة  
خطئه في اسهاب تبير .. ومع انه كان يتكلم وعيناه تلمعان ، فقد بقيت  
نبرات صوته مكتئبة يشوبها الوجوم حتى لكأنه يتوقع كارثة من تنفيذ  
خطئه الجريئة .. أما ( توني ) فقد استمع اليه صامتا حيناً ، وما لبث  
أن تنهد قائلاً :

— موافق .. قيل لي ان العروس تشكو وربما في ساقها ، لكن متجر  
أبيها طيب .. وهي قصيرة النظر ، لكنها سليمة البنية ويمكنها انجاب  
الاطفال .. انه مكان طيب جداً ، وأنا موافق يا أبي ..

فمال هاينز نحوه قائلاً :

— وما رأيك في المجازفة ذاتها ؟ .. أموالنا .. أهذا وقت المجازفة  
بها ؟

فاخذ توني الى الصمت مرة أخرى ، ثم قال في جد :

— لا مجازفة في الامر ما دامت الحكومة تعضد المشروع .. لا مجازفه  
الا أن تتدخل القدرة الالهية بشيء فوق طاقة البشر ..

واشرقت الشمس ساطعة فوق بساط الثلوج الرقيقة التي اكتست  
بها الحقول والطرق الملتوية الضيقة .. وسرى الهواء جافاً لاذعاً .

ودرجت بهما المركبة فى الارض الزراعية المنبسطة بعيدا عن تلك السفوح الجرداء التى قامت القرية فى أحضانها بين الجبال الشم والقمم المكلفة بالثلوج .. وفى الحق أن هذه المشاهد كانت تستهوى الأئدة بجلالها وجمالها فى ضوء الشمس المنعكس على الثلوج ، بيد أنهما كانا فى شغل عن كل جلال وجمال .. فمثلهما كمثل ذئبين تسلا من جحرهما بين الجبال الى البلدة الهاجعة للانقضاى والاقتراس ..

كانت (كلوجر) بلدة تعدادها زهاء عشرين ألف نسمة ، ولكن من يرى الجماهير التى ازدحم بها شارع البلدة الرئيسى فى بكرة الصباح يكاد يتصور أن السكان أضعاف هذا العدد .. فقد انتشرت فى أرجائها مواكب الجياع يتسكعون على الارصفة وكأنهم اسراب نمل انقطع اتصالها بالجحافل الكبيرة فهى تنتظر من يردّها الى سسواء السبيل .. وقد راح هؤلاء المتسكعون يرمقون المركبة وراكبيها بأعين مفعمة بالرجاء والابتهاال ، ولكن الأب وابنه كانا عنهم معرضين اعراضهما عن جمال الشمس المشرقة وهى ترسل أشعتها فوق الثلوج ..

وتابعت المركبة طريقها حتى سوق السمك القريب من مصب النهر فى المحيط .. وكانت البائعات يملأن الجو بنداواتهن الحسارة اجتذابا للشارين ، والطيور البحرية تحلق على ارتفاع قريب فوق السوق ومصب النهر ، واشرعة السفن تلوح خفاقة بين أمواج البحر ..

وانعطفت المركبة يسارا فى محاذاة أرصفة البسحر ، ثم وقفت أمام بيت قائم مكون من طابقين يجاوره متجر تكدست أمامه ألواح الخشب وعلى باب البيت الواطء علفت لوحة كتب فيها :

« جيمس رابيت وولده - مستوردون وتجار خمور » .

وترجل الاثنان تاركين عنان الفرس فى رعاية صبنى زهبطا درجات الى الطابق الارضى للمتجر الذى كان بانخفاضه أشبه بكهف .. وقد بدا المكان ضيقا لوفرة ماتكدس فيه من أكياس الفلال ، واجتمع فيه نفر من الفلاحين رجالا ونساء جلسوا القرفصاء فى ركن منه .. وحيا جون هاينز امرأة شابة وقفت خلف المتجر ، فردت تحيته بمثلها ومدت له يدها مصافحة ..

كانت المرأة هى (مارى آن رابيت) حفيدة صاحب المنجر من ولده المتوفى .. وكانت شديدة القبح والدمامة نتيجة لهذه الشامة القانية التى امتدت فسوق جبينها وخدّها الايسر .. وكانت منتفخة الساقين حتى لتمشى بجهد وعناء .. وفيما عدا ذلك كانت قوية البنية ، ذات ابتسامة جذابة .. وقد سألها (هاينز) همسا :

— وهل ( جيمس ) فوق ؟

— انه الآن يتناول فطوره .. اضعدا اليه ..

فخرج الأب من باب صغير خلف المتجر .. وقد تخلف (توني) برهة

كأنما كان فى نيته أن يقول شيئاً للفتاة ، بيد أنه أمسك ، وتبع أباه فى سلم ضيق الى الطابق العلوى .. ولما طرق (هاينز) الباب أجابه صوت خشن يدعوه الى الدخول .. فدخل مع ولده .. وشاهدا (راييت) العجوز جالسا الى خوان صغير قرب نافذة تطل على الميناء وهو يقطر .. وبرغم أنه كان فى الخامسة والسبعين من عمره ، فقد ترقرق فى وجهه ماء الصحة ، وبقي شعره الأشيب المجعد كاملاً .. وكان الى هذا يتحلى بقرط ذهبى فى أذنيه وقد فقد ساقه اليسرى فى معركة ( أبى قير ) البحرية فبذبت هيأته أقرب الى القراصنة ..

وقال لهما بصوت أقرب الى الزمجرة والهدير :

— صباح الخير .. اجلسا واشربا شيئاً من القهوة معى .. البرد شديد هذا الصباح ..

فقال له هاينز وهو يخرج زجاجة صغيرة من جيبه :

— عندي ما يبعث الحرارة والدفء .. اننا بكرنا حقيقة فى الحضور اليك يا جيمس .. لكن أماننا عملاً لا يحتمل الانتظار ..

فقال له راييت :

— تخطفك الشيطان .. أنت دائماً فى رأسك أشياء لا تحتمل الانتظار .. ماذا عندك الآن ؟ .. كيف حالك يا تونى ؟ .. لم يتغير قلبك ، لطف الله بك .. اجلسا ..

فجلسا .. ووضع هاينز الزجاجة فوق الخوان قائلاً :

— لطف الله بنا جميعاً .. لكنى أراك فى صحة جيدة يا جيمس ..

فقال جيمس وهو يذب الى دولاب قريب لاحتضار الكئوس ..

— ما الذى ينال منى ؟ .. لو شاء الله ووقانى الكوليرا وحمى الخنازير ، فسأعيش حتى أشهد دفنك يا جونى .. نعم .. وارقص على قبرك ، أيها الثعلب العجوز ! ..

فراح هاينز يقول بصوته الكئيب :

— أشهد أنك رجل قوى عظيم حقاً ، وأنت تعيش هنا وحدك ، لايعاونك سوى (مارى آن) ، وبعد أن فقدت نصفك فى المعارك والحروب ..

فقال راييت وهو يضع الكئوس فوق الخوان :

— تلقفتك نيران الجحيم يا رجل .. هـلا فتحت هذه الزجاجة وأمسكت عن الكلام ؟ أظنها أرخص ما وجدت ، أيها البخيل ؟

فأجاب هاينز وهو يفتح الزجاجة :

— ابدا .. انها من اجود الانواع .. خذ كأسك يا جيمس ..



وشرب الثلاثة .. وما لبث رابيت أن وضع كأسه فوق الحوان بقوة  
وقال :

- أنا فى مكانى هذا أستطيع أن أرى كل شىء دون أن أحرك قدما .  
هذا خير مجلس ..

فسرح هاينز بنظره من النافذة الى السفن الراسية فى الميناء ، وراح  
يقول بلهجة المحزون :

- يأتى على كل مخلوق يوم لا يستطيع فيه حتى الصقر أن يميز  
وهو فى الجو بين الفأر والحجر .. ان هذا اليوم أتانى يا جيمس ..  
أتانى بالشيخوخة وضعفها .. لكنى أحمد الله أنى أستطيع الاعتماد على  
ولدى هذا ..

فقال رابيت :

- هو كبير فعلا .. على بكأس أخرى من هذا الشراب يا جونى ..  
ثم هل لى أن أسأل ما الذى جاء بك فى مثل هذا الوقت المبكر ؟

فصب له هاينز كأسا أخرى ، على حين مضى رابيت يقول :

- أظن أن ( مارى آن ) هى هدفك مرة أخرى ؟

- لقد أصبت كبد الحقيقة يا (جيمس) ... ولكنى جئت هذه المرة  
بصفة سوف تسيل لعابك ...

فقال ( رابيت ) وهو يرفع الكأس الى فمه :

- نخب صحتك .. ما هى هذه الصفة ؟

والحق أن الشراب حل عقدة لسان هاينز ، فتدفقت فصاحته ،  
وشرح مشروع المعونة الحكومية بإسهاب ، وأشار بصفة خاصة الى ما تقرر  
من استيراد مقادير القمح الاصيصفر الرخيص من أمريكا .. ثم استطرد  
يقول بحمية وقد مال نحو صاحبه :

- هناك ثروة طائلة من هذا المشروع يا جيمس .. لقد علمت أن  
حمولة سفينة كاملة ستصل الى ميناء ليفربول قريبا وستباع بسعر ستة  
جنيهات للطن .. ويمكن بيع هذا القمح بالتجزئة بسعر يكفل أرباحا  
مفرية .. ولا يتطلب الامر سوى المبادرة الى شراء أقصى ما يمكن من هذه  
الشحنة قبل أن يتشتم التجار الخبر ويتخاطفوها .. ان السابق هو  
الفائز يا جيمس .. ان الحكومة ستعبد الشعب بالمال ، ومن يبادر باغتنام  
هذه الفرصة السانحة العظيمة سيضمن أرباحا يعجز عنها التصور  
يا رجل .. نعم .. هى أرباح يروعك التفكير فيها .. ان الأيدي المليئة  
بالنقود الفضية الخالصة ستتخاطف هذه الغلال حال نزولها الى الارصفة ..  
ولكى لا أطيل عليك ، أقول لك اننا على استعداد لاشراكك معنا فى هذه  
الصفة ..

وتناول هاينز يد رابيت وبسط أصابعها ثم ضرب عليها بكفه فى  
قوة وهو يقول :

- اننا خصصنا مبلغ ألف جنيه حصتى وابنى فى هذه الصفقة  
المشتركة ، مع اشراك (مارى آن) فيها ، وعلى أن تؤول اليها حصتك عند  
وفاتك ... أبصق على يدك وصافحنى تصديقا للقبول والمشاركة ...

بيد أن ( رابيت ) مال الى الحلف وقد تغيرت حاله واستحال تبسطه  
الى حرص التاجر الماكر المدقق ، قائلا :

- رويدك ( ياجونى ) .. أننى شخصيا فكرت فى هذا القمح  
الاصفر .. هل يقبل الناس على أكله ؟ ..

فأجاب هاينز بلهفة :

- ولم لا يقبلون ؟ ان الافواه الجائعة ليس أمامها فرصة للمفاضلة ..

- لكنها مع ذلك مجازفة كبيرة .. لقد جرب الناس هذا القمح  
الاصفر فيما مضى .. ولن يقبلوا عليه هذه المرة خوفا من أن يحيلهم الى  
وثنيين سود ..

- ان الحاجة التى اضطرتهم اليه فى الماضى لا تذكر بالقياس الى  
المجاعة الحالية .. أين الفهم والتمييز يا رجل ..

- ان عندى منهما الكثير .. ولولا خوفى من هذه المجازفة لما انتظرت  
حتى تغرينى بجنيهاك الالف ..

- هل لك فى كأس أخرى يا جيمس ؟

- لن تلين قناتى وتستميلنى بالخمير ! ..

فابتسم هاينز ابتسامة الدهاء وهو يصب الكأس .. لقد كان يعلم  
أن رابيت لا يملك ألف جنيه أو ما يقارب هذا المبلغ .. صحيح أن تجارته  
ازدهرت حينما من الزمن ، لكنها لم تلبث أن صارت الى كساد عقب انتهاء  
حروب نابليون وظل رابيت طوال السنوات العشر الاخيرة بعد وفاة ولده  
وهو يجاهد ليبقى طافيا فى خضم التجارة المائع ..

كان هاينز يعلم هذه الحقائق علم اليقين .. وقد ظل زمنا طويلا  
وهو يتدبر المزايا التى يجنيها من تزويج تونى بمارى آن .. وكان موقنا  
أنه كلما توسل بالصبر والانتظار كانت الصفقة أجزل .. ولم يلبث الآن  
أن راح يضرب على نغمة أخرى قبل أن تضيع الفرصة ، فجعل يقول بلهجة  
المكتئب :

- ربما كنت على حق فيما تنطوى عليه الصفقة من مجازفة يا جيمس ..  
انك رجل حكيم بعيد النظر .. كيف فاتنى أن أتدبر هذا الاحتمال ؟ ..  
من الخير أن ننسى ما دار بيننا الآن .. نخب صحتك يا جيمس ..

فما كاد رابيت يسمع هذا الكلام حتى اصفر وجهه ومال نحو  
صاحبه وهتف به مقضيا :

— ماذا دهاك يا رجل ؟ • ما الذى جاء بك الى هنا ان كنت لا تريد الاتفاق على الصفقة ؟ •

فتكلف هاينز الدهشة والاستياء قائلا :

— أنا لا أريد الاتفاق على الصفقة •• يا الهى ! اسمعوا يا ناس كلامه ، وهو نفسه الذى ••

— لست أنا •• بل أنت ! ••

وأخيرا تدخل تونى ، فدفع مقعده الى الامام قائلا :

— كفى يا هذان •• قل لنا رأيك يا جيمس •• أتوافق على الصفقة أم لا ؟ •• ألف جنيه للمشاركة بحق النصف فى الصفقة ، مع يد ماري آن • نعم أم لا ؟ هناك آخرون ينتظرون هذا العرض ••

فجعل رابيت يتفرس فى الشاب مليا ، وما لبث أن بسط له يده قائلا :

— يدك فى يدي •• اننى أساهم معك فى الاعمال ، وان كنت لا أساهم مع أبيك البخيل الكذوب •• اتفقنا •• ابصق فى يدك ••

فبصق كلاهما فى كفه ثم تصافحا •• واذا ذاك ضج هاينز بضحكة زنانة وضرب فخذه بيده وقد انتابه ثمل يسير ، ثم هتف قائلا :

— اذن تم الاتفاق والتعاقد أخيرا •• قم الآن يا تونى ، أيها الجبل من اللحم والشحم •• اذهب واحضر لنا عروسك ، لنرى حظها من الانوثة • أى طراز من الرجال أنت ، حتى تفعل هذه المعجزة ؟ ••

فنهض تونى وقال فى وجوم :

— أنا من الطراز الذى لا يعترف بالمستحيل ••

وخرج من الغرفة •• فجلس العجوزان متقابلين حول الحوان ، ومال كلاهما على صاحبه حتى كاد أنفاهما يتلامسان ، وبدأ يتبادلان الثناء ، ثم انتهى بالاشتباك فى نقاش عنيف بصدد اجراءات الزواج ••



## الفصل الخامس والعشرون

كان جون هاينز مسرفا في تفاؤله بصدد العون المالى الذى قدر أن الحكومة الانجليزية ستغدقه على الاهلين فى المقاطعة .. فقد تبين أن هذه العون لا يعدو أن يكون قطرة فى محيط ..

عقدت لجنة المعونة أول اجتماعاتها فى قاعة المحكمة ، فاذا أكثر من ألف رجل قد احتشدوا خارجها انتظارا لتشغيلهم فى الاعمال التى ستقررها اللجنة تخفيفا للضائقة .. وقد اضطر مستر ( سوان ) رئيس اللجنة أن يشق طريقه الى الداخل فى غمار هذا الحشد الصاخب تحت حراسة رجال البوليس ، حتى لقد روعته هذه المغامرة وأثارت سخطه مما حدا به الى رجاء الأب (روش) أن يطالب الجماهير بالانصراف .. فغضب القس بدوره وقال له :

— ولم أطلبهم بالانصراف ؟ ألم يجيئوا الى هنا ليجدوا عملا ؟  
فقال مفتش البوليس :

— لن يمكن تشغيلهم جميعا .. انهم جموع زاخرة فى الخارج .. ولن يتيسر الا تشغيل ثلثمائة شخص كل مرة .. وعلى كل حال لا بد أولا من فحص حالة كل فرد بدقة ، للاطمئنان الى صلاحيته للعمل .. ومضى يبين للقس اجراءات الفحص تفصيلا .. فاستمع اليه القس صامتا .. وما لبث أن تملكه الغضب وهرع الى الجماهير المحتشدة خارج المحكمة ، فاستقبلته بالهتاف المدوى .. أما هو فقد اعتلى مركبة وصاح فيهم قائلا :

— ان أوزة الحكومة الانجليزية قد تمخضت عن بيضة عصفور ، وهى بيضة ليس فيها الا القمح الاصفر .. فيأيها الناس .. من كان منكم عفيفا قادرا على العمل ، ومن كان له سقف يظله ، ومن كان يملك بقرة أو حصانا أو خنزيرا أو حتى حمارا أعرج — من كان منكم هذا أو ذاك ، فليرجع من حيث أتى .. ليس لهؤلاء شأن هنا ولا مكان .. ستقصر المعونة على اللاجئين ، والمتسولين ، والمتسكعين .. لن يستوعب العمل أكثر من ثلثمائة فرد لا أكثر .. ان اموال الشعب الارلندى التى أقرضتها له الحكومة الانجليزية بفائدة قدرها خمسة فى المائة ، لن تستخدم فى أعمال انتاجية نافعة ، وانما تستخدم فى اطعام أولئك الذين لم يعينوا أنفسهم بأنفسهم ، أولئك الذين يعيشون سبة وعارا فى جبين الاقليم .. فليبق الذين هم شركم حالا ، ولينصرف الآخرون ، مشمولين بعناية الرحمن ..

والحق أن هذا الخطاب النارى كان له أشد وقع فى نفوس الجماهير

حتى اضطر الكابتن ( موردو ) أن يستعين بقوة البوليس المحلى كلها لاختماد الشغب ..

بل ان الشعب فى داخل المحكمة ذاتها كان أشد منه خارجها ، حتى انصرم النهار كله دون الاتفاق على خطة معينة .. فقد شكلت اللجنة من مستر (سوان) والقس ( كويرن ) البروتستانتى والكولونيل ( بودكين ) قاضى المحكمة و (جون هاينز) التاجر المعروف وثلاثة من المزارعين انتخبوا لأنهم أغنى دافعى الضرائب فى الاقليم ، وان كانوا ثلاثتهم من الامينين .. وقد ظلت اللجنة تجتمع وتنفض مدى أربعة أيام كاملة ، فى مناقشات جدلية غير مثمرة ، حتى اتفق أعضاؤها أخيرا على خطة معينة ، وانتقلوا بعد ذلك الى فحص حالات طلاب العمل .. والى هذا الحد تبخرت حماسة الاهلين وقل اهتمامهم حتى استحال الى اعراض ظاهر ، فلم يتقدم الى اللجنة سوى أتعسهم حالا .. وكان بين هؤلاء (تومسى) ..

ولم يذهب تومسى مختارا ، بل تحت ضغط مارى التى كانت تستحنه قائلة :

— لو تمكنت من الفوز بتصريح للعمل لكان فى ذلك فائدة لنا جميعا .. وما كان مارتن ليتردد فى الذهاب قسطنطين ، لولا أنهم لا يريدون من يعملون فى الارض .. فاذهب ولا تتأخر ..

وهكذا ذهب تومسى الى المحكمة أياما متوالية وقدم نفسه فى عداد المتقدمين حتى حل دوره ونودى أمام اللجنة لفحص حالته .. وهنا قال مستر سوان للكولونيل بودكين رئيس لجنة الفحص وهو يقلب فى أوراقه اعتقد أن هذا الرجل غير صالح ، فقد حكم عليه بالحبس مدة بترجمة التمرد على القانون والاعتداء على أحد ممثلى صاحبة الجلالة الملكة .. فهتف بودكين قائلا :

— ما هذا الكلام ؟ .. انى أعرف هذا الرجل يا سيدى .. انى شخصيا حكمت عليه بالسجن مع الشغل مدة شهر للسكر والشغب ومهاجمة جندى بوليس ..

فقال تومسى :

— وحقك يا صاحب السيادة انك فعلت هذا فى هذه المحكمة نفسها وفى يوم شديد الحر .. وأنا أذكر جيدا يا صاحب السيادة أنك كنت نائما فى هذا المقعد ثم استيقظت فجأة ونطقت بالحكم قائلا :

( شهر مع الشغل ) ..

فقبل كلام تومسى بعاصفة من الضحك حتى ابتسم لنفسه راضيا لما يلقى من اهتمام الناس به ، بل انه كان يجسد لذة عظيمة فى ابتعاث الضحك بكلامه الساخر ونكاته اللاذعة ..

واستمرسل تومسى يبين ما كان بينه وبين جندى البوليس فى الواقعة

الماضية بعبارات أتارت مزيدا من الضحك ، حتى قال الكولونيل (بودكن)  
( لمستر سوان ) :

- أهذا يبدو فى حكم المتمرد ؟ ..

- أنا آسف يا كولونيل .. لا مفر من التزام التعليمات .. ان هذا  
الرجل غير صالح ..

فقال الكولونيل بودكن :

- سحقا لتعليماتكم .. يبدو يا تومسى أنك لن تنال العمل المطلوب  
.. فاذهب واشرب حتى تسكر ، لكن حذار أن تعتدى على رجال البوليس .  
ونفحه نصف جنيه ، فشكره تومسى وغادر المحكمة ..

وعلى الأثر قصد تومسى الى متجر هاينز ودخل من باب خلفى حتى  
لا يتبعه أحد ويطلب نصيبا من النفقة ، فابتاع زجاجة ويسكى وكيسا  
من الحلوى لاسترضاء ماري ، ثم رجع الى الوادى الاسود من طريق بين  
الجبال .. وعرج فى سيره على بقعة غير مطروقة جلس فيها يشرب الزجاجة  
حتى أتى عليها ، وعند ذلك تابع طريقه الى البيت وهو يتمايل ويغنى ..

وفى خارج القرية قابل (باتسى أوهانلون) عائدا الى داره مسرعا ،  
فهتف به تومسى :

- يا للشيطان ! .. من أين لك هذا التبغ ؟ ..

كان أوهانلون يسير منتصب القامة مرفوع الهامة يهز ذراعيه بقوة  
وينفث سحائب الدخان من غليون جديد فى فمه .. وما لبث أن رد على  
تومسى فى ترفع شديد قائلا :

- من المتجر .. من أين غير المتجر ؟

وتابع طريقه تاركا تومسى يحك رأسه مشدوها من هذا الاسلوب .  
واذا به يصيح فى أثر أوهانلون قائلا :

- ماذا أصابك يا رجل ؟ ألا تعرف جارك ؟ ..

فرد أوهانلون صائحا بدوره :

- أنا مستعجل .. انى حصلت على تصريح للعمل .. وسأبدأ من  
صباح الغد ، ولا بد أن أستيقظ عند الفجر .. كلنا ثلثمائة فى هذا  
العمل .. وأنا الوحيد الذى اختاروه من ( الوادى الاسود ) ..

فصاح تومسى غاضبا بعد أن أعجزه السكر عن ملاحظته .

- هذا هو الواقع اذن .. لقد صرت عظيما ذا مكانة فى الدنيا ..  
من كان يصدق شيئا كهذا ؟ .. ( باتسى أوهانلون ) .. أخذتك الإبالسة  
يا قدر ..



وراح تومسى يهز قبضتيه فى أثر صاحبه وقد اغرورقت عيناه  
بالدموع غضبا واهتياجا ..

ولما مر فى طريقه بكوخ أوهانلون صساح بأهله سابا منددا ..  
فخرجت اليه (سالى) متحدية وقالت له :

— ما أنت الا حاسد غيور أيها السكير الوقح .. انك لا تطيق أن  
ترى طعاما يهبط على الافواه الخاوية ..

وبلغ الدار فى النهاية ودخل من فوره الى المطبخ مترنحا وراح يقول  
على الأثر :

— قالوا عنى انى من المتمردين .. ذكر مندوب الحكومة أن هذا  
مكتوب فى السجل .. ولكن الكولونيل (بودكن) .. لكن ماذا بكم أيها  
الناس ؟

وأدرك فجأة أن الجميع سكوت على نحو غريب .. ورأى ( ماجى )  
فى ركن المدفأة مستسلمة للبكاء .. وتكلمت مارى ، فقالت له :

— صه ! .. ان (ميخائيل) يلفظ أنفاسه الاخيرة ..

## الفصل السادس والعشرون

استحال ( ميخائيل ) فى الشهر الأخير الى هيكلى عظمى ، فكان ذلك بدء النهاية ...

وقد قضى المسكين ليلته الاخيرة وهو يصارع الموت ، ثم صعدت روحه الى بارئها فى الفجر ... وسرعان ما علا الصراخ والعيول فى أرجاء البيت ، وتوافدت نساء الجيران يشاركن الاسرة فى النواح ، تتقدمهن ( كيتى هرنون ) ، على حين انهمك ( مارتى ) والعجوز فى اعداد مايلزم للجنائزة ...

وفى النهار أقبل الرجال الى البيت يترحمون على الفقيد ويعددون مناقبه بين كئوس الشراب التى تدار عليهم طبقا للتقاليد المرعية ...

وجاءت والدة ( ماري ) ليلا ، فانسحبت معها ( ماري ) الى مخدع نومها وقالت لها بعد أن أغلقت الباب :

— لم لم يأت أبى ؟

فانهمرت دموع الام ، واجابت قائلة :

— لا أعرف ماذا دهاه منذ رحيل ( ايلى ) ... اننى لا أستطيع ان افوز منه بكلمة واحدة ، ومثله فى هذا اخوك ( باتريك ) ... ان والدك مشغول بشيء يفكر فيه ، فهو لا يخرج من المنزل قط ...

— ألم تأت أبناء عن ( ايلى ) ؟

— ولا كلمة يابنيتى ... انها لم تذهب عند عمته ( جوليا ) ... لاشك أنه حدث لها مكروه ...

فقالت ( ماري ) مكروبة :

— يا لقسوة الاقدار ! .. كل هذه المصائب متتابعة !؟

وتمددت ( ماري ) فى الفراش واغمضت عينيها وشبكت يديها تحت رأسها ، على حين استطردت مسز ( جليسون ) تقول :

— لم تبق عندنا تقود فى البيت ... وقصد ذهبت الى مستر ( شادويك ) للمطالبة بأجور ( ايلى ) ، فما كان منه الا أن قال لى بالحرف الواحد :

« أى أجور تطلبين ؟ .. دعى أخت ( ايلى ) التى حرضتها على

الذهب تطالبني بالاجور ... راکعة على ركبتيها امامي ! » ... ترى ماذا يكون مصيرنا بعد الآن ؟

— انا في شدة التعب يا اماء ... الحمد لله ان ( ميخائيل ) ذهب عنا ، غفر الله لى .. انه كان كدودة تأكل كل ما في البيت ، وقد أصبحنا لانملك خنزيرا ولا دجاجة ولا بطّة ... هذا ومولودى فى الطريق الى هذه الدنيا ! ..

فانحنت الام فوقها تمسح على جبينها مواسية ، فقالت ( ماري ) هامة :

— ماذا قلت الآن عن أبى وعن ( باتريك ) ؟ .

— لاشىء يا حبيبتي ... استريحى الآن ... سأجيئك بغطاء لكى تنامى ، وسأتولى عنك كل شىء فى المنزل .. لابد لك ان تعتنى بصحتك منذ الآن ، خصوصا قبل مولودك الاول ...

— الا يقول أبى شيئا ؟

— لاتقلقى نفسك بهذا الامر ...

— لماذا لاتذكرين لى مايقوله أبى ؟

— الحقيقة يا بنيتى انه أصبح لايتكلم وهو الذى كان ثرثارا ... وبالامس انتابه انفعال شديد فوثب من مكانه واخذ يسير فى الغرفة حافى القدمين ، ثم عاد الى الجلوس وهو يضغط على أسنانه ..

— لماذا يريد مستر ( شادويك ) أن اذهب اليه ؟ ... انه طعننا بما فيه الكفاية ...

وفجأة تعلقت ( ماري ) بأماها قائلة :

— اماء ! . اننى خائفة من هذا الرجل .. صلى لاجلى يا امى ! .

فاحتضنتها الأم حتى سكنت ( ماري ) بين يديها .. ثم جذبت الفطاء فوقها وهى ترتعد ، وما لبثت أن استغرقت فى نوم عميق من اثر التعب ..

واستيقظت ( ماري ) من نومها على أصوات تهمس فى الغرفة .. فلزمت مكانها وأنصتت .. فسمعت ( ماجى ) وابنتيها يتهامسن لدى النافذة .. وكانت ( نابا ) تقول :

— انه لشىء فظيع فى الحقيقة ان نضطر الى المهاجرة من الارض التى نشأنا فيها ، وان نعبث المحيط الى بلاد غريبة ندفن فيها احياء ، دون صوت نعره ، ولا وجه نظمئن اليه ، ولا حتى حفنة عزيزة من تراب الوطن .. لكن ماذا بقى لنا غير ذلك ؟ .. ان زوجى ( دان ) بعيد عن الجبن كما يعرف كل انسان ، لكن حانوت الحداثة قد انصرف عنه الناس ، ولم تأخذ شيئا من ريع الارض هذه السنة .. وان الجنيهاات القليلة الباقية لنا لن تلبث أن تذهب ، ولذلك كان من الافضل أن نبتاع بها تذاكر الرحلة الى بلاد يقال انها غنية بالخيرات ! ..



فردت عليها ( كيتى ) قائلة :

— ليتك تأخذيننى وأولادى معك ... ان حالتى اسوأ من حالتك  
وعندى هذا العدد الكبير من الافواه الصغيرة تطلب القوات ...

فقالت ( نابا ) :

— على الرحب والسعة يا حبيبتى لو كان ذلك ممكنا ... ان القليل  
الذىبقى لنا بعد دفع نفقات الرحلة لازم لنا فى نيويورك ... فاننا  
لا نستطيع النزول هناك بلا نقود ، وهم يقولون ان وجود الانسان هناك  
بلا نقود شئ فظيع ... وهناك حيتان البحر تتلقف المسافرين لدى  
نزولهم من السفن وتمزقهم تمزيقا ... ثم هناك لصوص مهمتهم بيع  
تذاكر السفر بالسفن النهرية الى داخل البلاد ، وقد حذرونا منهم  
كثيرا ! ...

فقالت لها ( كيتى ) :

— الا يمكنك ان تأخذى معك حتى طفلين ؟ ...  
— سأكلم ( دان ) فى الموضوع ... ربما دبرنا الامر من هنا وهناك  
لاخذ ابنك الاكبر ...  
— الابن الذى يلى الاكبر ... فان الاكبر نافع لى ولا يمكننى التفريط  
فيه ...

وهنا استدارت ( مارى ) فى فراشها واستسلمت للنوم مرة اخرى  
فلم تستيقظ الا فى الصباح ، عندما بدأ الاستعداد للجنائزة .

وسار موكب الجنائزة فى النهاية يتبعه رجال القرية ويتقدمه  
( بريان ) العجوز ممتطيا جوادا وقد أردف زوجته خلفه ... ولكن  
( مارى ) تخلفت فى الدار لتنظيفها وترتيبها بمعاونة ( سالى أوهانلون )  
التي راحت تقول لها :

— ان الناس سيحقدون علينا لان ( باتسى ) فاز وحده بتصريح  
للعمل دون سائر اهل الوادى ، وانه لشئ عظيم ان يختار الفقراء دون  
الاغنياء للعمل ، ودون من يملكون بقرة أو حصانا ... ان العمل سيكون  
شاقا لانهم سيحفرون التل الذى يمتد جنوب القرية فى اتجاه (كلوجر)  
... وهم يعطون ثمانية بنسات عن حفر مسافة فرسخ يوميا ... وهذا  
مبلغ كاف ننال به كل شئ ... لكننا لسنا من الذين يستكبرون اذا  
اغتنوا ... ان لك الآن يا ( مارى ) جارة لن تنسى طبيبتك وكرمك ...  
لن ادعك تشعرين بالحاجة يا حبيبتى مادام فى بيتنا بنس واحد ...

فلم تتمالك ( مارى ) ان ضحكت برغم ضيقها وشقائها حين رأت  
( سالى ) تفكر فى الجود والبر بالجيران من مبلغ زهيد لا يجاوز ثمانية  
بنسات يوميا عن الفرسخ الواحد ، وبعد اطعام سبعة أفواه جائعة ،  
والطعام غال شحيح ... لكنها أعربت لها عن شكرها قائلة :

— ما أطيب قلبك يا ( سالى ) ... بارك الله فيك .

ومضت ( مارى ) فى تنظيف البيت بمساعدة ( سالى ) ، حتى اذا  
رجع الرجال بعد الجنائزة - لم يبق من مخلفات الميت سوى الذكرى ...

## الفصل السابع والعشرون

قبلت ( نابا ) وزوجها أخيرا أن يصطحبا في رحلتها إلى أمريكا الثاني والثالث من أبناء ( كيتي هرنون ) ... وقد أبحروا في أواسط شهر مارس بسفينة ركابها جميعا من المهاجرين قامت بهم من (كلوجر) إلى نيويورك ، وأقلت السفينة عداهم ثلاث أسر من سكان ( الوادي الأسود ) ، بل كان أكثر من نصف ركاب السفينة من مقاطعة ( كروم ) ونحدها ... وقد توفي أربعة وثمانون من هؤلاء التعساء بالحمى في خلال الرحلة الطويلة ...

وكان من أشق الأمور على ( كيتي هرنون ) أن تطعم أبناءها الخمسة الباقين ... وقد أصبحت تعيش على الصدقات من أول العام الجديد ، ولكن الصدقات غدت بدورها في حكم العدم ، لأن الفقير مهما توافرت لديه الرغبة لا يجد ما يعطيه ... وقد أتى الناس في أكثر جهات الوادي على ماكان لديهم من أغنام ، ونفذ ما اختزنوه من البطاطس ، ومنهم من أصبحوا يقتاتون بالنباتات الحريفة التي تنبت في البراري .. ولم ينقطع آل ( كيلمارتن ) عن منح ( كيتي ) المنكودة مائيسر من الزاد ، بيد أنهم لم يلبثوا ، حتى ضاقوا ذرعا بها وهي لا تكف عن الخصام كلما زارتهم ... وقد أصبحوا ينفقون مابقي لديهم من شلنات قليلة على الطعام بعد أن جردتهم نفقات جنازة ( ميخائيل ) من كل مال وأشرفت بهم على الاملاق ... ولم تجد ( ماري ) إلا أن تقول لكيتي في النهاية :

— لماذا لاتذهبين إلى لجنة المعونة ؟ .. ربما أمكنهم مساعدتك ..

فقلت ( كيتي ) :

— أنهم لا يمنحون أحدا نقودا ، ماعدا القس البروتستانتي . وفي هذا مايجلب على اللعنة ... ثم أنهم لا يسمحون للنساء بالعمل ، ولو سمحوا لما ترددت لأنني قوية برغم نحولي ... ليتني أجد من يأخذ طفلي الصغيرين ، أذن لاستطعت أن اتدبر الأمر على أي وجه ...

— بإمكانك أن تجربى حظك أمام اللجنة على أي حال ... ان شيئا كهذا لا يضيرك ...

— صدقت يا ( ماري ) ... ربما أمكنهم تدبير مكان لى على ظهر سفينة مسافرة ... ولو استطعت السفر إلى ( ليفربول ) لما عدت العمل هناك ...

وهكذا قررت ( كيتي ) أن تقصد إلى لجنة المعونة ... وكان يوما منحوسا ذلك الذي اختارته للمشول أمام اللجنة بسبب تفاقم الخلاف

بين أعضائها على خطة العمل ، وخصوصا بين الأب ( روش ) والقس البرونستانتى ( كوبرن ) ، حتى اضحت العداوة بينهما حربا سافرة .. وقد انحاز الفلاحون الاميون الثلاثة أعضاء اللجنة الى جانب الأب ( روش ) ، على حين انضم الكولونيل ( بودكن ) الى جانب ( كوبرن ) .. ولزم ( جون هاينز ) الحياد ، بيد أنه كان مكروها من سائر أعضاء اللجنة ... وكان الخلاف فى أساسه ناجما عن مسألة توزيع القمح الاصفر .. وقد دأب الأب ( روش ) الذى انزعج لما سببته خطبته من هياج وشغب بين الناس ، على نصيح الاهلين بالثقة فى الحكومة واطاعة القانون والاعراض عن المهيجين ... بل أنه راح بايعاز من رئيس اللجنة يحض الناس على اكل القمح الاصفر ، مؤكدا أنه لن يحيلهم سودا وثنين كما زعم لهم الزاعمون ، وتأيدا لهذا صنع أمامهم عصيدة من دقيق هذا القمح واكلها ليقطع لهم الشك باليقين ... وكذلك أقبل الناس على هذا الطعام الذى عافوه حيناً وانهاأت النقود على خزانة (جون هاينز) تبعا لذلك ..

والواقع أن الخطة التى رسمها ( جون هاينز ) فيما رأينا قد نفذت بحذافيرها ... فقد اشترى مع ( رابيت ) شحنة السفينة الاولى التى وردت الى ميناء ليفربول محملة بالقمح الاصفر ، ونقلت الشحنة الى ( كلوجر ) على الاثر ... وتربع ( تونى ) فى متجر ( رابيت ) ، ولم يكن ينتظر الا نهاية فصل الصيام ليعقد زواجه على ( مارى آن ) حفيدة ( رابيت ) ... واضيف اسم ( هاينز ) على اللافتة كأحد الشركاء ... وكان القمح يباع فى متجر ( هاينز ) الاصلى بسعر ثلاثة شلنات للكيل المحلى ... ولكن الأب ( روش ) تملكه اشد السخط حين رأى اللئاب تسمن هكذا على حساب القطيع الجائع ، حتى صاح فى أحد اجتماعات اللجنة بأعلى صوته قائلا :

— ان هذا القمح يجب ان تتولى الحكومة توزيعه بالسعر الاساسى ... ان جوع الفقراء يجب ألا يكون وسيلة للماء خزائن المرابين !

كان ذلك هو الجو يوم ان قررت ( كيتى هرنون ) الالتجاء الى لجنة المعونة مستنجدة ... واليوم شجر بين الاعضاء خلاف جديد مبعثه عدم حصول العمال الذين يعملون فى شق الطرق على أجورهم منذ عشرة أيام بسبب سوء الادارة فى ( كلوجر ) ، مما جعل اللجنة فى احجام تام عن احتمال تبعات جديدة ..

ومهما يكن فان ( كيتى ) انشأت تبسط شكواها لاقرب الاعضاء الى ناحتها ، وتصادف لسوء حظها انه كان ( كوبرن ) البروتستانتى ، مما أحفظ منها الأب ( روش ) على الاثر ...

قالت ( كيتى ) وهى تسوق أبناءها الخمسة امام اللجنة :

— انظر الى والى اطفالى .. ان زوجى نزيل مستشفى المجانين .. انه لم يمت ، لكنهم برغم ذلك كالإيتام ، بل شر من الإيتام ... ولو أنهم كانوا إيتاما فعلا لتزوجت رجلا آخر ... فان لى رقعة من الارض وهى كفيلة باجتذاب اى رجل .. ان لى يدين وانا على اتم استعداد للعمل فى كل مايؤدى الى سد الافواه الجائعة . دعونى اشتغل فى مد الطرق ...



انى عليه قدرة كالرجل ... هناك أناس فازوا بالعمل وهم ميسورون ،  
لكن لهم اصدقاء ... اما أنا فلا ناصر لى ولا معين ! .

ومضت المنكودة تتحدث طويلا بهذا الاسلوب المؤثر وهى مضغضة  
واهنة الجأش ، حتى قاطعها مستر ( سوان ) فى النهاية قائلا :

— ان تشفيل النساء مخالف للتعليمات ...

وهنا لم يتمالك ( كوبرن ) أن وثب صائحا :

— هذا أمر شائن ... هذا تهريج !

فقال ( سوان ) بهدوء :

— أنا على استعداد لمسامحتك يامستر ( كوبرن ) ، اذا اعتذرت  
عن هذا الكلام .

فهتف ( كوبرن ) قائلا :

— اعتذر؟! أنا لا أعتذر قط فى الحق . لقد ضقت ذرعا بإجراءكم  
العابثة ، ولم يعد فى قوس الصبر منزع . ان هذه الاعمال التى لا فائدة  
منها للشعب ، والتى ينفق عليها برغم ذلك من ماله ، يتولاها جيش من  
الموظفين الانجليز الجهلة ، الذين جىء بهم من انجلترا خصيصا للارتزاق  
وتعقيد الامور بما يكسبون من الاوراق والمستندات والسجلات ...  
وبرغم ذلك لا يستطيع العمال المساكين ان ينالوا أجورهم من الاموال التى  
اقترضناها من انجلترا بفائدة مقدارها خمسة فى المائة ... ردوا الينا  
أموالنا ! ردوها الينا لكى نسعف بها أمثال هذه المرأة التعسة وأطفالها  
الجياع ، بدل أن تشوهوا أرضنا الجميلة بمشروعات لاتفيد .. والقمح  
... أنه لمن السلب والنهب أن يباع القمح اiban المجاعة بالسعر الذى يباع  
به ، وكأنه شيء نفيس . هل من المروءة ، والدين ، والوطنية ؛ أن يفتنى أناس  
على حساب القحط والمجاعة ؟ هذا ظلم وجور .. هذا تخبط وتهريج  
... أولى لكم من هذا أن تقرضوا الناس وتدعوهم يعملون فى الأرض  
التي يزرعونها ... واذا ذاك ترون منهم المعجزات فى الداب والانتساج  
والابتكار ... انى مستقيل من لجنتمكم ... انى أرفض أن اكون لكم  
شريكا فى هذا الفساد والافساد ... تعالى معى أيتها المرأة الطيبة ...  
انى سأساعدك بكل ما أستطيع ...

ويمم ( كوبرن ) شطر الباب تتبعه ( كيتى ) ، بيد أنه لم يخرج  
حتى تصدى له الأب ( روش ) متحديا مناجزا وقد شق عليه أن يراه  
ينفرد بهذه البطولة وهو البروتستانتى المذهب ، حتى نشبت بينهما  
مشادة كلامية حامية فزعت منها ( كيتى ) أشد الفزع فولت هاربة من  
ساحة المحكمة وهى تقول لنفسها :

— الآن قضى على نهائيا ، بعد أن استوجبت غضب الأب ( روش ) .

وقررت ( كيتى ) أن تعود الى البيت من فورها ... لكن المسكينة  
لم تذق طعاما فى يومها ، وقد أضناها حمل طفلها الصغيرين ... واذا  
اليأس يضرم فيها روح الشجاعة حتى قالت لنفسها مرة أخرى :

— ان مستر ( كوبرن ) دعانى للذهاب معه ... فالى اين ؟ .. الى بيته ؟

والتوت امعاء طفلها الاكبر من الجوع والاعياء حتى انبعث صراخه ... فقر قرارها وزال عنها كل تردد ... وولت وجهها شطر بيت ( كوبرن ) القس البروتستانتى وهو فى ضواحي القرية مواجهاً لشكنات البوليس ... وتلقته خادمتها الكاثوليكية بشيء من الاستغراب والناس لا يطرُقون هذا البيت الا لاما ... فقالت لها ( كيتى ) :

— ايمكن ان أنتظر هنا حتى يعود مستر ( كوبرن ) ؟

— وماذا تريدن منه أيتها المرأة الطيبة ؟

— انه دعانى الى الحضور ...

— صحيح ؟ ان السيدة زوجته فى الداخل ... وربما أمكنها مساعدتك .

— ربما ... اننى فى شر حال ... ان اطفالى هؤلاء يكادون يهلكون جوعاً .

— سأخبرها بحضورك ... ومن اين أنت أيتها المرأة الطيبة ؟ .

— من ( الوادى الاسود ) ...

— هكذا ؟ .

وشفعت الخادمة كلمتها تلك بنظرات استنكار عدائية ...

وكانت مسز ( كوبرن ) عليلة بسبب داء فى ساقها ، وقد مضت فترة طويلة قبل أن تستطيع النزول من حجرتها ، وفى تلك اللحظة أقبل ( كوبرن ) حائفاً مهتاجاً بعد المناقشات الحامية العنيفة التى كانت فى جلسة ( لجنة المعونة ) ... وقد استقبل وزوجته ( كيتى ) فى غرفة صغيرة مجاورة للمطبخ ... وفى خلال هذه المقابلة كانت الخادمة تسترق السمع من ثقب الباب مما هيا لها فيما بعد أن تنقل مآدار الى الاب ( روش ) قس الكنيسة الرسمى ، مضافاً اليه ماتيسر من المبالغة والتحريف ...

ومهما يكن فان ( كيتى ) أضحت فى شر حال من الاضطراب حتى ذهبت تقول للرجل وزوجته وقد فقدت صوابها أو كادت :

— خذا طفلى الاثنين ، هذين ! . خذهما ياسيدى ، وضععهما فى ملجأ وان كان ذلك سيجعلهما ( بروتستانت ) ... انى كافحت طول الشتاء ، وفى خلال الامطار والزوابع الثلجية ، لكنى عجزت وأفلست حيلتى ! ... انى حاولت العمل فى الملجأ ، لكنه ملئ مزدحم حتى عتبتته واللاجئون اليه ممدون على الارض مرضى يتقلبون فى الاقدار ... ان لكم ياسيدى ملجأ فى ( كلوجر ) ، وأناشدك أن تضع فيه الطفلين ، ولتقع على راسى تبعة هذا العمل الذى لا ذنب لهما فيه ! .. انظر ياسيدى الى هزالهما وضعفهما ، تأخذك الشفقة عليهما ... ليقل الناس فى عملى

هذا ما يحلوا لهم ، لكن على الام أن تطعم أطفالها ، حتى لو شقت طريقها  
في نيران الجحيم ... ولا تظن ياسيدى انى لن احتمل العذاب بإبتعادهما  
عنى ... ان أخوين لهما قد ارتحلا الى أمريكا مع أختى ، والله يعلم كم  
أكابد وأنا أفكر فيهما ليلا ونهارا ، وأسمع صوتهما ينادينى وكأنهما  
يتقلبان فى النار ... ان الله أعطانيهما ، والجوع اخذهما منى ... لكن  
سيبقى لى من بعدهم ثلاثة ، ليكونوا سلوة لى ...

وكانت مسز ( كوبرن ) تسمع هذا الكلام المؤثر ودموعها تجرى ..  
فقد تذكرت أبناءها الخمسة الذين كانوا بعيدين عنها بعد أن تزوجوا  
وتفرقوا فى البلاد الخارجية ، عدا أحدهم الذى كان يعمل فى أحد البيوت  
المالية بلندن ...

أما ( كوبرن ) فقد هاله هذا المطلب الشاذ الذى طلبته ( كيتى ) ،  
فقال لها :

— يجب أن تعلمى أيتها المرأة الطيبة أنه يستحيل أن أفعل ماتطلبين  
— ولم لا ياسيدى ؟

— لاصلة لى بملجأ الأطفال فى ( كلوجر ) وانى لأحول الناس  
عن مذاهبهم ومعتقداتهم ... ولا بد لك من إبقاء أطفالك فى رعايتك ..  
فقالت مسز ( كوبرن ) :

— لكن لا يمكن يا ( آرثر ) أن تطرد هذه المرأة المسكينة ! ..

— ليس فى نيتى أبدا أن أطردها .. لكن لا يمكننى أن أخذاطفالها ..  
انى لا أبيع لنفسى سلوك هذا المسلك بأى حال ... لكننى على استعداد  
لمساعدتك أيتها المرأة الطيبة ... انتظرى قليلا ...

وغادر الغرفة ثم عاد بعد قليل ومعه خمسة جنيهاً قدمها  
لكيتى .. فركعت المرأة على ركبتها وقبلت يديه وهى تدعو الله أن  
يباركه .. وكانت تقول :

— انى نجوت ياسيدى ! .. انى نجوت ! .. ان هذا المبلغ سيوصلنى  
مع أولادى حتى ليفربول ...

واقترح عليها ( كوبرن ) أن تقلها مركبته الى ( كلوجر ) متى  
استعدت للرحلة ، فقالت له :

— سأكون مستعدة فى غمضة عين ... وأرجو إبقاء أطفالى هنا  
ريثما أذهب وأجمع حوائجى ..

فسمح لها ( كوبرن ) بإبقاء أطفالها مع الخادمة ... فأسرعت الى  
دارها ثم عادت ومعهما لفافة كبيرة من الملابس ، وهكذا استقلت مركبة  
( القس ) ووجهتها ميناء ( كلوجر ) .

ولما كانت ( كيتى ) موقنة أنها لن تعود الى الوادى أبدا ، فقد  
دفعها الحقد على الاهلين الذين أمسكوا عن مساعدتها ، الى التنديد بهم



علانية وهى فى طريقها الى خارج القرية .. أجل .. لقد راحت تندد بكل انسان ... حتى الأب (روش) لم يسلم من لسانها ...

ولكن سائق المركبة اضطر الى الوقوف عند المنطقة التى كان يشتغل فيها العمال خارج القرية ، حيث عم التخريب والدمار وتعذر المرور بسبب فوضى الاعمال الجارية التى تمت ارتجالا ودون هدف معين ... وكان العمال أنفسهم مستسلمين للتذمر والكسل بتأثير الجوع والاعياء بعد أن حبست عنهم الاجور مدى أسبوعين .. ولم تلبث ( كيتى ) أن صاحت فيهم على حين كان السائق ممسكا برأس الجواد يخوض به الاوحال :

— أيها الصعاليك ! .. انتم الذين قزتم بالعمل ، على حين بقى الفقراء الشرفاء بغير زاد ! .. أمثلى تهجر الاقليم بسبب الجوع ، وأنا التى ربيت على لبن البقر فى أسرة تملك الارض ؟ .. ان مستر (كوبيرن) سيعرف كيف يردكم الى مكانكم فى الحضيض، ويضع الشرفاء محلكم ! .. أيها الاوغاد الذين لم ينالوا هذا العمل الا بالرشوة وخراب الدم !

فجعل الرجال يحملقون فيها مشدوهين وقد جلست فى عربة القس زائفة البصر منفرجة الثنايا ممزقة الاسمال تحتضن صفارها كما تحتضن الدجاجة أفراخها الجائعة تحت جناحها .. ومضت بها المركبة فى منحدر التل أخيرا وهى تصرخ فيهم قائلة :

— اذا حلت على اللعنة بسبب فعلتى هذه ، فسوف تقع التبعة على رءوسكم يوم القيامة .. ان حب الام لاولادها هو الذى دفعنى الى هذا العمل ؟

وأخذ فريق من الرجال يصفر فى أثرها استهزاء وسخرية .. لكن ما هو الا أن تسامع الناس بأنباء ما فعلت وما كان من أمرها فى (كلوجر) حتى تفاقم الامر ، وكانت لآثار فعلتها ذيول أكثر من مجرد الصغير ..

## الفصل الثامن والعشرون

بينما كان ( شادويك ) يتناول فطوره وقد مضت ثلاثة أيام على ماتقدم اذ رأى ( هيجارتى ) يندفع الى داخل الحجرة دون استئذان والدم يسيل فوق وجهه .. فقال ( شادويك ) :

— يا للشيطان ! .. ماذا دهاك ؟

فراح الجابى يقول لاهث الانفاس :

— هو القتل وسفك الدماء ياسيدى !.. ان الاهلين قد ثاروا !..  
أعطنى بالله شربة ماء ! ..

وجاء ( ريلى ) و ( مارى هالوران ) وأعطياه الماء .. وكان الرجل فى حالة يرثى لها من الفزع والاضطراب حتى ذهبت ركبته تصطكان على حين تولى زميلاه تنظيف الجرح الذى أصيب به فى وجهه .. ولم يطل به الوقت حتى قص قصته ..

لقد بدا أن الاهلين تملكهم السخط بعد أن أذاعت خادمة ( كوبيرن ) قصة ( كيتى ) .. ثم جاءت فيما بعد أنباء من ( كلوجر ) تقول أن ( كيتى ) أودعت طفلها فى الملجأ البروتستانتى .. ولم تسرب هذه الانباء الا لان هذه المرأة المخبولة قد تملكها الندم بعد ايداع طفلها فى الملجأ ، فذهبت تطوف فى ( كلوجر ) قائلة أن ( كوبيرن ) هو الذى اغراها بهذا العمل .. ثم ان أبناءها الثلاثة الباقين أصيبوا بنزلة معوية حادة بعد أن أسرفوا فى الاكل مما منحها القس ، فكان معنى ذلك فى نظر ( كيتى ) ان الله قد سلط غضبه ونقمته عليها ، حتى راحت تكيل الاتهامات الباطلة لمستر ( كوبيرن ) وتحمل عليه حملة شعواء وهى تدفع اجر رحلتها واطفالها الى ليفربول من المال الذى تصدق به عليها .

والواقع أن هذه الانباء لم تكذب تبلغ مسامع الناس فى مقاطعة ( كروم ) حتى ثارت ثائرتهم ، فقاموا فى جنح الليل بهجوم على دار ( كوبيرن ) أدى الى تخريب مقر المعونة الذى أنشأه تحت اشرافه وتسلسل فريق منهم الى الارض الملحقة بالدار حيث احاطوه ببقرة ( كوبيرن ) وقطعوا ذيلها ، وكادوا يقتحمون مسكن الرجل لولا أن خفت الى مكان الحادث قوة من رجال البوليس فرقت جموعهم ، فاتجهت طائفة منهم الى دار ( هيجارتى ) حيث فتشوها وأحرقوا اخطارات المطالبة بالايجار .. وبرغم أن ( هيجارتى ) تمكن من الهرب فقد أصيب فى جبهته بحجر قذفه به أحد الفتيان ، وهكذا أسرع الى القصر يروى قصته المثيرة .. وقد اختتمها قائلا :

— انهم ثاروا ! .. الشعب قام بالثورة !.. انها ثورة لاشك فيها !..

فقال ( شادويك ) لخادمه :

— اعد جوادى يا (ريلى) ٠٠٠ ان حوافر الجواد هى ماثير الرعب فى قلوب هؤلاء الارلنديين الكلاب ٠٠٠

فقال (ريلى) لسيدته حين رآه يجرد سيفاً معلقاً فى الجدار من غمدة

— ما هذا الذى تفعل يا سيدى بحق الرحمن ؟

فقال (شادويك) وهو يهز السيف فى يده :

— على بالجواد ! .. اسرع ! ..

فهرول (ريلى) الى الاسطبل ، على حين قال (شادويك) لتابعيه الباقين :

— اقفلوا الأبواب وتسلموا فى الداخل ...

وخرج من القصر وامتنى الجواد الذى جاء به (ريلى) وقد أمسك فى يمينه بالسيف المجرد ... فهتفت (مارى هالوران) قائلة :

— رحماك يا الهى ! .. انه عاد الى الهياج من جديد بعد أن كف عن الشراب طيلة الأشهر الأخيرة حتى ظننت أنه شفى ! ..

واجتاز (شادويك) القرية بجواده وقد أقفر شارعها من الناس ، حتى اذا وصل الى ثكنات البوليس ألفى كبيرهم واقفاً فى الفناء مع بعض رجاله ، فقال له (شادويك) :

— هل سيطرت على زمام الموقف يا (أدواردز) ؟

فابتسم الرجل قائلاً :

— لا بد أنهم أبلغوك انباء خاطئة يامستر ( شادويك ) ٠٠٠ فان القرية فى حالتها الطبيعية المعتادة ...

فتطلع اليه ( شادويك ) مهتماً وقد أسخظه هدوء الرجل حتى قدر أنهم يستخفون به ... بيد أنه عاد أدراجه الى القصر دون تعقيب، وقال للسائس لدى وصوله :

— اركب الى الفندق وجئنى بويسكى ... عشر زجاجات !..

فأطاع ( ريلى ) ، ودلف ( شادويك ) الى غرفة الجلوس حيث كان ( هيجارى ) قابعا فى مقعد يرتجف من رأسه الى قدميه ... فصاح فيه ( شادويك ) :

— عليك فوراً بطبع اخطارات جديدة للمطالبة بالايجارات ... مهلاً ... سأجرى فى الصيغة بعض التعديلات ...

وجلس يحرق صيغة جديدة أبدل فيها عبارة (مطلوب سداد) بعبارة (صدر الامر بالسداد) ... فقال له (هيجارتى) :



— لا بد من حماية البوليس لى فى قيامى بالتحصيل ...

فصاح به ( شادويك ) :

— سيكون هذا ! .. قم لعملك ! ..

وما كاد ( هيجارتى ) يخرج حتى عاد ( ريلى ) ، فصاح به ( شادويك ) :

— أين الويسكى قبحك الله ! ..

— ان ( جون هاينز ) رفض اعطائى شيئاً ... وهو لم يكتف بهذا، بل هدد بمقاضاتك اذا لم تسدد ما عليك ... ان (جون هاينز) أصبح شخصاً آخر غير الذى كنا نعرفه ، منذ انضم ولده الى متجر (رابيت) ..  
— هل قال لك هذا ؟ ...

وجلس ( شادويك ) وحجب وجهه بيديه وزفر متثاقلاً ، ثم اردف بلهجة المضنى :

— اذهب يا هذا وهات لى ويسكى من أى مصدر ! .. لكن اذا رجعت بغيره فسأخترق جسدك بسيفى هذا .. مفهوم ؟ .. اسرع ..  
فاتجه ( ريلى ) الى الباب ، واذا ( شادويك ) يستوقفه قائلاً :

— هل عندك شئ من ذلك الشراب الجهنمى الذى تشرب منه؟ ..  
— عندى يا سيدى ... لكنك كدت تفص بهذا الشراب عندما جربته فى المرة الأخيرة ...

— على به ... ان الفصة موجودة فعلاً ...

فذهب (ريلى) ثم عاد بعد برهة ومعه اناء صغير تناوله (شادويك) وأخذ يكرع منه .. وما لبث أن قال وهو يضحك عالياً :

— هذا أحسن ... المدهش ان الانسان ... آه ... الى أين طلبت منك أن تذهب ؟

— لم تطلب شيئاً ياسيدى ... كنت فقط تقول ...

— لا بأس ... خذ المركبة الجديدة والفرسين واذهب بها الى متجر ( ولاس ) فى كلوجر ... تظاهر بالعظمة يا غبى ، لان رصيدنا تلاشى وتبخر فى الهواء ، ولا بد من (التهوئش) ... اننى مدين له بدين ثقيل ، لكن ظهور المركبة الجديدة والفرسين كفىل باتمام الاثر المطلوب ..  
اخترع له قصة عن ميراث سارثه ، كما فعلت فى مناسبات مماثلة أيها الاحمق ... وانت يا ( ريلى ) ، كم بلغت أجوركم المتراكمة عندى ؟ ...  
لا بأس ... سنسوى هذه الأمور كلها قريباً ... التظاهر و (التهوئش) يا غبى ... تحرك ... ولا تقف هكذا كالصنم ! ...

ولما ذهب ( ريلى ) عكف ( شادويك ) على اناء الشراب حتى اتى

عليه ، ثم خرج مع كلبين لصيد الطيور بين الجبال ... وعند عودته  
تلقاه (ريلى) في الحديقة ملوحا بيديه مما يدل على أنه جاء بأنباء سارة ..  
فقال له ( شادويك ) على مبعدة :

— هل نجحت ؟ ...

فصاح (ريلى) من مكانه :

— وزيادة ... مهلا ياسيدى حتى تسمع الانباء التى جئت بك بها ..  
ولحق به (ريلى) وهو يدلف الى داخل القصر ، فراح يقول له :  
— انى ما كدت أصل الى متجر ( ولاس ) والمركبة تخطر بكل ابهة  
حتى تقدم سيد كان موجودا وسألنى :

« لمن الفرسان ؟ .. » .. فلما قلت انهما لسيدى الكابتن  
( شادويك ) أبدى دهشته وسروره ، وقال انه يعرفك حق المعرفة ،  
لانه كان زميلك فى الخدمة ، وكلفنى بإبلاغ بحياته اليك ، قائلا انه  
سيزورك ظهر الغد ...

— كل هذا ولم تذكر لى اسمه ايها الوغد !

— اسمه (جاك كرامتون) ، وهو يعمل مهندسا استشاريا للاشغال  
الجارية فى الاقليم ...

— يا الهى ! .. قلت انه مهندس ؟ .. كلام فارغ ! .. انه متزوج  
من امرأة متوافرة الفنى ، وقد اعتزل الخدمة منذ مدة ...

— انه ياسيدى ليس مهندسا بالمعنى الحرفى ... انه رئيس  
الاشغال التابعة للجنة المعونة .

فلم يتمالك ( شادويك ) أن هتف قائلا :

— زميلى السابق فى الخدمة مهندس ؟ .. لا يمكن أن يكون هو  
الشخص نفسه ... ما أوصافه ؟ .. فى نحو الخمسين ؟ .. ضخمة ؟ ..  
يميل الى السمنة ؟ ..

— طبق الاصل ياسيدى ! ..

— مدهش ؟ قلت انه سيزورنى ظهر غد ؟

— نعم ياسيدى ... وقال انه سيتفقد الاعمال التى تنفذ هنا  
غدا ... واعتقادى انه أعجب بالفرسين ... ولو أردت الاستغناء  
عنهما فانه سيدفع فيهما مبلغا طيبا ... وقد علمت من بعض التحريات انه  
يبعثر الاموال فى ( كلوجر ) بغير حساب ...

— يا الهى ! .. لا بد لنا من ترتيب البيت ... اسرع ... ناد  
( مارى هالوران ) فى الحال ...

كان ( شادويك ) كالتائه فى البیداء ، ولذلك عد ظهور (كرامتون)  
نجدة هبطت عليه من السماء ... والواقع ان موارده انقطعت فى العهد  
الآخر ، ففرق فى الديون ، وبلغ منه اليأس مداه ... بل فكر اخيرا

في الهرب من المقاطعة - ان تيسر له من المال ما ينغذ به هذا العزم ...  
الم يتشف الذهب في كاليفورنيا حيث أناح للناس أسباب الثراء ؟ ...  
ولكن ظهور (كرامتون) كفيل بانتشاله مما هو فيه على أيسر وجه ، وهو  
الرجل الغنى الموسر ... ومن أجل ذلك كان ( شادويك ) محققا في  
اعداد الترتيبات الكفيلة باستقبال زميله السابق في الخدمة الاستقبال  
اللائق ...

وهكذا جرى تنظيف الحديقة وتنسيقها ، وأصلحت الدرجات  
المؤدية الى البهو ، وامتدت يد النظافة لأول مرة الى الطابق الارضى ،  
ونقل الاثاث السليم الى غرفة الجلوس ، والبس ( ريلى ) لباس الوصيف ،  
واعد طعام للفداء قوامه ذلك الطير الذى خرج ( شادويك ) لصيده  
بيندقيته ، وساعد ( مارى هالوران ) بيديه فى اعداده ... حتى اذا تم  
هذا كله ، جلس يرتقب قدوم ( كرامتون ) فى لهفة ...

بيد أن ( كرامتون ) لم يحضر ... وعندما ازفت الساعة الثانية  
برد الطعام ، وضاق ( شادويك ) ذرعا ... فأرسل (هيجارتى) يجوس  
خلال القرية ويستطلع الطريق المؤدى الى منطقة الاعمال بحثا عن الزائر  
المنتظر ... فلما رجع ( هيجارتى ) خائبا استشاط ( شادويك ) غضبا ،  
وأغرق همه فى زجاجة من الويسكى ... وأخيرا جاء ( كرامتون ) فى  
المساء ، فوجد مضيفه مخمورا ، وبرغم ذلك كان لقاؤهما بالفا أوج  
الحماسة ، اذ هتف ( شادويك ) قائلا وهما يتصافحان أمام الباب :

— مرحبا بك أيها الصديق القديم ! .. أصبح ما تراه عيني ؟ ..  
يا الهى ! ... أن سرورى برؤيتك لا حد له ! ..

وهتف ( كرامتون ) بدوره :

— ويحك أيها الشيطان العتيد ! .. انك لم تتغير كثيرا ! .. هل  
تذكر ...

وجعلا يتذاكران كثيرا من الاحداث الماضية عندما كانا فى الخدمة ،  
وقد تأبط كلاهما ذراع صاحبه ، وسارا الى غرفة الجلوس وهما  
يتوقفان بين فينة وأخرى ويربت كل منهما على ظهر صاحبه ...  
وكان حديثهما متشابها فى اختلاطه وتناوله كل شاردة وواردة ،  
وضحكهما قهقهة صاخبة ... وكان ( كرامتون ) كما وصفه (شادويك)  
لتابعه .. فى الخمسين من عمره ، موفور السمنة ، متين البنيان ، أصلع  
الرأس ، أشيب الشعر ، يطل المرح من عينيه الزرقاوين ، واذا ضحك  
لاحت الأخاديد الدهنية عميقة فى وجنتيه الموردين ... وكان الى هذا  
غزير العرق ، رث الملابس لفرط ما كان يمضى نهاره كله راكبا فى الطرقات  
المقلوبة ظهرا لبطن ..

وقال ( كرامتون ) وهو يدخل غرفة الجلوس :

— المائدة معدة ! .. هذا أحب شئ عندى اذا دخلت بيتا ..  
بوسعى أن التهم جملا بأكمله ! .. لا تكلمنى يا صاح حتى أرضى شهيتى ..  
ولا تنس الويسكى لتدقئة أوصالى ... لعن الله طرقاتكم ..



وتولى الخدم تسخين طعام الغداء ليكون منه العشاء بعد أن ضاعت مزيته ... لكن ( كرامتون ) لم يحفل بهذا وهو الأكل الشره، حتى لقد راح يلتهم كل ما يقدم اليه وهو يتلمظ وينثر الطعام فى أرجاء المائدة كافة ..

ولم يلبث ( شادويك ) أن قال له بعد أن كسر حدة شهيته :  
— كيف أصبحت مهندساً بحق الشيطان ؟ ... أنى لم أعهد فيك موهبة لمثل هذا العمل ؟ ..

فراح ( كرامتون ) يقول وفمه ملىء بالطعام :

— هو أداء الواجب يا صديقى... بل هو استجابة لدواعى الوطنية فى مثل هذه الظروف ... انى كنت دائماً رقيق المشاعر ! .. نساء وأطفال يموتون من الجوع ، فلم يكن بد أن يتقدم انسان لأداء الواجب طلبية لدواعى الانسانية ... اننا معشر الانكليز معروفون بركة المشاعر! وعلى أى حال منذ أن توفيت زوجتى ..

— يا الهى ! ... انك لم تخبرنى بهذا ...

— الكلام كثير متشعب النواحي ... وكيف تعلم وأنت مدفون على قيد الحياة فى هذه البقاع السحيقة ؟ .. هات الويسكى ! .. ان زوجتى توفيت منذ ثلاثة أعوام ، وقد تركتنى بلا ...

وتجشأ مرات ... وأشار الى نوع الشراب اشارة لم تخل من النقد والغمز حتى لم يتمالك ( شادويك ) أن احمر وجهه ... والواقع انه تاب الى وعيه لدى مقدم ( كرامتون ) وذهب عنه كل سخط ، بيد أن لهجة الضيف المتعالية ضايقته ، وان تحامل على نفسه برغم ذلك وجلس معه الى المدفأة يشربان ويدخانان الغليون و ( كرامتون ) يتحدث فى افاضة عن اعبائه كمهندس استشارى يساهم فى أعمال المعونة فى ايرلندا ، برغم جهله بكل ما يمت الى الهندسة بسبب ، ولكن ماذا يفعل بوقد توفيت زوجته تاركة له ثروة طيبة ولا ولد له ؟

وجعل ( كرامتون ) يقول :

— ان الاعمال التى تجرى هنا مفيدة صالحة ... وقد يكون فيها تحسين احوال هذه البلاد لو أحسن توجيهها ، وهو ما يخالف الواقع لسوء الحظ ... ان الوساطة والمحسوبية هما الاساس فى اختيار العمال ... ثم ان حرمان من يملكون أرضاً أو ماشية من العمل قد أساء الى الفلاحين ، حتى فضلوا أخيراً أن يهاجروا أفواجا ...

فرد عليه ( شادويك ) قائلاً :

— ليتنى أستطيع التخلص من بعض الفلاحين الذين تفص بهم هذه الضيعة ، وما هم الا الحثالة .. والمصيبة ان الضيعة أصبحت تنفق عليهم ... فان نصف المال الذى ينفق على هذه المشروعات يجبى من الملاك ، ولو استمر الحال كذلك لأضحى مالك الضيعة متسولاً ...

ثم ان هذه الاعمال يشرف عليها جيش جرار من الموظفين لا ضرورة لهم ... أنا لا أقصد تعريضا ولا أهانة لأنك في غنى عن الاجر ، لكن أى هدف لهذه الاموال التى تبذر فى أعمال لا جدوى منها ؟ ..

— أنت مخطيء يا صديقى العزيز فى هذا التقدير ... دعنى أشرح لك نظام العمل حتى يمكنك ... هلا أعرتنى ورقة أبين عليها ما أريد؟ .

فلم يتمالك ( شادويك ) أن راح يسب ويلعن فى سره وهو يحضر الورقة المطلوبة ... فانه اغدق الشراب على ضيفه اغسادا ، ولكن الرجل بدا فى مناعة من السكر ، مع أن ( شادويك ) نفسه تأثر واهتزت حواسه بتأثير ما شرب مجاراة لصاحبه .

وأنشأ ( كرامتون ) يرسم على الورقة خطوطا لا عداد لها ويفيض فى بيان الانظمة الادارية التى تفتقت عنها عبقريته فى اختيار العمال والملاحظين والمراقبين والمفتشين ، الى آخر السلسلة التى لا نهاية لها، حتى قال ( شادويك ) متضرعا :

— لكن ما الفاية من كل هذا ؟ . ما فائدة هدم التل وقلب الطرقات رأسا على عقب ؟ أن كان لا بد من تدليل هؤلاء المناكيد على حساب ملاك الارض ودافعى الضرائب ، فلم لا يكون تشغيلهم فى أعمال مثمرة؟ . ان الطريق الى ( كلوجر ) أصبح يستحيل السير فيه ...

فقابل ( كرامتون ) هذا الكلام بابتسامة مترفعة وافرغ فى جوفه كأسا من الويسكى وهو يقول :

— أنك يا عزيزى لم تتغير عما عهدتك ... أنت دائما عجول ضيق الصدر متشائم ، لا تؤمن بقدرة الانسان على صنع المستحيلات ... ان العبقرية الكامنة وراء هذا العمل ، هى الرغبة فى تطبيق نظام اجتماعى محكم ، فى هذه البلاد المتخلفة ..

وهنا أيقن ( شادويك ) أنه لو ترك لضيفه الثرثار الجبل على الفارب لظل يتكلم طول الليل ، ولضاعت الفرصة التى ينشدها هو .. ولذا قاطعه قائلا :

— اسمع يا صديقى .. أيمكنك أن تقرضنى مائتى جنيه لفترة شهر أو نحو ذلك ؟

فقال ( كرامتون ) وهو يعتدل فى جلسته ويدير رأسه الى جانبه كالأصم :

— عفوا ... ماذا قلت ؟ .

فجعل ( شادويك ) يشرح موقفه فى ايجاز ، وكيف تورط فى الديون حتى استحال عليه مواجهة الموقف .. فما كاد الضيف يسمع هذا الكلام حتى بدا عليه التحفظ واضحا ، وقال حينما فرغ (شادويك) من بيانه :

— ايمكن أن اعرف المرتب الذى تتقاضاه من عملك هنا ؟

واذا كان ( شادويك ) قد كره لهجة السائل المتعالية ، فانه أجاب مع ذلك وهو يتكلف الادب :

— خمسمائة جنيه سنويا .. ان هذه الضيعة يجب ان تغل ايرادا يجاوز أربعة آلاف جنيه في العام ، لكنى لا أستطيع مهما فعلت ان اجمع أكثر من ألفين وخمسمائة ... فإزاء هذه الظروف لا يستطيع ( مارك تومسون ) المالك ان يمنحنى أكثر من هذا القدر ...

— هذا مرتب سخى فى الواقع ... ثم لديك هذا القصر السذى تشغله مجانا فيما اعتقد ، مع الارض الملحقة به ، وهى صالحة للزراعة ، وفيها المراعى ، والغابات وغيرها من المرافق ... ما هى مساحة الارض الخاصة الملحقة بالقصر ؟ ...

— نحو مائتى فدان ... لكن لا تنس ان هناك نفقات طائلة تذهب أجورا للخدم والاصلاحات وما اليها ، وهى تستهلك أكثر المرتب ... لكن ( كرامتون ) قاطعه قائلا :

— ما أجدرك يا عزيزى ( شادويك ) ان تستغل هذه الخيرات كلها فيما يعود بأكبر النفع والفائدة .. .

وهنا لم يتمالك ( شادويك ) أعصابه ، فصاح بضيفه :

— قل لى رايك ... هل تقرضنى المبلغ المطلوب ؟ .

فقال ( كرامتون ) بلهجة الاستغراب والتأذى :

— عفوا ... لكن هل تظن ان هذا الاسلوب الجاف ، وهذا الطلب الغريب ، مطابقان لما ينبغى ان يكون عليه مسلك المضيف ، حيال ضيفه ؟ ...

فغمغم ( شادويك ) لنفسه :

— تخطفك الشيطان

وسار ( شادويك ) الى أقصى الغرفة وهو يضم قبضتيه وييسطهما خلف ظهره ، فقال له ( كرامتون ) بعد برهة :

— عندى حل للموقف ... اننى معجب بفروسيك ، ولا أمانع فى شرائهما منك ... فكم تقدر الثمن ؟ ...

فقال ( شادويك ) مموها ، وان كان هذا العرض قد أسال لعابه:

— لن أبيع الفرسين ... ان لهما منزلة عندى ...

وبرغم هذا عاد شادويك الى مجلسه بجانب المدفأة وقد بدا اقرب الى الهدوء والتمالك ... فقال ( كرامتون ) :

— كما تشاء ... وان كان رأى الشخصى انه خير للانسان اذا كان فى ضائقة ان يتحاشى الاقتراض ، الذى هو فى الواقع سياسة ضارة:



ولم أَلجأ اليه قط فى حياتى ... ثم ما هى فى الواقع قيمة الفرسين فى بقعة نائية كهذه ؟ . أما فى مدينة مثل لندن ، فستكون لهما قيمة حقيقية ...

— انهما اكرم فرسين فى الاقليم كله ... هل رأيتهما يخطران ؟ . انهما ينفعان فى الصيد ، والسباق ، والفروسية ، وغيرهما من الاعمال الممتازة ! ... تبا لهذا يارجل ! ... انا لا أفرط فيهما ! .

— كما تشاء أيها العزيز ... هل لنا فى كأس اخرى ؟ .

وعاد اليهما اللوئام مرة أخرى بمعجزة ... فقرعا كأسيهما ، وشربا نخب الفرسين وقد تملكهما أشد الثمل ، وان ظل ( كرامتون ) محتفظا باتزان الظاهرى .. وقال له ( شادويك ) فى النهاية :

— الافضل أن تمضى ليلتك عندى أيها الصديق ... وفى الصباح سأذهب معك الى ( كلوجر ) ... فى الواقع اننى لا احتاج الى جوادين من هذا الطراز فى هذه البقعة الموحشة ... ثم ان ركوب الانسان مركبة تشق الطريق فى ( كلوجر ) وبها مثل الجوادين الأصيلين لا يستقيم مع الديون المتراكمة ، وهو يحدث أثرا عكسيا فى نفوس الأهلين ... اننى لن أدع أحدا غيرك يفوز بهما أيها الصديق نظرا لما لهما من مكانة عندى ، ولكنى أعلم أنك تقدر الجياد الأصيلة ، ولذلك سأطلب منك مبلغ مائتى جنيه بلا زيادة ولا نقصان ، أما المركبة الجديدة فهى هدية منى اليك .

فصاح ( كرامتون ) وهو يرفع يديه ارتياحا :

— مائتا جنيه ؟ . رحماك ياربى ... اهـذا ثمن عادل أيها الصديق ؟

فهتف ( شادويك ) بدوره :

— أيها الشيطان ، لا تقل انك أصبحت من البخلاء ... وحقى ان هذين الفرسين لو بيعا فى دبلن لما قلت قيمتهما عن أربعمائة جنيه ، دع عنك المركبة ، وهى جديدة كما قلت لك ....

— انك تسبح فى عالم الخيالات أيها العزيز .. لن أدفع أكثر من مائة وخمسين جنيه بأى حال من الاحوال ... ان الحياة فى مدينة ( كلوجر ) باهظة التكاليف كما تعرف ... والنادى هناك موطن للصوص ... انى خسرت فى الليلة الفائتة مبلغا طائلا فى المقامرة ....

— سحقا لهذا ... انى اكره المساومة ... لنحتسب الفرق مناصفة ...

— انى بينت لك أقصى طاقتى يا عزيزى ( شادويك ) ... ولن أدفع بنسأ واحدا أكثر من هذا ...

فقال ( شادويك ) أخيرا مغلوبا على أمره :

— خذهما ، لعن الله الشيطان ...

## الفصل التاسع والعشرون

لم يفد ( شادويك ) شيئاً من بيع جواديه المظهمين ومركبته الجديدة . . . . . والحق أنه غاب عن القصر فترة ولم يعد إليه الا بعد أن أنفق المبلغ عن آخره في السكر والعريضة ، مما قضى نهائياً على البقية الباقية من سمعته . وبرغم أنه كان تواقاً للحصول على هذا المبلغ ليوفى ديونه لهاينز قبل سواه ، حتى يبرهن للطبيب أن ( السيد حريص على التمسك بمقاييس الشرف ) ، فان فكرة السداد لم تخطر قط بباله عندما احتاز المال . . . . . ولما أتى عليه في النهاية ، أصبح في حالة سيئة من المرض والاعتلال، نتيجة افراطه في الشراب طلباً لنسيان هذه المسائل المكدره . . . . .

وما أن عماد ( شادويك ) الى القصر حتى واجهته أنباء مزعجة . . . فان ( هيجارتي ) استهدف مرة أخرى للضرب والعدوان وهو يقوم بتسليم اخطارات سداد الايجار في وادي ( جليناري ) . . . وقد بلغ من اشتداد فزع الجابي لما ناله انه رفض ارشاد البوليس عن أشخاص المعتدين ، واكتفى بأن قال :

— انهم كمنوا لي وراء حائط ، وانهالوا على ظهري ضرباً حتى اغشى علي . . . .

أما الحقيقة فهي أن سكان عزبة ( بوهركام ) قد حاطوا بالجابي في وضح النهار وجردوه من ملابسه وأشبعوه ضرباً بالعصى ، ثم توعدوه بالقتل ان هو أبلغ البوليس . . . وكانت النتيجة ان ( هيجارتي ) لم يسلم ما كان معه من اخطارات المطالبة بالايجار ، وظل ينتظر عودة ( شادويك ) . . .

وقال ( هيجارتي ) لسيده :

— انهم سيرفضون دفع الايجارات . . . ان ( جليسون ) النساج هو المعرض لهم على عدم الدفع . . . وهناك أيضاً شخص من أرباب القوة والعنف يدعى ( رافرتي ) من أهل ( كلوجر ) ، يشترك في أعمال التحريض والشغب . . . وكان البوليس يبحث عنه في الاسبوع الماضي مدة غيابك يا سيدي . . . وقد أصبح الناس يقولون انهم لن يدفعوا الايجار . . . ثم ان عشرين أسرة من أهل الضيعة قد رحلت حتى الآن الى أمريكا ، آخذة كل ما تملك . . . وكان هؤلاء الراحلون ممن سيدفعون ما عليهم حتماً . . . ومن المشكوك فيه يا سيدي أن نتمكن من تحصيل أية ايجارات من ( الوادي الاسود ) أو ( وادي جليناري ) الا بالقوة . . .

فقال ( شادويك ) :

— القوة ؟ . . . سيدوقون طعم القوة ! . . . اني سأطوق كل مخلوق

فى الضبعة ، انسانا كان أو حيوانا !! سبرى أولئك المتسولون ما أنا فاعل بهم !!

وفى اليوم التالى وزعت اخطارات جديدة فى أنحاء الاقليم تحت حماية البوليس ، تعلن للناس أن كل من يرفض منهم دفع ايجار الارض سيكون عرضة لمصادرة ممتلكاته بأمر المحكمة .. وعلى الأثر أسرع (كوبيرن) لمقابلة ( شادويك ) وقال له :

— لا شك أنك لا تعنى هذا الانذار يا مستر ( شادويك ) ؟ ..

والحق أن ( كوبيرن ) أبدى كثيرا من التسامح ، فان ما لقيه من أذى الأهلىن لم يؤثر فى نفسه ولم يثر نغمته عليهم ، حتى جاء الآن مدافعا عنهم .. وقد استطرد يقول ( لشادويك ) :

— ناشدتك الله أن تمسك يدك فى هذه المرحلة الدقيقة .. ان الناس قد وضعوا ( تقاوى ) البطاطس الجديدة منذ فترة قصيرة .. ولم يبق لهم ما يأكلونه سوى الحشائش والفتات .. ومن بقيت له منهم شلنات قليلة سيحتاج اليها الى حين المحصول الجديد ..

فكان جواب ( شادويك ) ان قال له :

— اسمع يا ( كوبيرن ) !! انى سئمت هذا التطفل ...

— تطفل ؟ !

— نعم .. هذا ما أعنيه .. ان الميجور ( تومسون ) لا يقتنى هذه الضبعة لتكون مؤسسة خيرية ..

— لكن مالك الارض عليه واجباته كما أن له حقوقه .. وهذا هو الاساس فى تأجير الارض — ان المسألة ليست صراعا ناشبا بين فريقين يناصب أحدهما الآخر العداء ، كقطعان متوحشة فى الغابة .. وعند ما تندهور الامور الى هذا الحد ، فان قوام المجتمع الارلندى ينهار بفعل الثورة ، كما رأينا فى الثورة الفرنسية منذ عهد قريب ..

فقهقه ( شادويك ) بصوت صاحب قائل :

— ها ها !! ثورى فى رداء الكهنوت !! اصغ الى يا (كوبيرن ) .. ليس هذا وقت الخطب والمواعظ .. انها حرب مسلحة بينى وبين هؤلاء الاوغاد !! ولو تهيأت لى القوة لاصطدتهم بالرصاص كالكلاب .. ألا تحترم نفسك يا رجل ؟ .. انهم خربوا مسكنك وقطعوا ذيل بقرتك ! .. وكان الاخرى أن تخجل من نفسك ... انتى سابلغ أمرك الى السلطات العليا ..

— افعل ما يحلو لك .

وخرج ( كوبيرن ) يتمتم ويهمهم .. فقد كانت تلك محاولته الاخيرة لآداء واجبه ..



## الفصل الثلاثون

فى يوم الأحد الأول من شهر مايو وقع فى المقاطعة حادث خارق لم يسبق له مثيل فى تاريخها ..

فبعد أن ألقى القديس فى الكنيسة ، ألقى الأب (روش) خطبة عنيفة حذر فيها الناس من التأثر بأقوال المهيجين ودعاة العنف ، مؤكدا لهم أن أعمال العنف لا تثمر غير المصائب ، حاثا لهم على انقطاع ما لقيصر لقيصر ، أى دفع الايجارات الزراعية المطلوبة منهم .. بيد أن هذه الخطبة أحدثت تأثيرها العكسى .. فقد أيقن الاهلون أن زعيمهم الروحي هذا الذى كانت لهم فيه ثقة مطلقة ، قد تخلى عنهم ، بعد أن مناهم من قبل بأن الحكومة ستصدر فى الربيع اعلانا رسميا بتأجيل الدفع .. وهكذا ثارت ثائرتهم ومهما يكن من أمر ، فإن ما حدث بعد ذلك لا بد أن يكون وليد تدبير سابق ، وليس بتأثير خطبة الأب (روش) وحدها ..

وتفصيل ذلك أن جموع الاهلين الذين حضروا لشهود القديس بلغت الضعف هذا اليوم ، وكان مما استرعى النظر قلة النساء الحاضرات ، وتسليح أكثر الرجال بالعصى .. وبعد انتهاء القديس تفرق الناس فى القرية جماعات يتبادلون الأحاديث ، حتى انصرف القس الى داره .. واذ ذلك التأم شملهم مرة أخرى ، وساروا فى حشد كبير الى قصر (كروم) ، مارين بشككات البوليس ، حيث عجز رجال البوليس القلائل الموجودون وقتئذ عن منعهم من مواصلة الزحف الى القصر ..

وكانت الجموع تتقدم أول الامر فى صمت وسكون ، لكن ما أن بلغوا مشارف القصر حتى ارتفعت هتافات عنيفة من الصفوف الخلفية ، وأخذت الايدى تلوح بالعصى فى الهواء ، وانبعثت بعض الاناشيد الثورية من الأفواه .. وكانت هذه اللحظة ايذانا بظهور النساج (جليسون) متسلحا بحربته فى طليعة المتقدمين ، من حيث كان كامنا خلف أشجار متشابكة فى الطريق ... ولم يلبث أن صاح فيهم وهو يكشف عن صدره بيده ويلوح فى الاخرى بالحربة :

— استقبلوا الرصاص بصدوركم ! ... ازحفوا بسرعة الى الامام !  
لتحى أرنلدا ! .. ليستقط الطغاة .

فارتفعت هتافاتهم مدوية ، ثم سادهم السكون ، الا (جليسون) الذى راح يتقدم وهو يهيب بهم للسير خلفه بخطى عسكرية منتظمة ، حتى بلغوا مدخل القصر ..

وعند ذلك فتح الباب ولاح لهم (شادويك) .. فوقف (جليسون)

من فوره وأمسك بحربته متحفزا للضرب وهو يصيح فيهم أن يقتلوا به .. وقد كاد الرجل يندفع فوق السلم مسددا حربته الى صدر (شادويك)، لولا أن خف (مارتن) الى جانبه وأمسك بذراعيه .. فصاح به (جليسون) :

— دعنى ! دعنى ! أتمكن منه ! .. انى سأمزق أحشاءه بحربتى ! .. هذا هو الطاعية الذى قضى على ابنتى ! .. انى سأنتقم منه .. دعنى قلت لك ! ..

لكن الجميع أيقنوا من حركاته وكلماته أن الرجل فقد صوابه ... وهنا خف أربعة رجال الى جانب (مارتن) وعاونوه فى تجريد (جليسون) من سلاحه وسحبه عنوة الى الخلف ، حيث راح يصرخ ويجهد للتخلص الى أن اشتد به الانفعال ، فهوى على الارض تجرى دموعه على خديه ، حتى غدا فى حال مؤثرة ..

اما (شادويك) فقد وقف لدى باب القصر ساكنا يراقب ما يدور وهو يبتسم ازدياء وقد وضع احدى يديه فى جيب بنطلونه وأمسك بالثانية سوط ركوب جعل يضرب به على خدائه ..

وما لبث (مارتن) بعد أن فرغ من (جليسون) أن تقدم الى الامام وخاطب (شادويك) قائلا :

— اننا ياسيدى لم نقصد بك شرا .. فما جئنا الا للكلام فى موضوع الايجارات .. أما هذا الرجل فلم يكن بيننا قط ، وهو غير متزن ..

وقد فاه (مارتن) بكلامه هذا بلهجة الاحترام . بيد انه لم يرفع قبعته تحية ، وحدا الجميع حذوه ، مما دل على توافر روح التمرد لديهم جميعا ..

فقال (شادويك) بهدوء وهو يخطو خطوة الى الامام :

— وما شأن الايجارات ؟ ..

فارتبك (مارتن) .. ونظر خلفه الى الجمع المحتشد نظرة المتسائل وقد خجل من نفسه اذ تقدم الصفوف وكأنه زعيمهم المختار .. بيد أنه شهد فى وجوه اخوانه ما هزه من الاعماق ، اذ رأى أعينهم تقدح شرارا . وأيديهم مطبقة على العصى فى عزم وقوة ..

ثم تكلم (شادويك) مرة اخرى ، فصاح فيه قائلا :

— تكلم يا كلب ! ماذا تقصدون بحضوركم الى هنا ؟ ..

فاستدار (مارتن) وواجه (شادويك) بنظرات مضطربة ، وصاح بأعلى صوته وهو يضغط على أسنانه قائلا :

— لن ندفع الايجارات ! .. اننا عاجزون عن الدفع ! .. اننا لا نريد أن نموت من الجوع ...

فانبعثت من أفواه الجمع الحاشد همهمة عالية سرت بين صفوفهم كهبوب الريح ، ثم ساد السكوت مرة أخرى .. وما لبث ( شادويك ) أن نظر حواليه وقد رفع رأسه عاليا ، ثم هبط درجتين ، ووقف أمام (مارتن) يقول بصوت كالفحيح :  
- ارفع قبعتك يا صعلوك !! ..

فجعل ( مارتن ) يحدجه بنظرات ثابتة مليئة بالعزم دون أن يتحرك .. فرفع ( شادويك ) صوته قائلا :  
- هل سمعت ؟ .. قلت لك ارفع قبعتك !! ..

فنفخ ( مارتن ) صدره وفتح عينيه على سعتهما وأطبق قبضتيه الى جانبيه .. واذا ذاك صاح ( شادويك ) وهو يرتعد يسيرا :  
- أنت اذن ترفض رفع القبعة ؟ ..

وبدا كأنما يوشك أن يرفع سوطه ليضرب ( مارتن ) . وعند ذلك برز من خلال الجمع رجل ضخم وهتف قائلا :  
- لا يمكننا دفع الايجارات يا صاحب السيادة دون أن نبيع مواشينا ، ومعنى هذا خرابنا الشامل .. فهلا أمهلتنا حتى تنتهى هذه الاوقات العصيبة ؟ اننا قد نستطيع الدفع فى فصل الربيع ..

فرد ( شادويك ) قائلا :

- لا تقلقوا بشأن مواشيكم .. سأتولى بيعها نيابة عنكم .. أيها الصعاليك ! .. هل جئتم الى هنا لتخويفي ؟ .. اخرجوا حالا ، والا جلدتكم بالسوط .. تأكدوا ان الايجارات ستحصل عن آخرها .. اخرجوا من ارضي !! ..

وعند ذلك صاح الرجل الضخم فى زملائه :

- اركعوا أمامه أيها الرفاق .. لننتقم اليه بالرجاء مرة اخرى راكعين ...

وركع الرجل على احدى ركبتيه وقد أمسك العصا بكلتا يديه ، بيد أنه لم يرفع قبعته .. وما لبث الجمع الحاشد أن اقتدى به تباعا ، حتى جثوا جميعا أمام ( شادويك ) وهم يشخصون اليه سكوتا وقد اضطربت أعينهم بنظرات الحقد الدفين .. فكانت هذه الحركة مبعث دهشة الرجل حتى لقد تراجع أمامهم قليلا وهو لم يشهد لها مثيلا فى حياته ، وان كانت برغم ذلك قد زادته سخطا .. ثم هتف الرجل الضخم قائلا :

- اننا نسألك ، بحق الاله ، ونحن ركوع على أقدامنا ، ألا تحصل الايجارات ؛ حتى الخريف .

فصاح بهم ( شادويك ) بصوت قاصف :

- اخرجوا .. اذهبوا !! ..



ورفع سوطه ولوح به للجمع الحاشد مهدداً ٠٠ فاستووا على أقدامهم ٠٠ والتفت هو الى ( مارتن ) الذى لم يركع ولم يتحرك قيد شعرة، وتقدم نحوه قائلاً :

— خذ هذه يا حقير ! ٠٠

وضرب ( مارتن ) بالسوط ٠٠ فوثب ( مارتن ) جانباً وتلقى ضربة السوط بعصاه الشوكية ، ثم التحم بضاربه على الاثر ٠٠ فأتبع (شادويك) بيسراه على رقبة الشاب ودفع رأسه الى الخلف ، ورفع السوط مرة أخرى وأهوى به وهو يسبه سبا قبيحا ، فمزق السوط ظهر ( مارتن ) ٠٠

وفى خلال ذلك دفع (مارتن) الى الخلف بيسراه وهو يضرب باليمينى، فترنج (مارتن) لحظة ، ولكن سرعان ما اندفع نحو (شادويك) وقد بسط يديه كالمخالب ، فأتبع بها على وجهه ، وركله بركبتيه فى بطنه ٠٠٠ واذا ( شادويك ) يقع على الارض وغريمه لا يتخلى عنه ٠٠ وما لبث الجمع أن انقض عليهم وهما يتدحرجان على الارض ، ولكن هذا التدافع مقترنا باشتباك العصي ، أنقذه من موت محقق ، اذ حال دون انفراد مهاجم واحد به والقضاء عليه .

واذ صاح واحد منهم :

— لا تقتلوه ! ٠٠ خذوه الى مكتب الايجارات ، وألزموه بتوقيع ايصالات السداد ٠٠٠ الى مكتب الايجارات ! ٠٠

فقبل هذا الاقتراح بهتاف شديد ٠٠ وسرعان ما امتدت الايدي الى ( مارتن ) ترفعه من فوق ( شادويك ) وتوقف هذا الاخير على قدميه وقد دمی وجهه ومزقت ملابسه كل ممزق ، وأثخن ضرباً بالعصى فى كل موضع من جسده ٠٠٠ ولكنه برغم ذلك لم يستكن ، بل صاح فيهم قائلاً :

— سأراكم فى جهنم ، قبل أن أوقع أى اتصال ! ٠٠

فردوا عليه صائحين :

— سوف نرى ٠٠٠ خذوه أيها الرفاق ! ٠٠

ودفعوه أمامهم وهم ينهالون عليه بالعصى ٠٠٠ وفى هذه اللحظة أقبل رجال البوليس يركضون من ناحية الشكبات بعد تعزيزهم بالنجدة ، يتقدمهم رئيسهم ( ادواردز ) ، وكانوا يناهزون الاربعين ، وقد تسلحوا بالبنادق ٠٠ وعندئذ صاح فيهم من يقول :

—البوليس ٠٠ البوليس ٠٠

وتدافعوا هاربين يبعثون النجاة والاعتصام بالقرية ٠٠٠ ولكن رجال البوليس كانوا فى طريقهم اليها ، ولم يلبث هؤلاء أن أطلقوا الرصاص فى الهواء ظناً منهم أن الهاربين يريدون مهاجمتهم ، فسأد الذعر صفوف الناس ، حتى ارتفع بينهم صوت يصيح بهذه الكلمات :

—اهجموا على الطغاة المستبدين ! ٠٠ الى الامام كالرجال الشجعان ! ٠٠

ولم يكن القاتل سوى ( جليسون ) النساج الذى تمالك فى خلال ذلك واسترد حربته ٠٠٠ وقد هجم بها على رجال البوليس وأصاب أحدهم فى فخذه قبل أن يدرك أحد من زملائه ما فعل ٠٠ ولكنه تلقى على الاثر ضربة على رأسه من طرف بندقية أحد الجنود ، فهوى على الارض ٠٠ بيد أن جرأته الجنونية سرت فى نفوس زملائه الذين هجموا بعصيتهم على رجال البوليس ، فكانت معركة عنيفة بين الفريقين دامت زهاء نصف ساعة ، تفوق فيها رجال البوليس بحكم تنظيمهم ، حتى اضطروا الجماهير الى الفرار ، تاركين وراءهم عددا من المصابين سقطوا على الارض ، بينهم أربعة من رجال البوليس ٠٠

وقد ظل ( مارتن ) مشتبكا فى القتال حتى النهاية فلما اضطر الى التراجع حتى لا يقع فى الاسر ، حاول أن يسحب ( جليسون ) المغمى عليه ٠٠٠ بيد أنه لم يكد يبتعد حتى أطبق عليه اثنان من جنود البوليس ، فتخلى عن صهره واشتبك معهما فى معركة فردية أفلح خلالها فى انتزاع بندقية أحدهما وأصاب بها الثانى اصابه بالغة فى رأسه ، ثم ولى هاربا بالبندقية الى حيث لا ذ بأرض كثيفة الاشجار ٠٠ وما كاد يتقدم قليلا حتى أطلقت فى أثره رصاصة استقرت فى ذراعه واضطرت الى التخلي عن البندقية ٠٠ ولكنه تحامل على نفسه وتابع الفرار ، على حين قبض البوليس على ( جليسون ) وستة من الالهين وساقوهم جميعا الى الشكنات حيث أودعوا ( زنزانة ) مظلمة ٠٠٠

## الفصل الحادى والثلاثون

لم تذهب ( مارى ) الى القداس ، اذ حان أوان وضعها . . . . ولزمت ( ماجى ) البيت هى الأخرى بعد أن أصيبت بأورام فى ساقىها جعلتها قعيدة الدار . . . . وأما العجوز ( بريان ) فقد قصد بجواده الى وادى ( جليينارى ) حيث أراد أن يكشف على بقرة مريضة يملكها أحد أقربائه وكان حجة فى أمراض الماشية وهكذا لم يعلم أحد من أهل الدار بما كان فى القرية من أحداث جسام ، حتى رجع اليهم ( تومسى ) . . . .

فقد اشترك ( تومسى ) فى زحف الاهلين على القصر ، بيد أنه كان فى طليعة الهاربين ، ولم يلبث أن تسلق شجرة جعل يرقب منها كل مدار وهو على مبعدة من مكان المعركة . . . . ولما شاهد ( مارتن ) يمر قرب الشجرة وهو مصاب بجرحه ، هبط ( تومسى ) من مكمنه وتبعه مسافة وهو يرتقى الى الجبل ، بيد أنه لم يلبث أن فقد أثره . . . . وهكذا عاد أدراجه الى القرية ومنها الى البيت ركضا ، وما كاد يدخل حتى هتف لاهت الأنفاس :

— لقد أصيب (مارتن) برصاصة !.. وأسروا والدك يا(مارى) !..  
ولكن ( مارتن ) صعد الى الجبل للاختفاء عن نظر البوليس .

فلم تكذ ( مارى ) تسمع هذا النبأ المشئوم حتى خرجت مغمى عليها . . . . فنهضت ( ماجى ) من مجلسها قرب المدفأة وقالت بلهجة حادة :

— أيها الأحق ! .. ماكان يجب أن تفزعها هكذا ! ..

وتعاونت العجوز مع ( تومسى ) على حمل ( مارى ) ونقلها الى غرفتها حيث مدت فى فراشها . . . . وبينما هما يبللان جينيها بالماء البارد اذ أقبلت ( سالى أوهانلون ) تقول :

— انى ناديت ( تومسى ) ولكنه لم يسمعنى . . . . لقد ضعفت ( مارى ) المسكينة عند سماع الخبر ، وهى قريبة من وقت وضعها . . . . آه ! . . . . ها هى تفتح عينيها ! .. تشجعى يا حبيبتي ، فنحن هنا بجانبك . . . .

وفتحت مارى عينيها ، وتطلعت اليهم قائلة :

— أين مارتن ؟ ..

فأجاب تومسى :

— انه فى الجبل .. انه تمكن من الهرب ، وقد رأيت به عيني راسى .  
هرب سالما ..



فعادت ماري الى الاغماء .. وعكفت سالي على ترطيب جبينها وهي تقول :

— ادعو الله ألا تكون السقطة قد آذتها ..

وفي تلك اللحظة فتحت ماري عينيها وهي تشهق وتصرخ لما انتابها من ألم عنيف .. فقالت لها سالي :

— اطمئني يا حبيبتي .. اسمع يا تومسي .. تعالى أكلّمك ..

وانتحت سالي به جانبا وأسرت اليه كلاما هز رأسه على أثره ايجابا وخرج من الدار مسرعا ..

وفهمت ماجى بدورها ما حدث ، فتملكتها رعدة شديدة حتى عادت أدراجها الى المطبخ وقبعت في ركنه وأسنانها تصطك بشدة .. وبعد برهة سمع وقع حوافر جواد ، فاذا القادم هو بريان الذي قال لتومسي حين شاهده يخرج مهرولا :

— علام هذه السرعة ، والى أين تذهب ؟ ..

فقال تومسي انه ذاهب لاستدعاء كاتى الحكيمة ، وابتعد على الأثر .

ولما دخل بريان ورآهم على هذه الحال وجم وأطبق شفثيه .. فهو قد علم بما حدث حين التقى بفريق من الأهلين وهم يفرون الى ( وادي جليثاري ) .. ولم يلبث أن اتجه الى غرفة ماري على أطراف أصابعه ، فاذا هي تصرخ لما عاودها من الوجع ، وكانت سالي تلفها بالاغطية بعد ما نزعّت ملابسها .. وما كادت ماري تبصر العجوز حتى هتفت به قائلة :

— أين مارتن ؟ .. ماذا فعلوا به ؟ ..

فاقترب العجوز منها وأمسك بيدها الممدودة قائلا :

— تشجعي يا ابنتي ..

— هو مجروح وأنا لست بقربه .. رباه .. الرحمة يا الهى .. اذهب اليه وساعده .. ابحث عنه فى الجبل ..

— سأبحث عنه يا حبيبتي .. أنا ذاهب فى الحال .. اعتنى بها يا سالي ..

بيد أنه برغم ذلك وقف مكانه ينظر الى ماري والدموع تترقرق فى عينيها حتى صاحت به سالي قائلة :

— لماذا لا تذهب للبحث عنه ؟ .. وان كان مصابا فدع جابر العظام يداويه .. اذهب الى الأب (جيلان) فهو صديقك الحميم .. اذهب قبل أن يحضر رجال البوليس للبحث والتجسس ، فانهم لن يدعوا فريستهم تفلت منهم بسهولة .. اذهب وعجل ..

فخرج العجوز مهرولا ، واذا ذاك التفتت ماري الى سالي قائلة :

– اواه يا سالى ! .. هل آذيت الجنين بسقطتى ؟ .. هل تظنين أنه مات ؟ .. لو حدث شيء من هذا لما سامحتى مارتن أبدا ! ..

فأخذت سالى تطيب خاطرها وتطمئننها حتى جاءت أمها يتبعها باتسى زوج سالى وبعض الجيران .. وقد امتلأ المطبخ بالقادمين الذين قالوا ان رجال البوليس انتقلوا الى الجبيل للبحث عن الهارب ، وانهم أخذوا يستجوبون العجوز بعد أن صادفوه فى الطريق ، وظلوا كذلك حتى جاءت كاتى الحكيمة أخيرا ..

وهتفت كاتى وهى تدخل الدار :

– بوركتم أيها الحاضرون .. أنت يا الهى قد اخترت واحدا من أهل البيت الى جوارك ، فاخرج المولود سليما معافى ليكون فيه العرض عن المفقود الراحل ..

وأسرعت الحكيمة الى غرفة ماري تهديء روعها وتهمس فى أذنها قائلة :

– أغمضى عينيك يا ابنتى واسلمى نفسك لغناية الرحمن تسلمى ..  
أغمضى عينيك يا ابنتى ..

فقالت سالى لمسترجيسون هامسة :

– ساعدى كاتى فى كل ما تريد .. أما أنا فقد اهتمدت الى وسيلة لمساعدة مارتن .. فان رجال البوليس لن يلتفتوا الى امرأة تعبر الطريق .  
اننى ذاهبة حالا ، فلا تتكلمى ..

## الفصل الثاني والثلاثون

بعد أن عرج تومسي على كوخ الحكيمة كاتى القائم فى واد ضيق بين جبلين ، تركها تذهب وحدها الى بيت كيلمارتن ، وتابع طريقه فى الوادى الجبلى حتى بلغ كوخا حجريا كان يستخدم فى الماضى لتقطير الكحول . . . وكان الكوخ فى بقعة منعزلة لا يمكن الوصول اليها الا من طريق هذا الوادى ، ومنه يتفرع شمالا درب ضيق يؤدي الى مقاطعة (مايو) ، وموقع الكوخ الى هذا يشرف على القرية جنوبا بحيث يمكن منه مراقبة القادمين . . . وقد صبح ما توقعه تومسي ، اذ وجد مارتن مختبئا فى هذا الكوخ . . . وكان ممددا فوق فراش من أوراق الشجر ، ومعه شاب من أهل وادى جلينارى يدعى فاهى . . .

وما كاد تومسي يبصر مارتن على هذه الحال حتى ركع بجانبه قائلا .

— حفظك الله يا بنى . . . أنت حى أم ميت ؟

فأجابه مارتن :

— أنا بخير . . . هل أخبرتهم فى البيت ؟

قاوماً تومسي ايجابا . . . وكان فاهى اذ ذاك منهمكا فى ربط ذراع الجريح بقطعة من قميصه بعد أن نزع دمه غزيرا حتى غدا صاحب الوجه . . . وقال له تومسي :

— هل حدث كسر فى الذراع ؟

— كلا . . . ولكن الرصاصة استقرت فى الذراع . . . هل هناك أثر لرجال البوليس ؟

— حتى الآن لا . . . لكن من المؤكد أنهم سيبحثون عنك . . . والافضل ان تذهب الى مقاطعة (مايو) . . .

— ليتنى أستطيع استخراج الرصاصة من ذراعى . . . انها تؤلمنى ألما فظيحا . . . أواه ! . . . ترفق يا فاهى . . .

— صبرا . . . لا بد من شد الرباط ، لوقف النزيف . . .

وسأل مارتن عن زوجته ، فغمغم تومسي :

— أنى أرسلت اليها كاتى منذ قليل

فهتف مارتن وهو ينهض جالسا ويجذب ذراعه من صاحبه :

— ماذا تقول ؟ . . . هل جاء وقتها ؟ . . .

— أظن ، بمشيئة الله . . .

فهتف مارتن وهو ينهض قائما من فورهِ :

— كيف لم تخبرنى بهذا من أول الأمر ؟



فصاح تومسي بدوره :

— أين تذهب وأنت بهذه الحال ؟ .. ان رجال البوليس سيصلون الى القرية بين لحظة وأخرى .. ابق مكانك يا رجل ، حتى نحضر لك جابر العظام أو الطبيب .

— وماذا يهمنى من البوليس وعارى فى هذه الحال ؟ .. ابتعد من طريقى ! ..

وتخلص منهما عنوة وأخذ يهبط الوادى الجبلى .. وفى تلك اللحظة استرعى نظر تومسي وهو يتطلع نحو بيت كيلمارتن عن بعد ، مشهد رجال البوليس وهم يستوقفون (بريان) .. فصاح فى اثر (مارتن) قائلا :  
— قف يا مارتن .. انظر هناك .. ان رجال البوليس يقبضون على أبيك .. انظر اليهم وهم يسددون بنادقهم اليه .. ارجع يا بنى ! ..  
فأمسك مارتن عن الهبوط ، وراح يرسل نظره الى القرية حيناً ، ثم قال أخيراً :

— صدقت .. لعنة الله عليهم ..

وعاد أدراجه الى الكهف .. فقال له تومسي :

— قلت لك انهم سيكونون هنا .. لا بد لكما الآن من العمل برأى المتواضع ، والانتقال الى مقاطعة (مايو) .. ان القادمين ثلاثة من رجال البوليس فقط ، ولن يتمكنوا من اللحاق بكما .. ويمكن أن تعودا الى الكهف بعد قضاء الليل هناك .. وسأعمل من ناحيتى على احضار جابر العظام أو الطبيب الى هذا الكهف بعد قضاء الليل هناك .. وستعرفان ذلك متى رأيتما ضوءاً ينبعث منه .. فان رأيتما الضوء فادخلا آمنين .. اتفقنا ..

فأمن الشابان على هذا الكلام ، وقالا ان هذه أمثل خطة فى هذه الظروف

فقال تومسي :

— حسنا .. اسرعا الآن قبل وصولهم الى هنا .. أما أنا فسأعود أدراجى من جانب الجبل .. أدعو لكما بالتوفيق والسلامة ..

فأسرع الشابان باجتياز الدرب الجبلى الضيق متجهين شمالاً فى طريق ( البحيرة السوداء ) .. أما تومسي فقد انبطح على وجهه ولبث طويلاً يراقب حركات رجال البوليس .. فشاهدهم يأخذون العجوز (بريان) الى البيت ويدخلون معه .. وبعد أن غابوا عن نظره نحو ربع ساعة أخذوا يرتقون الى ناحيته .. ولمح تومسي من مرصده كثيرين من الشبان يسرعون بارتقاء الجبل فى اتجاه البحيرة السوداء .. وأبصر رجال البوليس الثلاثة وهم يفتشون أكثر البيوت حيث قابلتهم النساء بالصراخ والعويل مما فت فى عضدهم وحملهم على العودة دون أن يقبضوا على أحد ، بعد أن هرب الرجال جميعاً من بيوتهم .. فقال تومسي وهو ينهض فى النهاية :

— أصبح الجو آمناً الآن .. ولن يعود هؤلاء الاشقياء قبل حلول

الظلام .

وأسرع تومسي يهبط الى القرية وقد أوشك النهار أن ينصرم وانتشرت ظلال قاتمة مديدة فوق سفوح الجبال ..

## الفصل الثالث والثلاثون

ما كاد الليل يرخى سدوله حتى وضعت ماري مولودها .. وقد جاء الطفل قبل وقته ، ولكنه كان قويا كامل التكوين .. ولم يكن في الدنيا أسعد من العجوز (بريان) بظهور هذا المولود ، حتى ليظن الانسسان أنه وليده الاول .. بل لقد بلغ من شدة فرحه أنه لم يتذكر أن ابنه جريج مختبئ في الجبل .. فقد كان الرسل يتوافدون على الدار تباعا بأنباء مارتن ، ومنها أن سالي بسبيل احضار الطبيب لاسعافه ، فكان العجوز يقول لهم كل مرة بلهجة أحفل بالشراسة :

— بهذا يعلمون أن الخطر كل الخطر في الاقتراب من ولدي ! ..  
انه أعطاهم ما يستحقون ..

وعلى هذه الصورة بدا العجوز وكأنما قد استعاد شبابه بتأثير الحادث العظيم المفرح الذي شهدته الدار ، بمولد حفيده ! ..

وكذلك بدت ماري وكأنها غير عالة بما أصاب زوجها ، بعد أن بزغ مولودها الى نور الوجود ، فان معجزة الحياة الجديدة التي انبثقت من أحشائها وتجلت الآن في وجود المولود الى جانبها محاطا بلفافاته مرددا صرخاته الاولى — ما لبثت أن حجبت عنها كل شيء عداها في هذا العالم ، حتى لتكاد تلتهم بعينيها ذلك المحيا الدقيق ، وتينك القبضتين الضئيلتين المطبقتين كأنما تتحفزان للنضال . وظلت ماري في استغراقها ذاك حتى جاء الطبيب قبيل منتصف الليل ، فتذكرت ما حدث ، وأخذت تهتم بما حولها ..

ومهما يكن فقد جاء الطبيب يحمل اليهم أنباء طيبة .. فهو قد استخرج الرصاصة من ذراع مارتن وتبين أن الجرح غير خطير .. بل انه أعلن اليهم عزمه على اخفاء مارتن في القرية حتى يتم شفاؤه .. وقال في هذا الصدد ..

— ليس لك أن تنشغلي يا ماري .. سسنعمل أنا والاب جيلان على توفير أسباب العناية به .. انى أعرف مكانا أخفيه فيه عن أعين البوليس . ان آخر مكان يفكرون في البحث فيه عنه هو القرية ذاتها ، تحت أنوفهم . وسأحضر بين وقت وآخر لتزويدك بأنبائه ..

فقالت له ماري :

— بارك الله فيك يا سيدي .. هل تظن أنه يمكنه الحضور الى هنا لرؤية مولوده ؟ ..

— هذه خطوة غير مأمونة الآن .. فان رجال البوليس يبحثون عنه

فى كل مكان ، والمهم هو أن نعمل على شفائه قبل كل شىء .. فلا تشغلى  
بالك ، ودعى الأمر لى ..

– بارك الله فىك يا سيدى .. هذا فضل عظيم منك ..

فقال الطبيب برصانة :

– هذا أقل واجب ، وعلينا جميعا أن نقوم بنصيبنا .. ان كل فرد  
من أبناء الشعب عليه واجب يؤديه .. اننا الآن فى معركة ضد الطغاة  
الانجليز .. الشعب ضد حكاه المحتلين .. وأنا من صميم الشعب ..  
فلا تشكرينى .. ليته كانت لى شجاعة زوجك .

ف قالت مارى وهى تتناول يده وتقبلها :

– بارك الله فىك من أجل هذه الكلمات .. صدقت .. انها معركة  
الشعب الارلندى ضد الطغاة المستبدين .. وأنا فخورة لأن مارتى لديه  
الشجاعة للمكافحة من أجل حقوق الشعب .. انى ياسيدى سأنام الليلة  
راضية سعيدة بعد كلامك هذا .

– وأنا أكثر منك رضى بعد أن تحدثت معك .. فقد كنت أظنك  
تحقدى على بسبب .. بسبب أختك ..

– كلا يا سيدى بتاتا .. انى لا أضمر لك أى حقد .. وان ما تفعله  
الآن كفيل بإزالة كل حقد يمكن أن يخامر الانسان .

وغادر الطبيب البيت وهو فى أوج الاغتراب .. فان هذه الحياة  
الجديدة ، التى أصبح يحياها بتأثير الأب (جىلان) عليه ، قد أفعمت نفسه  
سعادة وسكينة ، حتى سار الى بيته وهو جذل طروب ..

فلما كان الصبح زاره ( ادواردز ) رئيس البوليس ، وأبلغه أن  
الواجب يحتم عليه اذا هو دعى لعلاج مارتى الجريح ، أن يبصار بابلاغ  
البوليس .. فتلقى الطبيب هذا التحذير بهزة من منكبيه ، حتى قال له  
( ادواردز ) :

– اننى أحذرك ، فان الاحكام العرفية ستعلن فى الاقليم ..

فقال له الطبيب :

– ليس فى هذا ما يعنينى .. ان على واجبات مفروضة أودىها ..  
وسأؤدى هذه الواجبات بكل ما فى وسعى ، شاء القانون أو أبى ..

وصح ما أنذر به رئيس البوليس فعلا .. فقد وافق نائب الملك  
الانجليزى على ما طلبته السلطات المحلية الانجليزية من اعلان الاحكام  
العرفية فى مناطقها .. ذلك أن الاضطرابات عمت جهات أخرى غير منطقة  
(كروم) التى تقع فيها ضيعة الميجور (تومسون) ، كما حدثت فى بلدة  
(كلوجر) اعتداءات كثيرة وخصوصا على المخابز ..

وقد نصت الاحكام العرفية على إلزام الاهلين بالبقاء فى دورهم فيما



بين غروب الشمس وشروقها ، وحتى المشردون الذين لم تكن لهم دور  
يأوون اليها كان عليهم أن ينزروا في المغاور والجحور .. كما نصت  
الاحكام العرفية على منح مدافن للمرشدين الخوة ، ودفع تعويضات  
لأقارب المعتدى عليهم .. وأصبحت عقوبة مخالفي القوانين العرفية السجن  
والاشغال الشاقة مدى خمسة عشر عاما .. وصدرت الاوامر الى قوات  
البوليس الملكى الارلندى التى ضوعفت الى اثنى عشر ألفا من الجنود  
المدربين على القتال ، باعتبار انفسهم فى حالة حرب فى المناطق التى أعلنت  
فيها الاحكام العرفية ، وبهذا أعدت لهم مراكز مراقبة فوق التلال المشرفة  
على دور المشتبه فيهم من الوطنيين ، وتحتم عليهم أن ينبثوا فى الخنادق  
والزراعات ، وأن يفاجئوا الاهلين فى دورهم ليل نهار .. وبمقتضى هذه  
القوانين والقرارات الصارمة ، قضى على الاهالى المنكودين فى مقاطعة كروم  
أن يعاملوا وكأنهم فى حالة ثورة مسلحة مناهضة للقانون ، وليسوا على  
شفا مجاعة شاملة تنذرهم بالفناء !

وأما النساج « جليسون » الذى أودع السجن مع عشرين آخرين من  
المعتقلين فى ذلك الحادث ، فقد أصبح لو طبقت عليه القوانين العرفية  
الجديدة ، عرضة للحكم عليه فى مختلف التهم الموجهة اليه ، بالسجن  
والاشغال الشاقة لمدة لا يقل مجموعها عن مائة وعشرين عاما .. وقد  
أضحى معروفا مقررا أن الحكومة تعتزم أن تجعل منه عبرة لغيره من  
المواطنين .. وحبطت المحاولات التى بذلت للإفراج بالضمان عنه وعن  
سائر زملائه المقبوض عليهم ، وقبعوا جميعا فى السجن ينتظرون المحاكمة  
أمام المحكمة العليا ..

لكن محاولة جليسون لم تلبث أن جعلت منه بطلا شعبيا .. ولم  
تمض أيام معدودة على اعتقاله حتى أخذ الاهلون فى شوارع كلوجر يرددون  
أغنية شعبية مطلعها (بارنى جليسون الجسور) .. بل حدث برغم الارهاب  
الذى فرضته الحكومة المحلية بأمر المستعمر الانجليزى الغشوم ، أو بسبب  
هذا الارهاب ، أن شاعت روح التمرد والثورة فى نفوس الفلاحين ، بدل  
أن تخمد .. فان دوريات البوليس الليلية كانت تستهدف دائما لرجمها  
بالحجارة ، وأضحى الخونة والمتعاونون مع الحكومة عرضة لكل صنوف  
المضايقة والعدوان .. فكان من شأن ذلك أن اشتدت غلظة رجال البوليس  
وشراستهم ، حتى رابطت فصيلة كبيرة منهم فى ( الوادى الاسود ) نهارا  
وليلة تفتش الدور وتستجوب السكان ، وقد أهاجهم على وجه الخصوص  
عجزهم عن الاهتداء الى أثر مارتن الهارب ..

وكان من اجراءات القمع والارهاب التى لجئوا اليها اعتقالهم باتريك  
شقيق مارى ، وان أطلقوا سراحه بعد أن أثبت لهم أنه لم يكن بين المشتركين  
فى حادث الهجوم على قصر كروم .. وبرغم ذلك لم ينج الشاب بعـد  
الإفراج عنه من اعتداء بعض رجال البوليس عليه بالضرب المبرح عند  
مقابلتهم له ليلا قرب داره .. وهكذا اضطر الشاب الى الهرب والاختفاء بين  
الجبال ، أسوة بكثيرين من شباب الوادى ممن سبقوه الى الاعتصام بالمكامن  
الجبلية شمالا ..

بل لم تسلم ماري من تنكيل رجال البوليس الانجليزى بها ، فقد اضطروها ولما تمض أربعة أيام على وضعها ، الى مغادرة الفراش للتفتيش بحرابهم فى الحشية التى كانت تنام فوقها .. ولم يكتفوا بهذا ، فقد أوقفوا جميع أفراد الاسرة عدا ماري ، صفا واحدا فى فناء البيت ، وظلوا يستجوبونهم ساعة كاملة للوقوف منهم على مخبأ مارتن .. ولمسا تهيئوا أخيرا للانصراف قال لها رئيس القوة :

— لا بد من اعتقاله ، حيا أو ميتا ..

وفى تلك الليلة جاءت مسز جليسون الى بيت كيلمارتن وأخبرتهم بهرب ولدها (باتريك) الى الجبال .. وقد اشتد بها الكرب لما نالها من أرزاء ، فجلست فى ركن المدفأة تبكى زوجها الذى قالت انهم سوف يشنقونه .. واذا ذاك استدار اليها تومسي وراح يقول لها :

— ماذا يحزنك يا امرأة ؟ .. ألم يصبح (بارنى) شخصية شهيرة ؟ .. ان هذا هو أقصى ما يتطلع اليه انسان .. وأكبر عقوبة يمكن أن ينالها بسبب جرح أحد الجنود ، هى النفي مدى الحياة الى استراليا .. وهناك يستطيع أن يباهى بتلك الضربة التى وجهها الى العدو .. ألا انه لشيء عظيم أن ينتمى الانسان الى شخص من أبناء هذا الوطن المنكوب بالاستعمار ، تهيأت له الشجاعة لتوجيه ضربة مهما كانت .. بل أن مجرد قذف حجر فى نافذة احدى ثكنات البوليس الانجليزى لهو عمل رائع نبيل .. وخير للمساكين الذين يموتون من الجوع فى الحفر والوهاد أن يواجهوا الموت بسبب قذفه مثل هذا الحجر .. لكن عار على ألف عار وأنا عاجز عن توجيه مثل تلك الضربة .. ان لك يا امرأة أن تفاخرى بزواجك البطل الشهير ، لا أن تنديه وتولولى من أجله ..

وهنا انبرى العجوز بريان مخاطبا تومسي :

— كفى لغوا وثرثرة .. ما أسهل عليك أن تتحدث عن القتال .. أصعد فى الجبل وتفقده الغنم ، فهناك أشقياء لا يتورعون عن سرقتها .. — تقول انهم أشقياء ؟ .. أولئك اللاجئون الى الجبال ؟ ..

— اذهب ولا تجادل ! ..

فامتثل تومسي .. ودلف العجوز الى غرفة ماري حيث وجدها جالسة على حافة الفراش تبكى .. فقال لها :

— من الافضل أن تبقى أمك معنا ، بعد أن تركها أخوك (باتريك) .. أى رجل هذا الذى يترك أمه هكذا ؟ ..

فقالت ماري :

— ان رجال البوليس ضربوه ضربا شديدا ..

— ليس هذا عذرا يبرر التخلي عن أمه .. لا بد أن تبقى معنا ..

فراحت ماري تقول :

– كم أخشى ألا يبقى أحد منا هنا بتاتا .. ان نهايتنا جميعا باتت قريبة .. ان مستر (شادويك) سيستولى على كل شيء هنا ، ولن يبقى لنا سوى السقف فوق مدغاة خاوية ، وزوجى جريح فى كهف مهجور !

– ما هذا الكلام يا مارى ؟ ما زالت عندنا البقرة التى ستلد بين يوم وآخر . وما زال عندنا الحصان والغنم ..

– من الخير أن نعمل على بيعها سرا قبل أن يأخذها شادويك منا .. ونجمع كل ما يمكننا جمعه من النقود ، نستطيع السفر حتى ليفربول .. فقال العجوز وقد روعه مجرد التفكير فى هجر الارض :

– ما هذا ؟ .. ما أنت الا مريضة يا امرأة ، حليفة الجبن بسبب متاعبك ! ولو كنت فى تمام العقل والاتزان ما قلت مثل هذا الكلام ..! أنهجر الارض لاول متاعب تلوح لنا ؟ .. أين فى غير أرضنا تجددين مثل هذه الارض ، وما تنبت لنا من الخيرات ؟ .. ان التفكير فى هجرها لهو الحماقة وهو وسوسة من الشيطان .. ولو ذهبنا نوازن حلو الحياة ومرها لما وجدنا فى الدنيا أنعم وأرغد من حياتنا هنا .. انها الحياة التى زكاها الله ووصانا بها ، أن نحرق الارض ونخرج مكنونها بعرق الجبين .. نعم ! .. ما أبدع أن تكون للانسان رقعة من الارض يزرعها ويرفع فيها سقفا يؤويه .. ما أبهى انبات الزرع من الارض الميتة الباردة ، وكأنه بمعجزة يخرج من بطنها ويزكو ويترعرع .. ان الحكام الطغاة يأتون ويذهبون ، ولكن الزراع خالدون ما دامت الارض والسماء ، يحصدون ويبثون الحب ، على تعاقب الفصول وكر الاجيال .. الى ليفربول تريدان أن تذهبي بهى ، حيث أموت وتلقى عظامى ، والبحر يفصل بينها وبين أرضنا الحبيبة هذه ؟ .. لن نستطيع حاكم طاغية أن يخرجنى من أرضى التى ولدت فيها ، وفيها سيكون مماتى ، برغم أنوف الطغاة الانجليز مجتمعين ..

قال العجوز هذا وخرج مسرعا ليتفقد البقرة التى تأخر موعد وضعها خمسة عشر يوما .. وقد ساقها أمامه مترفقا معجبا بتكور بطنها الاسود ، وقال لها معاتبا وهو يحك جبينها :

– ما الذى عاقت وأخرك أيتها العجوز ؟ .. أهو الكسل والخمول ، أم هو كيد الشياطين ؟ ..

فنهجت البقرة برأسها عن متناول يده ولعقت فكها بلسانها وانشأت تمضغ العشب وكأنما تقول له أن أوان ولادتها ليس من شأنه ..

والحق أن العجوز المتطير قد انزعج من هذه الايمامة ، حتى قضى ليلته وهو دائم الخروج الى البقرة لتفقد حالها خوفا من أن تكون قد استهدفت لكيد الشيطان أو سحر ساحر .. ولكن ما أن لاح الفجر حتى روع العجوز بما هو أدهى من السحر وأشد نكرا ..

وما كان هذا الا شادويك ورجاله يزحفون على الوادى بخيلهم ورجلهم زحفا مستطيرا لا يبقى ولا ينذر ..



## الفصل الرابع والثلاثون

لم يجد شادويك عناء في استصدار أمر من الجهات القضائية بالمصادرة والاخلاء ضد مستأجرى الارض في ضيعة الميجور (تومسون) من المتأخرين في سداد الايجار .. وقد كان القانون الانجليزى من السماحة واليسر بحيث كانت كلمة شادويك وحدها كافية لاستصدار هذا الأمر .. وعلى الأثر سارع شادويك باستئجار فريق من أشقياء بلدة كلوجر ، كما استعان بقوة كبيرة مسلحة من رجال البوليس ، وزحف بهم جميعا على الوادى الاسود ممطيا جواده ، يتبعه الجابى هيجارتى راكبا مثله ..

وبدا شادويك عند مدخل الوادى فقسّم رجاله قسمين ، أوفد أحدهما الى وادى جليينارى لمنع السكان من اخفاء مواشيهم في أثشاء انهماكه في تطويق الوادى الاسود .. ثم عجل بالزحف على الوادى مبتدئا بمواطن رعاة الاغنام في أعاليه ، دون أن ينسى بث الارصاد والحراس فى مراكز متفرقة ..

بيد أن الاهلين استطاعوا برغم بكرة الوقت وسرعة الزحف أن يفتنوا لمقدمه من نباح الكلاب .. وما ان بلغ نجع الرعاة حتى لم يكن به سوى النساء والاطفال .. أما الرجال فقد فروا الى الجبال يسوقون اغنامهم الى حيث تكون بنجوة من المصادرة فى المناطق الشمالية ..

بهذا الاسلوب طالما استطاع الرعاة أن يمكروا بمندوبى المالك ويغلبوه .. لكن شادويك قرر ألا تكون لأحد غلبة عليه هذه المرة .. فقد أوقف الحملة أمام أول كوخ فى النجع ، وهو كوخ (هالوران) الذى أصابه ( باتش هرنون ) يوما بحجر فى صدره ، وسأل عن المستأجر .. فقالت زوجة هالوران وقد وقفت أمام باب الكوخ حاملة طفلا بين ذراعيها :

— انه ليس هنا ياسيدى ..

فقال شادويك :

— وأين هو ؟

واذ لاذت المرأة بالصمت قال شادويك للجابى هيجارتى :

— ماذا عندهم من ماشية ؟

— خمسة أغنام ، وثمانية حملان ، وعنزة مع رضيعيها .. وكان لهم حماز أيضا ، لكنه نفق فى الشتاء ..

فراحت المرأة تقول بصوت حاد :

— انها فقدت يا سيدى .. الغنم والعنزة فقدت فى الجبل .. وقد  
خرج زوجى للبحث عنها .. ولا نملك شيئاً غيرها ياسيدى .. فقد عطب  
محصول البطاطس ولم يبق منه ما يكفيننا لزراعة المحصول الجديد ، فضلاً  
عن علف الخنازير ..

فهمتف بها شادويك :

— أيمكن احضار تلك الاغنام أم لا ؟

— قلت لك يا سيدى انها فقدت فى الجبل .. وعندى من الاطفال  
خمسة ..

فقال ( شادويك ) :

— احتفظى بأطفالك .. لما كنتم مدينين بالايجار وليس لكم ماتدفعونه  
بدلاً ، فقد قررت طردكم من الارض .. اخرجى متاعك من هذا الكوخ ..  
اسرعى ..

وكان ارتياح المرأة بالغاً حين أدركت أنها ستطرد من الارض ، وحين  
رأت الاشقياء المأجورين يتقدمون الى الكوخ لهدمه بمعاولهم لم تتمالك أن  
صرخت صرخة حرى وارتمت تحت قدمى شادويك وطفلها يصيح فزعاً ..  
بيد أن شادويك نأى عنها وصاح برجاله قائلاً :

— هيا يا رجال .. اسرعوا باتمام عملكم !

وكانت امرأة أخرى تقف لدى كوخ مجاور ، فلما رأت ذلك صاحت  
قائلة :

— رحمة يا اله السموات ! .. سنطرد من بيوتنا ! ..

فرد عليها شادويك قائلاً :

— ستطردون جميعاً أيها الملاعين ، ما لم نعيدوا تلك الاغنام ..

وحين هم الاشقياء المأجورون بتقسويض جدران كوخ ( هالوران )  
بمعاولهم ، اجتمعت نساء النجع فى فناء بعيد وأخذن يتبادلن الحديث  
همساً .. فلما رآهن شادويك كذلك قال للجانبى باسم :

— انظر ياهيجارتى وراقب مايدور .. أراهن أن تلك الاغنام ستظهر  
بسرعة البرق ..

وصح ما تكهن به .. فقد جعلت النسوة تنادين رجالهن المعتصمين  
بالجبل بصيحاتهن المحلية المعروفة .. فسرعان ما برز الرجال فوق  
الصخور العالية .. وعند ذلك تغيرت صيحات النساء الى لون آخر من  
العويل المتصل أقرب شئبها بثغاء الشياه ، وشفعن هذا بنثر الحجارة  
حولهن دلالة على ما يهدد به شادويك من الطرد وتقويض الدور .. فانبعث  
من الرجال صياح عنيف أعقبه نداءؤهم وهم يهشمون على الاغنام ، حتى  
ترددت أصداء النداءات بين مغاور الجبال .. واذا ذاك أسرع هيجارتى الى  
شادويك يقول له :

.. مهلا ياسيدى ... انهم سيعيدون الاغنام ..

فقال شادويك للأجوريه الذين أمسكوا عند كلام هيجارتى :

- استمروا يا رجال ! اهدموا هذا الجحر من أساسه .. هزوا  
معاولكم .. سأثبت لهؤلاء الاوغاد أنهم لا يستطيعون استغفالى ..

وارتفعت من أفواه النساء صيحة هلع عندما رأى جدار الكوخ  
الامامى يهوى على الارض ركاما والسقف يخر من مكانه .. ثم تهاوت  
الجدران واحدا تلو الآخر .. ولم تملك مسز هالوران التعسة الا أن تجمع  
اطفالها حولها وتقف مشدوهة مروعة بجانب الفراش الرث الذى قذف به  
اليها من الداخل محاولة تغطية أطفالها بلحاف خلق مرقع ..

وقال شادويك :

- لمن الجحر المجاور ؟ ..

- لباتش هرنون ياسيدى .. ولا يقيم فيه أحد .. ان رقعة الارض  
المخصصة له معطلة ..

- اهدموه ! ... ساطهر الارض من الحشرات ! ...

وبينما كان الرجال المأجورون يهدمون كوخ ( باتش هرنون ) اذ  
اقبل ( هالوران ) من اعلى الجبل يسوق غنمه وحملانه وعنزته مع  
رضيعيها ، وقال لشادويك :

- خذها ياسيدى ... انى كنت فى الجبل للبحث عنها ...

وكان الرجل يلهث من فرط الجرى والعرق يغمره ، ولكن ما ان  
حانت منه التفاتة الى زوجته واطفاله وكوخه المقوض حتى صاح  
بأعلى صوته :

- لعنة الله عليك يا صاحب السيادة ! ...

فقال ( شادويك ) وهو يدنو منه فوق جواده :

- ها ها ! .. اتطلب من الله اللعنة على ؟ .. خذ هذه اذن ! ..

وأهوى بسوطه على كتف ( هالوران ) بضربة عنيفة ، وأردف  
قائلا :

- الآن ادع ربك واطلب منه ! ..

وأهوى عليه بضربة أخرى من السوط أوقعته أرضا وهو يقول :

- ان الله لا يعرف الحثالة من أمثالك ... كيف تجسر على  
مخاطبة الله ؟ ..

واشتدت ثورة غضبه ... وقام على ظهر جواده وأمر (هيجارتى)  
بسوق الغنم ، ثم صاح قائلا :



— سأعلمهم كيف يخفون مواشيهم ! .. سأعلمهم كيف يهجمون على بيتي ويحولون قتلى ! ...

ولم يلبث ( هالوران ) أن نهض قائما ووضع قبعته على رأسه قائلا :

— لتكن مشيئة الله ...

وخيم الصمت في البقعة الا من ثغاء الغنم ودقات المعاول ... وانهارت جدران كوخ ( هرنون ) تباعا ... وتوافد سكان النجع واحدا اثر واحد يقدمون ماشيتهم خاضعين مستسلمين .. وانهمك (هيجارتى) في حصر أعدادها وتدوينها في سجل معه ... وقال له ( شادويك ) بعد أن فرغ :

— هل تم حصرها ؟ ...

— كلها ياسيدى ، الا ما أكلوه منها ...

— لا بأس ... ضع عليها العلامة ... ثم نواصل السير ...

فجمعت الماشية في مكان واحد ، وجيء بدلو ملئ بالقار الساخن وتولى (هيجارتى) وضع شعار المالك على الماشية بالقار ... وفي خلال ذلك تم طرد أسرة ( هالوران ) من الارض ، فحمل الرجل فراشه على ظهره ، وحملت زوجته آنية الطهى وطفلا لا يستطيع المشى ... ووقف الناس على الجانبين يدعون في سرهم للأسرة الراحلة ... وما كاد أفراد الأسرة المنكودة يتعدون مسافة قليلة حتى ارتفعت أصوات الزوجين بالبكاء والنحيب ...

وقال ( هيجارتى ) :

— تم كل شيء ياسيدى ... ووضعت العلامة على الماشية كلها.

— حسنا ... سقها أمامنا ..

وسيقت الماشية أمام موكب الظلم والجور .. وعلى هذه الشاكلة ظلوا يعيشون فسادا على طول الطريق الجبلى حتى بلغوا كوخ ( كاتى ) الحكيمة ... وكانت واقفة في مدخل الكوخ ممسكة بعصا طويلة ... فقال (شادويك) مخاطبا (هيجارتى) :

— من تكون هذه العجوز ؟ .. أهى مدينة لنا بشيء ؟ ..

— انها مدينة بأجر السكن .. لكننا لم نحصل منها على أى إيجار ، لانها ساحرة ...

— ساحرة ؟ .. ها ها ! .. سوف نرى ... اهدموا الكوخ أيها الرجال ! ..

وما كاد الاشقياء المأجورون يتقدمون بمعاولهم حتى خرجت إليهم العجوز وراحت تقول وقد رفعت العصا فوق رأسها :

— ياراكب الحصان ! .. لقد كتبت عليك اللعنة ... وأعد الحبل لتطويق عنقك ، لكنك لن تشسّق بالحبل ... فاني أرى الأيدي تطبق على رقبتك ، وسيف الانتقام يغمد في جسدك ... ان دمك الاسود سوف يسيل في ظلام الليل ...

وبصقت العجوز ، وراحت ترقص أمام الرجال الذين جمدوا امامها مروعين ... فقد كانت لها شهرة ذائعة ، ولم يكن بينهم وهم المتطرون من يريد اجتلاب لعنتها على رأسه ... بل ان (شادويك) نفسه لم يتمالك عندما اشارت الى عنقه أن سرى الخوف الى نفسه وامتدت يده الى رقبته تجذب (الكوفية) حولها ...

بيد أنه برغم ذلك لم يشأ أن يظهر مشاعره امامهم . فصاح في رجاله :

— استمروا في عملكم ... اذفوا هذه المرأة من طريقكم ... لن اسمح للطفليات أن تدنس هذه الضيعة ...

فأطاع الرجال ، وأعملوا معاولهم في الكوخ بعد أن تفلبت في نفوسهم عوامل الخوف من هذا الطاغية على خوفهم من الساحرة ، التي راحت تصب اللعنات على رؤوسهم ، ثم اندفعت الى داخل الكوخ تستخلص متاعها ... ولما تم لها ذلك ركعت على ركبتيها وراحت تستنزل سحرها على رأس شادويك ، فتكلف الضحك والسخرية منهسا ، بيد أنه كان أدنى الى الاضطراب وهو يتابع سيره ، وما برح يشد (الكوفية) حول عنقه ....

وبلفوا دار ( كيلمارتن ) في الضحى ... فاذا العجوز و (تومسي) و (ماجى) ومسز (جليسون) قد وقفوا في الفناء ، وعن كذب منهم العجل الوليد ... وعندما بدا لهم ( شادويك ) ممطيا جواده الاسود رفع العجوز قبعته وحياء وقال في ذلة ومسكنة وهو يشير الى العجل الصغير :

— ها هو ذا ياسيدى ... لأول مرة في حياتي أتأخر في سداد الايجار ... لكن المحصول لم يسعفنا ، وقد نكبت بوفاة ابني و ... فقطاعه ( شادويك ) قائلا وقد تقدم بجواده الى الامام حتى اضطر (بريان) أن يقفز مبتعدا لئلا يدهمه :

— تكلم عندما يطلب منك الكلام ... أهذا يا (هيجارتي) هو والد الشقى الذى حاول قتلى ؟ ... بديع !.. ماذا يملك ؟ ...

وبينما راح (هيجارتي) يتلو بيانا بالماشية التي في حوزة (كيلمارتن) استقام العجوز في وقفته وتصلبت عضلاته واستحالت علائم الخضوع التي كانت تعلو وجهه الى امارات التحدى العنيف ... وقال (شادويك) عندما فرغ (الجابى) من تعداده :

— لم لا أرى لديهم حملانا ؟

— انهم باعوها منذ فترة ياسيدى ...

فهتف العجوز قائلا :

— ان البطاطس نفدت من عندنا بعد بذر المحصول الجديد ...  
ولم يبق في بيتنا شيء بعد جنازة ولدى ..

— صه يارجل !... طوق يا (هيجارتى) كل ما تجده من ماشية  
وضع العلامة عليها ...

وهنا هتفت (ماجى) قائلة :

— ناشدتك الله يا سيدى ألا تأخذ البقرة وهى لم تلد الا منذ  
فترة ! ...

— اسرع يا (هيجارتى) ... طوق كل ماشية الدار ..

والحق أن البقرة لم تلد الا هذا الصباح من دون الايام كافة ،  
على حين كان (شادويك) منهمكا فى عمليات السلب والنهب أعلى الوادى ..  
وما ان سمعت (ماجى) كلامه حتى أخذت فى البكاء ، فانبرى لها العجوز  
يقودها برفق الى داخل الدار ، حيث أغلق الباب خلفهما وجذب المزلاج  
فوقه ... واذا ذاك خرجت (مارى) من حيث كانت معتكفة فى فراشها  
وهى فى نصف ملابسها ، وقالت للعجوز :

— ماذا جرى ؟ ...

فوقف (بريان) معتمدا بظهره الى الباب ، وأجاب وهو يحدق امامه  
فى شراسة :

— انه يأخذ كل شيء ....

— حتى البقرة ؟ ..

— كل شيء ...

وفد ردد العجوز هذه العبارة مشدوها مغلوبا على أمره ...  
فقال (مارى) :

— لكن لا يمكن أن يأخذ البقرة ... انها كل ما بقى لنا لكى ...

وفجأة هرولت الى غرفة نومها وجذبت طفلها من مهده وعادت  
به وهى تقول للعجوز فى غلظة :

— افتح الباب ...

فنظر اليها العجوز ثم هز رأسه وقال يسكون :

— عودى الى فراشك ... لا فائدة من هذا يا (مارى) ... ان  
كل محاولة منك لطلب الرحمة من هذا القلب الصخرى لن يكون منها  
سوى جلب العار علينا ... ارجعى الى فراشك لئلا يصيبك برد يؤذى  
اللبن فى ثديك ... انه كل ما بقى لهذا الطفل ...

فأطرقت (مارى) وعادت الى غرفة نومها مرتعدة ... ولم تلبث



أن وضعت الطفل في المهد ، وأخذت تتطلع من خلال النافذة ... فوق  
نظرها في الفناء على البقرة ووليدها ، وكانت البقرة مازالت تعاني آلام  
الوضع ، وقد جعلت تخور عاليا فزعة من تكاثر الناس حولها ..

وسمعت (شادويك) يأمر تابعه بوضع العلامة على البقرة ...  
فما كاد ( هيجارتي ) يدنو منها بالدلو حتى ركضت الى أقصى الفناء ،  
ولما حاول العجل أن يتبعها تعثر وسقط وهو يخور خوارا ضعيفا ...  
فارتدت الأم اليه ... واذ ذاك تكاثر الرجال عليها وأمسكوا بها ووضع  
(هيجارتي) العلامة على جانبها.. ثم اتجهوا الى سائر الماشية يستولون  
عليها ويتأهبون للرحيل ، فقال (هيجارتي) :

— ماذا نفعل بالعجل ؟ ... انه عاجز عن المشي ...

— دعوه ...

وذهبوا أخيرا ... وما لبث العجوز أن فتح الباب وخرج الى  
الفناء حيث كان العجل الصغير يردد خوار التوجع والأنين ... وأن هي  
الابرة حتى شاهدت (ماري) العجوز وهو يخرج مديته ويفتحها  
ويمسح نصلها في ملابسه ، فلم تتمالك أن وضعت يديها فوق عينيها  
وأشاحت عن هذا المشهد المؤثر ...

## الفصل الخامس والثلاثون

بينما كانت ( ماري ) مستلقية في فراشها بين النوم واليقظة اذ سمعت طرقة خفيفة على النافذة ، وسرعان ما تنبهت حواسها وخفق قلبها عنيفا ... ترى اكان الطارق هو البوليس ؟ انهم لم يكفوا ليلا ونهارا عن مداهمة البيت ... وعند ذلك تذكرت (ماري) أن رجال البوليس يطرقون الباب بعنف ويطلبون الدخول باسم الملكة ... اذن فلا بد أن يكون القادم هو ( مارتن ) ... وكذلك وثبتت (ماري) من الفراش وهرعت الى النافذة وهي في قميص نومها وأزاحت الستار جانبا ... فشاهدت (مارتن) في الخارج ، ولمحت وجهه في ضوء القمر شاحبا زائغا وذراعه معلقة فوق صدره ... ولما رآها رفع أصبعه الى شفتيه محذرا يطلب اليها السكوت ... فأومأت برأسها وهرولت الى المطبخ حيث فتحت له الباب ... فدخل (مارتن) على أطراف أصابعه واحتواها بين ساعديه صامتا ... وكان الكلب في أثره يلحق قدميه ويتواثب من شدة الفرح ... فقد درجوا على أن يتركوا الكلب خارج البيت منذ بدأت مداهمات البوليس لهم لكي ينذره ... وقد أدرك الكلب الذكي بالغريزة صغير (مارتن) المعنوي له وهو يدنو من البيت فلم يصدر منه أدنى صوت ...

وقال زوجها همسا :

— لنذهب الى الحجرة ... اني لا أريد أن تستيقظ أمي فتبكي ، وهذا شيء لن أطيقه ...

فذهبا الى غرفتهما وجلسا فوق حافة النافذة لينظر أحدهما الى الآخر على ضوء القمر ، بعد أن لبست (ماري) جلبابها ... وقدهمست في اذنه قائلة :

— أليست هذه مخاطرة ؟ ... أواه يا (مارتن) ، يا حبيبي ! ...

فقال لها :

— ليس ثمة خطر ... هناك ثلاثة رجال يتولون المراقبة ... كفى عن البكاء يا ( ماري ) ... فليس أمامي وقت ، وعندى كلام كثير ... يمكن أن أرى المولود ؟

— عفا الله عني ... لقد نسيت أنك لم تشاهده ... مهلا ! ... سأجىء به الى النافذة ...

وذهبت الى مهد الطفل قرب الفراش وهي تكفكف دمعها وحملتة محاذرة بين ذراعيها وجاءت به الى النافذة ... فجعل (مارتن) يتملى

بشراة من المحيا الدقيق الذى طالعه من تحت الأغطية .. ولم يتمالك  
أن ارتعش وهو يمد يديه الى الطفل ليحمله بين ذراعيه ... ووقفا  
برهة صامتين ، وان كانت (مارى) تبكى فى سكون وقد راحت تمر  
بيديها على وجهه ورأسه وجسده كأنها تريد أن تستيقن أنها ترى  
زوجها رأى العين ....

ولم يلبث (مارتن) أن قال لها :

— يسرنى أنك سميت ( ميخائيل ) .. فهو اسم حلو .. اليس  
صغير الجسم ؟ ...

— كلا ... وكل ما هناك أنه جاء قبل وقته بسبب ما تولانى من  
الفرع .. آه ! .. كيف .. تمسكه هكذا ؟ .. هاته ! .. أنك ستعرضه  
للبرد ..

واختطفت منه الطفل وهرعت به الى المهد ودسته بين الأغطية ...  
ثم عادا الى النافذة وجلسا عند حافتها .. فطوقها (مارتن) بذراعيه ،  
فاستندت برأسها الى صدره وجعلت تبكى فى سكون ... فارتعد  
(مارتن) ولم يفتح عليه بكلام ... وأخيرا رفعت (مارى) رأسها وتطلعت  
اليه فى انزعاج قائلة :

— لماذا تركت المخبأ الذى أعدوه لك ؟ ...

— هذا ما كان ...

ولم يجد (مارتن) كلاما يقوله لها فجعل ينظر اليها زائغ البصر ..  
وخيل لمارى ان ملامح وجهه تغيرت كلياً حتى لا تكاد تعرفه ... فقد  
أطلت من عينيه نظرات الصرامة والتحجر ... ولاح لها أكبر سنا مما  
كان ... وزالت عنه علائم المرح وخفة الشباب ... وقالت له :

— لكن لم فعلت هذا ؟ ... ان ذراعك لم تشف بعد ...

— لا تسألينى السبب ... اما ذراعى فقد أوشكت على الشفاء ..

— لكنهم مازالوا يبحثون عنك ... ولا يمكنك ان ...

— اننى لن أبقى هنا ... ان معى بعض الرجال ... وأنا عائد  
الى الجبل ... اذن أخذوا منكم كل شيء ؟ ...

فقالت (مارى) وقد كفت عن البكاء وشفت نظراتها هى الاخرى  
عن الصرامة والتحجر :

— انى أعرف مايجول بخاطرك ... استحلفك بالله يا ( مارتن )  
أن تفكر فى ( ميخائيل ) الصغير ... دع عنك هذا يا (مارتن) ...

— ادع ماذا ؟ ...

فتعلقت به ( مارى ) وضمتها اليها قائلة :

— ليتنا نستطيع الفرار ... نحن الثلاثة ...



– لا تخافى يا ( ماري ) ... اننا سنهرب ما فى ذلك شك ... انى  
اعدت العدة لكل شىء ...  
– وماذا اعددت ؟ ...

– لا تسألى يا حبيبتى ... ان معى غيرى من الرجال ... هل  
بقى لكم شىء فى البيت ؟ ...  
– هناك ثمانية عشر شلنا فى الكيس ... والافضل ان تأخذها ..

– ماذا تقولين ... ؟ هناك رجال معى ، وسنعرف كيف نطعم  
انفسنا ... ولن أتركك انت ايضا فى احتياج الى شىء ... كيف حال  
محصول البطاطس الجديد ؟ ...

– لا بأس به ... لكن ضياع البقرة ضربة فظيعة لنا ... وقد  
ظل أبوك ثمانية أيام لا يكلم أحدا منذ اغتصبوها منا ... وجاءت أمى  
للاقامة هنا بعد ان تركها (باتريك) ، ولكنها عادت الى بيتها بعد ان  
عجزت عن احتمال الحياة هنا ... وقد انضمت اليها الحكيمة (كاتى)  
للاقامة معها ... لكن من هم هؤلاء الرجال الذين تتكلم عنهم  
يا ( مارتن ) ؟ ...

– لا تسألينى يا (مارى) ... أريد بعض حاجيات لي أخذها  
معى ... لن أكون بعيدا عنك ، وسيقوم رجال بالسهر على سلامتكم ..  
فلا تخافى

وفجأة احتواها بين ساعديه وقبلها بعنف وهو يهمس فى سمعها  
عبارات المحبة والاعزاز بصوت متهدج ... أما هى فقد أخذت فى البكاء  
بين ذراعيه ... وعندئذ بكى الطفل ... فهروا كلاهما الى جانبه  
يهزان مهدد وقد شبكا يديهما وجعلا يتبادلان النظرات ... وقال (مارتن)  
فى النهاية :

– أريد بعض حاجاتى الشخصية ...

فأعدت له ما طلب وجعلته فى لفافة ... ولما قدمت له كسرة من  
خبز القرطم أبى أن يأخذها قائلا :

– سنجد كفايتنا من الخبز ...

وفجأة سمعا صرخة طويلة شبيهة بصرخة طائر ( النورس ) ، فقال  
لها (مارتن) :

– هم الزملاء ... لا بد من ذهابى يا (مارى) ... سأعود اليك  
قريبا يا حبيبتى فلا تخافى ... ولن أكون بعيدا عنك ... قولى لأبى  
انى كنت هنا ، لكن لا تخبرى أمى ... ادعوا الله أن يرعاك ويصونك ..

وعانقها مرة أخرى ثم هروا خارجا ... فأغلقت ( ماري ) الباب  
ووقفت تنظر من نافذة غرفة النوم ... ولم تلبث أن شاهدته يختفى

مع رجل آخر فى ظلام الجبل ... واذ ذاك شقت سكون الليل صيحة مدوية يقول قائلها :

— قف ! ..

فأرهفت (مارى) السمع ... فانبعث صوت مقذوف نارى أعقبه ثان على الاثر ... ثم أبصرت رجال البوليس يركضون ، فسرت رعدة فى جسدها ... وارتفعت من ناحية الجبل صيحة مدوية بالتحدى والنضال ردد الهواء صداها ... وقد تكررت الصيحة مرارا ثم خيم السكون مرة أخرى ... وهنا دخل عليها العجوز قائلا :

— أكان هذا صوت رصاص يا (مارى) ؟ ..

فأجابت قائلة :

— هو البوليس ... عد الى فراشك ، فهم لن يرجعوا هذه الليلة ...

وارتدت ( مارى ) الى فراشها فى النهاية وقلبيها يخفق عنيفا ... نرى ماذا يضر (مارتن) فى نفسه ؟ ... لقد كانت نظراته غريبة ، وظل يردد القول بأن معه رجالا بين الجبال ! .. ان (مارى) لم يكذب فمض لها جعن هذه الليلة حتى طلع النهار ... والحق انها منذ ولادة الطفل لم تكن تذوق النوم اكثر من ساعة واحدة متصلة ... وما برح هذا السؤال يدور فى ذهنها :

« ماذا سيحدث لنا ؟ »

وجاءها العجوز صباحا وقال لها مفضبا :

— هل كان (مارتن) هنا ؟ ..

— نعم ... وقد طلب الى أن أخبرك أنت ، دون (ماجى) ...

فرماها بنظرة تشف عن الغضب ، وغادر البيت دون أن ينبس بكلمة أخرى ... لقد أصبح الآن كل شيء غريبا خارجا على المألوف ... وقد تغير كل انسان ... وحتى (تومسى) أمسك عن المزاح والعبث ... فماذا سيحدث ياترى ؟ ...

وظل رجال البوليس طيلة الصباح وهم فى نشاط دائم فى الوادى ... فقد عززت قواتهم بنجديات من بلدة ( كلوجر ) ، وقامت قوة قوامها خمسون جنديا بتفتيش السفوح الشرقية تفتيشا دقيقا ، بيد انهم رجعوا حوالى العصر دون أن يفوزوا بشيء ، وعادوا أدراجهم الى مركزهم فى ( كروم ) ...

وبنما كانت (مارى) جالسة فى الفناء تشتغل بالآلة وهى تهز مهد الطفل بقدمها اذ سمعت صوتا يناديها من ناحية السور ... ولما التفتت الى مصدر الصوت شاهدت صبيا يناهز الخامسة عشرة لم تره من قبل ، فصاحت به :

— ماذا تريد ؟ ..

فرفع الصبي قلنسوته واجال النظر حواليه فى الحارة مضطربا وهو يومئ اليها أن تدنو منه .. ولما خطر لها انه ربما جاءها برسالة من مارتز ذهبت اليه ، فقال لها الصبي وهو يبرز رسالة من داخل قلنسوته :

— انى كلفت بتسليم هذه اليك ..

فقالت ماري وهى تتناول الرسالة :

— من هم أهلك ؟ ..

فأجاب الصبي وهو يبتعد :

— اسمى ( بارنى ريلى ) ..

فمدت ماري ذراعها وأمسكت بكتفه تحول دون ابتعاده ، فقال لها :

— دعينى أذهب .. لا أريد أن يرانى أحد هنا ..

— هل أنت من أقرباء ( ريلى ) السائس ؟ ..

— هو عمى ..

فسرعان ما صاحت به ماري وهى تقذفه بالرسالة :

— خذها واذهب من حيث جئت ..

فقال الصبي باكيا :

— انى أمرت بأن أتركها لك .. وسوف يقتلنى ان لم أفعل ..  
خذيها ! ..

وقذف اليها بالرسالة من فوق السور ولاذ بالهرب .. فلم تتمالك ماري أن ارتعدت وهى تنظر الى الرسالة الملقاة تحت قدميها .. وأخيرا تناولتها وأسرعت الى داخل الدار ، وجلست تقرأها فى ركن المدفأة ، فوجئت بها ما يأتى :

« ان كنت تريدن انقاذ زوجك من سلطة القانون ، فتعالى هذا المساء بعد حلول الظلام الى الكشك الصيفى فى قصر كروم قرب النهر .. ولتبقى هذه المسألة سرا .. »

ولم تكن الرسالة مذيلة بتوقيع ، ولكنها عرفت على الفور من هو كاتبها .. فلم تتمالك أن سحقتها فى قبضة يدها وألقت بها فى نار المدفأة ..

وعند ذلك سمعت صوت (ماجى) تقول لها من غرفة النوم الصغيرة :

— ماذا جرى ؟ ..

وكانت العجوز منذ الاستيلاء على الماشية قد لزمت فراشها لا تبرحه



قط. زهدا فى الحياة ، وأصبحت كثيفة سريعة الغضب .. وأجابتها ماري:

— لا شيء .. أنها النار تكاد تخمد ..

وبعد أن أشعلت ماري النار وأحرقَت الرسالة ذهبت الى غرفة العجوز وسألتها :

— هل فى استطاعة مستر شادويك أن يفعل شيئا لمارتن ؟

ولكن العجوز لم تجب بكلمة وقد تكومت فى الفراش عاجزة محطمة، حتى استعادت ماري بالله وهي تعود أدراجها .. ثم قالت العجوز فى النهاية :

— هل عاد الرجال من الحقل ؟ ..

ولكن ماري خرجت الى الفناء مكروبة مضضعة .. فان هذا الخوف الذى ألم بالمرأة العجوز كان أشد نكبة منيت بها الاسرة ، وأصبحت ماري وهي لا تجد فى البيت من يمد اليها يد المساعدة فى تربية طفلها ، ولو وجدت لتهيأت لها الفرصة للتماس القوت، أو لمعاونة مارتن بمافى طاقتها.

ولم تلبث أن رفعت الطفل النائم من مهده وقصدت مسرعة الى حقل البطاطس حيث كان العجوز و (تومسي) يعملان .. وقد فتح الطفل فمه وجعل يحرك شفتيه دلالة الجوع .. فدفعت اليه بشديها وهي ماضية فى طريقها ، ولكن اللبن لم يكن غزيرا يشبع الطفل بسبب ندرة القوت .. ولم تشأ ماري أن تتصرف فى مبلغ الثمانية عشر شلن الباقى فى البيت ، وهو الملاذ الوحيد الذى يدفع عن الاسرة كلها شر الموت جوعا ..

ولما بلغت سور الحقل وقفت مستندة اليه تبارك المحصول الجديد ، فرفع العجوز رأسه قائلا :

— انه محصول طيب .. ان الله يبلونا بالجوع لنذكر ذنوبنا وسيناتنا ، لكنه لا يلبث أن يمنحنا الخير الوفير فضلا منه وكرما .. ان الارض مليئة بالخيرات لمن يعملون فيها بصبر ودأب ..

ودنا العجوز من مكانها وأخذ يداعب الطفل حتى ليظن من يراه أنه لا يحمل هما فى هذه الدنيا .. فقد كانت تلك شيمته وهو يكد ويعمل فى أرضه الحبيبة ، أما فى البيت فلم يكن فى العهد الاخير الا حليف الصمت والوجوم ..

وقالت له ماري أخيرا :

— هل تظن أن فى استطاعة شادويك أن يفعل شيئا لصالح مارتن ؟

فنظر اليها العجوز بشراسة وهتف بها قائلا :

— تعنين هذا المخلوق ؟ .. ما أظنك تفكرين فى طلب المساعدة منه ؟

— أيمكنه أن يقول شيئاً لمصلحته ؟ .. وإذا فعل ، فهل يستمعون إليه ؟ ..

— انزعى هذه الافكار من رأسك ..

وعاد العجوز الى عمله .. ولم تلبث هى أن اتجهت عائدة الى الدار وقد تذكرت قول تومسى لها وهم يأكلون العجل الذبيح :

— قال لى رجل فى السوق ان العمال فى كندا يأكلون اللحم والخبز الطازج كل يوم .. يا اله السموات ! .. لا يكاد الانسان يصدق أن هناك فى الدنيا مكانا ينال فيه العامل خبزا أبيض ولحما وأجرا نقديا كل يوم ! ..

أجل ان مارى لم تكذب تسمع هذا الكلام حتى تملكته لهفة عنيفة طاغية وانتابها اغراء جامح للرحيل مع طفلها فورا ، ولو بالسؤال والاستجداء ، الى تلك البلاد الغنية المتخمة بالخيرات ..

وعادت الى البيت وأرقدت الطفل فى مهده وما زالت هذه الخواطر تلح عليها وتستبد بتفكيرها ..

وجلست تشتغل بالابرة وهى تسرح النظر الى الوادى وتعد البيوت التى ما زال الدخان يتصاعد من مواقدتها .. انها أضحت لا تتجاوز سبعة وعشرين بيتا بعد أن خمدت النار فى عشرة منها .. فكم يطول أمر البيوت الباقية ، والى متى يكون صمودها ؟

ثم راحت مارى تقول لنفسها :

— آفة البطاطس أولا .. ثم مرض ميخائيل الذى استنزف كل ما فى البيت طيلة الشتاء .. ثم مبلغ الجنيهين الذى دفعناه لمساعدة ( باتش هرنون ) عندما تأخر فى سداد ايجاره .. ثم انعدام الخنازير من البيت بعد قلة البطاطس .. ثم قدوم ( كيتى هرنون ) لمشاركتنا القوت .. ثم مصاب أختى ( ايلى ) وأبى .. ثم عجز تومسى عن الفوز بعمل خارجى .. ثم اصابة مارتى وهربه الى الجبل والبوليس فى أثره ، ولو ظفروا به لكان مصيره النفى الى المستعمرات مدى الحياة .. ثم مصادرة البقرة وكل مابقى لنا من ماشية .. وحتى لو طاب المحصول الجديد لأخذوه من ايجار الشتاء والقمح الاصفر فاحش الثمن فى حانوت هاينز .. وفى مستشفى المجانين ينال باتش هرنون كل يوم رطلين من الخبز ولترا من اللبن .. أليست هى الجنة بالنسبة اليه ؟ ! ..

ولم تلبث مارى أن قامت الى الحديقة الصغيرة التى زرعها مارتى وتومسى خلف الدار ، فانتزعت منها ثلاث لفتات وضعتها فى قدر فوق النار مع قليل من القمح الاصفر ليكون منها طعام العشاء .. والواقع أن هذا اللون من الطعام أضحى قوام غذائهم منذ أسبوع ، فيما عدا أرنبها صاده الكلب ( أوسكار ) .. ولما فرغوا من الطعام غيرت لفائف الطفل وارتدت ثوب الزواج ثم قالت للعجوز بريان :

— أيمكنك أن ترعى الطفل قليلا حتى أطلب الى سالى الحضور ؟

فقال لها العجوز :

- والى أين تذهبين وأنت بهذا الثوب ؟ ..

- اننى ذاهبة فى مهمة من أجل مارتن ..

فلم يعقب العجوز .. أما هى فلم تلبث أن قصدت الى بيت سالى وضوء النهار لم ينحسر بعد .. ولم يكن البيت يبعد أكثر من مائة ياردة ، وكان مشيدا بالطين المضغوط فى فجوة بسفح الجبل .. ولما دخلت عليهم ماري كانوا يتناولون طعام العشاء فوق مائدة قدت من نتوء فى الجبل ، ولم يكن فى البيت من الأثاث سوى فراشين ومقاعد بخير ظهر هى التى جلست عليها الأسرة .. وانتشرت فى جو المكان رائحة كريهة من دخان الوقود المصنوع من روث البقر المجفف ..

ولما دخلت ماري وهى تبادرهم بالتحية وثبت سالى قائمة من فورها هاشة باشة وقالت لمارى وهى تبرز انا صغيرا :

- هذا قليل من اللبن كان فى نيتى أن أسرع به اليك بعد التهام لقمتى .. انى جئت به اليوم من القرية عندما كنت أغسل الملابس فى بيت القس ، بعد أن مرضت المرأة التى تغسل لهم .. خذيه هنيئا مريئا ، واننى لفخورة اذ قدرت أن أجيء لك به ..

أما الحقيقة فهى أن سالى قد سرقت هذا اللبن من بيت القس ... فقد تسلمت هى وأطفالها الثلاثة الى ساحة الدار وحلبت جانباً من لبن البقرة خلصة والاطفال يراقبون عن كثب ..

ومهما يكن فان ماري شكرتها ، وقالت لها :

- هل يمكنك يا سالى أن ترعى ميخائيل الصغير أثناء غيابى عن البيت فترة ؟ ان ماجى قد اشتدت بها العلة وأخاف أن أترك لها الطفل ..  
- بكل سرور يا ماري ..

وكانت سالى بادية الانتعاش بعد نجاحها فى سرقة اللبن ، وقد صيرتها الفاقة الشديدة مريضة بداء السرقة واختلاس ما تصل اليه يدها . ولما عانقتها ماري بحرارة شاكرة دهشت سالى أيما دهش ، فهى لم تعهد فى ماري غير التحفظ فى ابداء مشاعرها .. ولما شيعتها الى الباب قالت لها :

- هل هناك ما يضايك يا حبيبتي ؟ ..

- كلا يا سالى .. ولكنى أكاد أجن من أجل مارتن ..

- مفهوم .. لكن لا لزوم للكدر .. انه فى أمان ما بقى فى الجبل .. وعندما تهدأ الضجة يمكنه الهرب بسهولة .. وماذا يمنعك من الذهاب معه ؟ .. أنت فى عنقوان شبابك ، وما زال العمر متسعا لتكونى مع زوجك الى النهاية .. أنت ذاهبة الى القرية ؟ ..



فأجابته ماري وهي تبعد بسرعة :

— انى لن أغيب طويلا ..

ولم تلبث ماري أن تملكها الخوف ، وبدت لها فكرة الالتجاء الى شادويك شيئا سخيلا لا فائدة منه .. بل قدرت أنه لن يستطيع أن يفعل شيئا من أجل مارتين ، ولا بد أن يكون مقصده من ارسال هذه الرسالة اليها أثيما .. فهل تتراجع وتنكل عن هذا العزم ؟ ..

لكن فكرة التراجع لم تلبث أن جسمت أمام بصيرتها اليأس من المستقبل وانعدام كل رجاء ، حتى قررت أن تمضى الى النهاية .. ثم بدا لها أن تتزود بما يذكى شجاعتها وينفخ فيها روح العزم ، فخرجت في الطريق على بيت أمها .. واذا هي تجابه مشهدا خارقا لم يخطر لها من قبل ببال ..

رأت أمها وكاتى الساحرة جالستين في ركن المدفأة متواجهتين ، تتطلعان الى آناء فوق النار .. ولم تتكلم المرأتان لدى دخول ماري ، بل تبادلتا نظرة خفية وكأنما فاجأتهما منهنكتين في شيء تريدان إخفاءه ..

وشاهدت ماري شقيقها باتريك جالسا على مقعد في أقصى الغرفة وقد شبك ذراعيه فوق صدره وألصق رأسه ومنكبیه بالجدار وأغمض عينيه نصف اغماض ، وبرز من تحت أبطه الايسر نصل مدية طويلة ومن تحت أبطه الايمن قطعة خشب كان يسويها بالمدية فيما يبدو ..

ومن عجب أن أحدا من الثلاثة لم يكلم ماري ولم ينظر اليها عندما وقفت في مدخل الغرفة تقلب فيهم نظرات مفعمة دهشة واستغرابا ..

وأخيرا قالت ماري مخاطبة شقيقها :

— أنت هنا يا باتريك ؟ .. متى رجعت ؟ ..

فتطلع اليها بنظرة جامدة كالمجنون دون أن يجيب .. وهنا قالت أمها :

— انه جاء يا حبيبتي ، وهذا كل ما يهم .. ان رجال البوليس قالوا انهم لا يطلبونه ..

فحملق باتريك في أمه قائلا :

— ربما يطلبوننى قريبا ..

واذ ذاك لم تطق ماري صبرا لما بدا لها من غرابة أطوارهم ، فراحت تقول :

— ماذا بكم جميعا ؟ .. وأى شيء في هذا الاناء ؟ .. وما هذه المدية التى معك يا باتريك ؟ ..

فانفجرت ثنايا الشاب عن بسمة يسيرة وأمسك بالمدية قائلا :

– هي مديّة أخذتها من بحار في البلدة منذ فترة .. ولك أن تسأل  
الحكيمة عن الغرض من وجود هذه المديّة معي ..

فلم تتمالك ماري أن هرعت اليه وهتفت وهي تتوعده بقبضة يدها :

– لا أريد أن أسمع منك هذا الهذيان ! .. لن أدعك تضع الجبل  
حول عنق زوجي مارتن بما تدبره ! .. اني الآن ازددت تصميمًا على المهمة  
التي أنا ذاهبة الي هناك من أجلها .. انه لأهون عندي أن أرشد عنكم ، من  
أن أدعكم تورطون مارتن في فعلتكم السوداء التي تدبرونها .. ليحتمل  
غيرنا تبعة الجريمة ، وليقع وزرها على غير رؤوسنا ..

وفجأة وثبتت الساحرة العجوز قائمة وهتفت بها بصوت متحشرج :

– اني أحذرك وأكرر تحذيري لك من الوقوف في سبيل انتقام  
الاله .. وستحل عليك اللعنة الكبرى اذا فهت بكلمة واحدة عن هذا  
الأمر ! ..

قالت الساحرة العجوز هذا وهي تزمجر بصوت كالحشرة حتى  
لم تتمالك ماري أن ارتعدت وقصدت الى الباب .. فقالت أمها :

– الى أين تذهبين يا حبيبتي ؟ ..

فخرجت ماري دون أن تنبس بكلمة .. وان هي ألا برهة حتى قام  
باتريك في أثرها ، ولما أدركها في الطريق قال لها :

– انني بدوري أحذرك .. لا تتدخل فيما ليس من شأنك .. هناك  
رجل سيشهد ضد والدي .. ولا بد من اسكاته حتى لا يشهد ..

قال ذلك ثم تركها وهرب في طريق الجبل ..

## الفصل السادس والثلاثون

جلس ( شادويك ) في ( الكشك الصيفي ) الى خوان تدلى فوقه مصباح وقد سموت نظراته في طرف السوط الذي أمسكه بين يديه ، كمن هو مستغرق في حلم عميق ... وكان مرتديا قبعته ومعطفه وقد لف ( الكوفية ) حول عنقه ... وكان باب ( الكشك ) مفتوحا يتسرب منه نسيم رقيق آت من النهر جعل ضوء المصباح يتراقص ، وكلما تراقص سرت في جسد ( شادويك ) قشعريرة تهز كيانه وهو قايع في مكانه ينصت ويرتقب ...

وأخيرا سمع وقع أقدام تدرج فوق الحشائش خارج ( الكشك ) ، فابتسم وحبس أنفاسه ، بيد أنه لم ينظر الى ناحية الباب الا حين سمع وطء الاقدام على عتبة الكوخ ، فأدار رأسه وقال بصوت خافت :

— ادخلي ... اقلبي الباب خلفك ...

فوقفت ( ماري ) لدى الباب تضم حرماتها حول جسدها وهي تحدجه بنظراتها ... وفجأة نهض قائما ودنا منها ... فتراجعت وهي تشفق ، واذا هو يصيح بها :

— الى اين تذهبين ؟ ... سبق السيف العذل ، وفات أوان التراجع ... وأمسك بمنكبيها وأدارها نحوه ... فقالت بصوت خفيض :

— دعني اذهب ...

فدفعها الى جانب الكوخ بخشونة وأغلق الباب بالمزلاج ... فوقفت ترتعد دون أن تبدى محاولة أخرى للافلات وقد شفت نظراتها الشاخصة اليه عن الفرع ... أما هو فقال لها وهو يشير الى مقعد صغير :

— اجلسي ! ...

فأطاعت ... وعاد هو الى مجلسه مستندا بيديه الى الخوان والسوط بينهما .. ثم قال لها برفق :

— لاتخافي ... انني لن أمسك ... أترين هذا السوط ؟ ...

فنظرت ( ماري ) الى السوط وأومأت ايجابا وقد ثاب اليها السكون فلم تعد ترتعد ... فاستطرد يقول لها مترققا :

— عندي عرض لك ... أتحبين زوجك ؟ ...

فتطلعت اليه زائفة البصر ، على حين تابع كلامه قائلا :



— قيل لى ان لك طفلا ... اتحبين طفلك ؟ ... لم لاتجيبين ؟ ...  
الا تحبين أن تخرجى من هنا مع زوجك وطفلك ؟ ..

فهمت ( مارى ) بالنهوض ، بيد أنها عادت الى الجلوس بعد اشارة  
منه ، وقالت بصوت متهدج :

— لست أفهم ياسيدى قصدك ...

— هاها ... اذن سأكلمك بصراحة ووضوح ... انك أنت  
المسئولة عن حمل أختك على مفارقتى ... لقد ساءنى هذا الفراق  
كثيرا ... ثم حاول أبوك وزوجك قتلى ... فصفيت حسابى معكم  
بالاستيلاء على ماشيتكم ... والآن ، انى راحل عن دياركم ، ولهذا  
سأكون بكم رحيما ... وتقديرا منى لذكرى أختك التى كنت اهتم  
بها سأسدى اليك معروفا ... بهذا السوط ... وهذا الحزام ...

وأخرج من معطفه حزاما وضعه فوق الخوان ، وكانت جيوبه مليئة  
بالجنيئات الذهبية ... فلم تتمالك ( مارى ) أن هتفت بصوت أجش :

— ما قصدك من كل هذا ياسيدى ؟ ...

فرفع يده يسكتها قائلا :

— مهلا ... مهلا ... لاتنزعجى ... أمامك فرصة لكسب هذا  
المال ... فانى لا أومن بمبدأ الاحسان ... ان المال مالى على كل حال ،  
وان كان بعضه قد جاء من بيع ماشيتكم ... واليك اقتراحى ...

ومال نحوها يتكلم همسا وقد شفت سحنته عن الجنون المطبق  
وأخذ يتلذذ بكل كلمة يفوه بها ... وقد أنصتت اليه ( مارى ) اول الامر  
فى ارتياح ، فلما أدركت فى النهاية مقصده تضرع وجهها بحمرة قانية ،  
ورفعت يديها الى صدرها قائلة أ

— كفى ! كفى بالله ! ...

وانهمرت دموعها وجعلت تهتز فى مكانها ... فابتسم ( شادويك )  
.. وقال همسا وهو يضرب الهواء بالسوط ، حتى كاد طرفه يلامس  
راسها :

— تكسبين جنيها عن كل جلدة سوط ... وكلما كنت اكثر  
احتمالا للجلد ، زاد نصيبك من الجنيئات ... لكن اذا بكيت قبل الجلدة  
العاشرة ، خسرت كل شيء ، ولم تنالى جنيها واحدا ... مارايك فى هذه  
الصفقة ؟ ...

فما كان من ( مارى ) الا أن راحت تهمس أمامه بصوت أجش :

— انى ماجئت الا لابلغك أنهم يدبرون قتلك ... اما الآن فانى  
أرجو لهم التوفيق ! ... أنت تستحق القتل وزيادة ، أيها الشيطان  
المتجسد فى صورة انسان ... الله بينى وبينك ... على رأسك يقع  
دمك ! ...

والحق أن كلماتها لم تلبث أن أيقظته من غياهب النشوة الخبيثة  
التي أغرقته نزوته الشاذة في وهدتها ... فاعتدل في جلسته وتصلبت  
عضلاته ، وصاح بها :

— ماذا تقولين يا امرأة ؟ .. يقتلونني ؟ .. من هم ؟ .. تكلمي ،  
والا مزقتك بالسوط ... ماذا تعرفين عن هذا التدبير ؟ .. تكلمي  
قولى ! ..

ونفض قائما ورفع السوط فوق رأسها ... فتطلعت إليه دون  
أدنى خوف ، وقالت وقد كشفت عن أسنانها كحيوان في خطر :

— اضرب ! ... ان سوطك لن ينقذ حياتك ! ... انهم قاتلك  
لامحالة ! ... انا لا أخافك !

فصاح بها :

— اذن سأضطرك الى الكلام ...

ورفع السوط وأداره في الهواء ، لكنه ماكاد يهوى به حتى تملكته  
رعدة ، فجلس وهو يضحك ضحكات غريبة ... ثم بدأ يهذى كالمعتوه  
وقد اشتد به الارتعاد ، حتى لم تفهم ( مارى ) كلمة مما كان يقول ...

وجلس حيناً الى الخوان يحملق فيها صامتا ، ثم هوى رأسه على  
ذراعيه وصدرت من حلقه حشرجة وكأنه ينتحب ... ثم سكت وتعال  
أنفاسه حتى خيل ( لمارى ) انه نائم ... واذا ذاك نهضت قائمة ووقفت  
برهة مترددة ، وفجأة ركضت الى الباب وجذبت المزلاج وهى تلهث ،  
ولما انفتح الباب سرى نسيم عليل مقترن بجريان ماء النهر ... وعندئذ  
رفع ( شادويك ) رأسه وقال بصوت كليل :

— ما هذا ؟ ... آه ...! انها ذهبت ! ...

وبدا محتقن العينين أقرب الى النوم منه الى اليقظة ... ثم  
ضحك وهز منكبيه ... ثم تجشأ وتمطى وأستوى على قدميه ... ثم  
تصلبت عضلاته وكثر عن أنيابه وأخذ يسب ويلعن ... ثم تناول حزام  
النقود وهو يهز رأسه ووضعه حول وسطه وضم المعطف وتناول  
السوط ... ثم سار متثاقلا الى خارج الكوخ تاركا المصباح موقدا ...  
بيد انه لم يكذب بعد بضع خطوات حتى عاد أدراجه وأهوى على المصباح  
بضربة عنيفة من السوط جعلته يلتف على المصباح ويبقى عالقا به ...  
فجذبه بقوة وهو يسب ويلعن ، حتى هوى المصباح والسوط الى الارض  
معا ... وسرعان ما اندلعت السنة النار في أرض الكوخ ... فانبعث  
سبابه مرة أخرى ، وتخلى عن السوط نهائيا ... وفي النهاية ولى هاربا  
الى الخارج ...

## الفصل السابع والثلاثون

كان الظلام حالكا عندما ذهب ( شادويك ) يجتاز المشى المؤدى من ( الكشك الصيفى ) الى القصر بمحاذاة النهر ... وجعل يتعثر فى سيره حتى سقط على الارض أكثر من مرة لفرط اسرعه ، وكان يصطدم بالأشجار حتى تمزقت ملابسه بين فروع الاغصان المتشابكة المدلاة على جانبي المشى ، غير أنه لم يحفل بهذا ، بل مضى قدما كأنه حيوان مذعور يفر من خطر محقق ، وبين فينة وأخرى كان يهتف لنفسه :

— لا بد لى من الهرب ! ... لم يبق أمامى وقت أضيعة !

وعندما اقترب من القصر قابله ( ريلى ) يحمل مصباحا ... وماكاد السائس يرى سيده حتى هرول اليه يقول لاهث الانفاس :

— اننى فى أشد الاضطراب ياسيدى ... فقد حدث أثناء عودتى بالمركة من البلدة أن استوقفتنى رجل خارج القرية وسألنى أن كنت ياسيدى تزعم الرحيل ، ومتى يكون ذلك ... وقد قال لى الرجل بالحرف الواحد : « انى رايتك تنقل أمتعة فى المركبة الى ( كلوجر ) ... فهل ينوى مستر ( شادويك ) الرحيل ؟ .. ومتى يسافر ؟ .. » .. انى أعرف الرجل ياسيدى .. انه يدعى ( كونسدين ) ، وهو من الثوريين ... صانك الله ياسيدى ووقاك السوء ... لو كنت مكانك لما سافرت هذه الليلة ... فهم يدبرون أمرا ...

فوضع ( شادويك ) يده على كتف ( ريلى ) قائلا :

— ارفع مصباحك الى أعلى يا ( ريلى ) ... هكذا ... اترانى مضطربا ؟

فتفرس ( ريلى ) برهة فى وجهه ثم أجاب قائلا :

— عفوا ياسيدى ... لكنك تبدو غريبا بعض الشيء ... هل تشكو شيئا ياسيدى ... ؟

فقال ( شادويك ) بصرامة ، ولكن بصوت خافت :

— هل تبدو على وجهى علامات الخوف يامفقل ؟ ...

— كلا ياسيدى ... لا يبدو عليك الخوف ... ولكنى أستحلفك بالله أن تتمهل حتى الصباح ... وعند ذلك يصاحبك رجال البوليس .

— هيا بنا يا ( ريلى ) ... سر أمامى بالمصباح ... هل تم اسراج الجواد ؟ ... أين تركت أمتعتى ؟ ...



— تركتها ياسيدى فى فندق ( شلى ) . كما امرتنى ... والجواد  
مخرج معد ...

— قف لحظة ...

فأطاع ( ريلى ) ... ومد ( شادويك ) يده الى حزامه وأخرج منه  
حفنة من الجنيهاات الذهبية اعطاها خادمه الذى ارتعش قائلا :

— لكنك أعطيتنى أجرتنى هذا اليوم ياسيدى ...

— ولو ... أنت شخص طيب ... اشرب نخب صحتى ...  
هناك ذهب كثير فى كاليفورنيا ... وفيها حياة جديدة أيضا ... وقد  
أدعوك لمشاركتنى هذا الخير متى تم كل شيء ... والآن امض فى سيرك ...  
ارفع المصباح ...

فتقدم ( ريلى ) سيده رافعا المصباح وهو يحدق فى الظلام على  
الجانبين ويقول :

— أذهب الى كاليفورنيا ياسيدى وهى بعيدة عنا فى أقصى العالم؟.

— لا بأس يا ( ريلى ) ... ان تلك المرأة حذرتنى ... لكنها لم تفعل  
ذلك الا لفرض فى نفسها ... ومن يتأمر ضدى ؟ ... زوجها وأخوها  
... وللانتقام منى ! .. حسنا .. سأمكر بهم .. سأضحك منهم ملء  
الفم .. فليكن ما أرادوا ..

فقال ( ريلى ) وقد ساوره الاضطراب :

— ما هذا ياسيدى ؟ ..

فمضى ( شادويك ) فى مهمته وهو لا يكاد يبين ... وعند باب  
القصر كانت ( ماري هالوران ) واقفة تنتظر ... فدعاها ( شادويك )  
ومنحها حفنة من الجنيهاات الذهبية هى الأخرى ... واذ ذاك أجهش  
( ريلى ) بالبكاء قائلا :

— لاشك ياسيدى أنك لاتفكر فى مفارقتنا نهائيا ... فقد أخبرتنى  
أنك ذاهب الى دبلن فقط بالايجار ...

— الايجار ؟ ... أى ايجار ؟ ... وداعا أيها الناس الطيبون ...

قال هذا وهمز جواده بعنف ، فانطلق يعدو به فى طريق القرية ...  
وكان الظلام حالكا بين الأشجار ، غير أن الجواد كان يعرف طريقه معرفة  
الخبير ، حتى أفضى به الى القرية بعد قليل ...

وصادفته دورية من رجال البوليس كانت عائدة الى الثكنات ،  
فصاح فيه قائدها يأمره بالوقوف ، وسلط الضوء على الجواد حتى  
أجفل هذا وتراجع على قائمتيه الخلفيتين أمامهم ... وعند ذلك صاح  
( شادويك ) فيهم :

— الا تعرفوننى أيها الاغبياء ؟ ...

فقال كبيرهم :

— معذرة ياسيدى ... لابد لنا من وقف الجميع تنفيذا لقانون  
الاحكام العرفية ... افسحوا الطريق يا رجال ! ...

فتابع ( شادويك ) طريقه ... ولكن الجواد تملكه الفزع حتى ابى  
ان يتقدم وراح يصهل ويشب على جانبي الطريق ... فجعل (شادويك)  
يلهبه بالسوط حتى اندفع الى الامام فى النهاية وأخذ يركض حثيثا الى  
مابعد منزل القس فى أقصى القرية ... غير أنه مالبث فجأة أن ركز  
قائمتيه الاماميتين فى الارض : حتى اندفع ( شادويك ) الى الامام وكاد  
يهوى من فوقه ... ومرة أخرى اعمل فيه السوط وهو يسب ويلعن ،  
لكن الجواد بلغ حدا أمسى بعده لا يحفل بالسوط . وجعل يتوالتب فى مكانه  
وهو يصهل موجعا مرتعدا ... وأخيرا اضطر ( شادويك ) الى الترجل ،  
وحاول أن يقود الجواد بيده ، فاستعصى عليه ، ولكنه مازال به حتى راح  
يسير خبيا فى طريق التل ، حيث كانت أعمال لجنة المعونة الحكومية  
مركزة فى هذه المنطقة ، وقد احوالتها الى حفر واكداس من الاتربة  
والأحجار ، مما جعل المرور فيها من أشق الأمور ...

ولمح ( شادويك ) أمامه مصباحا قائما امام كوخ خفير المراقبة ،  
لتحذير الراكبين من أخطار المرور ، فرفع صوته ينادى الخفير قائلا :

— أنت ايها الخفير ! ... ارفع مصباحك يامغفل ! ...

واذ لم يخرج أحد من الكوخ تلبية للنداء ، تقدم ( شادويك ) الى  
الأمام وهو يجذب الجسود من رأسه ... ولكن الجواد زاد اضطرابا  
واستعصاء ، حتى جن جنون (شادويك) فانهال عليه ضربا بالسوط .  
وفى اللحظة التالية سمع وقع اقدام تهوول من حوله . وأطبق عليه رجال  
من كل جانب . وقال قائل بصوت حاد :

— اهجموا عليه ايها الفتيان ! ... اعطوا هذا الفاجر ما يستحق ! ..

واقترن هذا بانطفاء المصباح حتى خيم الظلام مطبقا ... ودس  
( شادويك ) يده فى جيوب معطفه يلتمس مسدسه حين اطبق الرجال  
عليه من الجانبين .. فارتفع صهيل الجواد وانطلق يعدو كالمجنون فى  
طريق القرية ... ولم يلبث ( شادويك ) أن شعر بمدية تشق جنبه  
الايمن ، وأعقبته هراوة نزلت على أم رأسه ... ثم امتدت يد تطبق  
على عنقه ... وفى هذه اللحظة استطاع اخراج مسدسه واطلقه على  
الرجل الذى كان يحاول خنقه ... وسرعان ما انبعثت صرخة عنيفة  
تشف عن الألم ... ذلك وقد انهالت عليه ضربة أخرى من هراوة أصابته  
فى مؤخرة عنقه ، حتى هوى فوق جسد الرجل الذى أطبق على عنقه  
يريد خنقه ، ثم شعر بيدى غريمه ترتعشان وتخفان الضغط عليه ..  
وسمع قائلا يقول :

— لقد اجهزنا عليه ! ... الى الجبل يا رجال ، فى رعاية الله ! ...

فتراكضت الاقدام مبتعدة ... وبقي ( شادويك ) منبطحا فوق

جثمان غريمه المرتعد ... وما لبث أن مد يده اليسرى الى المدينة التي انفرست في جنبه . فجذبها من مكانها بعد جهد جهيد ، ونهض معتمدا على يده اليمنى ؛ ثم أهوى بالمدينة على وجه الرجل الملقى تحته ، حتى غاصت في خده ... وفي اللحظة التالية سقط ( شادويك ) مغمى عليه والدم يتدفق من جنبه ... وان هي الا برهة حتى انبثقت الاضواء هنا وهناك ، وهرع رجال البوليس من ناحية القرية ، مدفوعين بصوت المقدوف النارى وصهيل الجواد الشارد ...

وحف رجال البوليس بشادويك يمددونه على ظهره ويرفعون رأسه . ففتح عينيه ... ونظر اليهم مغمغما :

- انها حذرتنى ! .. زوجها وأخوها ! .. ( كيلمارتن ) الابن ..  
انهم .. وسقط رأسه .. وانتابته رجفة ... ثم تمدد جامدا ...

وكان الرجل الآخر بدوره جثة هامدة بعد أن استقرت الرصاصة في صدره ، وغاصت المدينة في خده وأذنه ... لكن وجهه الهامد كانت تطبعه ابتسامة الغبطة ...

وقال قائد البوليس لزملائه :

- القتل هو ( باتريك جليسون ) ... اسرعوا يارجال وراء الآخرين ! ... ان ( كيلمارتن ) الابن لا يمكن أن يكون بعيدا ! ...



## الفصل الثامن والثلاثون

كان الاسبوع الذي أعقب مصرع ( شادويك ) بمثابة كابوس ثقيل نزع تحته الأهليون في مقاطعة ( كروم ) ٠٠٠ فقد عززت قوات البوليس الكبيرة المراقبة في القرية بفصيلة من جنود الجيش الانجليزى المحتل . جىء بها من الثكنات العسكرية فى بلدة ( كلوجر ) ، للمساهمة فى البحث عن قتلة ( شادويك ) ، ( ولاخمد الثورة الناشبة ) - على حد تعبير احدى الصحف الانجليزية الاستعمارية ، فى وصفها للأحوال السائدة فى هذه المنطقة المنكوبة التعسة . . . لكن هذه الاجراءات كلها لم تسفر عن نتيجة ايجابية فيما يتصل باعتقال المسؤولين عن مقتل ( شادويك ) . وكل ما أثمرته هو مضاعفة أساليب البطش والتنكيل بالأهلين المساكين ، وتثبيط همم الساعين الى التخفيف من وطأة النكبة الشاملة . . . ولما عاد جنود الجيش الانجليزى الى ثكناتهم فى النهاية ، وقرر نشاط البوليس فى مداومة المناطق الجبلية ، كانت الحالة من شدة البؤس بحيث قرر الأب روش فى وصفها فى سياق رسالة له الى احدى الجماعات فى أمريكا للحصول على التبرعات الخيرية :

« انى لم أجد فى طوافى بالمنطقة كلها رجها واحدا يتسم . فى اقليم عرف أهله بالبشاشة والمرح » .

وكانت ( ماري ) نفسها قد سيقّت الى الثكنات فى ( كروم ) غداة مصرع ( شادويك ) ، واستهدفت لتحقيق عسير . . . فلم تتردد فى الاعتراف بأن شقيقها قد توعد ( شادويك ) بالقتل . . . ذلك أنها لم تجد فائدة من انكار هذه الحقيقة وقد أيدھا اشتراك أخيها فى الحادث بصورة عملية ، اذ وجدت حثته دليلا دامغا ضده . . .

بل ان ماري اعترفت كذلك بذهابها الى ( الكشك الصيفى ) لمقابلة ( شادويك ) . بيد أنها أكدت أنها لم تفعل ذلك الا لتحذيره مما كان يدبر لاغتباله . . . أما اقوالها بصدد ذلك الاقتراح الرهيب الوحشى الذى عرضه عليها ( شادويك ) قبيل مصرعه ، فقد قوبلت من سلطات البوليس بالتكذيب ، حتى جاء دور ( ريان ) فى الادلاء بشهادته ، فسرده عن سيده الراحل حقائق أغرب من الخيال . . . اذ راح يقول أمام مفتش البوليس :

- لقد بدأت المأساة منذ التحاق تلك الفتاة المدعوة (ابلى حلسون) بخدمة القصر . . . فقد كان سيدى قبل ذلك مثال الطيبة والهدوء ، فيما عدا تلك الساعات التى كان يستسلم فيها للسكر . . . رانى اقرر هنا أنه لم يكن محققا فى الاستيلاء على مواشى الأهلين ، فى الوقت الذى اشتد فيه الضنك والعسر ، وان كانت الظروف هى التى أجبرته على ذلك . . . نعم ان طباعه تطورت منذ وقع نظره على تلك الفتاة قبحها الله ، فأصبح

أميل الى الشراسة والغلظة ... ولما عملت أختها على إبعادها عنه .. أقسم أن ينتقم من هذه الشقيقة . أعني ( مري كيلمارتن ) الجالسة الآن أمامي ... وهذا هو السبب في استيلائه على المواشي وبيعها في المزاد لكي يرتحل بثمرها الى كاليفورنيا ، ولكنهم داهموه وقضوا عليه ... وأشهد أنه أقسم قبل رحيله أن يصفى حسابه مع هذه الشقيقة وينتقم منها ، وقد قال لي بالحرف الواحد : « اني سأجعلها تركع تحت قدمي ، ... وهكذا كلفني بحمل رسالة منه سلمها اليها صبي من أقاربي ... والحقيقة أنه ماكان يصح لانسان عاقل أن ينحدر الى مثل هذا العمل ، وان يسعى الى الانتقام من فلاحه مسكينة ... لكني ماكنت أستطيع ان أخونه وهو مخدومي ، وأبلغ أحدا عن نواياه ... وقد انتهر فرصة ذهابي الى ( كلوجر ) بالامتعة ، فقصص الى ( الكشك الصيفي ) لانفاذ ماعقد العزم عليه . ولكني أسرع بالعودة بعد اتمام مهمتي ، خوفا من أقدامه على ارتكاب منكر جديد ، بعد أن استحال في الأيام الأخيرة الى مخلوق شرير شرس ... وكان لديه سوط مخيف ذهب به تلك الليلة الى ( الكشك الصيفي ) ، ولذلك أعتقد أن ( ماري ) صادقة في أقوالها وأنه أراد تجربة السوط فيها اشباعا لنقمته ... وانصافا لها أقول أيضا انه ذكر لي ونحن في الحديقة أنها حذرته من المؤامرة التي تدبر لقتله ... وتلك هي الحقائق التي أشهد الله عليها ...

وكان من جراء هذه الشهادة التي أدلى بها ( ريلي ) السائس أن كفت السلطات عن اتهام ( ماري ) بالتواطؤ في الجريمة ، وان كان فيها الدليل على اشتراك ( مارتن ) في المؤامرة ... وهكذا الصقت اعلانات في أرجاء الاقليم تنص على منح مكافأة قدرها خمسة جنيهات لكل من بدلي بمعلومات تؤدي الى اعتقال ( مارتن ) و ( كونسدين ) و ( فاهي ) ، باعتبارهم مسئولين عن قتل الكابتن ( جوسلين شادويك ) ... وقد ذكر اسما الاخيرين باعتبارهما من زعماء الثوار المعتصمين بالجبال .. وبرغم ذلك لم يعثر لأحد منهم على أثر ، حتى بدا وكأن الأرض قد انشقت وابتلعتهم في جوفها .

وللقاريء أن يتصور مبلغ الشقاء الذي ذاقتة ( ماري ) المسكينة في مثل هذه الظروف ، غير أنها احتملت كل شيء بشجاعة فذة ... بل انها تولت بنفسها الاشراف على دفن أخيها ( باتريك ) ، يعاونها العجوز ( بريان ) الذي كان يماثلها في الشجاعة والهمة ... وقد اضطرت الى بيع ماكان في بيت أبيها من أثاث لتنفق على الجنازة ...

ثم أثرت بعد ذلك مشكلة ام ( ماري ) ... فقد أصبحت وحيدة في بيت النساج بعد أن جنت ( كاتي ) الحكيمة التي كانت تقيم معها ، ونقلت الى مستشفى الأمراض العقلية ... وقالت ( ماري ) لامها في هذا الصدد بعد الجنازة :

— الافضل أن تأتي للإقامة معي ... بإمكانك مساعدتي في رعاية الطفل ، بعد أن أصبحت ( ماجي ) طريحة الفراش ... وفي هذا مايسهل لي سبيل الخروج والسعي وراء مطالب البيت ...

ولكن مسز ( جليسون ) مانعت أول الأمر قائلة :

— هذه خاتمة المطاف ... انى سأنتظر هنا نهاية الأجل ... لقد ذهب أعزائى جميعا ! .. ولن أحمل معى اللعنة التى حلت على الى بيت آخر ! ...

فما لبث العجوز ( بريان ) أن تصدى لاقناعها قائلا :

— ان امامنا نضالا طويلا شاقا ... علينا ان تكافح للبقاء فى ارضنا وديارنا حتى تمر هذه الأوقات العصبية .. فقومى الآن وتعالى معنا .. لاتجعلى ( مارى ) مشغولة البال بك وبنا ، فما جعل الله لامرئ من قلبين فى جسد واحد ... هاتى يدك وهلمى بنا ...

وبهذا الاسلوب استطاع الاثنان اقناع مسز ( جليسون ) ، فانتقلت للإقامة معهم فى بيت ( كيلمارتن ) ...

ولما حكم على والد ( مارى ) بعد أسبوع بالنفى الى موطن الاشغال الشاقة فى ( نيوسوث ويلز ) ، لم يكد هذا الحكم يحرك لديها ساكنا ، بعد أن وهى منها الجلد وبلغت الغاية من الصبر والاحتمال ...

وقد وقف النساج بعد صدور هذا الحكم عليه يهتف فى ساحة المحكمة :

— لتعنى ارنلدا !

لكن الأحداث التى توالى بعد ذلك دلت على أن الأقدار كانت أبعد عن كل استجابة لهذا الدعاء ...



## الفصل التاسع والثلاثون

كانت مقادير البطاطس المزروعة هذا الربيع أوفر مما كان يزرع عادة ، برغم الآفة التي فتكت بالمحصول في العام الماضي ، وبرغم شع الطعام ... وقد دلت البوادر على أن محصول العام الحالي سيكون موفورا ... نعم ان الربيع كان قارس البرد ، وقد نزل الصقيع وتساقطت الثلوج حتى في أواخر شهر ابريل ، لكن ما ان حل شهر يونيو حتى كانت الحرارة بالغة لاثتمل . وقد أدت هذه الحرارة الى نماء الثمار وامتلائها . حتى كان مشهد الاوراق الفضة الياضعة الموشاة بالازاهير البيضاء الوردية الجميلة على امتداد ( الوادي الاسود ) كله ، أقرب الى حذقة ورد بديعة ...

وفي عشية عيد القديس ( سانت جون ) اوقدت النيران والمباخر طبقا للطقوس القديمة ، وطاف المزارعون بالجمرات المتقدة في أرجاء المزارع يطردون بها الشر عن تمار أرضهم ... وفي صباح العيد خرجوا الى الحقول يلتقطون بعض الثمار من كل حقل تيمنا واستبشارا ، فما كان أشد اغتباطهم وقد زكت الزروع وتضاعفت الثمار حتى عم السرور كل مكان ... وكان ( بريان ) العجوز أشد الناس ابتهاجا ، اذ صاح بأعلى صوته وهو يشطر احدى الثمار شطرين :

— ألم اقل لكم ؟ ... ان الله لا يبلونا بالجوع امدا طويلا ! ... انه حين يبلونا بالجوع انما يذكرنا بذنوبنا وسيئاتنا ! ... حتى اذا تبنا وانبنا نزل علينا من الخيرات فيضا عميما ... ان الارض غنية بالخيرات ... ان الله قد بارك في أرضنا ورعاها ! ...

فلما كان ظهر يوم العيد جلست الاسرة الى طعام كان بالنسبة لها وليمة حافلة ... فقد جاءت ( ماري ) ببيض بصلات غضة من حذقة الدار الخلفية قطعتها وخلطتها بثمار البطاطس الجديدة ... واعطتهم ( سالي أوهانلون ) قطعة من السمك المملح . هي احدى المسروقات التي كانت تصيبها بين حين وآخر ... وبرغم أنه لم يكن ثمة لبن لاتمام هذه الاكلة الطيبة ، فقد كان ما يشعرون به من جوع بديلا من اللذائذ والمشهيات ... وهكذا نعمت الاسرة بطعام سائغ هنيء ... وحتى ( ماجي ) تركت فراش المرض واتخذت مجلسها الى المائدة وقد حفزتها تلك الانباء الباهرة عن المحصول الجديد ... ولم يعدم الكلب نصيبه من الوليمة اذ أفردت له صحيفة لدى الباب الخلفي اكل منها حتى امتلا وتكور ، بعد أن دب اليه الهزال من فرط الجوع ...

ولكن المقادير شاءت الا أن تختار لحظات المسرة هذه لتطلق عليهم قوى البلاء المدخرة في حجب الغيب ... فقد انقضت ساعات الصباح

والسماء صافية الإديم والشمس ساطعة في أوجيها ... ثم مالبت  
السماء بفتة أن غشيتها الظلمات ، وأومض البرق ، وانهاى وابل المطر ،  
وقصفت الرعود في الفضاء ، واشتدت برودة الجو حتى لكأنهم في صميم  
الشتاء ... أجل ! ... كان كل أولئك شيئاً مروعا ، وقد حدث في  
غضون دقائق معدودة ، حتى انتابتهم الرهبة ، وراحوا يتبادلون نظرات  
الحيرة ، ووضعوا الطعام من أيديهم ... وما لبث ( تومسي ) أن سبقهم  
إلى الكلام ، فقال همسا :

— هل يتكرر ما حدث ؟ .. ان ما حدث في العام الماضي بدأ بهذه  
الظاهرة ! ..

فقال العجوز وهو ينهض عن المائدة :

— صه ... أتدرى معنى هذا الكلام ؟ ..

فقال ( ماري ) :

— لنركع على أقدامنا ونسال الله اللطف والرحمة بنا ...

فعملوا بمشورتها ، ودعوا الله ألا ينزل الآفة على محصولهم ...  
فلما فرغوا بدأ وكأن العناية الإلهية قد استجابت لدعائهم . إذ ذهب  
العاصفة فجأة كما بدأت ... ومع أن السماء لم تصف تماما ، فقد  
انقطع البرق والرعد ، واستحال المطر إلى رذاذ . واشتدت الحرارة ..  
وعند ذلك اقترح العجوز رش الحقول بالماء المقدس ... فجاءت ( ماري )  
يزجاجة منه كانت في الدار ، وخرجت معهم إلى الحقول حيث نشروا  
الماء على الزرع هنا وهناك ... ولما شاهدتهم الجيران يفعلون ذلك حذوا  
حذوهم ...

وفي اليوم التالي صفت السماء واشرقت الشمس . بعد مطر غزير  
في الليل ... وذهب العجوز إلى الحقل وأعمل مجرفته في الأرض . ولما  
ألفى النبات مايزال سليما لهج لسانه بشكر الله ... وعندما انضمت  
إليه ( ماري ) و ( تومسي ) وشاهدا سلامة الثمار ، جرت من أعينهما  
دموع الفرح ، ولم تتمالك ( ماري ) أن ركعت على الأرض تقلب الثمار  
بين يديها بحرص وتقول :

— آه ! .. كم هي كبيرة نامية ! .. اني لم أرها بمثل هذا الحجم في  
مثل هذا الوقت من العام ! ...

فرد عليها العجوز قائلا وهو يحفر بالمجرفة في همة وحمية :

— صدقت يا ( ماري ) ... وفي هذا دليل على أن الإنسان يجزى  
بجده وكده ... هناك أناس في ( وادي جليناري ) سولت لهم الفعلة  
أن يأكلوا من الثمار المخصصة ( للتقاوى ) . وبذلك حرموا أنفسهم من  
نصف المحصول الذي كان يمكن أن يجنوه ... أما أنا فقد زرعت حقلين  
آخرين ، وسنجنى بذلك ضعف المحصول المعتاد ... لا تقاطعيني يا امرأة  
فسنقوم على أقدامنا من جديد ، ولا مجال بعد الآن للبأس ... وإذا  
كانت ماشيتنا قد أخذت غصبا . فسنعوضها شيئاً فشيئاً ... ان الخير  
ينتظرنا ، مادامت الأرض لنا .. فقد أصبحنا في أمان من العسف بعد

مصرع الطاغية ... وربما كان وكيل المالك الذي سيخلفه أقرب الى الرحمة ، فيمهلنا وقتا لسداد الايجار ... أو ربما تدخلت الحكومة ومنحتنا بعض القروض ، كما حدث من قبل في ابان المجاعة الكبرى ... آه لو كان ( مارتن ) معنا ليشهد هذا المحصول العظيم ! ... يا للمسكين ! ... كم امتزج عرقه الزكى بهذه التربة وهو يعدها للمحصول الجديد ! .

وماكاد العجوز يذكر اسم ( مارتن ) حتى جمدت ( ماري ) مكانها ، وشعرت بألم عنيف يطفى عليها ، وخواء مروع يسرى في كيانها كله : وكان يدا جبارة قد امتدت اليها فجأة واستنزفت أحشاءها ... ثم نملكها أعياء شديد حتى غاض الدم من وجنتيها ووقفت ترتعد ، وجعلت تقول لنفسها :

— انى لم أفكر في ( مارتن ) منذ أيام .

ولما فطن (تومسى) الى مااعتراها قال لها بلهجة القلق :

— ماذا بك يا ( ماري ) ؟ ...

فأجابت وهى تضحك ضحكة سقيمة :

— لاشيء ... كل ماهناك أنى تأثرت بما حدث و ...

فقال لها العجوز وهو مستغرق في فرحته فلم يفتن الى ان ذكر اسم ( مارتن ) هو سبب ما طرا عليها :

— عودى الى البيت ... انك اجهدت نفسك في العمل اخيرا ... ولا بد لك من الراحة ...

فاطاعت ( ماري ) ... وفي طريقها الى البيت هطلت دموعها ، وجعلت تغمغم لنفسها قائلة :

— ءواه يا زوجى الحبيب ! ... انى لم أعفل عن ذكرك لفتور في محبتى لك ... وانما هو الخوف من التفكير فيك ... ثم هناك الجوع السائد ، وندرة اللبن في صدرى من أجل طفلنا ( ميخائيل ) ! ..

وكان ذلك حقا هو شغل ( ماري ) الشاغل ... فقد كانت آناء الليل واطراف النهار تعذبها فكرة واحدة مروعة ، هى انعدام القوت وشيكا لتفذية ( ميخائيل ) الصغير ، وما سوف يضطرها اليه ذلك من الخروج الى الطرقات مستجدية ... وقد برح بها هذا التفكير الاليم حتى طفى في نفسها على كل ماعداه ، وصرفها عن التفكير حتى في غياب ( مارتن ) عنها ... وصحيح أنها سمعت عنه مرة بعد مصرع (شادويك) عندما جاءها رجل يبلغها أن ( مارتن ) قد التجأ مع بعض رفاقه الى جزيرة في المحيط وأنه بخير الى حين ... لكن ذلك لم يكن فيه عزاء لها ، والا فماذا يكون من أمر المستقبل ، وهل ثمة رجاء في اجتماع شملهما مرة أخرى ، أو في افلاتهما من هذه البلاد ؟ .. وكذلك كانت هذه الخواطر الاليمة هى التى جعلتها تخاف من تذكره والتفكير فيه ..

ثم ثارت عاصفة عنيفة أخرى في اليوم الاخير من الشهر .. لكنهم



لم يحفلوا بها كثيرا بعد أن مرت العاصفة الأولى بسلام ولم تحدث  
أضرارا ما ... وبرغم ذلك انتشرت شائعة مؤداها أن الآفة قد امتدت  
إلى المحصول في مقاطعة ( كورك ) فهل يمكن أن تنتقل عدواها تلك  
المسافة الشاسعة ؟ ...

لقد ظلوا يتفقدون المحصول كل يوم بلهفة بالغة ... بيد أن الأيام  
تعاقت دون أن يظهر أثر للشر المخوف ، وكانت الثمار التي يقطعونها  
لطعامهم اليومي سليمة من كل عطب ... وحتى ( ماري ) ذهب عنها  
التوجس وأصبحت أكثر عزيمة وجلدا ... ولكن ماهو إلا أن حل اليوم  
الخامس عشر من شهر يوليو حتى وقعت الواقعة ، وانقضت الصاعقة  
من السماء ...

في ذلك اليوم خرج ( بريان ) إلى العناء عقب انبلاج الفجر . فما كاد  
يسرح نظره عبر الوادي حتى رأى سحابة بيضاء قائمة فوق ( البحيرة  
السوداء ) وكانت في شكلها أقرب إلى جبل تلجى عظيم علق في الفضاء  
بسلاسل غير منظورة ... ولما طلعت عليها الشمس كان لها سنا خاطف  
يبهر الأنظار ... وقد وقف العجوز حينما يتطلع إليها في وجل ورهبة  
وهو يتساءل عن كنهها ... ومالبث أن هرع إلى داخل البيت ودعا  
أفراد الأسرة إلى مشاهدة هذه الظاهرة القريبة ... فما كادت ( ماري )  
( تومسي ) يبصرانها حتى تملكهما من الانزعاج ماتملك العجوز من قبل .  
وقد قال لهما :

— هل رأيتما قط شيئا كهذا ؟ ..

فأجاب ( تومسي ) :

— لم أر شيئا كهذا في حياتي ..

وقالت ( ماري ) :

— انه يشبه جبلا من الثلج ...

— كيف يمكن أن يكون هذا ثلجا ونحن في أواسط الصيف ؟ ...  
انها معجزة ...

— أو هي نذير سوء ... الله يصرف عنا كل مكروه ...

وخرج غيرهم من الاهلين يتطلعون إلى هذه السحابة ... وكان  
يخيم فوق الوادي سكون غريب وقد ثقل الهواء وانعدم حفيف الريح .  
وكفت الطيور عن التغريد ...

ولم تلبث السحابة أن تحركت ببطء فوق الوادي وانتشرت  
أطرافها ، وشاعت في الجو رائحة فاسدة ، وامتأ الفضاء ببخار أبيض  
كانت أشعة الشمس تلمع من خلاله ، حتى بدا كأن مطرا من الذرات  
الترابية البيضاء ينثال من السماء ويثدا ... ثم تصاعدت إلى أنوف  
المشاهدين رائحة كبريتية خائقة ... وحتى الحيوانات سرت إليها  
الرائحة ، وتأثرت بها ، إلى حد أن الكلاب أقمت على قوائمها الخلفية  
وانشأت تنبح نباحا أقرب إلى العواء ... واختفت الطيور من الجو

مع أن اليوم السابق شهد أسرابا من الغربان تسرح وتمرح في الفضاء ..  
وهنا انشعب الفرع أنيابه في قلوب الناس ، حتى انبعثت أصواتهم نائحة  
مولولة من خلال الدور حين أطبقت السحابة على الوادي وحجبت عنه  
ضوء الشمس ...

وفي خلال ذلك بقي أفراد أسرة ( كيلمارتن ) في الفناء وقد ضمت  
( ماري ) الطفل الى صدرها ولم يفكر أحد في اعداد الفطور برغم تقدم  
النهار ... لكن ( ماري ) لم تلبث عندما سمعت ( ماجي ) تشترك في  
النواح ان ثابت الى نفسها وقالت للمرأة العجوز :

— لاتفرعي الطفل بنحيبك ... لم يقع ضرر حتى الآن ... خذي  
الطفل يا أماه ريثما أعد الفطور ...

فقال ( بريان ) :

— أصبت يا ( ماري ) ... لم يقع ضرر حتى الآن ... الى الداخل  
ياناس ! اتخافون من ضباب عابر ؟ ...

فكفت ( ماجي ) عن النحيب ، بيد انها لاذت بفراشها واغلقت الباب  
عليها ... أما الباقون فقد تكلفوا المرح ، ولكنهم كانوا كالذي يحس ذوو  
الكارثة فيضطنع التفاؤل وهو يعلم زيف شعوره ...

وقالت مسرعا جليسون ، وهي قابضة في ركن المدفأة تهدده  
الطفل :

— اني شهدت فيما مضى اثقل من هذا الضباب ...

فقالت ( ماري ) :

— لكنني لم اشم من قبل مثل هذه الرائحة في الضباب ... ولايد  
انه نوع جديد كنا نجهله ... لكن الضباب لا يضر على أي حال ...  
ولو كان هذا مطرا لاختلف الامر .. فان المطر قد يؤدي الى عطب  
البطاطس ....

فقال العجوز :

— لن يعطب البطاطس من شيء ... عفا الله عنك لما قلت يا ( ماري ) ..

وانهمكت ( ماري ) في طهي قليل من القمح الاصفر مع بعض ثمار  
اللفت الباقية ... وبينما هم يأكلون اذ حدثت ظاهرة عجيبة ... فقد  
سفت السماء فجأة ، وسطعت الشمس ... بيد ان التغيير الذي كان  
خليقا بانعاش نفوسهم ، مالبث ان ضاعف من روعهم ... فقد ظلت  
الرائحة الفاسدة جاثمة لا تريم ، حتى أمسكوا جميعا عن الطعام ...  
وأخيرا نهض العجوز وتناول قبعته وجعل يعبث بها وهو يدير نظراته  
بينهم وكأنه صبي اتي جريرة خجل منها ... وان هي الا برهة حتى  
اقتدى به ( تومسي ) وهرعا معا الى الخارج ... فأسرعت ( ماري ) الى  
المهد وحملت طفلها واخذت تضمه الى صدرها وأما تسأل مابها وصوت

( ماجى ) يرتفع من داخل غرفة النوم بالنواح ... وغاض الدم من وجنتى ( مارى ) واتسعت عيناها ، فناولت الطفل لامها وهى تقول همسا :

— سأخرج لمشاهدة الحقول ..

وركضت ( مارى ) فى أثر الرجلين وهما يسيران الهوينى شطر الحقول حتى أدركتهما ... وكانت الحقول تبدو عن بعد زاهية بأوراقها المخضرة فى أشعة الشمس الساطعة ، وان كانت الرائحة الفاسدة قد زادت واشتدت وطأتها حتى غدت لاتطاق ... ولما بلغ ثلاثتهم أول الحقول اصطفوا حول السياج الحجرى وجعلوا ينظرون الى النبات ، فقال العجوز :

— ان الزرع بخير ... لم يصبه شر والحمد لله ...

فقال ( تومسى ) :

— صه ! ... ماهذه الاصوات ؟ ...

وأشار بيده شمالا ، حيث اصطف أناس مثلهم حول الحقول ينظرون اليها ، فاذا هم قد أخذوا فى النواح بأصوات تنم عن اليأس المطبق ... ولم يكن فى نواحهم غضب ولا شكوى ولا تضرع ، وانما كان اقرب الى حشرجة الجريح المحتضر ، يئن فزعا من غائلة موت لا راد له ولا دافع من دونه ..

وقالت ( مارى ) بصوت خافت :

— انها الآفة ... رحماك يا اله السموات ! ...

وشهق العجوز قائلا من خلال أسنانه :

— انظروا ! ... انظروا الى ماحدث ! ... انه الشيطان ! ... الشيطان ذاته ! ...

وأشار بيد راعشة كأنما مسها الفالج الى فجوة فى السياج بدا الزرع من خلالها ناضجا مزدهرا ... فنظرت ( مارى ) و ( تومسى ) الى حيث أشار العجوز وهو يلفو بكلام سقيم ، فلاحتا لاعينهما بقع صغيرة داكنة ظهرت فى الاوراق الخضراء وأخذت تنتشر كأنما افتعلتها يد ساحر أو كأنما هى حركة مد جارف بدأ يطفى على شاطئ رملى منبسط ... أجل ! ... كانت مطرا من البقع جعل ينتشر سراعا فى جميع الانحاء ...

وهتف ( تومسى ) رافعا وجهه المستدير الملتحى الى السماء :

— رحماك ياربى ! ... رحمة ولطفًا بعبادك ! ...

وشعرت ( مارى ) بخواء كالذى انتابها يوم أن ذكر العجوز اسم ( مارتن ) أمامها ... أما الآن فانها لم تفكر فى ( مارتن ) ... وانما



احسنت كان الدنيا قد خلت من كل شيء ... وشعرت بتثاقل شديد  
في عينيها حتى كان عليها أن تفتحهما بجهد جبار ... ثم أخذت تنتحب  
انتحابا عنيفا هز كيائها حتى اغمضت عينيها المكدودتين وحجبتهمسا  
بيديها واستندت الى السياج من قرط ما بها ...

وأما العجوز فكان يصرخ بأعلى صوته مرددا هذه الكلمات :

— هو الشيطان .. انه علينا ! .. انه علينا ! ..

وتسور السياج وهو لا يفتأ يكرر صراخه .. وشق طريقه بين  
الاعصان القارعة حتى وصل الى البقعة المصسابة ، فقابلته رائحة العطب  
الذريع .. فمد يده الى الأفرع التي أصابتها البقع وأخذ ينتزعها من  
منابتها . واذا الاوراق تذوى بمجرد اللمس ، والافرع تنقصف كخشيب  
معطوب ، لكن الثمار المتصقة بجذور الافرع المنزوعة كانت برغم ذلك  
سليمة .. وبعد أن ثقب العجوز بأظافره في بعضها لم يتمالك أن هتف  
وهو يضحك ضحكات هستيرية :

— انها غير معطوبة ! .. تعال يا ( تومسي ) .. انزع الافرع المعطوبة  
.. لنعمل على وقف انتشار العطب .. وأنت يا ( ماري ) تعالى ساعدينا  
.. انزعوا الافرع ! .. انزعوا .. أوقفوا العطب ..

فتسور ( تومسي ) السياج بدوره متأثرا بحمية العجوز وشق طريقه  
بين الاعصان ، بيد انه جمد مكانه حين صار على قيد خطوات من العجوز  
الذي كان ينتزع الافرع صارخا محموما .. فقد أحاط به (التبقع) الزاحف  
من كل ناحية حتى قال ( تومسي ) :

— ان البقع تنتشر في أرجاء الحقل كافة .. انظر يا رجل ! .. انه  
حولك في كل مكان .. لن نستطيع وقفه مهما فعلت ..

فرفع العجوز رأسه وجعل ينظر حواليه متفجعا .. فما لبث أن فغر  
فاه واستقام على نفسه وتدلّت يداه الى جتبيه ، وقال بصوت متهافت :

— أصبت .. انها يد الله .. لتكن مشيئة الجبار ..

وعاد أدراجه الى السياج وانيا مطرقا دون أن يحفل بالتقاط الثمار  
التي انتزعها .. وكان يطا الأفرع الباقية في التربة غير مبال بشيء ..

ولم تلبث (ماري) أن حذت حذوه وصارت في أثره عائدة الى البيت  
وفي أرجاء الوادي كان النواح يتردد ويتعالى من أدناه الى أقصاه .

## الفصل الأربعون

ما ان أقبل اليوم التالى حتى لم يبق فرع واحد من زراعة البطاطس  
فى ( الوادى الاسود ) كله سليما من العطب .. وهكذا استحال المحصول  
الى أكداس معطوبة فاسدة بعد أن وضع الناس فيه كل ثقتهم ، وكان هو  
الحد الفاصل بينهم وبين المجاعة ..

وقد ظلت (مارى) أكثر ليلتها هذه يقضى مؤرقه ، تم غلبها النوم  
فرب الفجر من الاعياء ، فلم تستيقظ الا على صوت بكاء طفلها .. واذاك  
نهضت مسرعة وهى بين اليقظة والنوم ، فأخذت تنأغيه وتلاطفه وهى  
تتقدم الى النافذة لازاحة الستار عنها ، فراعها أن وجدت الشمس فى كبد  
السماء مما دل على تقدم النهار .. وفى عودتها الى مهد الطفل حانت منها  
التفاته الى فراشها ، فرأت أمها التى أمست تنام معها مستلقية على ظهرها  
جامدة وعيناها مفتوحتان على سمعتهما .. فقالت لها ( ماري ) :

— ماذا بك يا أمى ؟ لماذا لم توقظينى ؟ ..

فلم تنظر اليها الأم ، بل أجابت بغير اكتراث :

— ليس بى شىء .. وكل ما هناك أن حالنا فى الفراش مثل حالنا  
بعيدا عنه .. هل بقى لنا ما نفعله ؟ ..

— ان كلامك يفتت القلب المتحجر ! .. انك أصبحت مثل ( ماجى )  
فى سوء الطبع ! .. قومى والبسى ملابسك ..

وسارعت ( ماري ) بتغيير لفائف الطفل وارتدت ثوبها ثم قدمت  
للطفل ثديها وهى تنتقل الى المطبخ ، فوجدته لا يزال مظلمًا ، حتى قالت  
لنفسها :

— يا لطيف ! .. ماذا جرى فى الدنيا ؟ ..

فللمرة الاولى منذ حلت ( ماري ) فى هذا البيت، رأت العجوز يتأخر  
فى نومه الى ما بعد شروق الشمس ، فيما عدا الايام الثلاثة التى لزم فيها  
فراشه .. لابد أن شيئا خطيرا قد ألم به .. وكذلك فتحت الباب ..  
فاندفع الكلب الى الفناء .. وسرعان ما نفدت الى المطبخ رائحة فاسدة ..  
وبعد أن تقدم الكلب قليلا فى الفناء جعل يتشمم الهواء ، ثم ما لبث أن  
جلس على قائميه الخلفيتين ينبج نباحا أقرب الى العواء ..

وقالت ( ماري ) وهى تفتح غرفة النوم الصغرى :

— ما زلتم نائمين ؟ ..

كانت الغرفة منيرة اذ كانت نافذتها بلا ستائر .. وقد أبصرت  
( ماري ) العجوزين راقيدين في الفراش مستيقظين ، مثل أمها .. وما لبث  
( بريان ) أن قال بلهجة غريبة :

— عجيب ! .. انك استيقظت قبل هذا اليوم ! .. لا بد أنها  
الشيخوخة ..

فقالت ( ماري ) :

— صحيح .. فالنهار قد مضى نصفه ..

وقالت ( ماجي ) متبرمة وهي تعد على مسبحتها :

— أسهل على الانسان أن يحتمل الجوع في الفراش ، منه خارجه ..

فقالت ( ماري ) وهي تستدير عائدة الى المطبخ :

— لن تحتملي الجوع بمجرد الكلام ! ..

يقال العجوز وهو يدلي ساقيه الناحلتين الى الارض :

— صدقت يا ( ماري ) ..

وتناول بنطلونه وذهب الى المطبخ وهو بقميصه ، فبدأ جسده الطاعن  
صورة مؤثرة للنحول وبروز العظام ، وخصوصا ساقيه اللتين تجردتا أو  
كادتتا من اللحم حتى لم يبد منهما سوى عظام كالحجة .. وقد فقدت عيناه  
ما كان لهما من حيوية ، ولاحتا غائرتين محمرتين حول الاطراف ، بتأثير  
الازرق طول الليل ..

وصاح العجوز في الكلب والقط منتهرا ملوحا ببنطلونه الى ناحيتهما  
وهما يتشاجران لدى ( كوم السباح ) .. فقد استعدا القط الى الشراسة  
في العهد الاخير لانقطاع مورد الطعام عنه في البيت ، وأمسى يتصيد  
طعامه من الخارج ليلا .. ولسبب ما درج القط على احضار ما كان يعثر  
عليه من طعام الى ( كوم السباح ) ليصيب منه حيث يشاء .. وكان في  
هذه اللحظة ممددا على ظهره رافعا مخالبه الى أعلى كاشفا عن أنيابه متشبثا  
بجثة طائر كان الكلب يحاول انتزاعها منه .. وما لبث الكلب أن نظر الى  
العجوز وهو يهز ذنبه ، ثم نبج في القط وركض الى سيده .. فما كان من  
القط الا أن تناول جثة الطير وعيناه تقدحان شررا وسار بها الهوينى مبتعدا  
وهو يتوقف بين لحظة وأخرى مزجرا ..

وقال العجوز وهو يضرب الكلب ببنطلونه :

— أأأكل من فضلات القط يا قذر ! ..

نرقد الكلب على الارض وتلقى ضربات سيده الرقيقة بروح طيبة ..  
فهو والعجوز متآلفان .. وقد راح يهز ذنبه ويدبر لسانه مطمئنا الى مودة  
سيده له وبعده عن كل رغبة في ايذائه ..

وقال ( بريان ) لماري وهو يلبس البنطلون :



— اعطى ( أوسكار ) شيئاً يأكله .. لقد اشتد به الجوع حتى حاول  
اختطاف الاقدار من ذلك القط الشيطاني الذي يتلقف كل النفايات  
والفضلات .. لا يصح أن نترك الكلب المسكين يجلب الامراض اليها في  
البيت .. فان الطاعون لا يأتي الا من الاجسام الميتة التي تتفشى فيها  
الديدان .. هذا شيء معروف للجميع ..

فقالت ( ماري ) :

— ليذهب الكلب لاصطياد أرنب .. ان ما عندنا من الطعام قليل ..

فهتف ( بريان ) قائلاً :

— أرنب ؟ .. وأين يجد الارنب ؟ .. اني لم أر أثراً للارانب في  
الاشهر الاخيرة .. ان الانسان أصبح لا يجد حواليه حتى عصفورا ،  
لا أرنباً .. الله وحده يعلم أين يجد القط ما يعثر عليه ..

وبعد أن لبس العجوز بنطلونه وشد حزامه ذهب الى السور حيث  
وضع يديه حول عينيه ووقف يجيل النظر في أرجاء الوادي .. فبينما  
كانت حقول البطاطس بالامس مخضرة مزدهرة ، اذا هي الآن قفار وجذب  
وقد تجردت من كل زرع كأنما اكتسحتها النيران ولم تترك الا تنيقانا  
عارية مسودة .. ولم يتمالك العجوز أن هتف وهو يتشمم هنا وهناك :

— أف .. أف .. ما أفزع هذه الرائحة !

وجعل يدير النظر حواليه من جديد وقد أطبق شفثيه واشتد به  
الذهول وبدا عاجزاً عن ادراك حقيقة ما حدث .. أو ربما أبى الرجل أن  
يفهم الحقيقة وود لو يخفيها عن نفسه .. ولم يلبث أن عاد الى المطبخ وهو  
يقول :

— لم أبصر أمامي مخلوقاً واحداً .

وكانت ( ماري ) توقد النار بيد وقد ضمت الطفل الى صدرها باليد  
الآخري .. وما لبث العجوز أن ركع يصلي .. وألقى ( تومسي ) السلم  
وهبط من الغرفة العلوية ، وما أن نظر من الباب وشهد الخراب المنتشر  
حتى هتف قائلاً :

— الله يرحمنا ! ..

فقالت ( ماري ) :

— ألا تخرج وتحضر لنا البطاطس التي نزعناها أمس ؟ ..

ولما رفع العجوز رأسه بعد صلاته وسألها عما تقصد أجابت قائلة :

— أقصد البطاطس التي كنت تجمعها عند نزول الآفة ..

— ان الأمل ضعيف في العثور على شيء سليم ..

- بإمكان ( تومسي ) أن يحاول .. خذ السلة يا ( تومسي ) وابحث  
لنا عن شيء منها للفظور .. فقد انتهى ما كان عندنا من قمح ..

أجل .. فقد اشتد بهم اليأس في اليوم السابق حتى صرفهم عن  
جمع الثمار التي اقتطفها العجوز في ابان لهفته .. ثم ولوا هاربين من  
الحقل تاركين الثمار ملقاة على الارض وهم في غمرة اليأس التي طغت عليهم  
.. وهم لم يلزموا الفراش هذا الصباح الا بتأثير ما تملكهم من هذه  
المشاعر المؤسفة القاهرة التي استحالَت الى استسلام صامت لحكم القدر  
قتل في نفوسهم كل حافز للحركة والعمل .. وبقيت ( ماري ) وحدها  
بينهم يحدوها النشاط والعزم والارادة ... فان طفلها وشبابها جعلها  
بنجوة من الاستسلام .. وكذلك نرى ( تومسي ) وقد اتبع مشورتها وحمل  
سلة صغيرة ذهب بها الى الحقل .. وهناك وجد روائح الفساد من العنف  
بحيث كتم خياشيمه وهو يدنو من المكان .. وبحث في جيوبه عن خيوط  
من التبغ يمضغها تخلصاً من الرائحة ، ولكنه لم يجد شيئاً .. فقد مضى  
عليه حين من الزمن دون أن يجد ما يحشو به غليونه .. وقد استعاض  
عن التبغ في العهد الاخير برماد وقود المدفأة كان يضعه في الغليون  
ويدخنه ..

ومهما يكن فانه تغلب على اشمئزازه من الروائح العفنة وتسور سياج  
الحقل . وما لبث أن هتف بانفعال :

- الحمد لله ! .. ها هي الثمار سليمة من كل سوء ..

وكان الأمل في ايجاد طعام للفظور أكبر حافز له على التقدم الى  
حيث كان العجوز ينزع الافرع بالامس .. وما لبث أن وضع السلة  
وأخذ يجمع الثمار الملقاة على الارض ، وكانت هي وحدها التي سلمت من  
العطب أما التي بقيت عالقة بجذورها بعد قطفها فقد شملها العطب والفساد  
وقد بدا له أن يتفقد الافرع التي لم تنزع من الارض ، فما أن مد  
يديه اليها حتى ألقاها مسودة معطوبة عن آخرها ، فهز رأسه قائلاً :

- نعم .. لا فائدة من جمعها .. انها عطبت عن آخرها ..

وحمل السلة عائدا الى البيت .. فلما دخل المطبخ ألقاها على  
الارض قائلاً :

- هذا هو كل المحصول .. ولم أجد تعباً في حمله اليكم ..

فقال له العجوز وهو قابع في ركن المدفأة :

- ألم تجرب بعض الافرع التي ...

- تجربتها .. وكانت معطوبة عن آخرها ..

فقال العجوز :

- ليكن ما أراد الله ..

وشبك ذراعيه فوق صدره وجعل يحرق في النار التي أوقدتها

( ماري ) .. وكانت ( ماجي ) ومسز ( جونسون ) قد جاءتا الى المطبخ وجلستا تحدقان الى الارض دون أن تفعل شيئا .. فما لبثت ( ماري ) التي جاءت باناء لطهي البطاطس أن استدارت اليهم جميعا فجأة وصاحت فيهم غاضبة :

— ما فائدة جلوسكم هكذا ؟ .. ألا يوجد شيء تعملونه ؟ .. كيف يمكن أن نعيش والجوع يواجهنا ، اذا لم نعمل شيئا ؟ .. قوموا وتحركوا .. ان لم تفعلوا فاني سأذهب بالطفل وأدعكم تواجهون الهلاك .  
فقلت أمها :

— سامحك الله يا بنيتي .. الحقيقة انه لا عمل لنا ..

— اكنسى الارض .. افعل أي شيء ! ..

وقال لها العجوز بلهجة الانزعاج :

— والى أين تذهبن بالطفل ؟ .. لا أظنك تنوين حقا مفارقة البيت والارض ..

فصاحت ( ماري ) :

— تحرك اذن ، ان كنت تريد أن أبقى ..

فكانت لهجتها حافزا للعجوز على أن ينفض عنه خموله ، واذا هو يشب قائما ويصيح في وجهها :

— لن يستطيع انسان أن يتهمني بأنى كنت كسولا أو جبانا ...  
قولى ماذا تريدن أن أفعل ، وأنا أفعله في الحال ..

— استعد اذن أنت و ( تومسي ) سأذهب معكما الى القرية .. ان كان للحكومة أن تساعدنا ، فهذا أوان المساعدة ، قبل أن يلتهم الجوع قوانا .. اننى على أى حال سأكافح من أجل طفلى .. ولكما أن تساعدانى اذا أردتما .. لابد أن يمنحونا شيئا ، أو يضعونا فى السجن .. فى السجن عليهم أن يطعمونا ..

وهنا جعلت ( ماجي ) تبكى وتقول :

— لا تتكلمى عن السجن .. ألم يكف ما حدث حتى الآن ؟ ..  
ان ولدى ( مارتن ) هارب بين الجبال ، وقد جعلوا لرأسه ثمنا .. الرحمة يا ربى ! ..

فقال ( تومسي ) :

— ان ( ماري ) على حق فيما قالت .. لابد من حمل الحكومة على مساعدتنا .. من رأى دائما ان الشعب الارلندي لابد أن يضرب ضربته .. ليتنى كنت أستطيع أن أشارك فى شيء كهذا ..



فقال العجوز :

— لا ضرر من هذه المطالبة على أى حال .. سأذهب معك يا (مارى)،  
وان كان الأمل ضعيفا فى أن نفوز بشيء ، بسبب عداوتهم لنا ، بعد كل  
ما حدث ..

فقالت ( مارى ) :

— قم واستعد .. هناك شيء واحد مؤكد ، وهو أننا لن نفوز بشيء  
ما دمتنا قاعدين ندعو ونبتهل .. فان الله لا يعين الا الذين ينشطون  
للعمل ..

## الفصل الحادى والأربعون

فى ذلك الوقت كان الدكتور ( هاينز ) ممتطيا جواده ووجهته ( وادى جليناوى ) لعيادة مريض ٠٠ وقد أبلغه الرجل الذى جاء يطلبه انها حالة مستعجلة نظرا لان أمه المريضة ظلت يومين بلا حراك ٠٠ وهكذا استحث الطبيب جواده فأخذ يركض به ٠٠ ولم يكن الجواد سوى هذه الفرس الرمادية التى ذهب بها أبوه وأخوه ( تونى ) الى ( كلوجر ) لاتمام صفقة الزواج المعروفة ، فقد أهداه الأُب هذه الفرس وقال فى تفسير هذا انهم ( يستطيعون الآن بحمد الله أن يتقدموا خطوة الى أعلى ) ٠ وأضحى الطبيب الآن أكثر خبرة بالركوب ، فلم يجد عناء فى قيادة مطيته ٠٠

ومهما يكن فان الطبيب لم يلبث أن تخاذل وضعفت روحه المنعوية كما حدث عندما كان يشعر بأنه عدو للشعب فى فترة مصاحبته لشادويك ٠٠ وسرعان ما فارقته تلك الغبطة التى أحسها حينما استفتح حياة جديدة فى خدمة قومه بفضل توجيهات الأُب ( جيلان ) ٠٠ وصحيح أن الطبيب ما برح يعمل عملا شاقا متواصلا ، لكنه كان عملا تخالطه مرارة متزايدة ويشوبه احساس بالهزيمة ٠٠ وما ذلك الا لان هذا المنكود قد خلق بطبعه جبانا خوار العزم ٠٠ وقد روعته اجراءات القمع والتنكيل التى تدرعت بها الحكومة بعد حوادث الفتنة الاخيرة ، وخاصة اثر مصرع ( شادويك ) ٠٠ ومن بواعث الأسف أن أمثاله فى ايرلندا كثيرون ، أولئك الذين اذا كشر لهم الطغيان عن أنيابه لا يلبثون أن يتمرغوا فى الرغام أو يختفوا فى جحورهم أو يرفعوا أيديهم بالتسليم فزعا وارتياعا ٠٠ والذين اذا لاحت لهم اليد الحديدية منذرة متوعدة ، شعروا أنه خير لهم وأثر عندهم أن يحيا حياة العبودية ، على أن يموتوا ميتة الإبطال ٠٠ وليس معنى هذا أن الطبيب كان يفكر من قريب أو بعيد فى أن يموت ميتة البطولة ، فقد كان يكفيه أن يفكر غيره فى ذلك ليقع الامر منه موقع الرعب والفرع ٠٠ فهو لا ينشد فى الدنيا غير السلم بأى ثمن ٠٠

وبرغم ذلك فان الطبيب كان يزداد مقتا لأبيه أكثر من أى وقت مضى كلما سمعه يجاهر بمشاعر الجبن التى كان هو نفسه يحسها فى أعماقه ٠٠ بل ان تفضل أبيه عليه بالفرس ملأه خزيا واستخذاء ، وكان مهديها قد ابتاعها من تلك الارباح التى جناها مستغلا الضائقة التى نزلت بالناس ٠٠ والحق أن الطبيب قد اشتد عذابه فى العهد الاخير الى حد أنه فقد كثيرا من بدانته ، واكتسى وجهه سمات الصغار والمسكنة التى عرفت عن أبيه من قبل ٠٠

وكانت أنباء الآفة الجديدة قد عرفت مساء اليوم السابق ، لكن

أحدا لم يكثرث بها لسبب واحد ، هو أن الذين نقلوا أنباء الآفة الى القرية كانوا من شدة التأثير بالنكبة بحيث لم يعنوا ببيان خطورتها . . ثم ان سكان المناطق الجبلية في الاقليم كانوا يذكرون على الدوام روايات مبالغاً فيها عما يقاسون في حياتهم من البأساء ، استدرارا للعطف عليهم . فكانت في الحق صدمة ومفاجأة للطبيب أن يرى ويلمس بنفسه حقيقة ما حل بالوادي الاسود وهو يجتازه في طريقه الى ( وادي جليناري ) . . فقد شاهد جميع الحقول التي كانت مخضرة منذ أيام قلائل وقد استحالت الى أرض مسودة عارية جرداء . . وألقى الاهلين الذين كان يمر بهم في طريقهم الى القرية يسرون متباطئين متناقلين يسودهم الصمت والتوجوم دون أن يتوجهوا اليه بنظرة واحدة . . ولم يجد واحدا منهم حاول أن يعترض طريقه لكي يسأله معروفا أو احسانا كمألوف عادتهم من قبل . . فكان في ذلك ما روعه ، حتى راح يهمز جواده ليستحثه على الاسراع به كأنما يريد الفرار مما يرى . .

ولكن الجواد اضطر الى البطء في سيره عند بلوغ قمة الجبل الفاصل بين ( الوادي الأسود ) و ( وادي جليناري ) ، اذ كانت الطريق ضيقة وعرة لم تخترقها مركبة من قبل . . وكان ( وادي جليناري ) ذاته منخفضا ضيقا تحف به كتل الجرانيت الضخمة ، وقد تناثرت بينها الاكواح الطينية ذات الاسقف المغطاة بأعواد الحطب والقش ، تطل من خلف الكتل الصخرية كأنها كائنات مذعورة ، وقد تلاشت من هذه البقعة الكالحة تلك الرقاع المخضرة التي كانت تخفف من وحشتها وتجهمها في مثل هذا الوقت من العام ، بعد أن أتت الآفة على محصول البطاطس الغض وتركت مكانه سوادا وقفرا . .

وبعد أن هبط الطبيب بفروسه مسافة ربع ميل مارا بالمقبرة والكنيسة الصغيرة لمح شابا خلق الثياب يخرج من خلف سور ويجري الى ناحيته وقبعته بيده . . وقد قال له عندما دنا منه :

— من هنا يا صاحب السيادة . . البيت هناك . .

وأشار الشاب يسارا الى كوخ صغير قائم في نهاية حقل صخري أجرد . . وما لبث أن جرى شطر الكوخ وهو حافي القدمين ، فأخذ الطبيب يتبعه بالفرس محاذرا بين الصخور المقلقة ، وكان الكوخ في بقعة تراكت فيها الاقدار ، وأمام بابه بركة راكدة تفوح منها الروائح الكريهة ، ولم يكن للكوخ نافذة ولا مدخنة ، فكان بابه هو المنفذ الوحيد للدخان .

وترجل الطبيب وقال وهو يقدم للشاب عنان الفرس :

— أنت ابن اثريضة ؟ . .

فأومأ الشاب بحركات مضطربة ، وكانت ملامحه تدل على بلاهة مطبقة ، وسحنته صورة متنافرة مؤثرة . . وقد قال له الطبيب وهو واقف امام البركة الاسنة التي تسد الطريق الى مدخل الكوخ :

— لماذا لا تعمل على تنظيف هذا الطريق ؟ . . عجيب أن يترك المكان



هكذا وفي الداخل امرأة مريضة !! لماذا لا ترفع هذه الاوساخ ؟ ..  
فجعل الشاب يبتسم في بلاهه ، وحك ظهره برهة ، ثم أخذ يقول  
بصوت حاد :

— ان المكان هكذا دائما يا سيدى ... وهذا موضع (كوم السباخ)  
ولكن أمطار الليلة الماضية هي سبب هذه المياه .. أما أمى فليست مريضة ،  
لأنها لم تتحرك منذ مدة ، بعد أن أكلنا ليلتين ثمارا من الغابة .. أكلتها  
أمى وأخى وأنا .. وذلك بعد أسبوع لم نأكل فيه شيئا .. اننا نعيش  
هنا وحدنا ياسيدى ، بعد أن هاجر (تومى) الحداد الى أمريكا .. وأقرب  
دار لنا هي دار ( باتش فينى ) الذى استعار أخى حمارة وذهب به  
لاستدعائك يا سيدى .. ان أمى لم تتحرك منذ تلك الاكلة ، مما أفرغنى  
أنا وأخى .. ان جسمها منتفخ يا سيدى .. ولما خفت لوجودى وحدى  
معهما خرجت الى الطريق منتظرا حضورك .. ليس هناك أحد غيرنا فى هذه  
الجهة الموحشة ، وخصوصا ان المقبرة هناك ..

وأجهش الشاب بالبكاء ، فترك لجام الفرس وجلس يخفى دموعه فى  
قبعته المثقوبة .. فضحلت الفرس وابتعدت مسافة عن الكوخ .. وأما  
الطبيب فلم يسعه الا أن يثب فوق البركة وهو يدمدم فى سره اشمنزازا ،  
فانتهت به الوثبة الى عتبة الكوخ حيث اصطدم رأسه بسقف الباب الواطئ ..  
.. فدخل وهو يشتم ولكن الرائحة الكريهة التى قابلته كادت تدفع به  
من حيث جاء .. بيد أنه تغلب على تقززه بجهد وأجال نظره حواليه ..

كانت الظلمة مخيمة فى أرجاء الكوخ بسبب دخان المدفأة المنعقد فى  
جوه .. ولم يلبث أن شاهد امرأة ممددة على ظهرها قرب المدفأة فوق  
فراش من القش ، تغطى جسمها بعض الخرق ، وقد برزت ساقاها العاريتان  
مورمتين يابستين ، وبدا بطنها منتفخا شديدا الانتفاخ ، وتدلّى فكها ..

وقال الطبيب يخاطب المرأة :

— ماذا تشكين ؟ ..

ولما لم تجب المرأة دنا الطبيب منها وانحنى فوقها ليتبينها جيدا ..  
وسرعان ما استقام واعتدل من فوره هاتفا :

— رحماك يا ربى !!

فقد كانت المرأة ميتة ، وقد مضى وقت على وفاتها .. بل انها كانت  
فى حالة تعفن شديد ، وبدا سبب الوفاة واضحا للطبيب ، حتى لقد  
تملكه خوف عنيف .. اذ كانت أول وفاة بالطاعون عرضت له فى حياته  
الطبية ..

وكذلك هرع الطبيب الى خارج الكوخ دون أن يحاول حتى تغطية  
وجه الميتة بقطعة من الخرق التى علت جسدها ، فأدت به رغبته فى سرعة  
الابتعاد الى التخييط فى البركة القذرة أمام الكوخ ، مما ضاعف من خوفه  
اشفاقا من العدوى .. وصاح فى الشاب قائلا :

– كم مضى على مرضها ؟

– أهى مريضة ؟

فقال الطبيب فى غير ترفق :

– انها ميتة .. ما اسمها بالكامل ؟

– ميتة ..

ردد الشاب هذه الكلمة وهو يرتدى على الارض باكيا نائجا حتى لم يستطع الطبيب أن يفوز منه بالبيان الشافى برغم تكرار المحاولة .. وهم الطبيب أن يمتطى فرسه ويسرع بالعودة الى القرية لابلاغ السلطات المختصة عن ظهور هذه الحالة الوبائية ، لولا أن تذكر واجبه فى تحذير الشاب من دخول الكوخ ، فقال له :

– ستموت أنت أيضا ان دخلت ..

فأمسك الشاب عن العويل ، وتطلع الى الطبيب برهة .. ثم قال بلهجة الاءياء :

– لا يهمنى .. أنا جوعان .. ان مصيبتنا هى الجوع يا سيدي ..  
ان الجوع ينهشنا منذ الشتاء ..

فلم يتمالك الطبيب أن قال وقد اشتد به الخجل لما خاطب به الشاب من خشونة :

– يا الهى ! .. تعال معى .. سأعطيك شيئا تأكله .. اسرع الآن .. أنا مستعجل ..

فتطلع اليه الشاب وهو لا يصدق سمعه .. وما لبث أن وثب قائما وهو يصرخ من شدة الفرح محاولا تقبيل ركبتى الطبيب ، لولا أن ابتعد عنه قائلا :

– اجر أمامى ...

– سأجرى يا سيدي .. بارك الله فيك .. سأجرى كما لم أجر طول عمرى ! .. أدعو الله أن يبارك لك يا سيدي فى كل ما عندك ! ..

فامتطى الطبيب الفرس وتبع الشاب الذى سبقه الى الطريق .. وظل الشاب يتقدم الطبيب حينما والأمل فى الفوز بالطعام أكبر حافز له على الاسراع .. لكن الحرمان الاخير نال منه ، فما لبث أن أبطأ فى جريه واضطر الى المشى العادى ، وأخيرا وقف مستندا الى سور وهو يلهث عاليا، وقال للطبيب :

– لا يمكننى التقدم أكثر من هذا يا سيدي .. اننى أشعر بالمرض

فما أن سمع الطبيب كلام الشاب حتى سرت رجفة فى كيانه .. فهل انتقلت عدوى الطاعون الى الشاب ؟ ..

ولكن الطبيب تغلب على خوفه وترجل وأخذ يفحص الشاب .. بيد أنه لم يجد أثرا للوباء ، وما كان اعيأؤه الا وليد الجوع الذي سبب له انتفاخا شديدا في معدته .. وهكذا أركب الشاب فرسه وركب خلفه .. وعلى هذه الصورة عاد الطبيب الى القرية .. وكان أكبر الدليل على تعاسة الاهلين أن الذين كان يمر بهم في الطريق لم يحفلوا بالشاب وهو مقتعد ظهر الفرس .. فقد كانوا يسيرون صامتين ينظرون الى الارض .. ولم يفتن الطبيب أول الامر الى كثرة عددهم .. فمنذ كانت ندرة القوت والناس لا ينقطعون عن التوافد على القرية .. بيد أن الطبيب لم يكذب يقترب من بيته حتى أدرك أن هذه ليست الوفود المعتادة للمتسولين وطلاب العمل .. فقد كان الموكب ينتظم عائلات بأسرها ، وكثير من المستنبيين بينهم كانوا يحملون لفائف الامتعة كأنهم هجروا ديارهم .. بل انه مر بامرأة عجوز طاعنة في السن محمولة على ظهر ولدها .. ولما بلغ شارع القرية في النهاية ورآه غاصا بالناس ، مال نحو جماعة كان يمر بها وقال مستفسرا :

— ماذا جرى اليوم ؟ .. لماذا تذهبون كلكم الى ( كروم ) ؟ ..

فاستدارت اليه امرأة شاحبة الوجه وهتفت قائلة :

— هو الجوع الاكبر جاءنا ! ..

وارتفعت على الأثر أصوات متعددة تهتف محزونة نادبة :

— نعم .. جاء الجوع الاكبر ! .. اننا نمشي ورؤوسنا فوق أيدينا !

ولم يتجه أحد منهم بنظره الى الشاب الذي سقط فوق سرج الفرس وقد أطبقت عيناه .. فقد انعدمت الرحمة بظهور الجوع ..



## الفصل الثاني والأربعون

فى غابة صغيرة من أشجار الصنوبر مجاورة لبيت الأب ( روش ) قسيس كنيسة ( كروم ) ، توجد رحبة بين الأشجار اعناد القس أن يلوذ بها أغلب أيامه للتأمل والمطالعة فى الكتيب الذى جمع فيه مختاراته . . . والى هذه الرحبة جاء القس صباح اليوم حيث ركع على ركبتيه مبتهلا الى الله يرجو منه العون . . . وكانت أشعة الشمس المرسلة من خلال الأشجار تنعكس على رأسه الاصلع المطرق فوق يديه المشبكتين وهو مغمض العينين . . . ومع انه كان يحرك شفتيه بالصلاة والدعاء فانه كان مشتت البال لا يستطيع أن يركز فكره فيما كان يدعو به . . . وكان الى هذا فى شبه غيبوبة بتأثير حرارة الشمس وصدح الاطيار المتعالى بين الأشجار ، مما زاد فى تخدير أعصابه . . .

والحق أن الأب ( روش ) قد خجل من الابتهاال والدعاء بعد أن رأى الاهلين من سكان ( الوادى الاسود ) و ( وادى جليزاري ) يحتشدون فى الطريق أمام بيته . . . ولم يملك الا أن يفر منهم الى حيث احتفى به هذه الرحبة المنعزلة بين أشجار الصنوبر خجلا من مواجهتهم وهو لا يملك ما يقدمه لهم . . . بل انه لم يلبث أن خجل من الابتهاال والدعاء بعد أن لم تظهر له علامة تدل على استجابة دعائه أو الهامه الى ما يهديه سواء السبيل ، وكذلك أغمض عينيه واستسلم لهذا الخدر الذى استولى عليه ولم يلبث أن انتفض حين سمع فجأة صوتا بقربه بين الأشجار . . . ففتح عينيه ورفع رأسه ، وأنصت . . . فسمع صلاة وتسبيحا . . . فلم يتمالك المسكين أن هتف قائلا :

— معجزة ! . .

وقد حسب أول الأمر ان الله قد استجاب دعائه ، وان الوحي يوشك أن ينزل عليه . . . لكنه عندما تمالك حواسه وعرف فى المتكلم صوت الأب ( جيلان ) ، شعر بوجهه يلتهب خجلا ، ووثب على قدميه قائلا بصوت عال :

— يا له من موقف عجيب !

وأسرع الى مصدر الصوت ساخطا مهتاجا كعادته كلما ألت به مشكلة، فشاهد الأب ( جيلان ) واقفا يصلى قرب البرج القديم الخرب المجاور للغابة . . . فسعل الأب ( روش ) ، فما لبث الأب ( جيلان ) أن استدار نحوه وقد تورد وجهه هو الآخر . . . فقال له الأب ( روش ) :

— صباح الخير يا ( توم ) . . . هو موقف عجيب هذا الذى نقفه الآن،

اذ يهرب كلانا من مواجهة الناس ! ... ها هم الآن محتشدون فى الطريق ... ولا مفر لنا من مواجهتهم ... لم تبق فائدة من تحاشيهم .. لقد وقعت الواقعة ، وسيكون الهلاك مصيرهم ان لم نعمل شيئا لاسعافهم ... فقال الأب ( جيلان ) مغتبطا :

— يسرنى أن أسمع منك هذا الكلام ... لقد دنت الساعة .. انى لم أحضر الى هذه البقعة هاربا ، بل جئت أسأل الله العون فيما هو أمامى من عمل ...

فما كاد الأب ( روش ) يسمع هذا الكلام حتى استحال غضبه الى خوف ، وقال بصوت خافت :

— وما هو هذا العمل ، ان صح لى أن أسألك ، بصفتى رئيسك الروحى ؟ ..

فهتف الأب ( جيلان ) قائلا :

— لقد حانت الساعة لنضرب ضربتنا ... ان لم يكن بد من أن نموت ، فلنمت ميتة الجندى ...

فهتف الأب ( روش ) وهو يترنح من فرط الانزعاج :

— هل عدت الى ترديد هذه النغمة من جديد ؟ ... كنت أظنك شفيت من دائك ... اذن أنت تريد الثورة ! ... القوة والعنف ! ... ألا توجد مادة فى ( قانون الاصلاح ) الذى أصدرته الحكومة ، تحتم الامتناع التام عن أعمال العنف كافة ، أو مخالفة القانون ؟ ألم ينص فى ذلك القانون ، فوق هذا كله ، على وجوب الولاء التام لمليكتنا المحبوبة ، صاحبة الجلالة الملكة فكتوريا ؟ ...

ولكن الأب ( جيلان ) صاح قائلا :

— لكن لا يوجد قانون سماوى أو وضعى ، يمنع المحروم من المحافظة على حياته اذا تعرضت للهلاك ... انى قررت أن أحض الناس على المكافحة من أجل حقوقهم مهما تكن النتائج ...

فهتف به الأب ( روش ) :

— وبماذا يكافحون يا أبله ؟ ... بأيديهم العزلاء ، ضد الأسنة والحراب ! ... انك لمجنون ... انى أنهاك أن تحرك ساكنا أو تقول للناس شيئا ... ولو عصيت فسأعمل على تجريدك من رداء الكنيسة ...

فوقف الأب ( جيلان ) منتصب القامة ، وجعل يحدج رئيسه بنظرات صارمة ، ولكنه ما لبث أن ثاب الى الهدوء ، فأطرق ، وتمتم قائلا :

— ربما كنت على حق ... لكن اذا صح ذلك ؛ لكان هذا بدء النهاية بالنسبة للكنيسة ... ان الكنيسة اذا لم تستطع حث أبنائها على الكفاح

فى سبيل العدالة والحرية ، فعليها أن تخلى مكانها لمن ينهضون بهذا  
الواجب ، ممن يعدون السيف أقدس سلاح للدفاع عن الحرية والعدالة...  
ثم رفع الأب ( جيلان ) رأسه وهتف قائلا :

– بوسعنا على الأقل أن نطعم الناس... ليس فى الدنيا قانون يمنعنا  
من مطالبة السلطات المسئولة بأن تفتح للناس مستودعات المثونة  
والأطعمة...

فرد الأب ( روش ) قائلا :

– آسف يا ( توم ) اذ تسرعت فى كلامى لك... ليس هذا وقت  
الجدال والشحناء... هلم بنا لنقوم بما يمليه الواجب علينا .

وعاد الاثنان الى بيت الأب ( روش ) من الباب الخلفى... فقابلتهما  
المشرفة على شئون البيت فى المطبخ ، وأخبرتهما أن ساحة الدار الأمامية  
غاصة بالأهلين الذين يطلبون القوت... فقال لها الأب ( روش ) .

– اعطيهم كل ما فى البيت... هيا بنا يا ( توم )...

وفتح الاثنان الباب الأمامى ووقفوا أمام الناس وجها لوجه... فاذا  
ساحة البيت والطرق المجاورة له قد غصت بجماهير الجوع... وكانوا  
وقوفاً صامتين حتى بدا لهم القسيسان ، وسرعان ما تعالت صيحاتهم بهذه  
الكلمات :

– ان الجوع هدنا أيها الأب !...

فلم يتمالك الأب ( روش ) حين سمع هذه الصيحة المؤثرة الأليمة أن  
جرت دموعه فوق خديه... وما لبث أن رفع يديه الى ما فوق رأسه قائلا:

– ان كل ما أملك هو لكم !... أوصيكم الآن بالصبر ، وسنرى  
ما يمكن أن نؤديه لكم !...

وعند ذلك تقدم الأب ( جيلان ) الى الأمام وصاح فى الناس قائلا :

– سنحمل الحكومة على فتح مستودعات للطعام !...

فهتفت الجماهير فى صوت واحد :

– بارك الله فى الأب ( توم ) !



## الفصل الثالث والأربعون

عندما تكون الحكومة ترجمانا لارادة الشعب، فإن أى خطر تستهدف له طبقة من طبقات المجتمع يحفز السلطات المسئولة الى العمل واتخاذ الاجراءات الوقائية الكفيلة بدرء الخطر . . أما الحكومات المستبدة فانها لا تنشط الا للقيام بأعمال القمع والتنكيل . . وما لم تكن مصالح الطبقة الحاكمة فى هذه الحكومات المستبدة مهددة بالخطر ، فان اداة الحكم تظل جامدة لاهية . . فقد رأينا فيما تقدم من الفصول كيف تذرعت حكومة الاقطاع الانجليزية بالقوة الغاشمة عندما كانت مصالح مالك الارض الانجليزى مهددة ، الى حد انها لم تتورع عن سلب الاهلين ما ملكت أيديهم . . ويبقى بعد ذلك أن نرى ما فعلته هذه الحكومة الاستبدادية عندما نكب الاهلون المساكين ، بفعل القدر ، فى محصول البطاطس الذى زرعه هذا العام ، وهو كل ما أبقت عليه يد الغصب والسلب الممثلة فى ( شادويك ) وحلفائه رجال البوليس . .

فانه بينما كان القسيسان يتقدمان الموكب الشعبى فى طريقهم الى دار المحكمة اذ تصدت لهم قوة كبيرة من رجال البوليس خرجت اليهم من ثكناتها شاكية السلاح بقيادة مفتش المنطقة الذى شهر سيفه بيده . . . وقال المفتش حين صار على قيد خطوات من القسيسين :

— قفوا ! . . انى أمنع هؤلاء من التقدم . .

فوقفت الجموع . . ووقف الأب ( روش ) . . أما الأب ( جيلان ) فظل يتقدم حتى اقترب من مفتش البوليس . . وما لبث أن هز قبضته فى وجه المفتش صائحا :

— لقد شبعنا من تهديداتك أيها القاتل المأجور ! . . لن تستطيع أنبت ولا غيرك أن تمنع هؤلاء الناس المساكين من طلب العدالة ! . .

ثم اتجه القس الى الجماهير وصاح بأعلى صوته ملوحا بذراعيه :

— تقدموا يا رجال ! اخترقوا صفوفهم ! . . لتحنى ازلندا ! . .

والحق أن مفتش البوليس الذى أدهشته هذه الفورة تنحى جانبا حين رأى اندفاع القس نحوه . . فجرى القس الى الامام وهو يصيح ويهتف فى سورة الغضب التى ملكته دون أن يعترضه رجال البوليس . . على أن هؤلاء ما لبثوا أن ضموا صفوفهم بمهارة بعد أن مر من بينهم ، حتى وجد نفسه معزولا عن الجماهير ، التى لم تحاول متابعته . . فقد منعهم الأب ( روش ) من السير فى أثر زميله . . والواقع أنه ما كاد الأب

( جيلان ) يصيح صيحته حتى استدار الأب ( روش ) وواجه الجموع صارخا ملوحا بذراعيه يدعوها الى الوقوف .. فلما ارتدت الجموع الى الخلف استجابة له ، وكانوا فى قرارة نفوسهم يتمنون الابتعاد عن حراب رجال البوليس ، التفت الأب ( روش ) الى المفتش ، وقال له متلعثما :

— ما معنى هذا العمل من جانبكم ؟ ..

فأجاب المفتش بقحة :

— ألا تعلم أن هذه المنطقة تحت الاحكام العرفية .. ان كافة الاجتماعات التى تعكر الامن محظورة ..

— لكن هؤلاء الناس كانوا يريدون ...

فقاطعه مفتش البوليس قائلا :

— ان زميلك القس قد بين لى بوضوح ما هى نواياهم .. لقد جاءتنى شكاوى من المستر ( هاينز ) أنهم كانوا ينوون الهجوم على متجره ...

فهتف الأب ( روش ) قائلا :

— هذا كذب ! كل ما هناك أنهم كانوا يريدون طلب المعونة وفتح مستودعات الاطعمة ..

فرد عليه مفتش البوليس قائلا :

— ليفعلوا هذا بوساطة ممثليهم أمام ( لجنة المعونة ) ... على هذه الجموع أن تنفض حالا ، والا فليحتملوا النتائج ! وانى أعذك مسئولا اذا تدخلت فى أعمال السلطات المختلفة فى أثناء القيام بواجباتها .. هل تعلم أن الطاعون تفشى فى ( وادى جلينارى ) ، وأن هؤلاء الناس قد يكون بينهم من يحمل الوباء ؟ ..

فصاح الأب ( روش ) وقد اشتد اضطرابه :

— الطاعون ؟ .. أى طاعون ؟ ...

— قل لهم أن ينصرفوا ...

ثم التفت المفتش الى الجموع قائلا :

— على كل منكم أن يعود الى بيته حالا ! .. وكل من يوجد فى الشارع بعد ساعة واحدة سيقبض عليه ! .. هيا انفضوا !

والتفت الى الأب مرة أخرى وأردف قائلا :

— قم بواجبك أيها الأب ( روش ) ... قل لهم أن يتفرقوا بهدوء ..

فأطاع القس مدعنا مستسلما ، وأهاب بالناس أن يتفرقوا ... وقد انقضت برهة دون أن يتحرك أحد منهم ... ولكن ما كاد رجال البوليس يتقدمون نحوهم للهجوم عليهم بالحراب المثبتة فى بنادقهم حتى شاعت الفوضى فى صفوفهم ، وأخذوا يتدافعون فى كل مكان ... فمئهم من راحوا

يركضون فى الازقة ، ومنهم من هربوا شطر الجبال . . . وفى هذه الاثناء عاد الآب ( جيلان ) من بين صفوف رجال البوليس وجعل يجرى فى أثر الجماهير الهاربة صائحا :

– اثبتوا يا رجال ! . . . انهم لن يجسروا على اطلاق النار ! . . . ارجعوا ! . .

لكن أحدا لم يعبأ به ، حتى وقف أخيرا فى وسط الشارع يلهث ودموع الغيظ تنهمر على وجنتيه . . . وما لبث الآب ( روش ) أن أسرع نحوه وهو يتوعده بقبضتيه ومفتش البوليس يبتسم تفكها من طرافة هذا المشهد على حين هتف الآب ( روش ) قائلا لزميله :

– سأشكوك الى الأسقف ! . .

فلم يزد الآب ( جيلان ) على أن نظر اليه قائلا :

– غفر الله لك . . .

وسار مطرقا فى اتجاه مسكنه . . . أما الآب ( روش ) فقد عاد أدراجه الى ناحية مفتش البوليس وتمتم قائلا :

– ها هم ذهبوا الآن . . . فهل يرضيك هذا . . . لكن أين يجدون الطعام ؟ . . . لا يمكن أن يموتوا جوعا . . . أنا لن أدعهم يموتون من الجوع .

فهز المفتش منكبيه وقال له :

– ان هذا من اختصاص ( لجنة المعونة ) . . . أما عملى فهو حفظ الامن والنظام . . .

فرد عليه القس قائلا :

– يا له من أسلوب بديع فى حفظ النظام ، بالحراب ! . . .

– ان الحراب لم تكن هى المسئولة عن قتل مستر ( شادويك ) غيلة وغدرا . . .

فصاح الآب ( روش ) فى المفتش قائلا :

– وماذا يهمنى من أمر ( شادويك ) ؟ . . . لم لا نفض على القاتل وتعاقبه ؟ . . . ليس هذا عذرا يبرر اضطهاد الأبرياء . . . انى سأشكوك بسبب هذه التصرفات . .

– لك أن تشكو ما شئت . . . الى الأمام سر . .

وسار المفتش مع رجاله لتطهير القرية من كل تجمع . . . ولما صار القس وحده فى الطريق تملكه غضب شديد حتى راح يطبق قبضتيه ويلمدم قائلا :



— يا لهم من قتلة مأجورين ! .. ان الأب ( جيلان ) على حق ، وانا المخطيء ، غفر الله لي ....

وما لبث الأب ( روش ) أن راح يسير متباطئا في اتجاه الفندق منكس الرأس ويداه خلف ظهره وهو صورة مؤسسية للخزي والخذلان ... وقد أدرك في سيره أن هذه الكارثة التي جعلت الشعب عاجزا مغلوبا على أمره تحت رحمة حكومة استبدادية غاشمة ، لم تكن الا بسبب سياسة (السلم بأي ثمن) التي طالما نادى هو بها ، يشاركه جميع القسوس ورجال السياسة المشرفون على تنفيذ ( قانون الاصلاح ) ... ولو أن أبواق الحرب دوت منذ أقل من عام واحد ، لخف مليون ارلندي مسلحون بالروح الثورية المضطربة ، لسحق رجال الاقطاع السلايين الذين يسومونهم الظلم والعسف ... لكن ( اكونيل ) ، زعيم المنادين بالثورة ، قد تنكر لمبادئه باعتناق سياسة المسالمة ، وعلان ولائه ( للتاج البريطاني ) ... بل ان الأساقفة ورجال الدين راحوا هم أيضا يحضون الشعب على انتهاج هذه السياسة السلمية ، والخضوع للقوانين الجائرة التي تملأ بطونهم وتفقد عليهم الاموال وتسكنهم القصور ... وكذلك درج كل من كانوا يتصدرون مكان القيادة والزعامة في الشعب الارلندي على المنادة بوجوب المحافظة على حياة الناس ، وأنه ما من قضية مهما جل خطرها تساوى اراقة دم انسان واحد ... أما الآن ، فان هذه الدماء التي حرصوا عليها ، لن تلبث أن تتعفن في الأجساد الهالكة من الجوع ، تلك الأجساد التي توشك أن تلقى — ثمنا للخنوع والتمسك الدليل بأهداب المسالمة — مصيرها المحتوم في تواريع الأمم والشعوب ...

أجل ... لقد كان الجو في كل مكان ينضح بروائح التعفن والفساد والهلاك المنتشرة في جميع الارحاء ... فبين عشية وضحاها هبط البلاء من الوديان الجبلية الى ربوع القرية ، حتى استحالت الحدائق المتناثرة بين الدور الى رقاع سوداء ، وخيمت في جو القرية علائم الصمت والوحشة والوجوم ، ولم يسمع في طرقاتها سوى وقع أقدام الجند وصيحات الهاربين عن بعد ... وقد أغلقت البيوت على أصحابها ، وبدت الوجوه من خلف النوافذ تتطلع وترقب ... فهل يصدق انسان أن هذه البقاع ذاتها ، قد شهدت من قبل ( منقذ الشعب ) ، مكارثي لالور ، وقد وقف يوم السوق في الخريف الماضي ، يخطب في ساحة الكنيسة معلنا بين الناس ما انعقد عليه تصميم ممثلي الشعب لانقاذهم ودفع الكوارث عنهم ؟ ...

وبلغ الأب ( روش ) الفندق أخيرا ... فشاهد ( جون هاينز ) مجتمعنا في البهو مع نفر من الناس وهم يتحدثون باهتمام ... ولكنهم أمسكوا عن الحديث لدى قدوم القس ... الذي اتجه الى (هاينز) وقال له غاضبا :

— ماذا جرى ؟ ... لماذا شكوت الى البوليس ؟ ...

فأجاب (هاينز) قائلا :

— لانهم جاءوا يهددونني في متجري ... فكان لابد أن أطلب النجدة ، والا مزقوني اربا ... يهددونني في متجري ؟ ...

كان الرجل يتكلم بصلف وغطرسة .. فان النجاعة جعلت منه رجلا ..  
بل انه لم يعد يخشى حتى القس ، وكان من قبل ينظر اليه نظرة العبد  
الى السيد ...

وقد رد عليه القس قائلا :

— كان بإمكانك الحضور الى .. ولم تكن هناك ضرورة لكى تذهب  
الى البوليس .. انظر ما الذى فعلوه ! .. لقد سددوا حراهم الى الصدور  
... وسيكون من الصعب مطالبة الحكومة بالعمل اذا اعتبرتنا عصاينة من  
الغوغاء ..

فقال ( هاينز ) :

— ان باب العمل كثير منوع ، ولكن المهم هو نوع العمل الملائم  
لاحتياجاتنا ...

ونظر ( هاينز ) الى الموجودين لتعزيز وجهة نظره وهم من موظفى  
الحكومة العاملين فى شئون المعونة ، وكانوا يقيمون عنده فى الفندق ..  
لم يخبوا ظنه ؛ وهزوا رؤوسهم موافقة وتأيدا وهم يكرهون الحركات  
الوطنية المضادة لمصالحهم . والواقع أن الاب ( روش ) ما لبث ان استكان  
أمام هذا الجمع وهو الرجل الضعيف الشخصيه الذى يتأثر بما حوله ،  
فقال لهاينز مترفقا :

— لكن ما الذى حدث ؟ ..

— سأخبرك أيها الأب .. أدخل أولا واجلس ...

فنبعه القس الى غرفة صغيرة ، وجاء الباكون معهما ... وبعد أن  
جلس القس جعل ( هاينز ) يقول محتدا :

— هناك أناس هم لعنة على أنفسهم وعلى جيرانهم ! .. من هو مصدر  
جميع المتاعب التى حلت بالاقليم ؟ .. من هو أكبر المهيجين المحرضين بيننا؟  
.. انه ( جليسون ) النساج ، ذلك الذى حكم عليه بالنفى الى استراليا بعد  
أن حاول قتل أحد رجال البوليس بحربته . من هى التى أساءت الى سمعة  
القصر ، ولطخت أسماء الناس بالوحل ، بالفصائح التى نشرتها ؟ .. هى  
ابنة ( جليسون ) التى ذهبت الآن الى حيث لا يعلم انسان ... من الذى  
قتل مستر ( شادويك ) رحمة الله عليه ، وقد كان مدينا لى بأموال لن  
تسدد أبدا ؟ .. هو ابن ( جليسون ) ، الذى أصبح الآن فى عداد  
الأموات ، بالاشتراك مع زوج ( مارى ) ابنة ( جليسون ) الثانية ، ذلك  
الزوج الذى هرب بين الجبال ، ووضعت السلطات ثمنا لرأسه .. هؤلاء  
الناس هم سبب جميع المتاعب التى تعرضنا لها ، من شغب واعلان للأحكام  
العرفية ، واستيلاء على مواشى الأهلى ، مما ضيع على كل فرصة لاسترداد  
الديون التى هم مدينون لى بها ! .. والأسوأ من هذا أن ( مارى كليمارتن )  
هذه جاءتنى اليوم يصحبها ( تومسى ) السكر و ( بريان ) العجوز ، فى  
مظاهرة لم يسبق لها مثيل ... ان ( بريان ) العجوز كان طول حياته رجلا

طيبا ، حتى دخلت هذه المرأة بينه ، فاصبح الآن فى شيخوخته لا يقل عنها سوءا . . . نعم ! . . . لقد جاءنى الثلاثة يجرون وراءهم جمعا من الناس ، وكانت تلك المرأة تتكلم فى الناس وتهيج خواطرهم ، كما كان يفعل أبوها من قبل . . . ولما دخلت الى المتجر وقفت أمام الحاجز وقالت لى :

« ان بيع القمح الأصفر بثلاث شلنات للكيل الواحد هو لصوصية . »

ووقف ( بريان ) العجوز بجانبها متحفزا يطل الشرر من عينيه . . . ولما قلت لها كيف يمكن بيع القمح بثمن أقل ، وابنى يستورده من الخارج ثم ينقله من الميناء بنفقات اضافية ، صمت أذنيها ولم تهتم بكلامى . . . وبعد هذا بدأ صياحهم ضدى ، فذهبت الى الباب الخلفى متظاهرا بانى سأحضر لهم القمح من المخزن ، ومن هناك أسرعى الى الشكنات واستنجدت بالبوليس . . . فهل أخطأت أم أنا على حق ؟ . . .

والتفت الرجل الى سامعيه يطلب تأييدهم لكلامه . . . وهذا نهض الأب ( روش ) قائلا :

— لكن هل هى حددتك ؟ . . . هل كان كل ما قالت لك ان سعر القمح مرتفع جدا ؟ . . . كيف كان نهديدها لك ؟

— تهديدها لى ؟ . . . أيها الأب ( روش ) . . . ألسنت رجلا شريفا ؟ . . . ألم أكافح طول حياتى لتكوين نفسى ؟ هل أذيت يوما أحد جيرانى ؟ . . . هل قصرت مرة فى اتمام واجباتى الدينية ؟ . . .

فأجاب الأب ( روش ) :

— كلا يا ( جون ) . . . لكنك برغم هذا لم تكن محققا فى استدعاء البوليس . . . كان عليك أن تحضر الى . . .

فتبرع بالجواب ( سيمز ) كاتب الصحة ، وهو رجل قصير مدلى الشارب ، من أبناء المذهب البروتستانتى ، اذ قال للقس :

— ان المتجهرين كانوا فى حالة هياج . . . ومن أئتمل أن الطاعون هو سبب هياجهم . . . ان الطاعون حل هنا يا مستر ( روش ) . . .

فاهتاج الأب ( روش ) اذ وجد من يناديه بغير لقبه الدينى ، واذا رأى هذا (البروتستانتى) يتحيز فى مسألة لاتعنى الا الكاثوليك وحدهم . . . فهل بلغت الامور هذا الحد ؟ . . . ما هو ذا الشعب قد أصبح هدفا لحراب رجال البوليس ، ومع ذلك فقد سمح هو لنفسه أن يتناقش مع مؤيدى الحكومة الانجليزية . . . وكذلك صاح القس مهتاجا :

— أى طاعون ؟ . . .

فأجاب كاتب الصحة وهو يفتل شاربه :

— هناك امرأة عجوز توفيت بالطاعون . . . ان الطاعون ظهر فى ( وادى جلينارى ) يا مستر ( روش ) ما فى هذا شك . . . وسأذهب الى هناك حالا يستتب النظام . . .

فيجعل ( جون هاينز ) يقول وهو يؤكد كلامه بحركات يده :



– لن يستتب النظام الا اذا قبض على جميع المهيجين وأودعوا السجن  
وعندئذ قاطعه صوت لدى الباب يقول صاحبه :  
– لي معك كلمة يا أبى ...

فتطلع الجميع فى دهشة الى مصدر الصوت ، فرأوا الطبيب واقفا فى  
مدخل الغرفة وقد اشتد احمرار وجهه وبان الغضب فى عينيه الضيقتين ...  
فقال له الأب ( روش ) :  
– أتقصدين أنا ؟

فاجاب الطبيب قائلا :

– نعم ... ان لي كلمة معك أنت أيها الأب ( روش ) . لكننى أريد  
أن أكنم أبى فى مسأله معينة ...

فما كاد (جون هاينز) يسمع صوت ولده حتى بدت عليه الاستكانة  
وما لبث أن تبع الأب (روش) الى غرفة الجلوس فى أثر ولده بين تغامز  
الحاضرين .. ولما حاولت مسز ( هاينز ) أن تلحق بهم رفع الطبيب يده  
يمنعها من الدخول ، ثم أغلق الباب والتفت الى القس قائلا :

– يسرنى أنك حاضرم معنا .. انى لأريد أن أبقى بعد الآن مستولا  
بـولو جزئيا عن تصرفات والدى ، وأود أن تكون شاهدا ..

فقال (هاينز) :

– ماهذا ؟ .. ماذا تقول ؟

فقال الطبيب :

– أقول انك لص نهاب !

فقال الأب (روش) وهو يقف بينهما رافعا يديه :

– رفقا يا بنى ، ولا تستسلم للغضب ... مالىضى يضايئك ؟

فأشار الطبيب الى أبيه بسبابته وهتف بصوت أجش :

– انه رفض أن يعطيهم الطعام بالأجل ... انه فضل أن يراهم  
يموتون من الجوع ، على أن يعطيهم حبة واحدة من القمح الاصفر بالأجل ..

فقال (هاينز) لولده :

– من المؤكد يا بنى انى ماكنت أستطيع أن ...

وعندئذ واجه القس (هاينز) قائلا :

– هذه هى الحقيقة اذن ! .. هل جاءوك بطلبون منك اعطاءهم القمح  
بـالاجل ؟ .. لقد أخبرتنى أنهم ...

فأجاب (هاينز) وهو يتراجع حتى التصق بحافة الخوان وعيناه  
الماكرتان تقدحان شررا :

— أليس هذا شبيها باعطائهم القمح دون مقابل؟ .. هل كان ينتظر أن يسددوا لي الثمن ؟ .. وهل بقي لهم شيء يستعينون به فور الدفع ؟

فقال الطبيب :

— ان كل ماتملك الآن قد أخذناه منهم ، كما قال الأب (جيلان) .. ان نقودهم هي التي ...

فقال (هاينز) مزمجرا :

— أنت اذن تقف ضد أبيك ، أنا الذي أفنيت عمري في تربيتك ، حتى أصبحت طبيبا ؟

فقال له الأب (روش) :

— مهلا يا ( جون ) .. ألا يمكنك أن تعطيهم القمح بالأجل حتى تتحسن الأحوال ؟

فصاح (هاينز) قائلا :

— ومتى تتحسن أحوال هؤلاء الصعاليك ؟ .. ومن أين لهم النقود التي يدفعون بها ماعليهم ؟

فأجاب الأب (روش) قائلا :

— ان الحكومة ستمنح قرضا آخر لعمال المعونة .. لابد لها من هذا ومن صالحك أن تعطيهم بالأجل .. والا فستضطر الحكومة الى فتح مستودعات عمومية للتموين .

فصاح (هاينز) قائلا :

— لا يمكن أن تفعل الحكومة شيئا كهذا .. هناك قانون يعجزم فتح هذه المستودعات مادام يوجد تجار قادرون على سد احتياجات الناس .. ان القانون لا يمكن أن يتركني أجازف بأموالي لاستيراد القمح ، ثم بحفر الأرض من تحت قدمي ..

فقال له الأب (روش) :

— انك لا تتكلم كما يتكلم الكاثوليكي المؤمن ..

فصاح (هاينز) وهو يعزز كلامه بحركات يله :

— انها أموال .. أموال التي جمعتها درهما فوق درهم على مدار السنين على حين كان العاطلون الذين يطلبون الآن القمح مني بالأجل ، يرمونني بالحجارة .. والآن يجيء ابني الذي هو من دمي ولحمي ليقول اني بخيل ! ..

فهتف به الطبيب قائلا :

— وهذه هي حقيقتك .. يخيل بالثالث ! .. اني أكرهك أيها

العجوز الفظيع ! أكرهك كل الكره .. لقد انتهى كل ما بينى وبينك ! ..  
سأترك بيتك ! .. انى لن أكون مسئولاً عن ...

وارتج عليه ، فتلعثم من فرط الغضب .. وما لبث أن صاح فى أبيه  
وهو يهز يديه فى وجهه :

— انى أكرهك !

واسـتدار للخروج ... فاندفع (هاينز) فى أثره وتعلق بذيل  
سترته وهو يقول بصوته الشبيه بالعويل :

— مهلا يا بنى .. الى أين تذهب ؟

فواجهه الطبيب وقال بصوت كالفحيح :

— اننى سأغادر هذا البيت .. انى سأبحث عن سكن فى مكان آخر  
لأشعر فيه بالحجل من نفسى ! ..

فقال له الأب (روش) :

— لا يمكن أن تفعل شيئاً كهذا .. هذا وقت لابد أن نتعاون فيه معا  
وأنت يا (جون) .. كن معقولا .. ان اعطاء القمح بالأجل لن يؤدي بك  
الى الافلاس .. انك لم تكن محققاً فى استدعاء البوليس .. ان الحكومة  
ستتدخل حتماً .. وعلينا نحن أن ...

وفى هذه اللحظة ارتفعت من ناحية البهو ضحكة عالية ، وأعقبها  
طرق على الباب ، وصوت يقول :

— هل الأب (روش) فى الداخل ؟

فدعا القس المتكلم الى الدخول .. فدخل مستر كرامتون وهو  
صورة مجسمة للصحة والنعمة ، وقد شقت وجنتيه الموردين أساور  
ابتسامة قوية ، وخالط العرق رأسه الأصلع .. بل انه بدا الآن أوفر  
سمنة مما كان عند مازار (شادويك) فى القصر .. وقال يخاطبهم :

— طاب يومكم أيها السادة .. هل تطلعت عليكم وانتم فى اجتماع  
خاص ؟ .. ألف معذرة .. طاب نهارك يامستر (هاينز) .. وانت يادكنور  
قل لى أيها الاب (روش) ، أيمكن أن أحدثك برهة ؟ .. لا .. لا .. ليس  
حديثى خاصاً .. أحب أن أقول انى استمتعت بإقامتى هنا .. ان بلادكم  
مدهشة .. وربما جاز لى أن اعتبر أن زيارتى كانت ثمرة .. ان فكرة  
التنظيم الاجتماعى مبدأ سـليم ، كما يقول السياسيون ، وان كنت  
لأجاريهم فى براعة الكلام ! .. الحقيقة أيها الأب (روش) أننا سننصفى  
أعمالنا هنا .. فقد نفدت الاعتمادات المالية من البنك .. ويؤسفنى أن  
أفارق بلادكم بعد استمتاعى بالإقامة فيها هذه الفترة ..

فقال (هاينز) :

— ماذا تقول ياسيدى ؟



أما الأب (روش) فقد شحب وجهه وهو يقول :

— هل معنى هذا ...

فقاطعه ( كرامتون ) قائلا وهو يفرك كفيه ويستند الى عقيقه :

— لقد انتهت أعمال المعونة .. ان الحكومة رأت لمناسبة قرب جمع المحصول ان استبقاء العمال في أشغال المعونة في الوقت الذي تحتاج فيه المزارع اليهم ..

وفي الحق أن الطبيب شعر وهو يسمع هذا الكلام الغريب برغبة قوية في الضحك ، ولذلك دس منديلا في فمه وأسرع الى جوار المدفأة ، على حين اقترب القس من (كرامتون) وقال له مضطربا متلعثما :

— تعنى ... أنهم ... أنهم سيوقفون ... سيوقفون أعمال المعونة ؟

وقال ( هاينز ) :

— يوقفون أعمال المعونة ؟ .. وماذا يكون حالى ؟ .. ان عندي مقادير كبيرة من القمح كانت ...

فقال (كرامتون) :

— لن توقف الأعمال حالا .. هناك أسبوع أو أسبوعان .. لكن يظهر أن اللجنة المحلية قد جاوزت ما كان مرسوما لها .. اللهم الا اذا استطاعت اللجنة الموقرة أن تحصل على قرض من البنوك للاستمرار في الأعمال ، بضمان الأحجار المكسدة ! .. فهناك جبال منها تخلفت عن الأعمال ، وهي تصلح لشق الطرق و ... هاهها !

وهنا لم يستطع الطبيب صبرا .. فقد هرول خارجا من الغرفة والقس يقول :

— لكن الم يعلموا بأمر الآفة التي أثلفت المحصول ؟

فقال (كرامتون) :

— ان هذه مجرد إصابة محلية .. ويمكن القول انها تخلفت من العام الماضى ... أما سائر الأقليم ..

وابتعد الطبيب قبل أن يسمع تمة الكلام .. فلحق به ( سيمز ) كاتب الصحة وقال له :

— يمكننا الآن أن نذهب ...

فوقف الطبيب وتطلع الى (سيمز) قائلا :

— فيم تتكلم ؟ .. والى أين نذهب ؟ ..

- الى بيت المرأة العجوز .. المصابة بالطاعون .. فى وادى  
(جلينازى) ..

- آه ! .. نعم ... الطاعون .

وسرعان ما نلأشت من نفسه كل رغبة فى الضحك، وتفجرت الدموع  
فى عينيه ، وشعر بقتعيريرة باردة تسرى فى ظفره .. وما لبث أن غادر  
الفندق مع كاتب الصحة .. فرأى مركبة شادويك لدى الباب بعد  
انتقال ملكيتها الى (كرامتون) .. ولمح القس البروتستانتى (كوبيرن)  
بهرول آتيا من ناحية المحكمة وهو يلوح بيديه الى ناحيته .. ولكن الطبيب  
راغ من خلف المركبة وسارع بالابتعاد فى الناحية الأخرى وقد انتابته  
كراهية مفاجئة لبنى الانسان جميعا بلا استثناء .

## الفصل الخامس والأربعون

قال (تومسي) لاهله وهم فى البيت :

– اذن لم نستفد شيئا يذكر من رحلتنا الى القرية ؟

فردت عليه (مارى) قائلة :

– ألا يعتبر فخذ اللحم المقدد شيئا يذكر ؟ • هذا بجانب اخبار (هاينز) البخيل رأى فيه بصراحة ••

فقال (بريان) العجوز :

– لم يخطر ببالي أن الأمر سيصل بى الى حد أكل طعام مسروق تحت سقف بيتى •

وكان هذا الحديث يدور بين أفراد أسرة (كيلمارتن) وهم جالسون يتناولون طعامهم المسروق •• فان (مارى) ذهبت حقا الى متجر (هاينز) بصحبة العجوز و (نومسي) وجمع من الأهلين غاظهم عدم انعقاد (لجنة المعونة) فى ذلك اليوم والواقع أن (مارى) أفزعت (هاينز) حين وصفت له بالبخل وطلبت أن يعطيها القوت بالأجل •• وعندما ذهب العجوز الى مخزنه خلف المتجر تسلمت (مارى) بجانب الحائط الى حيث علق فخذه لحم مقدد ، وانتهزت فرصة الهرج الذى ساد عندما أخذ الناس يهتفون ضد (هاينز) فأخذت الفخذ ودستها تحت حرملةتها دون أن يراها أحد •• وعلى أثر ذلك انسلت عائدة الى باب المتجر ، وكانت فى طليعة الهاربين عند ظهور رجال البوليس فى ثكناتهم •• وقد أفلح ثلاثتهم فى العودة الى البيت بطريق المسالك الجبلية ، حيث جلسوا يأكلون جانبا من لحم الفخذ مع البطاطس الباقى من الفطور ••

ولم تلبث (مارى) أن ردت بغلظة على كلام العجوز ، قائلة

– أنا لم أسرق هذا اللحم •• انى أخذته •• من حق الانسان أن يأخذ مايلزم لبقائه على قيد الحياة •• لا بد لى من اطعام المولود الذى وهبه الله لى ••

فقال (تومسي) :

– سواء كان اللحم مسروقا أو لم يكن ، فهو لذيذ الطعم •

وفالت (ماجى) :

– صحيح •• ومع ذلك فان السرقة حرام •• ولو عرفوا يا (مارى) ما فعلت لكان موقفك صعبا •



فقلت (مارى) لهم جميعا :

— اسكتوا ٠٠٠ ألا تأكلون كلكم هذا اللحم ؟ ٠٠ لا يمكنكم أن تأكلوا  
وتنتقدوا فى الوقت نفسه ٠٠ ولو سنحت لى فرصة أخرى لفعلت هذا  
مرة ثانية ٠٠ اننى لن أعرض نفسى ولا طفلى للموت جوعا مادام لى يدان  
كلوا وأسرعوا قبل أن يجيئنا أحد .

والحق أنهم جعلوا يأكلون وكان هذه أكلتهم الأخيرة ، أو كان هناك  
عدوا يوشك أن ينقض عليهم لانتزاع اللقمة من أفواههم ٠٠ وكانت رائحة  
اللحم المسلووق تفوح من أرجاء البيت ٠٠ وكانت رائحة غير مألوفة الى حد  
أن القط تجاسر على الاقتراب من البيت طمعا فى بعض الغنم ٠٠ وكان الكلب  
يلعق عظمة الفخذ لدى الباب الخلفى ، ولما عطش جاء يبحث عن ماء فى  
ساحة البيت ، ففر القط لدى مقدمه ٠٠ وبعد برهة سمعوا الكلب ينبج  
فقلت (مارى) :

— أسرعوا ٠٠ هناك شخص قادم ٠٠ لابد من اخفاء اللحم !

ووثبت (مارى) قائمة وأمسكت الصحيفة ٠٠ فاختطف ( تومسى )  
آخر قطعة من اللحم ، وتناول العجوز قطعة بطاطس حتى لم يبق شيء فى  
الصحفة ٠٠ وهرعت (مارى) الى غرفة النوم الصغرى حين جاءت ( سالى  
أوهانلون) على الأثر ٠٠ فخرجت (مارى) ثانية وقالت وهى تضع يدها على  
قلبها :

— هى (سالى) ٠٠ انك أفرعتنا يا (سالى) ٠٠

فجعل العجوز يشير الى ( مارى ) من وراء ( سالى ) لكيلا نخبر الزائرة  
بأمر اللحم ٠٠ ولكن (مارى) ضحكت ٠٠ ولم تلبث (سالى) أن حملت فيهم  
قائلة وهى تتشمم الجو :

— ماهذه الرائحة ؟ ٠٠ أليست رائحة لحم ؟

فأجابت (مارى) قائلة :

— صدقت يا (سالى) ٠٠ وستأخذين منه نصيبك ٠٠ انه هدية جاءتنى  
من ابنة عمى (جوليا ) فى ليفربول .

فقلت (سالى) :

— هنيئا لك ببنت عمك ! ٠٠ أما انا فليس لى بنت عم تهدينى  
شيئا ٠٠

وجلست (سالى) القرفصاء قرب الباب ورفعت ذيل ثوبها فوق  
رأسها وأخذت فى العويل ٠٠ فدهشوا جميعا اذ لم يسبق أن رأوها  
تبكى ٠٠ ولذلك خفت (مارى) الى جانبها قائلة :

— ماذا جرى يا (سالى)؟ ٠٠ ما الذى يحزنك؟ ٠٠ هل حدث لباتسى  
شيء ؟ ٠٠

فأنزلت (سالى) ثوبها وقالت بصوت حزين :

— اهتم استغفوا عن (باتسى) .. وسيكون مصيرنا الموت جوعا ..  
ان انطاعون هنا ، وقد أصبح الانسان يرحب به ! .. كان (باتسى) يقاسى  
الويل وهو يشتغل فى عملية حفر التل وبطنه خالية .. لكن المسكين كان  
يحتمل كل هذا لاطعام أطفاله .. لقد جاءهم مستر (كرامتون) اليوم  
واستغنى عن حوالى عشرين من العمال .. وسيطرد الباقون فى الاسبوع  
القادم بعد انتهاء الاموال المخصصة للأشغال .. قل لى أيها العجوز ..  
كيف يرضى الاله فى السماء أن يمنع عنهم الصواعق والرعود وهم ينزلون  
بنا هذه المصائب ؟

وجعلت المتكودة تتمايل من العزن والدموع تجري على وجهها  
المغضن .. فجاءت (ماجى) ومسر (جليسون) الى جانبها لمواساتها ، على  
حين أسرع (مارى) الى غرفتها ومعها السكين فاقتطعت قطعة من اللحم  
المسروق وعادت بها الى (سالى) قائلة :

— خذى هذه يا (سالى) ولا تيأسى .. انك كنت دائما تشجعيننا فى  
أحزاننا ، فكيف يكون هذا حالك الآن ؟ .. ان هذه القطعة صغيرة ، لكنها  
ستساعد .. وقد حصلنا عليها بالطريقة التى حصلت بها أنت على اللبن  
الذى أخذته منك منذ فترة .. اضحكى يا (سالى) ، ودعينا نقابل ماينتظرنا  
بابتسامة !

وضحكت (مارى) وهى راكعة امام (سالى) ضحكة عالية ، لكن  
الدموع ترقرت فى عينيها ، وتهدج صوتها .. فأخذت (سالى) قطعة اللحم  
ثم طوقت (مارى) بساعديها واختلطت دموعهما .

وقالت (سالى) وهى تنظر الى الهدية التى ظفرت بها :

— انها ستساعدنا كثيرا .. لقد بقى عندنا قليل من القمح ، وسندبر  
أمرنا بالأجر المتأخر لباتسى ، حتى يأتى الله بالفرج .. انك على حق  
يا (مارى) .. من الآن ستكون لهاتين اليدين اللتين خلقهما الله لى خفة  
مخالب القط ..

فقال (مارى) وهى تنهض قائلة :

— هذا هو الكلام الصحيح يا (سالى) .. أنت دائما شجاعة يستفاد  
من خبرتك .. ما رأيك فى أحسن خطة يتبعها الانسان فى ظروفنا هذه ؟  
— فيما يختص بنا فائنا سنرحل حالا يصل (باتسى) ويحصل على  
باقى أجوره المتأخرة .. لم يبق هنا خير .. ولن يكون هذا الحسير فى  
المستقبل .

فقال العجوز مغضبا :

— ترحلون ؟ .. وماذا ينفعكم الرحيل والطرق مزدهمة بالناس  
الجياع ؟

— ربما استطعنا الوصول الى ( دبلن ) قبل حلول الشتاء .

فقال (مارى) :

- ربما كنت على حق يا (سالى) .. ولولا أن (مارتن) ...

فصاح العجوز محتجا وهو يضرب الأرض بقدمه تأكيدا لكلامه :

- دعى هذا الكلام .. منذ ساعات كنت تتكلمين عن الكفاح والمقاومة .  
والآن تعودين الى حديث الهرب والرحيل ! .. لابد من بقائك فى هذه  
الأرض .. انك تزوجت فى هذا البيت وفى هذه الأرض .. ولقد ولد لك  
ولد فيهما .. وما دامت الأرض باقية والسقف قائما، فإن الله يحرم عليك  
هذا الرحيل ! ...

فقالت له ( مارى ) :

- لا تصدع آذاننا بصراخك .. لم يرحل أحد بعد ..

فقال العجوز :

- ولن يرحل أحد .. سأمنع كل حركة كهذه ! ..

ولم تلبث ( سالى ) أن نهضت قائلة :

- قد تضطرون قريباً الى الرحيل .. لقد سمعت أن هناك وكيلاً  
جديداً للمالك سيجل محل ( شادويك ) .. ولا شك أنه سيعمل على طرد  
المتخلفين عن دفع ايجار الأرض ..

فنظر اليها العجوز منعقد اللسان عاجزا عن الجواب .. على حين قال  
( تومسى ) :

- صدقت يا ( سالى ) .. ألم نشاهدكم اليوم وهم يقابلون الناس  
بالخراب ؟ .. انهم لا يريدون سوى خراب ارلندا ..

فصاح العجوز قائلاً وهو يتجه الى الباب :

- أنا لا أعترف بما يقولون .. اننى باق فى أرضى لا أتحرك منها ..

ثم أردف قائلاً وهو يهدد الفضاء بقبضتيه :

- لن يدخلوا هذا البيت الا وأنا جثة هامدة ! ..

وخرج العجوز الى الفضاء الفسيح يطلب متنفساً لضيق صدره يتبعه  
الكلب الذى راح يتواثب حوله فرحاً .. واستقر بهما المطاف عند ربوة  
فى سفح الجبل حيث جلس العجوز فى بقعة معشوشبة مستنداً بظهره الى  
صخرة شاهقة من الجرانيت وقد شبك ذراعيه فوق صدره ، وراح يشرف  
من مكانه على الوادى فى هدأة الغسق والظلام يهبط على الأرض ..

لقد ألقى السكون شاملاً مطبقاً لا يخالطه حتى زقزقة العصافير ولا  
أصوات الأطفال فى لعبهم المعهود وقت انصرام النهار .. كان السكون تاماً  
حتى وكأنه عالم الأموات .. وحتى النهر الذى تناقصت مياهه فى الصيف  
أمسى ساكناً .. لقد جمدت الحياة وانقطع دبيبها فى كل ما حوله .. وجاءت



ظلمة الليل بغلالة سوداء أخذت تهبط من أعالي الجبال الى بطن الوادى  
وكانها تؤذن بادماج حياة ساكنيه فى أطواء الفناء الأبدى ..

وجعل الكلب يدور حول العجوز حيناً وهو يتشمم الأرض ، حتى  
إذا لم يجد رائحة جديدة ولا أثراً للحياة عاد الى سيده فوضع فمه على  
ركبته وتطلع اليه .. وكان العجوز اذ ذاك قد جلس ضاماً ركبتيه الى  
صدره مستنداً ذقنه الى يده وقد أخذت الدموع تسيل على وجهه فى سكون  
وهز الكلب ذيله وزمجر قليلاً ليسترعى اليه نظر سيده .. لكن العجوز  
لم يحفل به ، فقد جمد فى مكانه جمود الموت من حوله ، مستسلماً للبكاء  
فى سفح الجبل ..

وعندئذ رفع الكلب رأسه وجعل ينبع نباحاً أقرب الى العواء ....

## الفصل الرابع والأربعون

استقر عزم ( ماري ) تلك الليلة وهي راقدة في فراشها مستيقظة تفكر في حوادث النهار ، على الهرب من الوادي مع طفلها بأقرب وقت ممكن . . . فقد باتت مقتنعة بأن الحكومة الانجليزية ستتدع الناس يموتون جوعا . . . لكن كيف يمكنها الوصول الى ( مارتن ) واصطحابه معها هي و ( ميخائيل ) الصغير الى أمريكا ؟ . . . لو أنها ذهبت بنفسها اليه في المخبأ لتبعها رجال البوليس ، وهم لا يزالون جادين في البحث عنه . . . وحتى لو أفلحت في الانضمام اليه ، فإن الموانئ تحت المراقبة ، وليس لديهم نقود لدفع أجرة السفر بالسفينة . .

ومع ذلك فان مجرد التفكير في الهرب قد شجعها على أن تعد هذا الهرب شيئاً ممكناً . . . والواقع أن استقرار الانسان على ما دائماً عون كبير في الأزمات . . . ثم ان ( ماري ) لم تلبث أن تذكرت تلك الرؤيا التي نرأت لها ليلة أن أصيب شقيق ( مارتن ) بالمرض . . . فقد تراءى لها ملاكها الحارس في المنام وأخذها الى سفينة كبيرة ذات أشعة بيضاء أقلتها الى أرض خصبة غنية بالحيرات تنمو فيها سنابل القمح الى ما فوق قمة الانسان ، وقال لها :

— أنت في أمريكا . . . فاتخذى فيها مقامك على بركة الله .

فالآن باتت ( ماري ) مقتنعة بأن الملاك قد تكهن بهذه المجاعة وبالأحداث المروعة التي جعلت من زوجها قاتلاً يطارده رجال البوليس . . . واذن فلا بد أن يكون الملاك معينا لها في الهرب .

وكان هذا الاقتناع شديد التأثير في نفس ( ماري ) الى حد أنها لم تسنطع لزوم الفراش . وهكذا نهضت ورفعت الطفل من مهده وذهبت به الى النافذة حيث أزاحت الستارة وجعلت تنظر الى وجهه الصغير في ضوء القمر الشاحب . . . يا له من طفل عزيز ! . . . فقد كان قويا مليئا برغم سوء التغذية . . . وكانت الطبيعة مترفة رحيمة بهذا المخلوق الصغير مع أنها فتكت بالأرض التي منها طعامه وقد بدا الآن في مثل حجم طفل في سديره السادس .

وبعد أن وقفت ( ماري ) تحنو على طفلها برهة ردت الى مهده ثم عادت الى فراشها واستغرقت في نوم عميق ، فان القرار الذي أنهت اليه أدخل السكينة على قلبها . .

واستيقظت ( ماري ) عند بزوغ الفجر . . . فارتدت ملابسها بسرعة وذهبت الى المطبخ وصعدت الى الغرفة العلوية حيث ينام ( تومسي ) . . .

ولما كانت الغرفة مظلمة فقد جعلت تتلمس ما حولها حتى وجلت فراش ( تومسي ) على الأرض ، فهزته ، ثم قالت همسا وقد وضعت يدها على فمه :  
اذ أوشك أن يصرخ فزعا :

— أسكت !! لا تدع العجوز يسمعك !! أريد أن تقوم بخدمة لي .

فرد ( تومسي ) همسا بدوره :

— أنت ( ماري ) ؟ ماذا بك يا ( ماري ) ؟

— اصنع لي يا عزيزي ... قم واصنع هذا المعروف من أجلي .

— هل نحن بالليل أم بالنهار ؟ ... ماذا تريد أن أفعل ؟

— أريد أن تأخذ رسالة الى ( مارتن ) ...

— الى ( مارتن ) ؟ لكن ...

— هل تفعل هذا أو لا تفعله ؟

— سأفعل ولا شك ... لكن هل نسيت أن ( مارتن ) وزملاءه طنبوا

منا ألا نحاول الوصول اليهم ، خوفا من اهتداء البوليس الى مكانهم ؟ ...

— أعرف هذا ... لكن لا بد من المحاولة بسبب تغير الظروف ...

وعلى أي حال فانهم لن يفتنوا اليك في زحمة الجياح الذين يملأون الطرقات

ذهابا وإيابا ... ولا بد لي من الاتصال بمارتن ومخاطبته لكي ... لا بأس ...

بالطريقة التي رتبها لن يكون هناك خطر من متابعة رجال البوليس لك ...

ان آخر المعلومات عن ( مارتن ) واخوانه تقول انهم في جزيرة ( انيشجولا )

وهي تبعد ثلاثين ميلا الى الغرب من ( كلوجر ) بالطريق الساحلي ... واذا

سرت من هنا شمالا بين الجبال حتى ( كلاشكام ) ثم الى الغرب مبتعدا عن

القرى الموجودة في الطريق ، فلن يراك أحد ... وبعد ذلك يمكنك الهبوط

الى الشاطئ حيث تبحث عن شخص مأمون يتقلك في قارب الى الجزيرة .

فقال ( تومسي ) متبرما :

— انها ستكون رحلة متعبة ، مع بطن خالية ... وربما أجدهم بعد

ذلك قد تركوا مكانهم بسبب مطاردة البوليس لهم ...

— اذا فعلوا ذلك فانهم سيتركون عند أهل الجهة أخبار مكانهم

الجديد ... أما عن رحلتك فانك لن تذهب خاوي البطن ... البس وانزل

لكي تذهب الى القرية وتحضر بعض القمح ، وسأصنع كعكة خاصة لك ...

— انت يا ( ماري ) أدري مني ... ان ( مارتن ) زوجك ، ولا يمكن

أن تعرضيه للخطر لسبب تافه ... سأفعل ما تطلبين ...

— بارك الله فيك ... وعليك ألا تذكر كلمة لأي انسان ، حتى ولا

العجوز ... أقسم لي على ذلك ...

فأقسم ( تومسي ) ... ونزلت ( ماري ) الى المطبخ ، وذهبت الى

غرفتها حيث فتحت صندوق الزفاف وأخرجت منه كيس النقود وأفرغته



فى كفها ٠٠٠ كان فىه خمسة شلنات ونصف، فأخذت شلنا ونصفا وردت  
الباقى الى الكيس وربطته وأعادته الى الصندوق ثم رجعت الى المطبخ ٠٠٠  
وعند ذلك نزل ( تومسى ) من غرفته ، فأعطته النقود وخرجت معه الى  
الفناء ٠٠ وقالت له همسا وهما يسيران الى سور البيت :

— اشتر نصف كيل قمح وارجع بأسرع وقت .. ستقوم بالمهمة هذا  
المساء عند حلول الظلام ، لئلا يراك أحد وأنت تذهب فى الطريق الجبلى ٠٠

وتقدم النهار فى هذه الأثناء ٠٠ ولما سار (تومسى) فى طريق القرية  
عادت ( ماري ) الى البيت ، فوجدت العجوز واقفا فى المدخل وليس عليه  
غير قميصه ٠٠ فقال لها وهو يحك فخذه :

— الى أين يذهب ( تومسى ) فى هذه الساعة ؟ ٠٠

— ذهب لشراء قمح ٠٠ لم يبق عندنا منه شيء ٠٠

فتفرس فيها برهة ثم دخل المطبخ ٠٠ ولما خرج من غرفته بعد ذلك  
مرتديا ملابسه وكانت ( ماري ) تشعل النار قال لها :

— كم بقى لنا الآن فى الكيس ؟ ٠٠

فأجابت دون أن تنظر اليه :

— أربعة شلنات ٠٠

ولم تتمالك ( ماري ) أن خجلت من نفسها بسبب هذه المؤامرة التى  
تدبرها للهرب ، لأن معناها ترك هؤلاء العجائز الثلاثة لمصيرهم المحتوم ٠٠  
وقد أدركت أن ( بريان ) يرتاب فى شيء ، اذ قال بهدوء وهو يركع لترتيل  
صلاته ، وان كانت نظراته تنم عن الارتياب :

— انه مبلغ قليل ٠٠

فقالت ( ماري ) لنفسها :

— انه يراقبنى ٠٠ لا بد لى من الاحتراس ٠٠ انه يفعل كل شيء لمنعى

من الذهاب .

وجاءت (ماجى) وأم (مارى) الى المطبخ قبل أن يفرغ العجوز من  
صلاته ، وكانتا فى العهد الأخير تلتزمان الفراش حتى الضحى ٠٠٠ وبدأ  
لما رأى أنهما ترتابان فى الأمر مثل العجوز ٠٠٠ ولعل مرجع هذا الى  
الغريزة الموروثة فى الانسان منذ البداءة ، عندما كان الصغار الأقوياء  
يضحون بالمسنين فى أوقات الحاجة والعوز ... وكان هذا الوصف أشد  
انطباقا على ( ماري ) فى اعتزامها الهرب دون أن تقيم وزنا لما عليها من  
واجب حيال أمها ٠٠٠ وربما لم يكن فى هذا ما يستغرب ، فحين تشدد  
وطأة الجوع كما يحدث فى الحروب مثلا ، سرعان ما ينحسر قناع التحضر  
عن النفس البشرية ، لتبدو من تحته ضراوة الكائن الهمجى وهو يكافح  
للمحافظة على الحياة بأى ثمن ! ٠٠

وبعد أن أدت المرأتان صلاتهما انتقلتا الى الشكوى من الجوع  
فقالت (مارى) :

– لا بد لنا من الانتظار حتى يرجع (تومسى) .

فقالت (ماجى) متبرمة :

– انتظار فى محله ! .. هل رأيتم (تومسى) ذهب مرة الى القرية ولم  
يتسكع فيها طول اليوم ، أملا فى حصوله على بعض الشراب ؟

وقالت مسز (جليسون) كلاما كهذا ، فردت عليهما (مارى) قائلة :

– ألسنم مثل الأوز الشره ؟ .. سأنجز لكم ما أجد من طعام .

فقال العجوز بدوره :

– هل سمعتم ؟ .. من رأيها أن المسنين لاحق لهم فى طعام !

ولم تجب (مارى) بل ذهبت الى خلف الدار ونقبت فى زوايا الحديقة  
الصغيرة ، فعثرت على ثلاث لفتات ضئيلة أكلت الفيران نصف احداها ، ولم  
يكن بالحديقة غيرها . ولما عادت الى البيت شاهدت العجائز الثلاث منهمكين  
فى حديث حاد قرب النار ، فاستغربت (مارى) هذه الظاهرة أيضا لان  
(بريان) وزوجته درجا على اجتناب مسز (جليسون) والنفور من وجودها  
فى البيت ، ولكن الخطر المشترك ألف بين قلوبهم ، ومكن للدخيلة ان  
تصبح موضع ثقة الزوجين العجوزين !

وقالت لهم (مارى) حين أمسكوا عن الكلام وتطلعوا اليها :

– ماذا أصابكم الآن ؟

فقال العجوز بعد أن تنحنح :

– فى رأينا أنك لم تكونى محقة فى ارسال (تومسى) لشراء القمح  
دون أخذ رأينا .. ان النقود التى فى الكيس ملك جميع من فى البيت ،  
فمن حقنا اذن أن نقول كلمتنا فيما نفعل بها .

فما كان من (مارى) الا أن رمت اللفتات الثلاث الى الارض ووضعت  
يديها فى وسطها صائحة :

– لا بأس اذن .. لكم أن تأخذوا مافى الكيس .. لكن اذا فعلتم  
هذا، فانى سأترك هذا البيت مع (ميخائيل) الصغير .. هل يعجبكم هذا؟

وسرعان ماأخمد هذا الوعيد ثورة العجائز الثلاث ، حتى انكمشوا  
وبدت عليهم امارات العجز والبؤس .. ولكن (مارى) لم تترفق بهم ، بل  
مضت تقول بلهجتها الغاضبة :

– الواجب عليكم الآن أن تبحثوا عن القوت ، بدل الجلوس قرب  
المدفأة وترديد الشكوى .. اننا لم نجد أمس فى القرية مايرضىنا ، واذن  
فلا بد لنا من الاعتماد على الارض فيما حولنا .. عليكم جميعا أن تخرجوا!

بعد الفطور وتجمعوا مايمكنكم جمعه من ثمار الغابة ، وفيها قيمة غذائية  
مهما يكن طعمها • وأنت أيها العجوز ، لتذهب الى النهر لصيد السمك •  
فقال العجوز :

– ليس فى النهر سمكة واحدة فى حجم أصبع اليد ، بعد أن صاد  
أهل الوادى كل مابه فى الشهور الاخيرة •

ومع ذلك فما كادوا يفرغون من فطورهم حتى خرجت المرأتان  
العجوزان تحملان كيسا وانااء لجمع ماتيسر من الثمار •• وخرج ( بريان )  
بدوره ومعه قصبه صيد أعدها كيفما اتفق •• ولم ينقض وقت طويل على  
ذهابهم حتى رجع (تومسى) وهو بآدى الانفعال وقال لمارى :

– هناك حركة كبيرة فى القرية ••

فقالت (مارى) وهى تأخذ منه القمح :

– ماذا جرى ؟

– لأعرف تماما •• لكن القرية جاء اليها أناس غرباء من البلدة  
وهم متصلون بهيئة فى انجلترا تعمل على مساعدة الفقراء ، يسمونها  
(الكويكرز) •• وقد رأيت أحدهم وكان يحمل ساعة ذهبية •• وجاءوا  
بعد أن وصلت الاخبار الى (كلوجر) عن الجوع وهجوم رجال البوليس على  
الناس •• ومعهم قسس كثيرون بينهم شخصية كبيرة يقولون ان صاحبها  
هو رئيس البروتستانت •• والشائع أن هؤلاء (الكويكرز) سيقومون  
بتوزيع مساعدات مالية •

فقالت (مارى) وهى تعد له بعض الخبز •

– سمعنا مثل هذا قبل الآن •• ماهى الاخبار الاخرى ؟ ألم يكلمك  
أحد رجال البوليس ؟

– كانت جموع المساكين تلتف حول الغرباء ، ولم يكن هناك أحد من  
رجال البوليس فى الطرقات •• وقال الجميع ان الطعام سيوزع على  
الفقراء ، وان الخبز الأبيض سيرد من (كلوجر) على ظهور الخيل •• وقيل  
أيضا ان رجال البوليس سيطوفون بالبيوت لكتابة أسماء المحتاجين ، بعد  
أن أصبحت جموع الناس تتدفق على (كلوجر) بسبب الآفة •

فانتفضت (مارى) حين سمعت أن رجال البوليس سييطوفون  
بالمنطقة وقالت :

– ياإلهى ! •• ومتى يحضرون ؟

– لأعرف •• لماذا ؟ أى ضرر فى هذا ؟

– لاتهتم •• بعد أن تأكل اختبئ على مسافة من النهر •• وابق فى  
مكانك بعيدا عن الانظار حتى يحين وقت ذهابك فى تلك المهمة •• فيجب  
ألا يروك عند حضورهم •



فهز (تومسي) كتفيه قائلا :

— وما الفائدة التي تعود عليهم من التفتيش عندنا أو سؤالنا ؟

— ان أقل شيء قد يفضح الخطة التي أدبرها .. أسرع واذهب كما قلت لك .

فامتدلى (تومسي) لما طلبت .. وقد انهمكت (ماري) على الأثر في خبز كعكتين على النار ثم تركتهما تبردان في الفناء وهي جالسة عن كذب ومعها الطفل ... وبينما هي كذلك اذ لاح لها صبي يركض آتيا من ناحية القرية .. ولما اقترب من مكانها صاح يقول ان رجال البوليس قادمون .. فوثبت (ماري) قائلة :

— وأين هم ؟

فلم يجب الصبي ، بل تابع جريه في اتجاه مدخل الوادي .. وعند ذلك شعرت (ماري) بقلبها يخفق خوفا .. ولم تشعر (ماري) من قبل بمثل هذا الخوف ، حتى في أثناء الاسابيع الاولى التي أعقبت اختفاء (مارتن) ، حينما كان رجال البوليس دائبين في التفتيش نهارا وليلا .. وما كان خوفها الآن الا بسبب حرصها على الحطة التي دبرتها للهرب ، واشفاقها من أن يكتشفها رجال البوليس .. ولذلك وقفت تتطلع في الطريق الى جهة الجنوب ، فلم تشاهد أثرا لهم ، ووجدت السكون سائدا فيما حولها .

وفجأة لمحت ثلاثة من رجال البوليس يظهرون حول المنعطف الجبلي وأشعة الشمس تنعكس فوق بنادقهم ، ورأت خلفهم أربعة رجال يركبون الخيل ، فقالت لنفسها :

— لا بد لي من اخفاء الكعك .

وأسرعت الى البيت تحمل الكعك وأخفته في فراشها ، خوفا من أن ينير وجود الكعك شبهاً رجال البوليس اذا فتشوا البيت ، ثم هرولت عائدة الى السور حاملة طفلها . وفي خلال ذلك كان الأهليون في أطراف الوادي شمالا يركضون الى الجبال بعد سماعهم تحذير الصبي .. فان هؤلاء التعساء كانوا يفرون من رجال البوليس كما يفر الناس من الغزاة السفاكين .

وما لبث رجال البوليس ومن معهم من راكبي الخيل ان وقفوا عند كوخ (أوهانلون) حيث راحت (سالي) تحييهم باحترام .. ثم ترجل اثنان من الراكبين ودخلا الكوخ .. وعندئذ عادت (ماجى) ومسز (جليسون) الى البيت تحملان كيسا وانا بهما ماتيصر لهما جمعه من الثمار .. فقالت (ماجى) :

— من يكون هؤلاء الناس الكبار الذين أراهم مع رجال البوليس ..

فردت عليها (ماري) قائلة :

— لماذا لم تبقى بعيدة عن البيت أنت وأمي ؟ .. إذا سألكما رجال البوليس فلا تقولا شيئا .. مفهوم ؟

فقالت مسز (جليسون) :

— وهل عندنا أخبار تضر أحدا ؟ .. لن نقول لهم سوى أن الجوع نزل بنا .

— هذا هو كل ما يقال اذن .. اطلبنا منهم الاحسان متى وصلوا .. وفى هذه الحالة لا يقومون بتفتيش البيت .

— هاهم آتون الينا .

فقد خرج الرجلان من كوخ (أوهانلون) وركبا جواديهما .. وتبعت (سالى) الركب وهى تدعو وتبارك ، فقالت مسز (جليسون) :

— لابد أنهم أعطوها شيئا .. آه .. هل رأيتم مثل هذا المشهد ؟ .. أربعة رجال يركبون الخيل .. هذا يشبه يوم افتتاح جلسات المحكمة .

وقالت (ماجى) :

— انى والله لم أطلب فى حياتى احسانا من أحد .. لكن مع وجود مثل هؤلاء الكبار ، يمكن أن ينال الانسان منحة طيبة ...

فقالت لهما (مارى) :

— استعدا اذن .. قولا ان الجوع نزل بنا ، وعند ذلك لا يفتشون البيت طلبا لمعلومات عن (مارتن) .. آه ... ان الجاويش (جيراتى) يشير الينا انه يخبرهم عنا .. رباه .. هل يطلبون معلومات عن (مارتن) ؟ .. أهم من رجال القانون ؟

واقترب الموكب من البيت .. وظهر بينهم الطبيب والقس البروتستانتى (كوبيرن) فكان ذلك مطمئنا لمارى الى حد ما .. وما لبث العجوز و (تومسى) أن انضموا الى زمرة المشاهدين فان (تومسى) لم يستطع مقاومة الفضول لرؤية هؤلاء الكبار ، مخالفا بذلك أمر (مارى) التى أوصته أن يبقى بعيدا عن الانظار ، وهكذا جاء ووقف خلف العجوز (بريان) الذى أمسك سمكة ضئيلة فى يده ، وما لبث أن رفع قبعته وقال همسا :

— من يكون هؤلاء الناس ؟

فردت عليه (مارى) بصوت خافت :

— اسكت أيها العجوز .. اطلب منهم شيئا من الاحسان فقط .

لكن أحدا منهم برغم ذلك لم يقل كلمة واحدة حين وقف الركب فى الطريق ، فقد انعقت السيئات رعبا ، كالعبيد فى حضرة أسيادهم .

ولما حياهم القس تشجعوا وردوا التحية بخير منها فى صوت واحد، وجعلوا يقولون :

— ان الجوع نزل بنا أيها السادة الكرام .. ساعدونا الله .

والحق ان الراكبين جعلوا ينظران فى عجب الى مشهد الأهلين الغريب  
وهم حفاة ممزقو الأسمال يمدون أيديهم طلبا للعون والمساعدة .. وكان  
الرجلان ينتميان الى (جماعة الاصدقاء) فى دبلن وقد جاءا لاستطلاع أحوال  
الأهلين فى المناطق المنكوبة .. وكانا متشابهين فى لباسهما الكنسى وفى  
سماتهما الوقورة ، بل حتى فى ملامحهما ، سوى أن أحدهما كان واسع  
الفم والثانى بارز الأنف .. فأما الواسع الفم فكان انجليزيا من أسرة غنية  
تشتغل بالتجارة فى دبلن العاصمة ويدعى (برود بنت) ، وأما البارز  
الأنف فكان ارلنديا يدعى (بوتر) وهو مثل زميله فى الأسرة والمنبت ..  
وما لبث (بوتر) أن تكلم قائلا :

— من هو مستأجر الأرض هنا .

فتولى الجاويش الجواب مشيرا الى (بريان) :

— هو هذا العجوز ..

وعند ذلك تقدم (بريان) وأبرز سمكته الضئيلة وأخذ يقول :

— هذا كل ما فعلته طول الصباح .. كنت أصطاد السمك فى النهر  
كالأولاد .. هذا عمل هزيل بالنسبة الى العجوز .. لكن الجوع نزل بنا  
واشتد علينا .. انظروا الى كيس الاعشاب التى كانت زوجتى تجمعها  
لنقعات بها .. لقد أصبحنا كالمسولين ونحن نفتش الحقول الجرداء بحثا  
عن القوت .

وترجل الرجلان عن جواديهما المحملين بالأكياس ، على حين كان  
العجوز منهما فى ثرثرته ، يساعدهما رجال البوليس .. وبقي الطبيب  
والقس فوق جواديهما .. وكان الطبيب يبدو خجلا من وجوده مع القادحين  
وما برح يصوب نظراته الى (مارى) التى كانت تراقب رجال البوليس  
مرتابة سيئة الظن .

واقترب مستر (بوتر) البارز الأنف من السياج قائلا :

— كم فدانا تباشر أيها الرجل ؟ .. أنت مستأجر متقدم فى السن  
لاتفيد كثيرا من أرضك .

فجعل (بريان) يقول :

— صدقت ياسيدى .. لكن الأرض مستأجرة باسمى ، وان كان  
ولدى قد تزوج وأقام فى البيت معى .. هو غير موجود هنا الآن ، وهذه  
زوجته .. انى مستأجر عشرة أفدنة ياصاحب السيادة ، لكن المحصول  
تلف ، والمواشى أخذت منا .. لكن اذا تفضل المالك ياسيدى الكريم  
بمساعتنا ومنحنا مهلة من الوقت ، فسنقف على أقدامنا من جديد فى  
فترة قصيرة .. اننى ياسيدى من المستأجرين الشرفاء ، وكنت دائما  
متمسكا بكلمتى ، كما يشهد بذلك المالك ووكيله .. اننى لم أتأخر فى  
سداد الايجار ، الى أن حلت بنا الأوقات العصيبة . لقد نكبنا ياسيدى  
بالآفة التى أضاعت محصولنا كله ، وذهبت مواشينا عن آخرها ان سنتنا



هذه أشد وأنكى من سنة الفيضان .. وفوق هذه المصائب كلها فانى  
تكبت ب وفاة ابنى ، وذهب ابنى الثانى .

فقال مستر (برود بنت) الانجليزى الواسع الفم :

– وأين ذهب ؟

فقال الجاويش بصوت خافت وهو يغمز بعينه لزميله :

– هذا مايريد أن يعرفه رجال البوليس .

وهنا أسر (بوتر) كلاما فى أذن زميله ، فقال (برود بنت) :

– آه ! هو اذن الشاب الذى ...

وجعل رسولا الجماعة الانسانية ينظران الى أفراد الأسرة نظرات  
الاستبشاع ، فترجل القس (كوبيرن) عن جواده وأخذ يقول وهو يحرك  
يديه حركات عصبية :

– ان أفراد هذه الأسرة كانوا أناسا محترمين .. وعندى أنه لايمكن  
اعتبار الانسان مدانا بجريمة قتل مالم يحاكم أمام المحكمة ويصدر الحكم  
بادانته .. وهناك ظروف معينة يامستر (برود بنت) قد يكون العمل فيها  
له مسوغاته .. فلا تشتدوا فى حكمكم عليهم بغير موجب .. وليس معنى  
هذا أنى أجزى العدوان وأسوغه .. فأنا بعيد عن هذا كل البعد .. ان  
أفراد هاتين الأسرتين اللتين لصقت بهما تهمة ذلك الحادث البشع كانوا  
دائما من خيرة الناس ، وقد عرفوا باحترام القوانين ..

فنظر (بوتر) الى القس مرتابا ، ثم التفت الى الطبيب قائلا :

– هل ظهرت اصابات وبائية هنا ؟

فأجاب الطبيب قائلا :

– لم تظهر اصابات فى هذا الوادى .. هى اصابة واحدة فى (وادى  
جلينارى) .

فقال (برود بنت) الانجليزى :

– قلت انها طاعون ؟ .. انظر الى (كوم السباخ) هناك .. اعتقد  
ان المستلزمات الصحية معدومه يا عزيزى (هنرى) .. بل هى غير موجودة  
فى المدن وفى رأى أن السماح بتأجير هذه المناطق البعيدة عن العمران  
واسكانها لم يكن مطابقا للسياسة السليمة .

فاستطرد (برود بنت) الانجليزى يقول :

– اذا حكمنا على هؤلاء الناس من مظهرهم ، فان حالتهم لاتدل على

البؤس .. ان ظواهرهم لاتتم عن الجوع الفعلى .. ان طفلك يبدو سمينه  
أيتها المرأة الطيبة . متى أكلت لآخر مرة ؟

ومع أن (مارى) قد أشارت على ذويها بالاستجداء وطلب الاحسان  
من هؤلاء القادمين ، فانها ردت على سؤال السائل بحدة شديدة .. والحق  
ان السؤال نفسه وطريقة القائه كانا مثال القحة والخروج على التعاليم  
الدينية التى يمثلها السائل .. ولكن (مارى) كانت متباعدة فى حديثها  
واحتمامها بدافع آخر غير السخط على أسلوب السائل .. فقد أرادت  
معاداة هؤلاء الناس الذين أدركت الآن أنهم جاءوا تحدوهم دوافع خيرية  
وبذلك تحول دون دخولهم البيت فانهم لو دخلوه لدخل معهم رجال  
البوليس واكتشفوا الكعك الذى خبأته ، وربما ارتابوا فى خطتها .

لكل هذه الأسباب جعلت (مارى) تقول للسائل ساخطة محتدة :

— اذا كان طفلى سميناً فهذا من فضل الله .. أما حكماننا فلا فضل  
لهم وهم الذين أخذوا مواشينا وبخلوا علينا بالعمل فى الطرق ! .. اننا  
ياسيدى لانسأل صدقة واحساناً ، بل نطلب العدالة .. ثم اننا لسنا قتلة  
ياسيدى ، بل أناس شرفاء كما قال لكم مستر (كوبيرن) .. واذا كان  
زوجى قد لجأ الى الاختفاء أيها السادة الأفاضل ، فان من حق الانسان أن  
يسعى للمحافظة على كيان زوجته وطفله .. انكم تلبسون الملابس الفخمة  
فوق أجسادكم ، ولذلك لايهمكم مانحن فيه من خرق ممزقة وأقذار ..  
ولكن ربما يأتى اليوم الذى يتهياً فيه للفقراء أن يجعلوا المستبدين الظالمين  
فى ايرلندا يدفعون من دمائهم ثمن هذه الأقذار وهذه الخرق .

قالت (مارى) هذا وتراجعت الى الوراء كأنما تتأهب لعدوان يقع  
عليها ... وقد راح مندوبا (الكويكرز) يتبادلان النظرات برهة فى أسف  
لما سمعاه ، وقال مستر (بوتر) :

— هذه صورة أليمة لروح التمرد المنافية للدين ..

فرد عليه مستر (برود بنت) الانجليزى قائلاً :

— بل هو الطبع الارلندى الحاد فيمـا أرى .. ومع ذلك ليس  
كالشفقة دواء للسخط .. لنعطها شيئاً من الخبز .

فقال له (بوتر) :

— أنا من رأيك .. اننا فى عملنا الحيرى لانفرق بين المتمرد والمخلص  
من رعايا صاحبة الجلالة الملكة .

وبينما كان (برود بنت) يخرج رغيفاً من الكيس المعلق خلف سرج  
جواده وقف القس يلوح بيديه الى (مارى) مستاء مستنكراً .. فقد شعر أنها  
أخرجته فى حضرة هؤلاء الغرباء عن الاقليم .. ولكن الطبيب بدا راضياً  
قريب العين ...

وقال (برود بنت) وهو يقدم الى العجوز رغيفاً صغيراً أسمر :

— سيساعدكم هذا مؤقتاً ... ضعوا ثقتكم فى الله وفى رعايته

صاحبة الجلالة لأحوالكم .. سيفتح في الوقت المناسب مطبخ عام في القرية ، وستأخذون منه أكلة كل يوم .

وقد حاول العجوز أن يقبل اليد التي أعطته للطريق ، ولكن مستر (برودبنت) الانجليزى جذب يده مسرعا خوفا من أن يكون العجوز مصابا بمرض معد فتنتقل اليه العدوى ... وبعد قليل عادوا الى امتطاء جيادهم وتابعوا طريقهم ...

وقد تزاحم أفراد الاسرة حول السياج وراحوا يشيرون المحسنين اليهم بالدعوات ، ولم تلبث (سالى أوهانلون) أن انضمت اليهم مع أطفالها وجعلت تقول :

– أخيرا جاءت المساعدة والحمد لله ! ... انهم أعطوني رغيفا أنا أيضا .. انها معجزة اذ يأتى الأكابر ويوزعون الخبز فى ( الوادى ) (الأسود) .. لابد أن الملكة نفسها هى التى أرسلتهم .

وقالت (ماجى) :

– ان غناهم يرهب الانسان ! .. هل رأيت السلسلة الذهبية المدلاة فى صدره ؟ ..

وقالت مسز (جليسون) :

– ثم انظروا الى الناس وهم ينزلون من الجبال متزاحمين ! .. انهم هربوا من وجه البوليس ، ولكنهم الآن يسرعون الى هؤلاء السادة الكرام ... لابد أنهم شموا روائح الخبز ...

فقالت (سالى) :

– لنذهب خلفهم . ماكل يوم تسنح الفرصة أمام الفقراء لرؤية الأعيان الأكابر .

وخرجوا الى الطريق فى أثر (سالى) الا (مارى) و (تومسى) ... وقد هم الاخير أن يحذو حذوهم ، لولا أن (مارى) جذبتة من ذراعه قائلة :

– ابقى أنت هنا ...

فنظر اليها (تومسى) محزونا ... ثم تطلع الى الموكب المتباعد فى الطريق ولعابه يسيل .. ولم تكن لهفته للسير فى ركاب هؤلاء الغرباء المحسنين الا وليدة الغريزة التى تلابس المحرومين ، تلك الغريزة التى تحمل الجياع المتسكعين على تعذيب أمعائهم الحاوية فى شتاء قارس البرد ، بالوقوف عن كذب من مطعم فاخر، يتشممون روائح الأطعمة الدسمة تنبعث من فتحات المطابخ ، وينصتون الى رنين الصحاف والملاعق، ويرقبون النساء الغارقات فى القراء التحليات بالجواهر وهن يتوافدن الى مدخل المطعم ذى العمدة الشامخة ، يتبعهن الخدم والحشم ، ويرافقهن الاصحاب ذوو البطون المليئة ، فيختلط شذى عطرهن الفياح بأريج الطعام السائغ .



وقال ( تومسى ) لمارى وهى تمنعه :

— ولماذا لا أذهب لرؤيتهم ؟ ...

— لان الوقت قد حان لكى تذهب الى الجبل فى مهمتك ..

— وكيف يمكن أن أذهب ورجال البوليس فى الوادى ؟ ..

فجذبتة ( مارى ) الى داخل البيت وجعلت تقول له :

— ان الفرصة الآن سانحة أمامك وكلهم يشاهدون السادة الغرباء ...

ان رجال البوليس لن يهتموا برجل يسير ومعه لفافة ... انى لا أثق بأحد غيرك ... ولو ذهبت عند دخول الليل لتساءل الناس الى أين أنت ذاهب ... ومن كلمة واحدة تقال فى القرية يستطيع رجال البوليس أن يعرفوا ما يريدون ... وفى وقت الجوع الذى نحن فيه لا يمكن أن يثق الانسان بأحد ، وهناك مبلغ يناله أى شخص بالارشاد الى رجل مطلوب القبض عليه ...

— ليكن ما تريد ...

فجاءت (مارى) بالكعك وقطعته وجعلته فى لفافة ، وقالت لتومسى :

— هذ هديتك ... واسمع الآن ما يجب أن تقوله لمارتن .. قل له انى سأذهب لمقابلته فى أى مكان مأمون يعينه لى لكى نتفق على خطة تمكنه من أن يهرب الى خارج البلاد ... قل له ان الجوع نزل بنا واننا لن نستطيع الاحتمال أكثر من هذا ... قل له انه ليس أمامنا سوى الموت أو الهرب ... واذا لم يكن بإمكانه الحضور لمقابلتى هنا ، فليذكر أين أقابله ... وان كان مستعدا للهرب فان عندى خطة ربما تفى بالغرض .. وقل له ان ( ميخائيل ) الصغير بخير ، واننى مشتاقة اليه ليل نهار ... ثم قبله عنى وعن ( ميخائيل ) الصغير ... أدعو الله يا عزيزى أن يجزيك خير الجزاء لقيامك بهذه الرحلة ...

ثم عانقته وحذرتة من مخاطبة أى شخص غريب ، وأعطته حذاء ( ميخائيل ) المتوفى قائلة :

— ان هذا الحذاء سيصون قدميك من الأشواك والحجارة الحادة بين الجبال ... البسه الى أن أحضر شلنا من كيس النقود ... فقد يحتاج اليه ( مارتن ) فى غربته ...

وذهبت الى غرفتها لاحضار الشلن على حين لبس ( تومسى ) الحذاء القديم ... ولما رجعت اليه قالت له :

— الافضل ألا تذكر له شيئا عن حالة الجوع عندنا ، لئلا يفقد شجاعته ... ولكن قل له ان ملاكا جاءنى فى المنام وأرشدنى كيف أهرب الى أمريكا ... والآن اذهب على بركة الله ...

وتعانقا مرة أخرى ، وخرج ( تومسى ) من البيت حاملا لفافته على

كتفه ... ولكنه لم يكد يسير خطوات في ساحة الدار بالحذاء الذي كان صلبا كالحديد حتى وقف وقال لها :

- انى لا أحتمل هذا الحذاء ...

- تقدم ولا تقف .. انك ستعتاده بعد قليل ... اسرع وانتهرز فرصة وجودهم عند مدخل الوادى ... بارك الله فيك ...

فخرج (تومسى) وهو يتوجع ويسير منحنيا على نفسه .. وبينما هو يرتقى الجبل وقف مكانه ونظر الى الخلف مشيرا الى الحذاء وهويهب رأسه .. فلوحت له (مارى) بيديها تستحثه على متابعه السير ، وظلت واقفة ترقبه حتى اختفى خلف الكتلة الصخرية الكبرى وأخذ يتجه شمالا ... فجعلت تراقب الغرباء حتى رأتهم عائدين أدراجهم من ناحية مدخل الوادى ، والاهلون جميعا يتابعونهم ، فدخلت البيت واختفت عن الانظار حتى مر الركب وابتعد ...

وبعد فترة عاد العجوز ومن معه وهم يثرثرون انفعالا ... وقد أكلوا نصف الرغيف الأسمر فى الطريق ، لا بتأثير الجوع ، ولكن بدافع الرغبة فى تذوق هذا الخبز العجيب الذى جاءهم على أيدي الاغنياء ... ولما ذهب عنهم الانفعال سأل ( بريان ) عن تومسى ، فقالت له (مارى) .

- لقد أخبرنى أنه سمع فى البلدة عن عمل يمكنه أن يحصل عليه ، فذهب يبحث عنه ... وقد يغيب فترة طويلة ...

فلم يهتم أحد منهم لان ( تومسى ) اعتاد أن يذهب عنهم على هذا النحو ويغيب أياما ... وقالت ( ماجى ) :

- ليست المسألة مسألة عمل يبحث عنه ... ولا بد أنه نال منحة من الأكابر وذهب ليسكر بها ... ولن نراه بعد ذلك حتى ينفقها عن آخرها ... هذا داؤه اللعين ... انه لا يفكر فينا نحن الجياع ...

وعادوا يخوضون من جديد فى موضوع الغرباء ، وكان العجوز والمرأتان أشدهم سعادة ... لكن ما هو الا أن جاء المساء حتى أقبلت ( سالى ) فجأة ، فكدرت صفوهم .

## الفصل السادس والأربعون

اندفعت ( سالى ) الى داخل المطبخ وهتفت قائلة :

– استحلفك يا ( بريان ) أن تأتى وترى ( باتسى ) ! ٠٠ ان معدته منتفخة وعينه مقلوبتان ! ٠٠ وهو يحاول أن يتقيأ ولكنه لا يستطيع ٠٠ ان الاصوات التى يخرجها تفزع الاولاد ! ٠٠٠ أسرع وتعال معى وأنت الخبير بأمراض المواشى ٠٠٠ ربما كان المرض متشابها ! ٠٠٠

فوثب العجوز قائما وقد لمعت عيناه فى شىء من السرور اذ وجد أخيرا ما يشغله بعد اضطراره الى الخمول فى الأشهر الأخيرة ٠٠٠ وقال للمرأة :

– هل أكل شيئا ؟ ٠٠

فأجابت (سالى) :

– نعم ٠٠٠ لقمات من الرغيف الذى جاءنا من السادة الغرباء ٠٠

– الرغيف ؟ ٠٠٠

ردد (بريان) هذه الكلمة وهو يتبادل النظر مع المرأتين العجوزين المضطربتين . ترى أكان الخبز الاجنبى مسموما ؟ ٠٠ أنهم أكلوا منه هم أيضا ٠٠٠

لكن ( سالى ) استطردت تقول :

– أظن أن الخبز لم يكن هو السبب ٠٠ ان الجوع الطويل قد أضعفه ٠٠ أسرع بالله وتعال معى ٠٠٠

– لنذهب اذن ٠٠٠ هل عندكم ملح فى البيت ؟ ٠٠٠

– عندى قطعة كبيرة من الملح ٠٠٠ هل هو مفيد ؟ ٠٠٠

– ليس أفيد منه فى علاج المغص .

وقصد الجميع الى كوخ ( باتسى ) وزوجته تثرثر فى الطريق عما لقي زوجها من عنت الجوع وخصوصا بعد الاستغناء عنه لوقف أعمال لجنة المعونة مما جعله يلزم داره مقهورا ، فلما جاء السادة الغرباء بالخبز وكان وخدم فى الدار لم يتمالك لشدة جوعه أن أكل نصف الرغيف ، ورجعت ( سالى ) من الخارج فوجدته يتلوى من الألم ٠٠٠

ودخل (بريان) الكوخ ، فوجد (باتسى) ممددا فى فراشه يتجشأ بشدة ، فركع (بريان) بجانبه على احدى ركبتيه وقال له :



– أين الوجع يا (باتسى) ؟ ...

فجلس المريض وهم أن يجيب لولا أن تملكته نوبة مفاجئة للقيء ..  
ولما لم يفلح اضطجع فى فراشه مرة أخرى وهو يزفر من أعماق صدره  
ثم قال للعجوز وهو يبتسم فى كآبة :

– بارك الله فيك لحضورك عندي ... ان هذا القيء يأتى ويذهب  
فأشعر بأن قلبي يقف وأن غصة فى حلقى ...

فطلب (بريان) من سالى ملحا وماء ... ولما جاءت به بقطعة من الملح  
الجبلى وضعها على فم (باتسى) وطلب منه أن يلعقها ... ففعل .. ولكن  
سرعان ماتوقف وأمسك بمعدته وقال وهو يتأوه :

– هنا ألم كأنه صخرة تتمدد فى بطني .

فقال له العجوز :

– سأرفع هذه الصخرة ... اذهبي يا (مارى) الى البيت وأحضري  
الزجاجة السوداء الموضوعة على الرف فوق المدفأة .. هي (الشربة) المخصصة  
للمواشى .. انها ستطرد من جسمه جميع الأضرار .

فقالت له (مارى) :

– أليس الأفضل أن يستدعى الطبيب ، وخصوصا أن معدته منتفخة؟  
... كيف يمكننا أن نعرف حقيقة دائه ؟ ..

فصاح بها العجوز بغلظته السالفة :

– افعل ما قلت لك ... اننى رأيت فى حياتى معدات كانت منتفخة  
مثل هذه مرتين .. أسرعى وهاتى الزجاجة ...

وبعد أن أكل باتسى قدرا كبيرا من الملح الصخرى أمره (بريان)  
بشرب الماء ... فزاد انتفاخ معدته ... ولما جاءت (مارتن) بالشربة ألزمه  
بشرب جرعات منها ، ثم قال له أخيرا :

– الآن اعتبر نفسك قد شفيت ...

فقبلت (سالى) يد العجوز قائلة :

– بارك الله فيك .. ان عبقريتك لا حد لها ...

واشترك المريض فى ازجاء الشكر وقد خف ما به الى حد كبير ...  
فاغتبط (بريان) وأجاب قائلا :

– العفو .. هذا لاشيء .. لاتدعوه يأكل شيئا حتى الغد  
ليمكن أن تهدأ معدته .

وتهيأ المريض للنوم ، وانصرف العجوز وأسرته ، موقنين من زوال  
الخطر عنه ...

وفى صباح اليوم التالى عادت ( ماري ) الى بيت المريض للسؤال عنه . . . فوجدت ( سالى ) فى حالة قلق ، وقد أخبرت ( ماري ) أنه منذ نام فى الليلة الماضية لم يستيقظ قط . . . فانحنى ( ماري ) فوقه ونادته ، ففتح عينيه ، ولكنه لم يتحرك ولم يجب . . . وقد بدا وجهه أشد شحوبا مما كان ، وفقدت عيناه كل تعبير وكأنهما عينا جثة ، وما برحت معدته على انتفاخها . . فقالت ( ماري ) للزوجة :

— ما رأيك اذا أكل قطعة من اللحم الذى عندنا ؟ . . .

فردت ( سالى ) قائلة :

— بارك الله فيك يا حبيبتي . . بإمكاننا أن نجرب . . سأذهب الى القرية لمحاولة الحصول على أجرته المتأخرة . . .

— سأعطيك قطعة من اللحم . . ابغى أحداً أولادك . . وأخبريني متى ذهبت الى القرية لكي ألاحظ مدة غيابك .

وذهب أولاد ( سالى ) الثلاثة مع ( ماري ) ، فأعطتهم نصف قطعة اللحم الباقية عندها . . . ولكن الأولاد تخاطفوها فى الطريق وأكل أحدهم منها وهى نيئة حتى خرجت ( سالى ) على صياحهم ف ضربتهم وأخذت اللحم الى الكوخ حيث سلقته وقدمت بعضه الى ( باتسى ) . . . فأكل منه بشراهة مع باقى رغيف الخبز الأسمر . . . ولما فرغ قال انه يشعر بتحسّن فى صحته ، وأنه يريد الذهاب الى القرية للمطالبة بأجره المتأخر ، ولكن ( سالى ) اعترضت وقررت أنها ستذهب بدلا عنه وأن عليه أن يستريح والا عاوده المرض . . .

وذهبت ( سالى ) الى ( ماري ) وقالت لها :

— شكرا لك يا حبيبتي . . انه الآن أحسن . . .

فقال ( بريان ) :

— ليس اللحم هو سبب هذا التحسن ، بل الملح والشربة . . .

فقالت ( سالى ) :

— الحقيقة أن اللحم هو الذى بعث الحياة فيه . . . لا تتعبى نفسك يا ( ماري ) بالحضور لملاحظته ، فهو الآن بخير . . . اننى ذاهبة للمطالبة بأجره المتأخر . . لقد أخبرنى مستر ( كوبرن ) أمس انه سيكلم الكاتب فى الفندق لتسهيل موضوعي . . .

لكن لم تنقضى الساعة حتى هرول أولاد ( باتسى ) الى دار ( كيلمارتن ) مذعورين يقولون ان أباهم فارق الحياة فى غيبة أهمهم عن الكوخ . . . وقد خف أفراد الأسرة الى الكوخ والتفّسوا حول الميت محزونين . . . وقالت ( ماجى ) :

— مسكين ! . . ربما كانت آكلة اللحم هى سبب موته . . . .

فقالت ( ماري ) وهي تغمض عيني الميت :

– بل ان الملح والشربة هما السبب ...

فهتف العجوز متغضبا :

– أنت كذابة ! ... ليس الملح هو سبب وفاته ...

فتدخلت مسز ( جليسون ) قائلة :

– لا تتشاحنوا في بيت الميت .. مسكينة ( سالي ) ... من أين لها الكفن لدفنه ؟ ...

فقال ( بريان ) لأبناء المتوفى :

– اسكتوا بأولاد .. دعوا البكاء واذهبوا الى القرية ونادوا امكم حالا .. اسرعوا ... اسرعوا ...

واقترحت ( ماجي ) أن ينقلوا الميت الى بيتهم ليتمكن القيام بإجراءات الجنازة التي لن تتم كما يجب في هذا الكوخ الضيق ، ولكن ( ماري ) تصدت لهم قائلة :

– لا تلمسوا الجثة ... انظروا الى انتفاخها المتزايد حتى بعد الموت ... أي نوع من الأمراض هذا ؟ ...

فابتعد الجميع عن الجثة وهم أقرب الى الاضطراب ... وتسامع بعض الجيران بما حدث ، فانضموا اليهم وجعلوا يعقبون على الحادث ، ولكنهم في تعقيبهم كانوا أكثر اهتماما بالمجعة الناشئة بينهم بوفاة ( باتسي ) التي كانت خليقة ان تبعث الوجل في نفوسهم في الظروف العادية ...

وفي هذا الجو عادت ( سالي ) مع أولادها الى الكوخ وهي تولول وتندب عائيا ... ولما نظرت الى زوجها صاحت قائلة :

– الوداع يا ( باتسي ) ! .. الله يرحمك ...

ثم خرجت الى الناس المجتمعين حول الكوخ وهتفت تقول لهم بصوت فيه من التحدي ما يناقض بكاءها :

– لقد قلت لهم جميعا ان الجوع هو الذي قتله .. اني ذهبت للمطالبة بأجوره المتأخرة ، ولما جاء الأولاد وأخبروني بما حدث ، جعلت أصرخ في القرية وأقول انه مات من الجوع ... صدقوني أن هذا الكلام ملأ نفوسهم خوفا ... كانوا كلهم هناك ... السادة الغريباء والأكابر الذين جاءوا من المدينة ... وقد أسرعوا يجمعون النقود لي في الحال ... ومعهم منهم مبلغ كبير هو أربعة وعشرون شلنا كاملة ... ثم انهم يصنعون الآن تابوتا لباتسي ... وأكثر من هذا ستنتشر الجريدة كلاما عن أحوالنا ... فقد كان بينهم شاب من المدينة جعل يكتب كل أقوال ... اني قلت لهم كل مافي نفسي .



## الفصل السابع والأربعون

كان ( باتسى أوهانلون ) أول مواطن في مقاطعة ( كروم ) يدفن بغير جنازة .. فقد صنع له في القرية تابوت خشبي ، ونقلت جثته الى المقبرة في مساء يوم وفاته ... وقد خشيت السلطات أن تكون الوفاة نتيجة مرض جديد ، مع أن الطبيب لم يستطع أن يشخص طبيعة هذا المرض ، ولكنهم أطلقوا على الورم الغريب الذي صاحبه اسم ( حمى المجاعة ) ... وتناولت صحيفة ( كلوجر ) وفاة ( أوهانلون ) بالتعليق في مقال افتتاحي جاء فيه :

« ان وفاة أوهانلون سبة في جبين الأمة الارلندية ... ان انظار العالم كله تتركز الآن في مقاطعة كروم لتسجل ما يمثل فيها كل يوم من ويلات وفظائع . »

والحق أن الأحوال السائدة في ارلندا بدأت تثير السخط في البلاد الأجنبية ، ولكن ارلندا ذاتها ظلت جامدة لا تحرك ساكنا ... فان ( حزب الاصلاح ) الذي كان ينتظم أكثر العناصر المنتجة المتقدمة بين السكان ، كان اذ ذاك غارقا في مساجلات عقيمة في ( دبلن ) حول صلاحية مبدأ ( استخدام القوة ) وجدواه في تحقيق المطالب القومية .. ولكن الطبقات الموسرة كانت تقابل هذا بهز الأكتاف قائلة :

« وماذا نستطيع أن نفعل ؟ ... »

وكذلك تأقفت الحكومة الانجليزية هذا الشعار واتخذت منه ذريعة لسياسة الجمود وعدم المبالاة التي درجت عليها ...

وقد حاولت ( لجنة المعونة ) في كروم فتح مستودعات تمون الأهلين بالقوت ، وسعت لدى البنوك للحصول على قرض مالي لاتمام أعمال الطرق التي بدىء بها في الاقليم ، ولكن البنوك قابلت هذا بالرفض البات بدعوى أن الحكومة قررت الكف عن أعمال الاغاثة في البلاد كلها ، وأن الخزانة العامة لن تتكفل تبعا لذلك بسداد أى قرض يمنح لهذا الغرض .

وكان رأى السلطات الحكومية في فتح مستودعات التموين هو أن خطوة كهذه لابد من دراستها أولا بمعرفة نائب الملكة وحكومة صاحبة الجلالة ذاتها قبل البت في شيء في شأنها . . . أما عن أعمال الطرق فتري ( حكومة جلالتها ) أن استمرار هذه الأعمال يؤدي الى الاخلال بعوامل الاستقرار والطمأنينة في البلاد ، اذ يصرف الأهلين عن التفرغ لشئون الزراعة والعناية بالمحصولات ... ولما قيل لمن بيدهم الأمر ان مقاطعة ( كروم ) قد خلت من كافة المحصولات بعد أن أتت عليها الآفة ، كان جوابهم أن حكومة ( صاحبة الجلالة البريطانية ) انما تضع سياستها

لمصلحة المجموع عموماً باعتباره كلاً لا يتجزأ ، وقد ثبت لها أن محصول هذا العام في مجموع البلاد المعتبرة كلاً لا يتجزأ ، يشير بالخير ! ...

ثم ان فتح مستودعات التموين كان في أرى السلطات الحكومية مناقضاً لمبدأ حرية الاتجار ، وهو المبدأ الذي تمسك به ( جون هاينز ) ، يؤيده زملاؤه من تجار ( كلوجر ) .. وقد اهتمت السلطات الى حل وسط وهو استعدادها لبيع ما اختزنته القوات العسكرية من مواد التموين لمواجهة الثورة المحتملة بالأسعار الاساسية لمن يطلبها من الهيئات والمنظمات الخيرية ...

وقد رأينا فيما تقدم كيف فشلت لجنة المعونة التي كان يرأسها الكولونيل ( بودكن ) في أداء رسالتها .. وقرر الكولونيل بعد ذلك أن يقصر نشاطه في أعمال الاغاثة على فقراء ضيعته ، أما فقراء ضيعة ( كروم ) فعلى مالكيها الميجور ( تومسون ) - كما قال ( بودكن ) علانية - أن يتولى اطعامهم ... ولكن الميجور ( تومسون ) - كان اذ ذاك في رحلة بالبلاد الأوربية ، وانتقل زمام الاشراف على الضيعة في غيابه الى مكتب للمحاماة في ( كلوجر ) لم يكن يعنيه أن يأكل أولئك ( الفقراء ) أو يجوعوا ... وهكذا انتقل عبء هذه المهمة الى جماعة ( الكويكرز ) الذين أقاموا لجنة للاغاثة في دائرة القرية ، وقبل كل من الأب ( روش ) والقس ( كوبرن ) أن يتعاون معها في العمل ... أما المزارعون الثلاثة الآميون الذين اشتركوا في اللجنة السابقة ، ومثلهم ( جون هاينز ) ، فانهم نفضوا أيديهم من المشاركة في هذه المحاولة الجديدة .

والواقع أن ( جون هاينز ) كان معارضاً أشد المعارضة لافتتاح ما سمي بالمطبخ الشعبي ، لأنه قد يؤثر على تجارته ، ويضر بعمله ... فقد اتخذت لجنة الاغاثة الجديدة من المحكمة مركزاً لنشاطها ، ولما كانت المحكمة مواجهة لفندقه وما زال به ليف من النزلاء من موظفي مشروع الطرق السابقين يقبضون مرتباتهم في انتظار أوامر الجهات المختصة بشأنهم ، فقد قال ( جون هاينز ) في شكواه من هذه الحالة ان هؤلاء السادة يتضايقون من رؤية تجمهر المتسولين أمام المركز كلما خرجوا من الفندق ، وفي هذا ايداء لشعورهم المرهف وتنفير لهم من المقام في الفندق ! .. بل ان ( جون هاينز ) مضى في بسط احتجاجه على هذا التدخل قائلاً :

« ثم اني انفقت أموالى التي جمعتها بعرق الجبين في شراء مقادير متوافرة من القمح ليتها الفقراء أن يجدوا قوتهم ... والآن أرى الحكومة لا تكتفى بوقف الأشغال التي كانت تتيح للناس أجورهم ، بل تسهل للهيئات الغريبة أن تعمل على منافستي ، وامام باب متجري ، يفتح مركز تقدم فيه اطعمة أعطتها لهم الحكومة بثمن بخس ! .. »

وفي هذه الفوضى الضاربة اطنابها بين جميع الطبقات والهيئات المتعارضة الجهود ، قضى على نشاط جماعة ( الكويكرز ) بالفشل الذريع ... فقد انقضى أسبوعان قبل أن تيسر لهم تقديم أول اكلة لطالبي القوت ... وفي ذلك الحين تفشت الآفة الزراعية في أيرلندا

كلها .. وعمت المجاعة سائر الأنحاء ... واقتضى ذلك ان توزع الاعتمادات المالية التي جمعت لمقاطعة ( كروم ) وبعض المناطق الأخرى المنكوبة على نطاق واسع لا تختص به جهة دون أخرى ... وبهذا الأسلوب في علاج الأمور الفيت لجان المعونة بعد وقف الاعتمادات المالية المخصصة لها ، وشرد العاملون في مشروعاتها ، حتى بلغ عدد الأسر التي تأثرت بهذا القرار في مقاطعة ( كروم ) وحدها مائتي أسرة ... والنتيجة ان جماعة ( الكويكرز ) الفوا انفسهم في اول يوم لنشاطهم الخيري أمام جموع حاشدة من الجياع سدت الطريق أمام دار المحكمة ... وبعد جهود في توزيع الأطعمة استفرقت اليوم كله لم يستطيعوا تقديم أكثر من مائة وسبع وعشرين أكلة ، وانصرف ألف وخمسمائة شخص على الأقل دون ان ينالوا حظهم من الطعام ... وفي اليوم التالي كانت الجماهير أقل عددا بعد أن أثر أكثر الفقراء أن ينتظروا نهايتهم في الوديان الجبلية ، على حين هام آخرون على وجوههم قاصدين الى ( كلوجر ) ... قام يعد يحضر الى مركز الاغاثة سوى الفقراء من أهل القرية ذاتها .. وحتى برغم ذلك كانت الجموع الوافدة الى مركز الاغاثة هذا اكبر مما تسمح به موارده ، وفي خلال اسبوع من افتتاح المركز حدثت خمس وفيات في القرية وحدها ... واضطرت اللجنة الفرعية الموكلة بهذا المركز ان تكتب الى مقر الجماعة الرئيسي في دبلن لطلب المزيد من الاعانة المالية ، فجاءها الرد بهذا النص :

« وماذا في مقدورنا أن نفعل ؟ .. ان الكارثة العامة الشاملة قد أغرقتنا في تيارها الجارف ... فان محصول البطاطس قد تلف عن آخره هذا العام ، ولم يبق لكم الا ان تبذلوا أقصى جهدكم »

وكان الطبيب يدعى للكشف على الموتى ، فكان يقرر ان الجوع هو سبب وفاتهم ، ولكن ممثل السلطة الادارية كان يأبى ان يسجل هذه الحقيقة في الأوراق الرسمية ، فدرج على أن يثبت أن الوفاة ناجمة عن اسباب طبيعية .

وهكذا صار الاستخفاف وعدم المبالاة هما الطابع الغالب لدى السلطات المسئولة ... ثم انتقلت عدواهما الى دوائر الأفراد انفسهم ، حتى الذين عرفوا منهم قبل ذلك بالجد والنشاط ... وكان المثل في ذلك ( سالى أوهلون ) ... فانها جعلت تنفق النقود التي جمعت لها في شراء كل شيء ، حتى الكماليات ، وضربت عرض الحائط بفكرة الارتحال الى الخارج كما كانت تتوعد بذلك أكثر من مرة ... وقد قالت لما رى في هذا الصدد :

— اننى باقية في الوادى ... ان معى النقود الآن ، ولهذا لن احتاج الى شيء ... من الحماقة ان يخرج الانسان الى عرض الطريق وأن يفقد حتى داره وخصوصا أن الشتاء قريب ... انها لقصة عتيقة تلك التي تقول ان التلال البعيدة مخضرة الروابى ! ..

صدرت هذه الأقوال عن ( سالى ) وهى تزور ( مارى ) بعد



انقضاء أسبوع على وفاة زوجها ، حاملة اليها هدية من الحلوى ...  
وقد قالت لها ( ماري ) :

— ما كان يجب يا ( سالي ) أن تبذري النقود في شراء هذه  
الكعكيات ... انى ليخجلنى أن آخذها منك ... ان المبلغ الذى نلتته  
لن يدوم الى الأبد .. فلتحافظي عليه يا (سالي) بربك ..

فردت عليها ( سالي ) تقول غاضبة :

— هذه نصيحة في الهواء ... ان المعدة الممتلئة هي احسن  
ما يواجه به الانسان مصائب الحياة ... ولى عبرة فيما حدث  
لزوجي ...

بل ان ( سالي ) لم تحاول قط ان تحصل على القوت لدى مركز  
الاغاثة ... فبينما كانت ( ماري ) ذاهبة الى القرية يوم افتتاح المطبخ  
الشعبي محاولة أن تنال منه شيئاً لأسرتها ، وجدت ( سالي ) جالسة  
قرب الكوخ تحديق في النهر وقد ظللت عينيها يبيديها كأنها تراقب  
شيئاً هاماً ... فقالت لها ( ماري ) :

— ما الذى تنظرين اليه يا ( سالي ) ؟ ..

فأجابت هذه فى لهجة ملتوية :

— هي مجرد نظرات ... ماذا يفعل الانسان غير هذا ؟ ..

— صدقت ... ألا تذهبن الى القرية ؟ ..

— لن اذهب ... ان الجوع لم يبلغ بى حد استجداء الحساء  
من أولئك البروتستانت ...

ولما رجعت ( ماري ) فيما بعد ومعها أناء به عصيدة فازت بها  
من المطبخ الشعبي ، وجدت ( سالي ) جالسة كما تركتها ، وكانت  
تأتى بيديها بحركات غريبة وتتحدث بصوت مرتفع مع شخص لا وجود  
له الا في خيالها : بل انها لم ترد تحية ( ماري ) لها ، ولما تابعت هذه  
طريقها استمرت ( سالي ) فى الكلام وابداء تلك الحركات الغريبة ،  
فلم تتمالك ( ماري ) أن قالت لنفسها :

— رباه ! ... انها أصيبت بمس فى عقلها ! ... ترى ماذا يكون  
بعد ذلك ؟ ...

كان لتغير أطوار ( سالي ) على هذه الصورة أسوأ أثر فى نفس  
(ماري) وقد كانت تجد فى شجاعتها وسعة حيلتها درعا تحتمى بها، حتى  
بدأت ( ماري ) بدورها تفقد أسباب الشجاعة والجلد ... ثم ان  
( بريان ) والمرأتين العجوزين أصبحوا الآن يلاحقون (ماري) بالشكوى  
فى كل وقت وكأنها مسئولة عما حل بهم من البؤس ... ونم يعد  
ممكناً أن تشغلهم بجمع الثمار من الغابة للتخلص من الحاحهم ، بعد  
أن استنفدوا كل ما هو صالح لهذه الغاية ، وأصبح الوادى صحراء  
مجدبة ... ثم انهم لم يرتضوا الذهاب الى المطبخ الشعبي لطلب

القول . لا انفة من قبول الصدقة والاحسان على ملا من الناس ، ولكن شعورا منهم بأن على ( ماري ) أن تطعمهم وتدير أمر قوتهم . . . . وهكذا درجوا على الجلوس حول المدفأة طوال اليوم وترديد الشكوى . . يضاف الى هذه المتاعب كلها أن اللبن في صدرها لم يعد كما كان ، فقد أصبح الطفل يؤذيها كلما أرضعته ، وبعد الرضاعة لم يكن يكف عن البكاء . . .

ثم ان (الوادي الأسود) أصبح الآن موحشا لا حس فيه ولا حياة، بعد أن لم يبق من سكانه سوى خمسين من الأنفس . . . وحتى هؤلاء كانوا يسرون في الطريق سكوتا كالأشباح . . وكذلك لم يبق لها من من عمل سوى التطلع الى بعيد وانتظار عودة ( تومسي ) . حتى كانت نظراتها تظل مسمرة شمالا في تلك الفجوة بين الجبال حيث يعود ( تومسي ) منها بأنبياء عن ( مارتن ) . . . وفي الليل كانت ( ماري ) تستيقظ من نومها وتذهب الى النافذة وتنصت آملة أن تسمع وقع خطواته . . .

وعلى هذه الصورة ظلت ( ماري ) تنتظر ، حتى عاد ( تومسي ) أخيرا بعد اثنين وعشرين يوما من رحيله . .

## الفصل الثامن والأربعون

أوشك الليل أن ينتصف حين سمعت ( ماري ) نباح الكلب خارج البيت ... فقد سمح للكلب أن يبقى في الليل خارج الدار بعد أن لم تبق أغنام يمكن أن يهاجمها ... ولم تكثر ( ماري ) أول الأمر بنباح الكلب ، ولكنها عندما تبينت رنة الفرع تخالط نباحه هتفت قائلة :

— هذا ( تومسي ) ! ...

وسرعان ما انحدرت من الفراش وارتدت ثوبها وهولت الى المطبخ ... فسمعت العجوز يقول من داخل غرفته وهي تفتح باب البيت :

— من هذا ؟ ..

فأجابت ( ماري ) :

— لا أعرف ... ان الكلب ينبح شخصا ما ... ربما كان ( تومسي ) ...

وجرت الى فناء الدار ... فلم تجد أثرا للكلب ... فخرجت الى الزقاق ونادته ، فجاء يركض نحوها ووثب عليها وهو ينبح ثم أخذ يجري في الزقاق الى ناحية الشمال ... فتبعته ( ماري ) في الظلام اذ كانت الليلة غير مقمرة وليس ثمة الا ضوء النجوم ، فلم تشاهد ( تومسي ) الا بعد أن صارت على بعد أقدام معدودة من مكانه ...

وجدته ممددا أسفل السياج والكلب فوقه يلحق وجهه ... فجئت قربه وهي تقول له :

— آه يا ( تومسي ) ماذا أصابك ؟

فجعل ( تومسي ) يقول :

— لم أعبد قادرا على الاقتراب أكثر من هذا ... أبعد عني يا ( أوسكار ) . ان الانسان لا يصدق أن الكلب فيه كل هذه القوة ... أني كنت أسير الى البيت متحاملا على نفسي حين وثب ( أوسكار ) علي ، فوقعت على الأرض ، وعجزت بعدها عن القيام ... هلا أحضرت لي شربة ماء يا ( ماري ) ؟ ... أنا على وشك الموت ! ...

— قم معي يا ( تومسي ) ... سأساعدك على الوصول الى البيت ..

وتحامل على نفسه حتى نهض بمساعدتها ، وسارا الى البيت يتمايلان ... وقالت له همسا :



— ما هي أخبارك ؟ .. هل رأيت ( مارتن ) ؟

— معي أخبار هائلة ... لكنني برغم ذلك لم أره

فكفت ( ماري ) عن السر قائلة :

— يا الهي ! ... الرحمة يا ربى ! ...

— لا تنزعجى يا ( ماري ) .. سأخبرك بكل شيء ... اننى رأيت ( مارتن ) ولم أره ، ولكن ان كنت لم أره رأى العين ، فانى وجدت أثره ، وهو الآن بصحبة رجال أقوياء ... انها قصة طويلة عجيبة ، ولكن لا بد لي قبل كل شيء من شربة ماء ! ..

وخرج اليهما العجوز يعرج حافيا وهما يدخلان فناء البيت ، فقال :

— اهذا ( مارتن ) ؟

فاجاب ( تومسى ) وهو يترنح ناحيته :

— بل انا ...

فجعل ( بريان ) يقول وقد ظنه مخمورا :

— شيء لطيف جدا وانت تقلقنا نحن المساكين في مثل هذه الساعة من الليل ... الا تخجل من السكر ونحن جائعون ؟ ..

فقال ( تومسى ) :

— انا غير مخمور يا اخى ... اننى أموت من الضعف ... ان جوعك لا يذكر بجانب جوعى ، وانا لم أذق طعاما منذ ثلاثة ايام ...

— واين كنت ... ؟

فقالت ( ماري ) للعجوز :

— اسنده وكف عن الكلام ... انه يكاد يسقط ..

وبرغم الاعياء الذى كان يحسه ( تومسى ) فانه لم يستطع مقاومة رغبة التهريج التى تملكته ، وهكذا تظاهر بشدة الاعياء واخذ يتأوه ويتوجع ، وجعل ركبتيه تتخاذلان من تحته حتى اضطر العجوز و ( ماري ) أن يسحباه الى داخل البيت ..

وقالت ( ماجى ) التى جاءت الى المطبخ :

— انظروا الى سحنته ! .. اين كنت طول هذه المدة يا سكير ؟ ..

وأوقدت مسز ( جليسون ) السراج ٤ وأجلسوا ( تومسى ) في مقعد القش في ركن المدفأة ، وأخذت ( ماري ) تدكي النار على حين جاء العجوز بالماء ... فقال ( تومسى ) بعد أن شرب :

— لم أجد في حياتي خمرا فاقت في لذتها هذا الماء العذب ...

فقلت ( ماجى ) غاضبة :

— اذن كنت تشرب الخمر يا ملعون ... يا للعار ! ...

فقلت ( مارى ) وهى منهمكة فى ايقاد النار :

— لكم ان تعرفوا الآن انى ارسلته برسالة الى ( مارتن ) ...  
فهو لم يسكر اذن ..

فجعل العجائز الثلاث يتطلعون اليه مبهورين وقد لزموا الصمت ..  
واما هو فقد طاب له أن يستمتع بهذا الاهتمام الذى لم يكد يجد  
مثله فى حياته . وهكذا مدد ساقيه وأغمض عينيه وأخذ يتأوه وهو  
راض مسرور .. ولكنه كان فى حالة يرثى لها .. فقد أربدت لحيته  
وخالطت الاقدار شعرها .. وتناثرت حببات العرق فوق جبينه ...  
ولما غادر البيت فى اول الرحلة كان يلبس قلنسوة مفزولة ، اما الآن  
فقد علت رأسه بقايا قبعة سوداء عتيقة شددت فوق جمجمته بخيط  
التف من تحت ذقنه .. وقد ضاع حذاء (ميخائيل) وانتعل بدله  
خيشا لف حول قدميه .. وصفوة القول انه بدا وهو مغمض العينين  
جامد الملامح بارز الساقين من تحت بطنه المكور ، أقرب الى شخصية  
هزلية فى موكب ( كرنفال ) ، منه الى صورة انسان .

وأخيرا فتح عينيه وأدار النظر حواليه ، ثم قال دون أن يختص  
أحدا منهم بحديثه :

— لقد كانت رحلة شنيعة ..

ثم التفت الى ( مارى ) وأردف قائلا :

— انى بذلت كل جهدى يا اختى ، ولكن من الصعب على الكلب  
البطىء أن يصطاد الأرنب السريع .. ان (مارتن) خرج من الجزيرة  
فقلت له ( مارى ) :

— سأجيئك بكسرة خبز ..

وبدت ( مارى ) الآن وهى راغبة عن سماع قصته بعد وصوله،  
مع أنها ظلت تنتظر عودته بلهفة بالغة .. ولم يظهر ( تومسى ) من  
أحيطه أى اهتمام بسرد القصة رغم استعجال العجائز الثلاث له ..  
ولم يأخذ فى الكلام الا بعد أن أكل لقمة من الخبز الذى جاءته به مارى  
.. وجلس الجميع حول القصاص فأغرى الفم يرتقبون ما يقول ،  
فكانت مناسبة حافلة فى حياة هذا المهرج المحتقر ..

وأخذ يقول أخيرا :

— وصلت الى جزيرة ( أنيشجولا ) لاشك فى ذلك ، وان كان  
وصولى اليها استغرق أسبوعا .. هناك مناطق مخيفة تفصل بيننا  
وبين تلك الجهات ، وان بؤس ( الوادى الاسود ) لاشئ بالنسبة لها ..  
فهى جهات مجدية لا زرع فيها وليس بها غير الاحجار .. والناس فى

فلك انقري يكاد يأكل بعضهم بعضا ، بعد أن أكلوا القطط والكلاب .. بل سمعت أن أحدهم دبح حمامة الهزيل وأكل من لحمه ، ولكن لحم الحمامة قلب معدته ومات من الوجع .. ومررت في طريقى بين الجبال بقرية ( بيرنا جلاس ) ، فلم يكن بها من البيوت المسكونة بالناس أكثر من ثمانية ، والباقي خلا من سكانه .. وفي أحد الاكواخ المجاورة للقرية وجدت ثلاثة من الاموات كانوا كلهم في سن الشباب ، ولما صادفت شخصا في طريقى وكلمته عن هذا البيت وسكانه لم يظهر أقل دهشة وقال ان أهمهم ماتت قبلهم منذ فترة .. والظاهر ان مسألة الموت كانت شيئا عاديا في تلك الجهات ، لانى صادفت أمواتا آخرين في الطريق ، كان أحدهم منهوش الوجه .. لكن هنا لا يقلم ولا يؤخر فى قصتى ، وسأصل اليها بعد قليل .

وسكت ( تومسى ) وتناول لقمة أخرى من الخبز .. فقال ( بريان ) :

— ان اخبارك هذه تذكرنا بقرب يوم القيامة ! ..

وقالت ( ماجى ) :

— الا تسرع وتحدثنا عن أخبار ( مارتن ) العزيز ؟ ..

فقلت ( ماري ) :

— الظاهر من كلامه أنه لم يرجع اليينا بأخبار سارة .. فلا تستعجلوا الاخبار المكذرة ..

فقال ( تومسى ) :

— أن الاخبار التى جئت بها عن (مارتن) ليست مكذرة .. وكل ما هناك انها ليست اخباره مباشرة ، وانما هى اشاعات عنه .

فقال ( بريان ) :

— لعنك الله .. هل تحاول بهذه الطريقة ان تسخر منا ؟ ..

فنظر (تومسى) الى العجوز معاتبا وقال :

— كيف يمكننى ان اقول لكم ما تريدون وانتم تصرخون هكذا فى وجهى ؟ ..

فقالت مسر ( جليسون ) :

— الحق معه .. الا يمكن أن تتركوه يتكلم وحده ؟ ..

فردت عليها ( ماجى ) قائلة وقد سالت دموعها :

— من السهل عليك ألا تنزعجى .. فليس ولدك هو الهارب المختفى ! ..

— ان ولدى يا امرأة فى أسوأ من ذلك ، وهو تحت التراب ! ..



ولما خاف ( تومسي ) أن يفقد اهتمام سامعيه وهم يشتبهون في هذه الاحاديث الفرعية استأنف سرد قصته ، فأخذ يقول :

— ان القرية التي حدثتكم عنها حيث الناس يموتون بغير حساب ،  
مواجهة لجزيرة ( انيشجولا ) التي لجأ اليها ( مارتن ) مع اخوانه ..  
وهذه الجزيرة مكان موحش ، على مسافة أربعة أميال من البر .. ولم  
أتمكن من الوصول اليها الا بعد يومين ، في قارب لاناس من أهل  
الجزيرة كانوا في تلك القرية لبيع السمك ، وفي بحر هائج .. لكنهم  
كانوا من الناس الذين يحبون الصمت ويكرهون الكلام مع الغرباء ،  
وبذلك كان من الصعب أن أفوز منهم بمعلومات عن ( مارتن ) وزملائه ..  
والسبب في ذلك أنهم يتهربون من دفع الايجارات ويخافون من خيانة  
الغرباء لهم وارشاد الحكومة عنهم .. وليس عندهم ثكنات للبوليس  
مثلنا ، بعد اعتدائهم بالقتل على أحد رجال البوليس بين الجبال ..  
والنتيجة أنهم احرار من كل قيد ، الا من الجوع .. ثم أنهم يعيشون  
على السمك ، وكانوا يبادلونه بالبطاطس ، ولكن هذا انعدم الآن ، ولذلك  
فانهم أقرب الى الجوع برغم سمكهم .. ولكي لا أطيل عليكم ، أقول  
ان هؤلاء الناس حملوني في قاربهم الى الجزيرة ، لكنه كان قاربا صغيرا  
خفيفا جعل يثب فوق المياه حتى خرجت أمعائي أكثر من مرة ، ولما  
وصلنا الى الجزيرة أخيرا كانوا يضحكون من حالتي المحزنة ..

وهنا لم تطق ( ماري ) صبرا ، فقالت له :

— قل لنا الآن ماذا سمعت عن ( مارتن ) عند وصولك الى  
الجزيرة ! ..

فأجاب ( تومسي ) :

— وجدته ذهب من الجزيرة .. ذهب قبل وصولي بيوم واحد .

فقال العجوز :

— يا الهى ! هل أسروه ؟ ..

— كلا .. إنه كان في الجزيرة على رأس جماعة من اخوانه ..  
وكانوا يسمونه ( الصقر ) تقديرا منهم له .. وليس هذا غريبا عليه  
وانت يا ( ايريان ) كانوا يسمونك ( الصقر ) في الماضي بسبب نظراتك  
الشديدة .. وذات يوم بلغهم أن قاربا مسلحا تابعا للحكومة سيصل  
الى الجزيرة للبحث عن الهاربين .. فركب ( مارتن ) واخوانه قوارب  
ذهبت بهم الى البر غربا بعيدا عن رجال الحكومة .. وقد جاء القارب  
المسلح الى الجزيرة في اليوم التالي لوصولي ، فاخترنا جميعا في  
الكهوف الكثيرة المنتشرة على الشاطئ الصخري ، ولم يبق في القرية  
غير النساء ، وعندما جاء رجال الحكومة لم يفوزوا منهن بشيء ، وهكذا  
رجعوا من حيث أتوا ..

فقال ( بريان ) :

— والى أين ذهب ( مارتن ) ؟ .. هل تبعته ؟ .. تكلم يا رجل  
واسرع ! ..

فجعل ( تومسي ) يقول :

— سأخبركم بكل شيء فى وقتيه .. انى تتبعته ( آثاره ) حتى  
القرية القريبة التى انتقل اليها ، لكننى وجدته تركها هى أيضا ..  
وفى هذه القرية وجدت ثلاثة بيوت فقط بها سكانها ، أما باقى السكان  
فانهم هاجروا الى مقاطعة ( مايو ) بسبب الجوع ، بعد أن اختفت  
الاسماك فى ذلك الموسم .. ولما سألتهم عن ( مارتن ) واخوانه قالوا  
انهم انتقلوا شمالا الى مقاطعة ( مايو ) منذ فترة قريبة .. وهكذا  
واصلت رحلتى الى هذه المقاطعة وانا دائم السؤال عن جماعة ( مارتن )  
دون أن افوز بالجواب الشافى لانشغال كل من كنت أصادفهم بما هم  
فيه من جوع وكرب ، حتى وصلت أخيرا الى خليج به مجموعة من  
الجزر الصغيرة المتجاورة حتى يمكن الانسان أن يقفز بسهولة من  
الواحدة الى الأخرى ..

فقلت ( ماجى ) وهى تترنح جزعا :

— وهل وجدت أثر ( مارتن ) فى تلك الجزائر ؟ ..

فأجاب ( تومسي ) :

— انى لم اذهب الى تلك الجزائر قط ، وسأقول لكم السبب ..  
فى قرية كبيرة هناك مررت بجرن بهجور ، قدخلته لامضى فيه ليلتى  
بعد أن اشتد بى التعب ، وفجأة استيقظت من نومى ورأيت جمعا من  
الرجال يقربون الخمسة عشر جالسين فى الجرن حول مصباح ، وهم  
يتصتون الى رجل قوى كان يحدثهم وهو جالس على احدى ركبتيه  
بهز يديه المطبقة تأكيدا لكلامه ..

فقلت ( مارى ) :

— من كان هذا الرجل !

— شاب ارلندى .. انى اتذكر كل كلمة قالها ، لانى لزمتم مكانى  
بين القش طول الحديث خوفا على حياتى .. سمعت هذا الشاب  
القوى الاصفر الشعر يقول للرجال انه ستكون فى كل جهات ارلندا  
( خلايا ) تقاتل لانشاء جمهورية فى البلاد ، ولطرد الجنود الانجليز  
منها ، ولتحرير افراد الشعب المساكين .. كان يقول لهم ان الحرية  
ستكون هى القانون فى العالم أجمع .. وقال لهم ان ( الكلام ) لا فائدة  
منه ، وانا والله من رايه ، لانى كثيرا ماكنت أقول أن أصوب عمل هو  
أن يضرب الانسان ضربته أو يموت فى هذا النضال ! .. آه ! ..  
لا تقاطعوني ! .. سمعت الرجل القوى يقول لهم أيضا ان ( الخلايا )  
ستوجد بين صفوف الجيش الارلندى ، ويبين أفرادها للجنود واجبهم  
فى الانضمام الى جانب الشعب ، لانهم من هذا الشعب وقد أضلنهم  
الاقاويل الكاذبة ، والواجب الوطنى يحتم عليهم ألا يصوبوا الرصاص

الى صدور مواطنيهم الذين تجرى في عروقهم دماؤهم نفسها ! ..  
وقال الرجل القوي ان واجبات ( الخلايا ) هي ايقاظ طوائف الشعب  
لكي تضم صفوفها في جيش موحد ..

فقلت ( ماجي ) :

— ماهذا الكلام ؟ .. يشجعون الناس على القتل ؟ ..

ناستطرد (تومسي) يقول :

— اني لم أسمع في حياتي أبدع من هذا الكلام ، وكان الرجل  
القوي يقوله بطريقة تجعل تنفيذه من أسهل الامور .. وأكثر من هذا  
سمعته يقول ان في ايرلندا ملايين الفقراء وأقلية من الاغنياء ، وان  
الفقراء لو اتحدوا وجعلوا من انفسهم جيشا موحدًا ذا هدف معروف  
كما هو الحال في الجيش ، لامكنهم القضاء بسهولة على الطغاة الظالمين  
.. وعند ذلك توجد الحرية ، ولا يبقى جياح بين الناس .. وعند ذلك  
يصاد ملاك الاراضي الاقطاعيون كما تصاد الارانب .. والواقع ان كلام  
الرجل القوي أثر في نفسي جدا الى حد اني لم أتمالك وقمت من بين  
اكوام القش التي كنت مختبئًا فيها وصرخت مبينا له اعجابي بكل  
ما قال .. بالطيف مما حدث بعد ذلك ! .. انهم وثبوا واقفين وهجموا  
على حتى تأكدت اني مقتول بلا شك .. لكن الرجل القوي الاصفر  
الشعر أوقفهم وأخذ يسألني ويستجوبني من أنا ومن أين أتيت وما  
الذي جاء بي من الاقاليم الغربية .. وهكذا قلت له كل شيء عن  
مارتن و ...

فقاطعته ( ماري ) قائلة :

— يامففل ! .. ألم تذكر من ان تقول شيئًا لاي انسان ؟ ..  
لعنة الله عليك ياشيخ المغفلين .. ربما كان هذا الرجل من جواسيس  
الحكومة ، لانهم جميعا يتظاهرون بالكلام الحماسي .. ربما أصبح  
( مارتن ) الآن مقبوضا عليه ..

فرد عليها (تومسي) قائلا :

— صبرا يا أختي .. ان هذا الرجل الاصفر الشعر لم يكن  
جاسوسا خائنا ، وانما هو بطل شجاع .. ثم انه سيساعد ( مارتن )  
بكل طاقته .. اصبري حتى أخبرك بكل شيء .. عندما أخبرته  
بالحوادث التي جرت عندنا في ( كروم ) وكيف ذهب ( شادويك )  
إلى جهنم بأيدي رجال منا لانذكر اسماءهم ، رأيت يلين ويعاملني  
معاملة أخوية ويقول لزملائه بالحرف الواحد :

« هذا ليس جاسوسا يا اخواني .. ان وجهه سمح يدل عليه  
ارجع يا أخي الى بلدك وقل لزوجتي ( مارتن ) اني سأبحث عنه بين  
الجزائر الصغيرة واني سوف أساعد الاثنين على الخروج من البلاد  
والسفر الى أمريكا و ..

وعند ذلك نظر العجوز الى (ماري) بشدة وقال لها :



— ما هذا الكلام ؟ ... هل هي خطة مدبرة منك ؟ .. هل كنت تنوين أن تهجريننا ؟

فصاحت ( ماري ) بلهجته نفسها قائلة :

— وهل كنت تفضل أن تتركه في المخبأ حتى يعرفوا مكانه ويشنقوه ؟ .. هل هذه هي الأبوة عندك ؟ .. اني أريد أن يهرب الى امريكا .. هل هناك أمامه فرصة غير هذا ؟ .. قل وتكلم .. انت تفكر في نفسك فقط ، مع أنك لن تعيش أكثر من سنين قليلة .. أما نحن فانا في سن الشباب .. والحياة أمامنا طويلة ! ..

وكان العجوز يراقبها وهي تقول هذا الكلام ، فما لبث أن خفت حدة غضبه رويدا .. ولما انتهت ( ماري ) من كلامها تنهد وقال لها وهو يفيض بصره :

— غفر الله لي .. اني لم انظر الى الموضوع نظرتك اليه .. انت على حق يا بنتي ..

فقالت ( ماري ) :

— أنا على حق فعلا ، ويجب أن تعرف هذا .. ماذا قال لك الرجل غير هذا يا ( تومسي ) ؟ ..

فهتف تومسي قائلا :

— قال أشياء كثيرة .. كان كلامه أبدع كلام سمعه انسان ..  
— قال لي ان الرجال الذين يطلبهم البوليس سيرسلون الى أمريكا حيث يتجمع جيش الحرية ويستعد ، ثم يعودون لتحرير أيرلندا .. وقد أخبرني أنهم سيرسلون الاخبار اللازمة عندما يحين الوقت ..

فقالت ( ماري ) :

— لكن متى يأتي ؟ .. ألا تعرف أكثر من هذا ؟ .. هل أمكنه معرفة مكان ( مارتن ) ؟ ..

فأجاب ( تومسي ) وقد تملكه الاعياء فجأة وبدأ يطبق عينيه :

— لا أعرف .. انهم أعطوني لقمة اكلتها وسرت معهم مسافة ، لكن دورية من رجال البوليس ظهرت لنا واضطرونا أن نتفرق في الجبل .. ولما لم أجدهم بعد ذلك لم يكن أمامي الا الرجوع الى هنا .. ومنذ ذلك الوقت لم تدخل لقمة واحدة جوفى .. أنها كانت رحلة عظيمة في الحقيقة ، وقد رأيت فيها أشياء مذهشة ..

وما لبث أن فتح عينيه المغمضتين واردف وهو يتنسم مسرورا :

— انه كان رجلا قويا ، وأجمل ما فيه شعره الاصفر وصوته الرنان الذي يشبه الجرس .. ولن أنسى ماعشت كلامه البديع من القتال وذبح الملاك ..

و مال رأسه على صدره وجعل يغط غطيظا عاليا ، فقالت ( ماري ) :

– لكن هل قبض رجال البوليس على الرجل الاصفر الشعر ؟ ..  
استحلفك أن تقول لنا هل قبضوا عليه أو تمكن من الهرب الى الجزائر  
التي لجأ اليها ( مارتن ) ..

فغمغم (تومسي) قائلا من خلال النوم :

– لا أعرف يا أختي .. وكل ما قاله هو أن ننتظر وصول  
الاخبار لن أنسى والله كلامه الجميل ...

ومرة أخرى تنفس بقوة وتصاعد غطيظه من جديد بعد أن غلبه  
النوم من فرط الاعياء ... فقال ( بريان ) :

– لا أعرف ماذا أفهم من كل هذا الكلام ! ...

فقالت ( ماجي ) باكية :

– أن (مارتن) ضياع مني كما ضاع أولادي قبله ... لم يبق أحد  
من كل أولادي الذين خرجوا من بطني ...

وبدا أن ( ماجي ) لم تفهم ما قاله ( تومسي ) على وجهه الصحيح  
... فاتها لم تلبث أن نهضت وذهبت الى غرفتها ... وقامت مسر  
( جليسون ) بدورها الى فراشها وهي أقرب الى عدم المبالاة ... فان  
هاتين المرأتين المعجوزتين فقدتا قوة الادراك ، وطمس التبلد الذهني  
على عقلهما ، حتى أصبحت كلتاهاما وهي لا تكثرث بما يدور حولها ...

أما ( بريان ) فقد لزم مجلسه قرب النار مع ( ماري ) ... وقد  
فتح فمه مرارا يهم بالكلام ، ولكنه لم يقل شيئا في كل مرة ... وأخيرا  
نهض قائما وجعل ينظر الى ( ماري ) وقد ضغط على شفتيه وأطبق  
قبضتيه ... وكانت ( ماري ) تحرق في نار المدفأة وقد شبكت يديها  
حول ركبتيها .. فما لبث أن وضع يده على كتفها مترفقا ، فانتفضت  
في مكانها بشدة وتطلعت اليه غاضبة ، ولكن ما أن رأت أمارات الرثاء  
والرقة البادية في عينيه حتى لانت وأخذت تبكي في سكون ... فضغط  
على كتفها ثم ابتعد عنها قاصدا الى غرفته ... على أنه وقف في  
منتصف الطريق الى الغرفة وقال لها دون أن يلتفت اليها :

– ستتصحبك بركتي يا بنتي متى رحلت من هنا ... فليس في نيتي  
أن أجرك وأجر (مارتن) معي الى القبر ... بارك الله فيك يا (ياماري) ...

فردت عليه قائلة بحرارة وهو يدخل غرفته :

– وفيك يا عمي ...

قالت ( ماري ) هذه الكلمات وقد تجردت من المشاعر .. وبرغم  
أن الدموع جرت على خديها فانها لم تنفعل اذ ذاك باحساس داخلي ..  
ولم تساعد هذه الدموع على تلطيف حدة الفراغ الذي اعتراها بتأثير فشل

( تومسي ) في رؤية ( مارتن ) ... فما هي الأنباء التي جاء بها (تومسي)  
حقا ... ؟ لاشيء سوى روايه قصها رجل غريب في ( جرن ) مهجور  
ذات ليلة ...

وتعالى غطيظ ( تومسي )...وأخذت نار المدفأة تخبو ... وتبلدت  
نظرات ( ماري ) ... وتدلي رأسها الى صدرها ... وهمست تقول  
لنفسها :

— غدا سأذهب وأبيع ثوب العرس .. لم يبق لي من عمل سوى  
الانتظار ، والله يتولاني وطفلي برحمته ...



## الفصل التاسع والأربعون

كان الدكتور ( هاينز ) ما يزال فى فراشه برغم أن الساعة جاوزت الحادية عشرة صباحا . . . . لقد ظل مستيقظا فى الفراش ثلاث ساعات ، وهو لم يشعر بمرض ألم به ، ولكنه فقد شهيته تماما ، ورفض الطعام الذى جاءته به أخته ، وأخذ يكثر من شرب الماء . . . .

ثم انه شعر كأن رأسه امتلأ بضباب جعل التفكير مهمة شاقة عسيرة . . . وبرغم هذا ما برحت تتوارد فى ذهنه صور وأخيلة غريبة . . وراح وهو ممدد فى الفراش على ظهره يستعرض تلك الصور بلذة لا تخلو من كآبة دون أن يحاول تحليلها أو اقصاها من ذهنه . . . فقد اضحى لا يحفل بالحياة اطلاقا . . ولم يكن يريد الآن أكثر من أن يدوم استلقاؤه على ظهره الى الأبد وأن يمضى فى شرب الماء . . . .

وجاءته أخته مرارا تقول انهم يطلبونه لعيادة المرضى ، فكان يقول لها فى كل مرة :

— قولى انى خرجت ! . . قلت لك انى لن أرى أحدا ! . . . أنا أعرف انه ليس بهم مرض . . . فليتقدم من يطعمهم ! . . . ليس من شأنى أن أطعمهم ! . . . هل أنا الشخص الوحيد فى المقاطعة الذى عليه أن يرعاهم ؟ اذهبى ولا تقلقينى مرة ثانية ! . . .

كان هذا الطبيب ينطوى على حظ كبير من الخير كما رأينا فيما تقدم من هذه الفصول . . . فهو مرهف الحس وطيّب القلب . بل كان كذلك مشغولا بخدمة البيئة التى يعيش فيها . . . لكنه كان فى حقيقته ينتمى الى تلك الطبقة الضعيفة المترددة التى نراها بين أكثر الناس . وهم أولئك الذين تعوزهم الشجاعة الأدبية التى تجعلهم يستجيبون لحوافز المشل العليا بدافع من قوتهم الذاتية الجبارة . . . وصحيح انهم يشعرون بهذه الحوافز نتيجة فرط الحس والشعور بأنهم يفتقدون شيئا فى الحياة . . . ولكن شعورهم بأن ثمة قوة خفية قاهرة تغلبهم على أمرهم ، يدفعهم الى سلوك مذاهب متناقضة فى الرأى والاتجاه . . . فهم أحيانا ينشطون الى العمل ، وأحيانا أخرى يلوذون بالسلبية والجمود . . . وأكبر مشتاهم أن يندمجوا فى زمرة جيش يسير الى هدف بعيد . . . فإذا استقلوا بأنفسهم أو استهدفوا للمقاومة ، بدأ منهم العجز والقصور ومالوا الى اليأس والقنوط .

كان الطبيب سعيدا هائثا فى تلك الفترة التى قضها تحت سلطان الأب (جيلان) معتنقا مذهبه فى وجوب حب وطنه ايرلندا كما يحب أمه . . . ولكن غموض ذاتيه القس صرفه عن التعلق به وخضوصا عندما ألفاه مجرد

صوت يصرخ وحده في قفار متراميه ... لقد كان الأب (جيلان) جندياً  
ثائراً ، ولكنه تجرد من سلاح الجندي بارتداء لباس الكهنوت ، وبما يحق  
عليه من طاعة رؤسائه ذوى الاردية الفضفاضة والقلوب الزائفة ... ثم  
جاءت زيارة الطبيب للمرأة التى توفيت بالطاعون ، وما أعقبها من هجوم  
رجال البوليس على الناس وهم مدججون بالسلاح ... لقد رأى القس  
اذ ذاك عاجز الحيلة أمام ذلك الهجوم ورأى الناس يفسرون هنا  
وهناك بغير قائد ولا مرشد ... فكان فى ذلك ما جعل حوافر المثل العليا  
تتبخر نهائياً من نفسه ... ولم تكن تلك الثورة التى اختصر بها آياه الا  
ترجمان عن الخوف الشديد الذى كان يعصف بنفسه ...

كان خوفه ذاك مزدوجاً ... فقد كان يخاف أن تكون عدوى  
الطاعون قد انتقلت اليه من تلك المرأة ، كما كان يخاف أن يعتقله  
البوليس بتهمة الثورة ... لكن خوفه من البوليس لم يكن قائماً على  
أساس وهو لم يشارك قط فى الأمور السياسية مشاركة فعلية ، حتى  
ولا بالانضواء فى عضوية ( جماعة الاصلاح ) المعروفة باعتدالها ... وبرغم  
ذلك فان اضطراب أعصابه جعله يعتقد أن البوليس قد يتهمه بالاشتراك  
فى قتل ( شادويك ) ... وكذلك اعتزل الناس وتحاشى الاتصال بهم ،  
للتحوط ضد عدوى المرض ، وليكون بمنجاة من الاعتقال ... بل انه  
غدا يمضى الوقت ، شأن من هم على شاكلته ، وهو يعد الاهلين مسئولين  
عن سوء حالهم ... فقد أصبح يتهمم فى قرارة نفسه بالحمول والقذارة ،  
والعجز عن تنظيم صفوفهم ، والمكافحة لنيل حقوقهم ... وأمعن فى هذه  
الحملة على مواطنيه الى حد أنه راح يسائل نفسه :

— اذا كانوا راغبين عن الكفاح ، فلم أكافح من أجلهم ؟ ... لم  
أضحى بمستقبل فى سبيلهم ؟ ... لم أخاطر بتعريض نفسى لعدوى  
الوباء ؟ ... ان أفضل ما أعمله هو الابتعاد من هنا قبل فوات الأوان ! ...

ولم يلبث أن سنحت له فرصة الهرب المنشودة بتدبير أخيه (توني)  
الذى ازدهرت تجارته فى (كلوجر) بفضل المجاعة ... فقد كان فى البلدة  
طبيب يدعى (لوتون) يوشك أن يعتزل العمل ، فرأى (توني) أن  
تستأثر الأسرة بهذه الوظيفة . بعد أن أذكى النجاح طموحه حتى جعل  
يفكر ويدبر ليصبح سيد (كلوجر) كلها ... وما له لا يفكر فى هذا وقد  
أصبح الناس يقولون عنه ( ان توني هاينز الثرى يضع كلوجر فى جيبه )  
وبرغم هذا فان (توني) كان يسير فى طريقه بحذر شديد ليتجنب عداوة  
الطبقة المتوسطة فى (كلوجر) ممن تملكهم الحسد من هذا العملاق الذى  
هبط عليهم من الجبال منافساً ... وقد رأى (توني) أن وجود شقيقه  
المثقف المتخرج فى دبلن ، طبيباً للبلدة ، سيعزز ولا شك مكانته ويضاعف  
من سلطانه ... ولما فاتح (توني) أباه فى الأمر عمد هذا الى استشارة  
زوجته ، فأيدته على الفور كعادتها ، وقالت فى هذا الصدد :

— ان خطوة كهذه شئ عظيم لولدنا الطبيب ... فان الأمور أصبحت  
تسير فى البلدة من سيىء الى أسوأ ...

فقال لها ( هاينز ) :

— أنت على حق في هذا الكلام ... وأنا أظن أنه لن يمضي وقت طويل حتى ننتقل لنلنا الى (كلوجر) ... فلم يعد نرى (كروم) شيء نستفيد منه ...

حدثت هذه المداولات بعد مضي أسبوع على الخصام الذي وقع بين الطبيب ووالده ... فكان من رأى الوالدين أن هذه الخطة الجديدة هي أسلم حل لانتهاء الجفاء وسوء التفاهم بينه وبينهما ... وهكذا ذهبا اليه وقالوا له :

— أنت تعلم أن هذا المكان لا يلائمك ، ولذلك خطر لنا أن عيادة الدكتور (لوتون) في (كلوجر) هي أفضل مكان لك ... فهل تذهب الى البلدة وتكلم (توني) في الموضوع ؟ ...

وكم كانت دهشتها عندما بادر الطبيب الى قبول هذا الاقتراح ... ومع هذا فان الطبيب لم يبد لهما حماسة ظاهرة برغم هذا القبول السريع ، وما ذلك الا لكي يدفع عن نفسه تأنيب الضمير لتخليه عن مركزه في هذه الظروف الدقيقة ... وبوسعه الآن أن يقول لنفسه ان ذويه هم المسئولون عن هذا العمل ... وفعلا ذهب الى أخيه (توني) وتمت المفاوضات أو كادت ... وغدا في وسعه الآن أن يترك القرية وينتقل الى مقره الجديد في (كلوجر) ... وقد كانت هذه مرحلة حافلة في الواقع ، وان كان الطبيب قد ساوره بعض الحجل من هذا المسعى ...

وهنا لا مفر من تسجيل ظاهرة غريبة في أطوار هذه الشخصية المعقدة ... فقد كانت الصور والأخيلة التي تتوارد في ذهنه تذكى مشاعره وتلهب دمه ، وكانت أكثر هذه الصور ترددا على خاطره صورة (ايلي جليسون) وما كان من معانقتها له في غرفتها يوم أن جرح (شادويك) ... ومع أنه قد استطاع أن يتخلص من هذه المشاعر العاطفية المضطربة الملتهبة منذ أن قطع علاقته بشادويك ، فان هذه الحالة ما لبثت أن عاودته بقوة عاتية ...

ومرة أخرى أوقف الطبيب من خدره بدخول اخته الغرفة ، دون أن تطرق الباب أو تستأذن في الدخول ... وانما تسلمت الى الغرفة ووقفت لدى الحائط قرب الباب تجذب أصابع يدها اليمنى بيسراها ... فقال لها الطبيب بلهجة الحالم :

— من جاء هذه المرة ؟

فأجابت (بريجيت همسا) :

— هي (ماري جليسون) ، من (الوادي الأسود) ...

— وماذا تريد ؟ ...

— تريد أن تفحص طفلها ...

— وماذا جرى للطفل ؟

— لا أعرف ...



— لماذا لم تقولى لها انى خرجت ؟ ... قلت لك أن تخبرنى كل من يسأل عنى أنى فى الخارج ، الا فى الحالات الخطيرة ... قولى لها انى ساكون فى العيادة فيما بعد ... وبامكانها أن تذهب بالطفل الى هناك ...

فقلت ( بريجيت ) وقد اشتد بها الانفعال :

— لا يمكن أن أقول لها ذلك ... انها أعطتنى مشطا لشعرى ...

فما لبث الطبيب أن جلس فى الفراش متكئا على مرفقيه وتطلع لأول مرة الى أخته ... لقد شعر بغشاوة غريبة أمام عينيه ، وبدت له الفتاة كريمة بصورة شاذة ، حتى قال بصوت أقرب الى الصياح :

— ماذا أعطتك ؟ ...

فرفعت ( بريجيت ) عينيهما من الارض وتطلعت الى أخيها تم اندفعت. تضحك ضحكتها الغريبة التى كانت تبدر منها فجأة دون سبب ظاهر ، وانتهى كانت تعترىها حتى وهى وحدها ... لكن هذه الضحكة لم تدم الا برهة يسيرة ثم عرت وجهها حمرة شديدة وغضت بصرها مرة أخرى وجعلت تعبت بأصابعها . وما لبثت أن قالت بانفعال شديد ولكن فى صوتها الهامس :

— هو مشط أسباني ! ... انى اشتريته منها بشلن .. وماشتري. نوبها الغالى أيضا ...

ومرة أخرى جعلت تنظر الى أخيها نظرة صارمة وكأنها تتجداه أن يمنعها من شراء الثوب ، وقد بدت فى عينيهما علائم التشفى والشماته ... فهى أيضا كانت تلابسها فترات التمرد واشتهاء الانتقام لما ينزل بها من ذل وهوان ... وكان انتقامها دائما يتم فى صورة تخیلات تتوارد على ذهنها ، اذ تديق أعداءها فى تصوراتها الذهنية شر ألوان العذاب ، وتحيلهم خاصة الى مخلوقات قبيحة لا يطيق أن يبصرها أحد ... فقد كانت بلواها فى قبج صورتها ... وذلك هو سبب اشتداد أنفعالها للحصول على ثوب عرس ( ماري ) ومشطها الجميل ... فهى تمنى النفس بأن يكون لها جمال ( ماري ) بمجرد حصولها على هذه الأشياء الجميلة ... قال لها الطبيب مرددا كلمتها :

— تقولين ثوبها ؟ ... اذن ستشتريين ثوبها ؟ ... ولائى سبب ؟ ...

فجعلت ( بريجيت ) تقول :

— أنت اذن ترى مثلهم انى يجب الا أحصل على شيء ؟ ... انت تستكثر على شراء الثوب ؟ ... لكن من حقى أن أفعل ما يحلو لى بنقودى التى ادخرتها ! انى كسبتها بجهد وتعب وأنا أنالها درهما درهما من نزلاء الفندق ... أنا لا أحصل على ثوب أبدا ! ... مازلت ألبس نفس الثوب القديم الذى كان عندى منذ الصغر . انى أخجل من لبسه كلما ذهبت الى الكنيسة ! أما أنت و(توى) فلكما كل شيء ! ... انى ادخرت جنيهين ... عليك أن تخبر أبى أن من حقى شراء الثوب اذا اعترض على ذلك ... عليك أن تفعل هذا والا ...

وكفت عن الكلام وهي ترميه بنظرات شذراء ، ثم غضت بصرها من جديد . . . .

فضحك الطبيب قائلا :

— والا ماذا ؟ . . .

— والا قلت لأبى انك عدت الى شرب الخمر ! . . .

انزعج الطبيب من هذا التهديد . . وكان حقا قد أخذ في شرب الخمر في الأيام الأخيرة بعد زيارته للمرأة التي توفيت بالطاعون . . . وكان يقول لنفسه انه يفعل هذا دفعا لعدوى المرض . . لكن اذا علم أبوه بهذا فان شراء عيادة الدكتور ( لوتون ) لن يتم قط . . . ولذا قال لها بصوت خافت :

— لا يمكن أن تفعل هذا يا مجنونة ! . . . ولو فعلت لقتلتك ! . . .

فانبعثت منها ضحكة أخرى دون أن ترفع نظرها عن الأرض ، على حين استطرد الطبيب قائلا :

— وهل يهمنى ما تشتريه ؟ . . . أنا لم أقل انك لن تستطيعي شراء الثوب . . . انى سأقف فى صفك اذا أبدى أبوك أى اعتراض . . .

فجعلته ( بريجيت ) تقول بانفعال وهي تنظر اليه بجرأة :

— بارك الله فيك ! . . . انى سأعطيها جنيها ثمنا للثوب . . . انه ثوب جميل يساوى أكثر من هذه القيمة . . . وربما تمكنت من شراء حرملتها أيضا بنصف جنيه ، عندما يشتد بها الجوع مرة ثانية . . . انها تبيع هذه الملابس بسبب الجوع ! . . .

فقال الطبيب شاردا الذهن :

— بسبب الجوع ؟ . . .

وفجأة أحس بالغشاوة تزيد كثافة فى رأسه ، وشعر بلسانه يجف فى حلقه ، لكنه لم يجد فى نفسه نشاطا لكى يمد يده الى ابريق الماء المجاور للفراش . . . فلم يلبث أنه شعر بحرارة خانقة وتملكه الحجل من نفسه دون أن يعرف علة لهذا الحجل . . . على أنه أصبح يمقت ( بريجيت ) مقتا شديدا ، وقال وهو يبغى النكاية بها :

— ان الثوب سيكون أكبر من جسمك . . .

فردت عليه قائلة :

— سأقصره . . . لا شك أنك ستفحص طفلها ، أليس كذلك ؟ . . . انها لن تعطينى الثوب حتى تفحص لها الطفل . . .

ولسبب ما أدرك الطبيب أنه لا بد من حرمان ( مارى ) من الثوب بأى ثمن . . . فقد تملكته فكرة غريبة مدارها أن الثوب يمكن أن يكون دليلا ضده فيما يتعلق بمقتل ( شادويك ) . . . وهكذا قال لأخته :

– نعم ٠٠ سأفحص الطفل اذا أبطلت الكلام وذهبت عني ٠

فجعلت ( بريجيت ) تقول همسا وهي تعلق شفيتها بشراة :

– بارك الله فيك ٠٠٠ اذن سيكون الثوب من نصيبي ! ٠٠٠ ان ( ماري ) طلبت جنيهاين ثمن الثوب ، لكنني كنت أعلم أنها ستقبل جنيها واحدا ٠٠٠ بإمكانك أن تعرف متى يكون الشخص مستعدا لقبول ثمن أقل ، فان الخوف من امتناعك عن الشراء يبدو جليا في نظراته ! ٠٠٠ اني تظاهرت أمامها بأنني غير محتاجة الى الثوب ، فالتاس لا يقبلون على شراء الملابس هذه الأيام ٠٠٠ والنتيجة المعروفة أنها قبلت مبلغ الجنيه الذي عرضته عليها ؛ ولكنها اشترطت لاتمام الصفقة أن تفحص طفلها ٠٠٠ وهي لن تتردد في قطع المسافة الطويلة الى ( كلوجر ) سيرا لبيع الثوب هناك من باب الكيد اذا لم يتم البيع كما اشترطت ٠٠٠

كانت ( بريجيت ) تقول هذا كله بصوت هامس وبسرعة كبيرة وهي تتمتم وتتلعثم ٠٠٠ لكن الطبيب لم يكن ملقيا اليها بسمعه ٠٠٠ فقد انتابه دوار ولم يعد يطيق البقاء في الفراش ، وأخذت صورة ( ايلي جليسون ) وهي تعانقه تعاوده في الحاح شديد ، واقتربت بها صورة ( شادويك ) وهو في الغرفة المجاورة ملفوف العنق بالفيوط الماطخة بالدم ٠٠٠ ثم سمع وكأن شخصا يصرخ عن كثب محذرا من قرب هجوم رجال البوليس بالحراة المسددة ٠٠ لكل هذه الصور كان عليه أن يغادر الفراش والا ساءت العقبي ٠٠٠ وكذلك صاح يقول لأخته غاضبا :

– كيف يمكن أن أفحص طفلها وأنت واقفة لا تتحركين ؟! ٠٠٠ أين هذه المرأة ؟ ٠٠٠

فأجابت ( بريجيت ) وهي تدنو من الباب :

– انها تحت في الغرفة الصغرى خلف المطبخ ٠٠ اني أخفيتها هناك ٠٠٠

وخرجت بريجيت مسرعة ٠٠٠ ووثب الطبيب من الفراش ٠٠ أو هكذا خيل اليه أنه وثب منه ، وان كان الواقع أنه نزل يترنج ويتميل ٠٠ فقد بلغ من الضعف حدا جعله لا يكاد يقوى على الوقوف ٠٠ لكنه أدرك أنه لا بد له من ارتداء ملابسه حالا والخروج من الغرفة ٠٠ فان صورة ( ايلي ) وهي تعانقه ، وصورة ( شادويك ) وهو ملفوف العنق بالفيوط المخضبة بالدم ، وصورة الرجل الذي يحذر من رجال البوليس – كل هذه الصور الملحة جعلت البقاء في الغرفة من أخطر الأمور عليه ٠٠ ولم يتمالك أن تناول الابريق وجعل يشرب بشراة ٠٠ ثم دس وجهه في حوض ماء بارد رد اليه بعض الاتزان وجعله يشعر بصفاء ذهني ٠٠ لكن الغشاوة ما لبثت أن عادت اليه أشد مما كانت مقترنة بصور ( ايلي ) و ( شادويك ) والشخص الذي يصرخ ويحذر ٠٠٠ فارتدى ملابسه وبرز الغرفة ٠٠٠ ٠٠٠ فشعر كأن الأرض ترتفع اليه حتى اضطر أن يتشبث بالحاجز وهو يهبط في السلم ٠٠٠ كل ذلك وهو لا يدرك أن هناك أمرا خطيرا طرا عليه ، فانه لم يعد يستطيع التفكير ٠٠٠



وقابلته (بريجيت) عند نهاية السلم وذهبت به الى الغرفة الصغيرة  
خلف المطبخ ... فرأى ( ماري ) واقفة قرب الحائط كالمسولة ...  
وكانت منتصبة القامة تضم الطفل الى صدرها تحت ( الحاملة ) ، وقد  
أمسكت لفافة بيدها ... ولمح من نافذة خلف ( ماري ) عمته ( جوليا )  
وهي تنظف اثناء فناء البيت بالرمل ، فكان للصوت وقع شديد على  
أعصابه كاد يصرخ من وطأته ... ونظر الى شعر عمته الاشعث الملتف  
حول وجهها ، فأحس بمقت شديد لها ورغبة في ازهاق روحها ...

وحيته ( ماري ) بانحناء يسيرة ... ورآها تتطلع اليه بصورة  
غريبة وقد اتسعت عيناها وفغرت فاهها ... وارتدت خطوة الى الوراء  
وهي تضم الطفل الى صدرها ، لم تلبث أن حملت فيه فزعة مرتاعة ...  
وهنا شعر الطبيب أن حملا ثقيلًا يضغط عليه ، وأنه لا بد له من  
الكلام والا سحقه الحمل الثقيل ، فصاح قائلا :

— أنت جائعة ! ... وطفلك جائع ! ... كلي ! ... كلي ! ...  
لا يمكنني أن أفعل لك شيئا ... كلي ! ... قلت لك كلي ! ...

واشتدت كثافة الغشاوة حتى حجبت عن عينيهِ صورة ( ماري )  
وصورة عمته ... ولكن سمعه زاد حدة ، أذ سمع المتكلم الوهمي يصرخ  
بهذه الكلمات :

— هو مصاب بالطاعون ! ... الطاعون ! ... أبعدوه عن طفلي ! ...  
وهو الطبيب على الأرض وهو يسمع صوتا آخر يقول :

— اتركي لي الثوب يا مغفلة ! ... خذي المبلغ ! ... اعطيني  
الثوب ... انك وعدتني به ! ...

وأخفت الدنيا تلف وتدور بسرعة مخيفة ... واندمج الطبيب في  
هذا الدوران حتى لم يعد يعي شيئا ...

## الفصل الخمسون

استيقظ ( تومسي ) من حلم جميل رأى فيه الرجل الأصفر الشعر على رأس جيش يقوده الى النصر . . . وكان ( تومسي ) نفسه واحدا من أفراد هذا الجيش ، وغالبية رجال ونساء من صميم الشعب ، ينتعلون أحذية من الخيش . . . وكان بينهم جنود من جيش الملكة ، وكانوا يصيحون قائلين انهم لن يطلقوا رصاصهم على صدور مواطنيهم وهم من لحمهم ودمهم . . . وكان بعضهم من رجال الجزائر ، ساروا يحملون قواربهم الخفيفة وكأنهم خنافس طويلة السيقان . . .

وقد تسلق هذا الجيش العظيم جبلا تكسوه النباتات الشوكية المعطرة ووجهتهم قمة الجبل ، حيث وقف الرجل الأصفر الشعر حاملا بأحدى يديه رأس أحد الملوك يقطر دما ، وبالثانية سيفا لامعا جعل يشير به الى ناحية الأفق حيث كانت أشعة الشمس المشرقة تتوهج بألوانها المتألثة . . . فقد كان يشير الى أرض الخيرات الواقعة وراء قمة الجبل .

وفجأة ، عندما بلغت نشوة الانتصار غايتها ، ولم يبق بين ( تومسي ) وبين أرض الخيرات الا مسافة يسيرة ، اذا صوت يأمره بالوقوف . . . وهنا سمعت قدماء في الأرض ، ومرت به كتلة الجيش حتى جاوزته الى أرض الخيرات ، على حين وقف هو محسورا مقهورا ينصت الى الصوت الذي كان يقول :

— انه مصاب بالطاعون ! ان جسمه كله مغطى بالبقع كالخنزير ! .  
انه سقط على الأرض وهو يصرخ ! . .

وكذلك استيقظ ( تومسي ) من نومه وهو في أشد الفزع . . . فعلم أن الصوت الذي سمعه هو صوت (ماري) وهي تصيح في المطبخ . وأحس بألم شديد وهو يجلس في فراشه ، فقد كانت أطرافه متصلبة من أثر المشي الطويل ، وذلك تفسير احساسه في المنام بأن قدميه قد سمرتا في الأرض . . . ولم يجد في ظلام غرفته العلوية أثرا للشمس الساطعة التي أشرقت على أرض الخيرات . . . وكم كان فظيضا أن يدرك (تومسي) أن الرجل الأصفر الشعر لم يكن الا حلما . . . ومثله في ذلك الجنود الذين كانوا يقولون انهم لن يطلقوا النار على مواطنيهم الذين هم من لحمهم ودمهم ، وسائر كتلة الجيش الزاحف المؤلف من الرجال والنساء ! . . .

وسمع (ماري) تهتف قائلة :

— اني اشتريت الطعام بكل ما كان معي من نقود . . . ان الطعام

هنا معي ٠٠٠ لأنه من الخطر بعد الآن أن يذهب الإنسان إلى متجر (هاينز)  
بعد أن دخله الطاعون ٠٠٠ انى سأبتعد منذ الآن عن القرية ٠٠٠

وأراد ( تومسي ) أن يضطجع مرة أخرى وأن يغمض عينيه ليستعيد  
تلك النشوة التي قطعها عليه كلام ( ماري ) ٠٠٠ لكن صوتها المغمى بالخوف  
حال بينه وبين الاضطجاع ، كما حال بينه منذ لحظات وبين بلوغ قمة الجبل

وشعر ( تومسي ) بالرتاء لحال ( ماري ) ٠٠٠ وهكذا نهض قائما  
وهو يتوجع من الألم ، فأدلى السلم ونزل إلى المطبخ ٠٠ فوجد العجائز الثلاث  
مع ( ماري ) ، وكانوا جميعا يتكلمون بانفعال ٠٠ فخالطه اضطراب في  
تفكيره ولم يستطع أن يفهم كلامهم ٠٠٠ وشعر بألم حاد في جبينه وتيبس  
موجع في عظامه وطين في أذنيه ٠٠ أن أصوات المتكلمين هؤلاء ضاعمت  
واندمجت في غماز أصوات أخرى أجل منها تنبعث في داخله : أصوات  
أناشيد يرددوها الهواء ، ووقع أقدام أناس يسيرون إلى قمة الجبل ٠٠٠  
لا بد له أن يكلم ( ماري ) عن السعادة العظمى المدخرة للبشرية جمعاء  
اذ يحرزها الرجل الأصفر الشعر من خوف المجاعة ٠٠٠

وكذلك جعل يقول لماري برقة :

— ألا يمكنك الصبر والانتظار يا عزيزتي ؟ ٠٠٠ لا تفقدى الأمل في  
هذا الوقت الذي جاء فيه رجال سيعملون على اخراجك أنت وزوجك من  
هذه البلاد ٠٠ انه وعدنى وعدا قاطعا ٠٠٠ لن تمضى الا فترة قصيرة  
حتى تأتيك الأنباء من الرجل الأصفر الشعر ٠٠٠

لكن ( ماري ) استدارت إليه بشراسة وهتفت قائلة :

— شبعنا كلاما عنك وعن رجلك الأصفر الشعر ! ٠٠ يالها من حكاية  
جميلة جئت بها من الجزائر الغربية ! ٠٠ انى أرسلتلك إلى هناك وكان  
يجب أن أذهب بنفسى ٠٠ لقد فات الآن وقت الكلام عن الرجال ذوي الشعر  
الأصفر ٠٠٠ لم يبق ما نفعله سوى انتظار الموت ! ٠٠٠ لقد جاء الطاعون !  
٠٠٠ وعن قريب ستغضى طرقات الوادى وشوارع القرية والبلدة بجثث  
الموتى المتعفنة ! ٠٠٠ ان الفساد يحوطنا من كل جانب ، ولم يبق لنا ما نعتد  
عليه سوى الملابس البالية التي تستر ظهورنا ٠٠٠ ان الكيس الذي تراه  
هناك فيه كل الطعام الذي جئت به من ثمن ثوب العرس ٠٠ يالها من نهاية  
جميلة لزواجى ! ٠ لقد أصبح زوجى هاربا ، وانتقل ثوب العرس ليكون  
زينة لفتاة قبيحة مخبولة ! ٠٠٠ وأنا هنا أكاد أموت خوفا من أن يصيب  
( ميخائيل ) الصغير بعدوى الطاعون ! ٠٠ لا تكلمنى عن المبادئ وعن  
الرجال ذوي الشعور الصفراء ٠٠٠ خير لك أن تضع وجهك على حافة الصخرة  
المجاورة للبيت وتعوى كالكلب ، لانك سستموت من الجوع ما فى ذلك  
شك ! ٠٠٠

وكانت ( ماري ) جالسة فوق مقعد صغير قرب المدفأة ترضع طفلها  
وقد ضمت باحدى يديها طرف ( الحرملة ) فوق الطفل وأمسكت بيدها  
الثانية قطعة من الخبز ٠٠٠ ولما فرغت من كلامها أخذت تأكل الخبز بشراهة



شديدة وتملاً به فمها وكأنها تشعر بحاجة ملحة لايجاد لبن لطفلها . . .  
وبدت ( ماري ) اذ ذاك زائفة البصر منقوشة الشعر الى حد انه تدلى فوق  
وجنتيها . . . وكانت قدماها الحافيتان مغبرتين ، وثوبها العتيق مرقعا .  
وتكلم ( موسى ) ، فهتف قائلاً :

— أواه يا ( ماري ) ! . . . هل تظنين أنى أحاول خداعك بعد أن  
جعلت من هذا البيت الحقيق قصراً أسكنه ، منذ أن جئت أنت فيه ؟ . . .  
هل أكذب عليك وكنت دائماً مثال الطيبة نحوى ؟ . . . تأكدي أن قلبي  
يدمي وأنا أراك تبيعين ثوبك الجميل ومشطك البديع ، وكنت وأنت  
تظهرين بهما يوم الأحد في الكنيسة كأنك ملكة على رأسها التاج . . . أقسم  
يا ( ماري ) أن ( موسى ) المسكين ليس هو الرجل الذي يخيب ظنك . . .  
واني لا أتردد في شق بطني بسكين هذه اللحظة أمامك ، ان كان في هذا  
ما يسعدك . . .

وبسط يديه توسلاً واستعطافاً وجرت دموعه مدراراً . . . لكن  
( ماري ) نظرت اليه ببرود وقالت كلاماً لم يستطع أن يسمعه بعد أن عصاه  
السمع . . . فقد اشتد الاضطراب الذي يعتل في داخله . . . وغدت  
الأصوات التي تردد الأناشيد والتهافتات الحماسية صاعدة الى قمة الجبل  
لبلوغ الأرض الموعودة ، عالية مدوية . . . ولما نظر ( موسى ) حوله مرتاعاً  
رأى الرجل العجوز يراقبه . . . كان العجوز دائماً يناصبه العداء ، وقد  
أدرك ( موسى ) الآن معنى هذه العداوة : فان العجوز يعبه كما مهملاً وكأننا  
حقيراً . . . وهنا بلغ الانفعال الداخلي في نفس ( موسى ) مداه ، حتى صاح  
قائلاً :

— لست أنا الذي يأكل الطعام الذي جئت به يا ( ماري ) ! . . . ان  
هذا الطعام لك ولطفلك وحدكما .

وخفت حدة اضطرابه الداخلي . . . وعصاه السمع مرة أخرى حتى لم  
يستطع أن يسمع ما كانت تقوله المراتان العجوزان وان أدرك أنهما تولولان  
ولم تلبث ( ماري ) أن نهضت وأمسكت يده وكلتته . . . فرأى  
الدموع تترقرق في عينيها ، ولكنه لم يفهم كلامها . . . غير أنه لم يحفل بهذا  
لأن محياها عاد اليه جماله بتلك الدموع التي انبثقت في عينيها . . . ومرة  
أخرى أخذت الجموع الصاعدة في الجبل تردد أناشيد النصر ، وجعل  
الجنود يقولون انهم لن يصوبوا الرصاص الى صدور أخوانهم الذين هم من  
لحمهم ودمهم ، ووقف الرجل الاصفر الشعر فوق قمة الجبل وقفة الظافر  
المنتصر . . . وهنا انحني ( موسى ) أمام ( ماري ) وقبل يدها ، ثم تطاول  
الى الطفل وقبل يده أيضاً وهو يقول همساً :

— بارك الله فيكما . . .

فردت عليه ( ماري ) قائلة :

— وفيك يا ( موسى ) العزيز . . . ان الكلمات التي قلتها لك لم تصدر  
من قلبي ، ولم يكن سببها غير الخوف . . .

لكن ( تومسى ) لم يسمع كلامها ، فقد ضاق به البيت حتى أسرع الى الخارج لثلا يختنق ٠٠ كان المطر يتساقط رذاذا ٠٠٠ فسار الى الزقاق منحني الهامة في جهد وهو يشعر بالمطر يسقط على وجهه فيلطف مما به حتى ذهب عنه الصداع واستطاع أن يعود الى التفكير فى حلمه الجميل مسرورا هائنا ٠٠٠ وجعل يسير الى جهة القرية وهو ينصت الى الاناشيد الحماسية يرددوها الجنود الصاعدون فى الجبل ٠٠ وعندما مر بكوخ ( أوهانلون ) رأى الاطفال الثلاثة واقفين خارج الكوخ ييكون وهم فى شر حال من النحول وتمزق الثياب ٠٠٠ فقال لهم :

— لماذا تيكون ؟ ٠٠٠

فأجابت ( جوليا ) بصوت خافت :

— أمنا ذهبت ! ٠٠٠ خرجت فى الليلة الماضية ! ٠٠٠

— والى أين ذهبت ؟ ٠٠٠

— لا نعرف ٠٠٠ نحن جائعون ! ٠٠٠

— هل ذهبت الى القرية ؟ ٠٠

— لا نعرف ٠٠٠

وأخذ الاطفال الثلاثة فى العويل ، فقال لهم ( تومسى ) وقد شعر بالصداع يعود اليه وبأصوات الاناشيد تعلو الى حد الهدير :

— ساجيء بها لكم من القرية ٠٠٠

وسار الى القرية مسرعا ليبتعد عن هؤلاء الصغار الذين رأهم يريدون ولا شك اختطاف الطعام من ( مارى ) وهو يجب أن يكون لمارى وطفلها وحدهما ٠٠٠

وبينما كان يمر بكوخ النساج رأى ( سالى أوهانلون ) قادمة نحوه ٠٠٠ وكانت تسير حافية فى المطر المشتد بخطى واسعة كخطى سكير ، ورشاش الوحل ينبعث من تحت قدميها ، وهى تجر شالها الأسود خلفها ، وقد ربطت فى طرفيه شيئا كان يتواثب على الارض كالكرة ٠٠٠ وكانت ترفع يدها اليمنى فوق رأسها وتقول كلاما لم يستطع ( تومسى ) أن يسمعه بعد أن عصاه السمع من جديد ٠٠٠ ولما مرت به قال لها :

— ان أطفالك ييكون من أجلك .

لكنها مرت به دون أن تلتفت اليه وكأنها لم تعرفه ولم تسمع كلامه ، وما برحت ترفع يدها الى رأسها هاتفة مرردة قولها : ( لحم ميت ) ! ٠٠٠

ووصل ( تومسى ) الى القرية ٠٠ فوجد جمعا حاشدا من الناس يقفون أمام دار المحكمة غير مباليين بالمطر الغزير ٠٠٠ فوقف قريبهم وجعل ينظر مثلهم الى باب المحكمة حيث علقت لافتة تحمل هذه الكلمات : ( لجنة تخفيف المجاعة ) ٠٠٠ وكان الباب موصدا ولا يبدو أن هناك أحدا فى داخل

المحكمة . . لكن المتجهرين وقفوا ينتظرون صامتين مؤملين أن يفتح الباب ويخرج اليهم من يفيثهم من الجوع . . . فوجد ( تومسي ) عزاء في الوقوف معهم صامتا أسوة بهم . . .

وارتفع من الناحية المواجهة للكنيسة صوت مطرقة تدق . . في حظيرة . وبعد برهة رأى ( تومسي ) رجلين يخرجان من الحظيرة ومعهما تابوت سارا به في أحد الأزقة يتبعهما نفر من الناس . . . ثم ظهرت في الطريق مركبة آتية من ناحية ( كلوجر ) . . . وسرعان ما تدافع الجمع نحو المركبة وهم يحسبون أن بها طعاما لتوزيعه عليهم . . . ولكن المركبة وقفت أمام الفندق ونزل منها رجلان دخلا الفندق مسرعين . . . فقالت امرأة بين الناس :

— انهما جاءا من البلدة من أجل الطبيب . . فقد أصيب بالطاعون .

والحق أن ( تومسي ) انتفض عند سماعه كلمات المرأة . . . ومرة أخرى شعر بأن قدميه سـمـرتا في الأرض وأن الجيش الزاحف يمر به ويجاوزه الى قمة الجبل . . . وهكذا أسرع بالابتعاد عن القرية لثلا تنتقل عدوى الطاعون الى ( ماري ) وطفلها ، فتظهر عليهما البقع الحمراء ويموتان بحمى الخنازير قبل أن يتمكنـا من بلوغ أرض الخيرات . . . واذا ذاك شعر ( تومسي ) بالبرد يسرى في جسده ، وأحس أن معدته تتصلب وتستحيل الى ما يشبه الكرة . .

وعاد الى البيت والليل يرخى سدوله . . فدار حوله ودخل الجرن حيث رقد في أحد أركانه فوق كوم قش . . . وسرعان ما استغرق في النوم . . . ولم يعرض له الحلم مرة أخرى في نومه . . . فلما استيقظ في الصباح وجد العجوز منحنيا فوقه ، وقد نخسه بعصاه قائلا :

— ما هذا ؟ . . . هل عدت الى السكر ؟ . . . هل عدت الحياء والخجل ؟ . . .

فأجاب ( تومسي ) :

— ماذا بك يا أخي ؟ . . . اني نمت هنا خوفا من أن أكون مصابا بالطاعون . . . اني أردت ألا أنقل الطاعون الى البيت وأعدى ( ماري ) . . . اتركني وحدي . . .

فقال بريان وهو يتراجع فزعا :

— الطاعون ! . . . ما الذي أدخل هذه الفكرة في رأسك ؟

فتأوه ( تومسي ) لشدة الألم في عظامه . . . ومع هذا فقد تما لك حواسه تماما ، وعادت اليه حدة السمع وانقطع الاضطراب في داخله وذهب عنه تأثير الحلم . . . وقال للعجوز :

— اني ذهبت الى القرية . . . وهناك سمعت امرأة تقول ان الطبيب أصيب بالطاعون . . . ولا يبعد أن الطاعون أصبح منتشرا بين الناس . . .

فأسرع العجوز بالخروج من ( الجرن ) . . . وحاول ( تومسي ) ان



ينهض من القش ، لكنه لم يستطع ، فتنهد واستلقى مكانه . . . . وبعد  
برهة هرع ( ماري ) الى داخل الجرن ومعه اناء به عصيدة . . . فجثت على  
ركبتها بجانبه وهي تقول :

— آه يامسكين ! . . . هل قضيت ليلتك هنا ؟ . . . ما هذا الكلام  
الذي تقوله عن الطاعون ؟ . . . أم انك تأملت من الكلام الذي قلته لك  
أمس ؟ . . لو أني تنمرت لك بعد قيامك بتلك الرحلة المخيفة من أجلي  
لكنت مخلوقة متحجرة القلب ناكرة للجميل . . . اشرب هذا يا عزيزي .  
انك لم تأكل شيئا منذ مدة . . . انك تهلك هكذا ، خصوصا بعد ابتلاك  
بالمطر أمس . . . لماذا لا تأتي الى البيت لتستدفي ؟ . . .

فأخذ ( تومسي ) يقول همسا والدموع تجري على خديه :

— بارك الله فيك يا ( ماري ) ! . . . انك فتحت أبواب السماء لي  
بكلامك الحلو الطيب . . . دعيني ألمس وجهك بيدي . . . ليس بي طاعون  
وانما هو الخجل لأنني لم أعد اليك ( مارتني ) . . . خذي هذا الطعام  
يا ( ماري ) . . . كيف انتزع اللقمة من فمك ؟ . . . أنت محتاجة اليه  
كله . . . أنت شابة ومعك طفل لابد له من الطعام . . . لتكون لكما الحياة  
. . . أما أنا فلست الا جثة ! . . . أنا سكير محطم خير له الموت . آه  
ياأختي ! . . . ما أبدع أن تلمس اليد وجهك الصبوح ! . . .

كان ( تومسي ) يقول هذا الكلام بلهجة الابتهاج وهو لا يخلو من  
التلعثم وقد تنأثر بعض الزبد على شفثيه . . ولم تتمالك ( ماري ) من  
البكاء وهي تنصت اليه ، غير أنها تكلفت الغضب وأدنت الاناء من شفثيه  
قائلة بعزم :

— لا تقل هذا الكلام الفارغ . . . اشرب هذا . . . الظاهر أنك تخرف  
. . . اشرب هذا ثم قم وتمدد في الشمس . . . هذا يوم مشمس والحمد لله  
. . . ان الشمس ستجدد حياتك . . . اشرب حالا . . .

فهتف ( تومسي ) وهو يبتعد عنها :

— لا تخجليني يا أختي . . .

غير أنها ألزمته أن يشرب السائل . . . وبقيت معه حتى فرغ . . .  
ثم حملته على النهوض والخروج الى الشمس . . . والواقع أن الطعام أمدته  
بالقوة حتى استطاع الآن أن يمشي وأن يتحرك ، ولكن الاضطراب الداخلي  
ما لبث أن عاوده ، وانقلب عليه رجال الجيش الزاحف الى قمة الجبل  
يصرخون فيه ويسبونونه . . . فسار الى النهر وانبطح على وجهه بين الحشائش  
الطويلة النامية على الضفة . . . وعند ذلك انقطع الصراخ واستحال خريف  
النهر في سمعه الى أغنية مظفرة . . . وبدا له الرجل الأصفر الشعر واقفا  
عند الأفق شاهرا سيفه ، ولكنه لم يمسك هذه المرة برأس أحد الملاك ،  
وانما كان يبتسم ابتسامة غامضة . . .

وجاءت ( ماري ) في المساء وأيقظته ورجعت به الى البيت حيث حملته

على الصعود الى غرفته العلوية وغطته لكي ينام . . . لكنه لم يجد الى النوم سبيلا . . . وظل طول ليلته مستيقظا يفكر محزوننا خجلا فيما أكل من طعام ( ماري ) . . . ولما سمع حركتها فى الصباح نزل اليها فى المطبخ حيث كانت تشعل النار ، فقالت له :

— هل أنت بخير يا عزيزى ؟ . . .

وكانت تبتسم وقد بدت عليها امارات السعادة ، وان ظهرت تحت عينيها دوائر قاتمة . . . فنظر اليها ( تومسى ) وهو يرتعد . . . فقالت له :

— انى رأيت فى المنام حلما جميلا يا ( تومسى ) . . .

— حلم ؟ . . .

— نعم . . هو الحلم الذى رأيت من قبل مرتين . . . وقد رأيت له لثالث مرة . . . فلا بد أن يكون صحيحا . . .

فقال ( تومسى ) وهو يتفرس فيها :

— وماذا كان الحلم ؟ . .

فجعلت ( ماري ) تقول همسا :

— زارنى ملاك فى المنام ونقلنى فى سفينة الى أمريكا وكان ( مارتى ) معى . . . انه كان حلما جميلا ، وأنا فى غاية السعادة من بعد ما رأيت . .

فركع ( تومسى ) أمامها على ركبتيه وأخذ يدها وقبلها ، ثم تطلع الى وجهها قائلا :

— صدقت يا ( ماري ) . . . لا تفقدى الأمل . . . ان الرجل الاصفر الشعر سيخبرنا فى الوقت المناسب . . انتظرى كلمة منه . . .

فنظرت اليه ( ماري ) مرتابة مقطبة . . فاستوى على قدميه وهو يبتسم لها ابتسامة غريبة . . . ثم استدار واتجه الى الباب ، فقالت له بحدة :

— الى أين تذهب ؟ . . .

— سأخرج فترة . . .

— لا تذهب بعيدا ، لأنى سأجهز لك عصيدة . . .

— لن أذهب بعيدا . . .

وما كاد ( تومسى ) يبتعد حتى شعر بطنين فى رأسه ، وخيل اليه كأن فقاعة تنتفخ ثم تنفجر فى دماغه . . . وبدأ له فى كل خطوة يخطوها كأن جسده يرتفع عن الأرض ثم يهبط بقوة . . . ولم يعد يشعر بالحركة أو يميز شيئا حوله . . . فالأرض ، والسماء ، والجبال ، والطريق — كلها اندمجت واستحالَت الى شيء غائم مبهم المعالم . . . فليتقدم وليمض فى

طريقه ٠٠٠ ولم يبق أمامه وقت يضيقه ٠٠٠ وبلغ الاخدود الجبلي فأخذ يرتقيه ٠٠٠ وسال زبد كثير على شفتيه ، وانتقلت الفقاعة الى معدته حيث أخذت تنبسط وتنقبض ٠٠٠ ترى هل بقي أمامه وقت لبلوغ ما يريد ؟ لقد جعل يبذل مجهودا مضاعفا للاسراع فى زحفه عبر الاخدود الضيق للوصول الى القمة قبل أن تنفجر الفقاعة ٠٠٠

وبلغ الكهف الذى اعتصم به مارتن يوم أن فر جريحا اثر الشغب الذى حدث فى قصر كروم ٠٠ وكان أمام الكهف بركة تجمع فيها الماء متساقطا من صخرة عالية فوق الكوخ استطالت حولها الحشائش النامية بين المنافذ الصخرية المحيطة بالبركة ٠٠ وكان للماء المنحدر من عل خرير كأنه أنين عميق ٠٠ فما لبث تومسى أن جعل يسير متخطيا على يديه وركبتيه فى هذه الارض الطحلبية وقد استحال خرير الماء فى سمعه الى هدير عنيف وتمددت الفقاعة حتى أخذت تضغط على جدران معدته ٠٠ فانتابه خوف شديد جعله يقوم على قدميه مترنحا ويزحف الى داخل الكهف ٠ وما هو الا أن تمدد فوق الارض الصخرية حتى انفجرت الفقاعة ٠

وهنا فارقه الالم وابتعد عنه هدير الماء الذى استحال الى خرير رقيق عذب النغم أخذ يتلاشى على البعد ، حيث وقف الرجل الاصفر الشعر فوق قمة الجبل ، شاهرا سيفه المجرد الذى انعكست فوقه أشعة الشمس المشرقة ٠٠

وما لبث رجال الجيش الزاحف أن نادوه ، فذهب معهم يشقون طريقهم جنبا لجنب بين النباتات الشوكية العطرة الى الارض الموعودة ٠٠



## الفصل الحادى والخمسون

قالت مارى وهى تجلس مع أفراد الاسرة الى العصيدة التى أعدتها لهم :

— ترى ما الذى أخر تومسى حتى الآن ؟ .. قال لى انه سـيـخرج فترة .. ان المسكين تغير منذ رجـع من رحلته ..

لكن أحدا من العجائز الثلاث لم يعبا بكلامها ، فقد اشتد بهم الجوع الى حد أنهم لم يهتموا بتومسى .. وكانوا يعلمون أنهم لن يفوزوا بطعام آخر حتى صباح اليوم التالى ، ولذلك أقبلوا على أنصبتهم من العصيدة يلتهمونها بشراهة شديدة .. وكانت مارى بدورها مستغرقة فى الحلم الذى رآته فى منامها فلم تعد الى التفكير فى تومسى الا بعد أن فرغت من طعامها .. وقد أدى الارهاق العصبى الذى كانت تعانيه الى اشتداد تأثيرها بالحلم ، وشعورها بسعادة جعلتها أقرب الى المحموم ، وزاد يقينها من أن الهرب غدا أمرا محققا ..

وقالت مارى وهى تنهض عن الخوان بعد أن تذكرت تومسى :

— يا له من مسكين .. أن نصيبه من العصيدة سيبرد ..

فنظر العجوز الى وعاء تومسى بشراهة وقد جعله مشهد الوعاء يشعر بشدة الجوع ، وقال متبرما :

— انه شرد مرة أخرى فيما أظن .. والافضل ألا تتلف العصيدة ..

وتطلع الى مارى مؤملا أن تقسم ما فى الوعاء بينهم ، فقالت مارى :

— لن تنالوا منه شيئا .. سأذهب لاستدعائه ..

وخرجت الى الفناء وجعلت تنادى تومسى بأعلى صوتها .. فلم تجد مجيبا .. فانتابها القلق .. وتذكرت ما كان من غرابة حركاته وهو يقبل يدها راكعا ، وما كان من حديثه عن السفينة وعن الرجل الاصفر الشعر . فهل معنى هذا أنه ذهب مرة أخرى للبحث عن مارتى ، بعد أن خجل من فشله فى موافاتها بأنبيائه ؟ ..

وعادت الى المطبخ ، فوجدت العجائز الثلاث يتخاطفون العصيدة بشراهة من وعاء تومسى .. فانتزعته منهم قائلة :

— يا للعار ! .. ألا تخجلون من أنفسكم ؟ ..

فجعلوا ينظرون اليها وكأنهم أطفال مشاكسون ، ثم تفرقوا فى ركن

المدفأة وجلسوا القرفصاء .. أما هي فقد رفعت الوعاء بعيدا عنهم وعادت الى الباب ووقفت تتطلع شيطر الوادي .. فرأت الغيوم الداكنة تكتنف قمم الجبال حتى حجبتها وأخذت تهبط منها الى السفوح كأنها مد زاحف . وكانت الشمس بادية للعيان في سماء مريدة ، لكنها بدت كقمر شاحب لا حرارة فيه .. وانتشر في الجو ضباب بارد جعلها ترتجف .. ان هذه البوادر هي نذير الشتاء القريب . ان هذا السكون العبوس الذي يزحف على الارض الجرداء هو سكون الموت ..

وقالت « ماري » مرة أخرى :

— لو ذهب «تومسي» مرة أخرى للبحث عن « مارتن» لكان معنى ذلك في نظري أنني أرسلته الى موته ..

فلم يجب العجائز الثلاث .. انهم لايهتمون «بتومسي»، وهم ساخطون بسبب جوعهم الذي لم يجد ما يشبعه .. ولعل أغرب ما فيهم هو تزايد شهيتهم ونهمهم الى الطعام برغم اضمحلال قواهم ..

وخرجت ماري مرة أخرى الى الفناء وصاحت تنادي تومسي .. فلم يجيبها أحد .. وعند ذلك طلبت الى أمها أن ترعى الطفل ثم أسرع الى دار (سالي أو هانلون) لعلها أن تكون رأت تومسي .. وقد نادتها وهي تقترب من الدار فلم تجد مجيبا ، واستغربت عدم رؤية أبناء «سالي» وقد اعتادوا الجلوس فوق السور المطل على الطريق يستجدون المارة .. وظلت «ماري» تتقدم حتى صارت على قيد عشر ياردات من باب الكوخ المفتوح فوقفت مكانها مضطربة ونادت قائلة :

— أين أنت يا «سالي» ؟ .. هل رأيت «تومسي» ؟ ..

فلم يجيبها أحد .. ولكن «سالي» ظهرت في مدخل الكوخ بعد لحظات وقد رفعت ذيل ثوبها فوق كتفيها ، وبدت لامعة العينين شديدة امتقاع الوجنتين ، وابتسمت قائلة :

— ادخلي يا عزيزتي .. ان الاولاد هدهوا الآن .. انهم ناموا .. لكن لا ترفعي صوتك لئلا يستيقظوا .. انهم محتاجون الى راحة طويلة ! ..

ورفعت يدها الى شفيتها وهي تبتسم ابتسامة مضحكة .. فأخذت «ماري» تقترب من الكوخ متباطئة ، «وسالي» تقول بصوت خافت

— اني فزت بقطعة لحم في القرية .. لا تتضايقني مني يا «ماري» لأنني حصلت عليها بالطريقة التي حصلت أنت بها على اللحم المقدد .. انها كانت نصف كلب ، وقد جاهدت حتى نلت نصيبي منه .. نحن في أوقات عضيبة ، والفائز هو من يمكنه أن ينال شيئا .. وقد وضعت اللحم في الاناء والاطفال المساكين لا يستطيعون الانتظار حتى يغلي .. فهم لم يأكلوا شيئا منذ مدة طويلة .. وقد ظنوا أنني قد ذهبت عنهم ، ولكن هذا لم يحصل .. انني كنت دائما أما طيبة أحافظ على الابناء الذين وهبهم الله لي .. ادخلي يا حبيبتي .. لكن لا تحدثي صوتا لئلا يستيقظوا ..

ووقفت جانبا تفسح الطريق لمارى الى داخل الكوخ .. وأشارت الى  
الاطفال الثلاثة الذين تمددوا صفا واحدا فوق الحصير .. وجعلت تقول  
همسا :

— ها هم أمامك .. انهم ساكتون كالحملان الوديعة .. انهم كانوا  
يشتهون قطعة لحم .. وقد تقيثوا من اللحم أول الامر ، ولكنهم هددوا بعد  
ذلك .. ثم أرقدتهم ووضعت الغطاء فوق رؤوسهم .. وبعد قليل انتهى  
بكاؤهم .. انهم الآن ساكتون كالحملان .. انظرى اليهم وهم نائمون ! ..  
ناموا يا أعزائى ، فان أمكم معكم لا تترككم أبدا .. انظرى اليهم يا «مارى»  
تحت الغطاء ، لكن لا تكلمهم لئلا يستيقظوا ويعودوا الى البكاء ..

وتطلعت الى «مارى» بعينين زائفتين ، وأردفت تقول بشراة وفى  
صوت كالفحيح :

— يجب ألا يعودوا الى البكاء من جديد ..

ولكن عندما نظرت اليها «مارى» وهى فى أشد الارتياح ، انبسطت  
ملامح «سالى» مرة ، وقالت برقة :

— اذكرى اسم الله عليهم يا حبيبتي .. باركيهم فى نومهم الطويل .  
فانحنت «مارى» فوق فراش الاطفال مدارة لهذه المرأة المجنونة وهى  
فى فزع شديد منها .. ولكنها بدلا من أن تباركهم وضعت يدها على فم  
أقرب الاطفال اليها ، وفجأة استقامت فى مكانها ، ونظرت الى «سالى» مروعة  
وقالت لها :

— لكنهم أموات يا «سالى» .. ان أنفاسهم معدومة .. انهم ليسوا  
نائمين .. انهم لن يستيقظوا أبدا .. انهم أموات ..

فلمعت عينا «سالى» بشراسه وضحكت ضحكة خشنة شديدة ثم هتفت  
بصوت مرتفع :

— وماذا يهمك من هذا .. اهتمى بأمورك فقط .. اقول لك انه  
لم يقتل هنا أحد .. واذا كانوا أمواتا فمن حقهم أن يموتوا ..

خرفت «مارى» يديها الى وجهها وهتفت بلهجة هستيرية :

— يا لطيف .. ما هذا الكلام يا أختى ؟ ..

وشعرت «مارى» بغثيان واندفعت الى الباب تتبعها «سالى» .. ولما وقفت  
«مارى» منحنية فوق السياج هتفت بها «سالى» قائلة :

— كان من حقى أن أخلصهم من العذاب .. وسأدفنهم بعد أن أشبع  
من النظر اليهم انى لم أحتمل رؤيتهم وهم يصرخون من الألم وليس هناك  
من يسعفهم .. أن لحم الكلاب لم يؤد الا الى زيادة ألهم وصراخهم ..

فرفعت مارى رأسها ومسحت فمها وراحت تركض بكل قواها عائدة  
الى البيت .. ولما سارت مسافة قصيرة جعلت تصيح منادية (تومسى) ..  
فسمعها العجائز الثلاث وخرجوا الى الفناء .. ولما وصلت اليهم كفت عن



الصياح وأجهشت باكية ، ثم هرعت الى أمها وارتمت عليها تطوقها بذراعيها حتى كادت المرأة العجوز أن تقع بين يديها .. وقالت «مارى» لأمها همسا :  
- ماذا فعلت بميخائيل الصغير ؟ ..

فأجابت أمها قائلة :

- ماذا أصابك يا حبيبتي ؟ .. ان «ميخائيل» نائم فى فراشه ..  
فتركت «مارى» أمها وقالت وهى تشير الى «سالى» التى كانت واقفة فى الطريق تلوح بيديها :

- ان «سالى» قنلت أولادها .. انهم الآن أموات فى البيت ..

فشخصت أبصارهم الى «سالى» وقد فغروا أفواههم .. واقتربوا من السياج ووقفوا يتطلعون الى ناحيتها وقد تكاثف الضباب حتى كادت أنظارهم الكلية تعجز عن تمييزها .. وكانت «سالى» تصيح ولكن تعذر عليهم أن يتبينوا كلامها على البعد .. وبدا أن هذا النبأ لم يكن له تأثير يذكر فى نفوس العجائز ، وكأنهم لم يققوا هكذا الا بدافع من الفضول ..  
وقالت «ماجى» :

- انها نقول شيئا .. ربما كانت تطلب منا أن نحضر الجنازة ..

فصاحت «مارى» قائلة :

- جنازة ؟ .. لا شك أنكم مجانين ! ..

وقال العجوز :

- انها كانت دائما لصة .. وكنت أعتقد أنها لا بد أن تصاب بمكروه ..

فتركتهم «مارى» وأسرعت الى داخل البيت .. فوجدت الطفل قد استيقظ وأخذ فى البكاء .. فحملته وجلست به قرب المدفأة وجعلت تهزه بين ذراعيها ودموعها تجرى غزيرة .. وقد هدأ البكاء اضطرابها العصبى ، وأخذ الفرع الذى انتابها يستحيل تدريجيا الى سعادة هادئة .. فان وجود الطفل بين يديها جعل كل ما عداه شيئا لا قيمة له .. انه سليم من كل سوء .. وقد أخذت تنأغيه وتهزه فوق ركبتيها .. وراحت تبكى من خلال دموعها الجارية .. وجعلت تلمس وجنتيه بأنفها .. فكف الطفل عن البكاء وحرك يديه الصغيرتين كأنما يريد معانقتها .. فكان فى هذه الحركة بهيجا حتى أخذت تقول له :

- لن تنام يا ميخائيل الصغير .. ستركب سقينة كبيرة جدا مع أمك ، وسيكون أبوك معنا .. وسنسافر فى البحر مسافة طويلة الى بلاد غنية .. وسنجد فيها كل ما نريد من طعام يا «ميخائيل» الصغير ..

وفجأة سمعت ماجى تصيح قائلة :

- الى أين تذهبين يا سالى ؟ ..

فخرجت «مارى» مسرعة تحمل الطفل وانضمت اليهم لدى السياج ..  
فرأت «سالى» تشير ببطء فى اتجاه الجنوب وهى تجر شيئاً خلفها ..  
فقالت «مارى»

— ماذا تفعل «سالى» ؟ ..

فأجاب العجوز :

— انها لا تفعل الا كل ما هو شيطاني .. هذا رأى فيها دائماً ..

فوقفت «مارى» فوق مرتفع واستطاعت أن ترى «سالى» وقد لفتت جثث  
الاطفال الموتى فى الشال وأخذت تجرهم خلفها لدفنهم .. فالتفتت الى  
العجائز وقالت لهم بشدة :

— ادخلوا البيت ولا تقفوا هكذا تتفرجون على امرأة مريضة ..

فقالت أمها :

— أنت والله على حق ..

وقالت «ماجى» :

— هل وجدت أى أثر لتومسى ؟ ..

فأجابت «مارى» :

— سأذهب للبحث عنه .. ولو وجدته فربما أمكنه الذهاب الى  
القسيس فى القرية .. يجب أن يعرف القسيس ما جرى لسالى ..

وخرجت «مارى» الى الزقاق وسارت قليلاً وقد اشتد الضباب حتى  
استحال أن ترى الى مسافة بعيدة .. وشعرت بالضباب يثقل عليها حتى  
تعذر عليها أن تفكر فى شيء .. وما لبثت ان رأت الكلب ( أوسكار ) آتياً  
نحوها .. ولما نادته وقف مكانه ، ورأت بطنه شديدة الامتلاء وكان ينظر  
اليها خلسة .. ونادته مرة أخرى ولكنه أبى الاقتراب منها ، بل اخفى  
ذنبه بين رجليه الخلفيتين ورفع شعر معرفته وزمجر ثم وثب فوق السياج  
وجرى فى اتجاه النهر .. فشعرت مارى برعدة ورجعت الى البيت ..  
ونظرت خلفها قبل أن تدخل فرأت الكلب لدى النهر يشرب منه .. ولما  
دخلت قالت لها ماجى :

— هل رأيت أثراً لتومسى ؟ ..

فأجابت مارى متعبة :

— رأيت الكلب فقط .. لا تتركوه يدخل البيت بعد الآن ..

وكان العجوز منكشفاً على نفسه قرب النار مغمض العينين ، فما أن  
سمع كلامها حتى اعتدل فى مكانه وهتف قائلاً :

— ولماذا ؟ .. ان الكلب هو عزائى الوحيد .. تعال يا أوسكار ..

ولما لم يجد العجوز جوابا لندائه خرج يبحث عن الكلب .. فدخلت «مارى» غرفتها وجلست على حافة الفراش وهى تناجى نفسها :

— سيأذهب فى الصباح .. لا فائدة من انتظار «مارتن» .. انه لن يأتى .. ان الطعام الذى حفظته فى الكيس يتناقص ونحن نتناقص مثله . ان الطفل بدأ يهزل ورأسى زاد تصدعا .. لا فائدة من الانتظار أكثر من هذا ، والا عجزت عن الوصول الى البلدة من الضعف ..

لكن هذا القرار لم يبلغها راحة البال ، بل جعلها ترتعد .. وانتابها اعياء شديد فاستلقت فى الفراش واغمضت عينيها واستسلمت لسبات ثم يدم طويلا ، فقد أفاقت على صوت العجوز وهو يقول فى المطبخ متبرما :

— ماذا جرى لهذا الكلب ؟ .. انه حرى مبتعدا عندما رآنى .. انه اكل جيفة وأصبح أسوأ من ذلك القط ..

فقالت «ماجى» :

— لقد ذهب القط .. لم يظهر له أثر منذ أيام .. سيذهب الكلب مثله ..

وتغلب النوم على «مارى» فاستغرقت فى سبات عميق .. فلما استيقظت فى الصباح كانت تشعر بصداع عنيف ، ولم تعد تفكر فى ما اعتزمته بالامس من الرحيل .. وكانت خائفة لا تكاد تقوى على النهوض .. ولم تجد وقودا للنار من الحشائش اليابسة ، فجاءت بمطربة وكسرت عش الدجاج الخالى وجعلت منه وقودا وأعدت بعض العصيدة .. ولما فرغوا من طعامهم جلسوا حول النار يلقون فيها بقطع من خشب العشب بين فترة وأخرى .. وفى خارج البيت أخذ البرد يشتد ، ومازال الضباب الكثيف جاثما فوق الوادى .. وجلسوا سكوتا ، وبدأ كانهم ينتظرون حلول الموت فى صمت وسكون ..

وعند الظهر سمعوا نباح الكلب فى الخارج ، فهتف العجوز بانفعال .

— لقد رجع «أوسكار» ! .. كنت أعرف أنه لن يذهب عنا .. تعال هنا يا «أوسكار» ..

وتناول عصاه وسار الى الباب وهو يعرج ويضع يده على عجزه .. فقد أصابه ضعف تام .. وسمعت «مارى» وقع أقدام فى الزقاق ، فوثبت قائمة وهى تقول :

— من يكون هؤلاء الناس ؟ .. انهم يلبسون أحذية ..

وخرجت الى الفناء فى أثر العجوز الذى راح ينظر فى اتجاه كوخ (سالى أوهانلون) .. وكان الكلب يجرى مبتعدا وهو ينبح نباحا متقطعا . فقال العجوز :

— انهم رجال البوليس ..

فنظرت «مارى» ثم جذبت العجوز الى جوار البيت وهمست قائلة :



– لا تدعهم يرونك ! ..

والواقع أن مشهد رجال البوليس جعل قلبها يخفق بعنف ..  
فحملت العجوز على العودة معها الى الداخل ، وقت أن ظهر كاتب الصحة  
قرب البيت يتبعه شرطيان .. وكان كاتب الصحة يقول :

– لا بد أنها كانت مجنونة لتقدم على هذه الفعلة ..

فقال أحد الشرطين :

– هي مجنونة فعلا .. انها أرادت دخول السجن لتجد فيه الطعام !  
لا شك أن هؤلاء الناس من الهمج الذين يأكلون لحوم البشر ..

فقال (سيمز) كاتب الصحة مهتاجا :

– من الصعب أن يصدق الانسان أن أما ارلندية ، همجية كانت أو  
لم تكن ، تقدم على قتل أطفالها ، طمعا في لقمة خبز ! ..

فضحك الشرطي الآخر وقال بصوت مرتفع :

– ستري أسوأ من هذا يا مستر (سيمز) .. ربما كان هؤلاء القتلة  
هنا يعرفون شيئا عن الموضوع ..

ودخلوا فناء الدار ، وصاح أحد الشرطين :

– هل في هذا البيت أحياء ؟ ..

فاشارت ماري على العجائز بالتزام الصمت ، وجلسوا جميعا حول  
المدفأة .. وما لبث كاتب الصحة أن اقترب من الباب وأطل الى المطبخ  
وزميلاه ينظران من خلفه .. فقال (سيمز) :

– هل أنتم بكم ؟ ..

فقال العجوز وهو ينهض قائما :

– كلا أبدا .. طاب يومكم ..

وسار العجوز الى الباب وهو يعرج ويتزلف بالقول والاشارة كدابه  
في حضرة الحكام ، حتى قاطعه كاتب الصحة قائلا :

– ماذا تعرف عن المسعرة «سالي أوهانلون» ؟ ..

وهنا وثبت «ماري» قائمة وهفت تقول غاضبة :

– اننا لا نعرف شيئا عنها ، ولتخرجوا من هنا .. كفانا مانحن فيه  
من سوء .. فلا تزيدوا حالنا سوءا بالتدخل في أمورنا ..

فضحك الشرطيان ، واحمر وجه (سيمز) .. فتضايق العجوز من  
لهجة «ماري» وخاطب كاتب الصحة مستعظما :

– لا تهتم بكلامها يا سيدي .. انها معذورة بسبب الحوادث التي  
تقع ، ونحن لهذا في خوف ..

فقال أحد الشرطين مرتابا :

— أى حوادث ؟ .. تكلم يا رجل ..

فانتهرت «مارى» العجوز قائلة :

— اقفل فمك ولا تقل لهم شيئا ..

فقال « بريان » :

— لكن لا بد أن أكلهم عن «تومسى» والكلب .. ان الكلب لا يريد

«لاقتراب منى ياسيدى عندما أناديه ..

فقال الشرطى وهو يدفع كاتب الصحة جانبا :

— من هو هذا المدعو «تومسى» ؟ .. ما هى حكايته ؟ ..

فنهضت ماجى بدورها وأجابت قائلة :

— هو أخى يا سيدى .. انه ذهب ولم نعد نراه ..

فقال الشرطى لزميله :

— هنا شيء غريب فى هذا البيت .. هيا بنا نفتشه يا (ما كفيكر) .

لكن هذا الزميل لم يكن متلهفا لدخول البيت خوفا من المرض ، وقال للمتكلم :

— ألسنا نعرف أن الهارب ذهب الى مقاطعة «مايو» ؟ .. أنا لن أدخل هذا البيت .. ان الهارب لا يمكن أن يوجد فى مكانين فى وقت واحد ..

فقال الشرطى الاول :

— تعال تعال .. ربما كان رجع ..

فصاحت مارى قائلة :

— أيها القتلة ! .. ليتهم كان هنا ليزهق أرواحكم .. ليتهم والله كان هنا ..

فقال الشرطى :

— لا تكدرى نفسك .. اننا سنعثر عليه حتما .. لن يفلت أحدكم من أيدينا .. انا سنشنتقه فى النهاية .. تعال يا « ماكفيكر » ..

وأخذ الشرطيان فى تفتيش البيت .. ووقف كاتب الصحة يحاول تهدئة «مارى» التى كانت تصرخ فيهما وتسبهما ، قائلا لها :

— لا تعادى القانون .. هذه أوقات صعبة ، ولا بد للفقراء أن يحنوا رؤوسهم ان كانوا يريدون المساعدة .. الناس فى القرية يموتون كالذباب .. ولا أمل لكم فى الحصول على مساعدة وأنتم هنا .. اذهبوا الى «كلوجر» .. هناك ملجأ جديد فتح فى البلدة .. لماذا تبقون هنا ؟ ..

ولما فرغ الشرطيان من التفتيش انصرف ثلاثتهم من البيت وتابعوا طريقهم فى الوادى ، وسار العجائز الثلاث فى أثرهم ..

وجلست «مارى» وحدها قرب النار تخاطب نفسها :

— يا الهى ! .. هو اذن فى مقاطعة مايو ؟ .. انهم يعرفون مكانه وسيقبضون عليه .. وعند ذلك لا يبقى هناك أمل لى ولا لميخائيل الصغير .  
يا له من حلم جميل ! ..

ولأول مرة خامرتها ثورة ضد الاقدار .. لقد بدا لها أن عناية الاقدار لا تكون لها ولا للفقراء الذين يهلكون جوعا ، بل هى مقصورة على الاغنياء الذين لا ينكبون بالجوع ولا يفهمون معناه .. قدرت أن المنكوبين بالجوع معدودون فى نظر الاغنياء مجرمين يطردون من حظيرة الانسانية ، ويحل نشتيتهم أو القاؤهم فى السجون أو تمزيق صدورهم بالحرايب أو شنقهم .  
ان عناية الاقدار حليف لهذين الشرطيين اللذين فتشسا البيت بحثا عن «مارتن» ، ولغيرهم من رجال البوليس المنتشرين فى الجزائر الغربية طلبا للهاربين ..

وفى ابان هذه الثورة النفسية الجامعة قالت «مارى» لنفسها فى رعب شديد :

— يجب ألا أجعلهم يعرفون أننى جائعة ، لئلا يشنقونى باعتبارى أما تقتل أطفالها ..

وشرد عقلها .. وانتشر الضباب الكثيف حولها كأنه مد البحر .. وخيم السكون فى أرجاء البيت .. وكان الطفل نائما فى مهده ، فتمالكت واعتزمت ألا تكلم نفسها مرة أخرى والا استيقظ وأخذ فى الصياح ..

لكن الكلب هو الذى أخذ فى الصياح .. فقد سمعت صوت رصاصة تنطلق ، وعوى الكلب فى أثرها .. فوثبت قائمة وأرهفت السمع .. فانطلقت رصاصة ثانية أعقبها انقطاع عواء الكلب .. وعند ذلك سرت فى جسدها رعدة وجعلت تتنفس بجهد ومشقة .. وشعرت بجوع حاد حتى خيل اليها كأن احشاءها قد انتزعت من جوفها وتركت فراغا أليما .. وانتابها ألم فى أعماق عينيها وأرادت أن ترتمى على الارض .. لكنها قدرت أنه لا بد لها من ابقاء عينيها مفتوحتين لئلا يهجم الكلب على الطفل .  
ان الكلب لا يتردد فى دخول البيت مدلى اللسان لينهش الطفل ثم يهرب الى النهر وذيله بين رجله .. فيجب أن تملأ الفراغ الذى فى جوفها لكيلا يعرف الاغنياء أنها جائعة وينفذوا قضاءهم فيها ..

وكذلك ذهبت الى غرفتها وأخذت من كيس الطعام قطعة سمك مجفف وضعتها فى النار .. فلما نضجت قليلا أكلتها وشربت ماء بعدها .. فشعرت بأن الفراغ الداخلى قد امتلأ ، ولكن أعقبه أولا خدر عارض ، ثم صداد عنيف ..

وجلست فى مقعد القش قرب النار مستسلمة لهذا الصداد وقد اغمضت عينيها برغبتها وتدلى ذراعها الى جانبيها .. ولم ترفع رأسها



عندما سمعت أصوات كاتب الصحة والشرطين وهم يتابعون طريقهم جنوباً في الزقاق .. ثم سمعت عويل المراتين العجوزين .. فذهب عنها الخدر ، واهتفت وهي تستوى قائمة :

— انهم وجدوا تومسي !!

وجمدت مكانها حتى عاد ثلاثتهم من الخارج .. فقالت لهم :

— ماذا رأيتم في الوادي ؟

فأجاب العجوز وقد بدا ممتقع الوجه :

— لقد رأينا الموتى يدفنون في حفر تحفر لهم في الأرض ، دون جنازة ولا تواييت .. ان القسم الشمالي من الوادي لم يبق به أحد من الأحياء ..

فقالت « ماري » همسيا :

— وهل رأيتم « تومسي » هناك ؟ ..

فأجابت « ماجي » مولولة :

— ان الكلاب أحاطت به .. ونهشت وجهه ..

قالت هذا وارتمت أمام المدفأة وجعلت تنثر رماد الوقود فوق رأسها ..

## الفصل الثاني والخمسون

استيقظت ماري في صباح اليوم التالي وهي تسمع نباح الكلب في  
الفناء .. فنهضت وفتحت الباب الذي كان الكلب يمشيه بأظافره ، لكنه  
لم يندفع الى داخل المطبخ كعادته ، بل انبطح على بطنه وجعل يتطلع اليها  
بنظرات مؤثرة ، قبضت عليه قائلة :

— امش يا قدر ! ..

وتناولت المكنسة من خلف الباب وضربت به .. فاحتمل ضرباتها  
دون أن يتحرك .. ثم نبج وابتعد زحفا .. فرأت قائمته الخلفية اليمنى  
مقطوعة والدم ينزف منها .. وخرج بريان من غرفة نومه قائلا :

— ماذا جرى ؟ ..

— انه الكلب .. لقد قطعت رجله ..

— لعنة الله عليهم ! .. اذن فهو الذي اطلقوا الرصاص عليه ..

وهرع الى الفناء لا يستره الا قميصه ونادى الكلب ، فكف هذا عن  
زحفه ونظر الى سيده وهو ينبج نباحا خافتا .. غدير انه لم يهز ذنبه  
ولم يحاول الاقتراب من مكانه بعد أن يش من رحمة البشر .. لكن  
ما أن رأى العجوز ينحني فوقه ويلطفه حتى تملكه فرح شديد ، وعاد به  
بريان الى البيت ، لكن ماري اعترضت طريقه وهي تهتف قائلة :

— الى أين تذهب به ؟ .. أتريد أن تدخل هذا المخلوق القدر الى  
البيت ؟ ..

فنظر اليها العجوز فاغر الفم وقال لها :

— انه كلبى .. وهو مريض .. انى لبثت طول حياتى أعنى  
بالحيوانات المريضة ، وكنت أجد سعادة كبرى فى شفاء هذه المخلوقات  
الخرساء من المرض .. انها موهبة أنعم الله بها على .. هذا حيوان مسكين  
جريح ، قدرا كان أو لم يكن ! ..

فقالت ماري وهي تنظر اليه ببرود :

— ان طفلي ميخائيل فى البيت ، وهو أعز عندي من كلب كان يأكل  
ال .. اذهب به من هنا .. لن أدع الطاعون يدخل البيت ! ..

فنظر اليها العجوز بتأثر ، ثم رجع بنظره الى الكلب وقال لها :

— ليكن ما تشائين .. سأذهب به الى ( الجرن ) .. ناوليني الاناء  
الصغير والفرشاه من فوق المدفأة ..

ولما اعطته ما طلب ذهب الى الجرن مصطحبا الكلب وما زال بقميصه  
برغم برودة الجو هذا الصباح ..

فتركته وانتقلت الى المدفأة لاشعال النار .. ولما وجدت الحشائش  
اليابسة التي كانوا يستمدون منها الوقود نفدت عن آخرها تناولت مطرقة  
وأخذت تكسر بها عش الدجاج .. وفرغت من ايقاد النار حين عاد العجوز  
بالاناء والفرشاة وهو مفتبط قرير العين ، وقال لها :

— لا محل للخوف منه بعد الآن .. انى ربطته فى مربوط البقرة بعد  
أن .. ما هذا الذى تحرقينه ؟ ..

قال هذا وهو يقلب نظره بين قطع الخشب المحترقة وبين عش  
الدجاج ، فأجابت ماري فى اعياء :

— لم تبق عندنا حشائش للوقود ..

— وتكسرين خشب البيت لهذا الغرض ؟ .. شئ لطيف ! ..  
سأذهب اليوم الى شاطئ النهر لاجتار كمية من الحشائش .. ولو اتبعنا  
هذه الطريقة لما بقيت عندنا قطعة أثاث سليمة ..

ولبت العجوز حيناً وهو يهمهم ويتمتم عن الاسراف والاتلاف وكان  
تضميد جرح الكلب قد ابتعث نشاطه السالف .. بل انه جعل وهو يلبس  
يقول كلاماً غريباً عن الاستعداد ليوم السوق ، وكأنما بقيت لديه ماشية  
يقدمها للبيع .. لكن ماري لم تنصت الى كلمة واحدة مما قال وهى  
مستغرقة فى ذهولها .. غير أن حماسه لم تدم طويلاً .. ولما أعدت ماري  
طعام الفطور أبت المراتان العجوزان أن تأكلا شيئاً ، فقد لزمنا الفراش  
وقالت كلتاها انها ليست جائعة .. فقال العجوز مخاطباً ماري :

— ان ماشاهدتاه عند مدخل الوادى قد أثر فيهما أشد تأثير ..

فلم تعقب (ماري) بكلام .. انها لم تعد تهتم بأحد من هؤلاء العجائز  
وجلست مكانها تحاول أن تحزم أمرها وتصل الى قرار .. لكنها لم تجد  
فى نفسها عزماً كافياً يهيئ لها أن تعرف طبيعة هذا القرار الذى تريده ..  
وظلت هى والعجوز جالسين فى المطبخ ساعات متعاقبة لا يحركان ساكناً  
حتى جاء الأب (جيلان) حوالى العصر وهما على هذه الحال ..

والحق أن مجيء القس كان له أشد الأثر فى نفسيهما ، حتى لقد ركعا  
أمامه وتعلقا بردائه وهتفا به يلتزمان عنده العون .. وصاحت كلتا المراتين  
العجوزين وهما فى الفراش .. وحتى الكلب أخذ ينبج وهو فى (الجرن)  
متأثراً بهذه الضجة .. وسمع الطفل وهو يبكى فى مهده .. فرقف الأب  
(جيلان) فى المطبخ ينصت الى هذا الصياح وقد اكتسى وجهه الأسمر مسحة  
الحزن والأسى وجرت الدموع على خديه .. ولما نهضت (ماري) والعجوز فى  
النهاية وهذأت الضجة ، قال القس لماري وهو يقدم لها رغيفاً واناء به لبن :

— هذه هى كل المساعدة التى فى طاقتى ..

فأخذت (ماري) الحبز واللبن .. وخيم الصمت برهة الا من نباح الكلب



وبكاء الطفل .. وما لبث العجوز أن جلس قرب المدفأة ، ورفعت ( ماري )  
الطفل من مهده .. وراح القس يجيل نظره في المطبخ وكأنه متردد فيما  
يفعل بعد ذلك ، وكانت شفتاه تختلجان وهو يتنفس بصوت مسموع ..  
ثم قالت (ماري) بهدوء :

– هل عندك أخبار ياأبى ؟

وبدا كأن القس بهت من سؤالها، فقد قطب جبينه، وأجاب في خشونة  
وهو أقرب الى الغضب :

– من الخطأ أن أمنيكم بأى أمل فى هذه الدنيا .. ان الشعب الارلندى  
يدفع ثمن جبنه الماضى .. لقد مات أربعة وعشرون فى القرية أمس ..  
وانتقل (جون هاينز) مع أسرته الى (كلوجر) .. ولم يبق فى القرية حانوت  
واحد .. انهم يصنعون توابيت للموتى فى فناء الكنيسة .

وهنا خيم الصمت مطبقا عميقا فى أرجاء البيت بعد أن سكن الطفل  
بين ذراعى أمه .. ولما اشتد نباح الكلب فى (الجرن) وكأنه يحاول الفكاك  
من قيده ، نهض العجوز وخرج صامتا .. وقد حاول القس أن يستوقفه ،  
غير أنه عدل ووقف يفرك راحتى يده .. فقالت (ماري) فجأة وهى ترتعد :

– انى كنت أعنى (مارتن) بسؤالى ..

فقال القس كالحالم :

– (مارتن) ؟ .. هل سمعت شيئا عنه ؟

فقالت وهى تحدجه بنظراتها :

– ظننت أنك سمعت شيئا ياأبى .. فقد دار كلام عن رجل أصفر

الشعر ..

فرفع القس صوته قائلا :

– رجل أصفر الشعر ؟ لم أسمع شيئا عن رجل أصفر الشعر .. من

يكون هذا .. وما هو الكلام الذى وصل الى سمعك ؟

وجعل ينظر الى (ماري) فى دهشة ، فالتهب وجهها احمرارا .. ثم  
غاضت منه الحمرة وشعرت (ماري) بشبه اغماء .. وطفعت عليها من جديد  
فكرة رعاية العناية الالهية للأغنياء وحدهم ، أولئك الذين لا يفهمون ما هو  
الجوع .. ثم قالت للقس بهدوء :

– هو مجرد كلام ياأبى .. فقد خطر لى أنك ربما سمعت عن جماعة من

الناس تكفلت بمساعدة الشبان الهاربين .

فتنهذ القس طويلا ونظر الى الارض قائلا :

– ليس فى هذا الاقليم جماعة من الناس يمكنها الآن أن تساعد (مارتن)

لقد حان الوقت لكى تذهبوا جميعا من هذا المكان .

فتصلبت (ماري) فى مكانها ولسان حالها يقول : « بل قد توجد هذه

الجماعة وهو كاذب فيما يقول » .

ثم قالت له بصوت مسموع وعيناها تبرقان :

— أنا متأكدة أنى سأجد (مارتن) ، وسأنتظره هنا لافى مكان آخر . .  
ان هذه الجماعة لابد أن تكون موجودة . . والا أين يجدنى (مارتن) ، اذا أنا  
ذهبت من هنا ؟ .

فهم القس أن يتكلم وعند ذلك نادته مسز (جليسون) من غرفتها ،  
فذهب إليها . . وخرجت (مارى) الى الفناء حيث وجدت العجوز جالسا  
القرفصاء لدى الحائط ، وقد سألها بصوت خافت :  
— ماذا قال . . . ؟

— قال ان الوقت قد حان لنذهب من هنا .

— ليرحمنا الله ! . . . هذه هى المساعدة التى جاء بها . . . ؟

وشبك ذراعية واستلقى قرب الحائط كأنما يوشك أن ينام . . .  
وأخذت ( مارى ) تسير فى الفناء جيئة وذهابا . . وانبعث صوت القس وهو  
يتقبل اعتراف أمها . . . وأخيرا تقدم العجوز منها وجذبها من ذراعها قائلا :  
— اذهبى مع الطفل يا بنتى . . نحن فى نهاية طريقنا فى هذه الدنيا .  
فلا تنتظرينا هنا . . . . .

فلم تجب (مارى) ، بل ظلت تروح وتجيء فى الفناء والطفل بين ذراعيها  
وعاد العجوز الى داخل البيت حيث سمعت (مارى) صوت القس وهو يتقبل  
اعتراف (ماجى) فى غرفتها ، ثم اعتراف العجوز فى المطبخ . . وأخيرا  
خرج القس اليها وناداه ، فقالت له بهدوء :

— انى لن أموت هنا ويلقى بى فى احدى الحفر .

— ألا تريدان أن تعترفى ؟

فهزت رأسها نفيا . . فباركها القس ، ثم صافحها وانصرف دون  
كلام . . ولما عادت الى داخل البيت نظر اليها العجوز فى تردد وقال لها :

— ان (ميخائيل) الصغير يحتاج الى الحبز واللبن اذا صنعت منهما

ثريدا له .

فضجعت (مارى) بالضحك وقالت :

— أصبت يا عمى . . كيف لم أفكر فى هذا ؟ . . أنت دائما صاحب  
الفكر الصائب . . ان (ميخائيل) أحوج الناس فعلا الى هذا الطعام . . هل  
يمكن الانسان أن يخرج فى رحلة طويلة ومعدته خالية ؟

فلم يزد العجوز عن قوله :

— ليرحمنا الله !

## الفصل الثالث والخمسون

بعد أن فرغت (مارى) من اطعام الطفل ذهبت الى أمها بشىء من اللبن والخبز .. فوجدتها قد فارقت الحياة .. وكانت ممددة على ظهرها ، مشبكة اليدين فوق الصدر ، وحببات المسبحة ملتفة حول أصابعها ، وقد انفرجت شفتاها عن ابتسامة ، مما يدل على أنها تأهبت للموت بعد زيارة القس لها .

ونادت (مارى) العجوز ، فلم يدهش لرؤية الجثة ، وانتقل الى غرفة النوم الاخرى ليخبر زوجته ، فلما رجع الى (مارى) قال لها ان (ماجى) صارت هي الأخرى قريبة من نهايتها ، وقد أردف قائلا :

— انها أصيبت بالهذيان ، ولا غرابة فى هذا ، بعد الذى رأيناه أسس فى شمالى الوادى ، خصوصا مشهد (تومسى) وهو ممدد هناك و ...

— كفى .. لا كلام فى هذا .. ماذا نفعل الآن ؟

— ليس عندنا شموع .

— لا تكلمنى عن الجنازة ! اننى أفكر فقط فى دفنها .  
فحك العجوز رأسه قائلا :

— لم يبق فى الوادى سوانا نحن الأربعة .

— وما العمل ؟

— انى رأيتهم يدفنون الموتى فى حفر يحفرونها لهم فى الأرض .

— قال لنا القسيس انهم يصنعون توابيت فى فناء الكنيسة ...  
لكنى لاأظنك تقوى على الذهاب الى القرية .. ولا يمكننى أن أترك الطفل وحده هنا ، وأخاف أن أذهب به الى حيث ينتشر الطاعون .

— لكن هل يمكن يا (مارى) أن نحصل على تابوت بغير نقود ؟ ..  
ومن الذى يحمل التابوت الى هنا ؟ واذن .. الافضل أن نحفر حفرة فى الأرض .

والحق أن (مارى) لم ترد أن تتقدم هى بهذا الاقتراح ، وتركت العجوز يتقدم به .. وبرغم هذا فانها سخطت منه اذ عبر عنه ، فقد هالها أن تلقى أمها الميتة فى حفرة عادية فى الخلاء كالحيوان حتى قالت :

— ياله من عمل طيب أعمله لأمى .

فتطلع اليها العجوز متأثرا ، وكان قد استحال الى الرقة المتناهية بعد اعترافه بين يدى القسيس .. وقال لها :



– اذن سأذهب الى القرية وأحاول الحصول على تابوت .  
لا يمكن أن أدعك تذهب في رحلة متعبه مثل هذه .. بإمكاننا أن نحفر  
حفرة .

– ألا يمكننا على الأقل أن ننتظر حتى الصباح ؟

فارتعدت (مارى) وقالت :

– وما فائدة الانتظار ؟ سأحضر المجرفة .

وجاءت بالمجرفة من (الجرن) غير مبالية بنباح الكلب . وذهبت الى  
رقعة الارض التى جعلوا منها حديقة خلف البيت وأخذت فى الحفر .

ولحق بها العجوز على الأثر .. ولكن الأرض كانت صخرية تعلوها  
طبقة يسيرة من التربة لا تكفى لدفن قطعة .. وكادت (مارى) تياس لولا أن  
تذكر العجوز وجود بثر فى أقصى الحديقة ملئت بالحجارة ، فقال لها :

– سنرفع الحجارة من البثر .. لكن لنأكل أولا لقمة حتى نقوى  
على العمل .

فعملت (مارى) برأيه وجلسا فى المطبخ يأكلان بضع لقمات ، حين  
سمعا (ماجى) تصيح من الجوع .. فذهبا الى غرفتها فوجدتها ممددة على  
ظهرها شاخصة الى السقف .. ولما أعطتها (مارى) كسرة من الخبز أخذتها  
ولم تأكل .. فقال لها بريان :

– لماذا لا تأكليتها ؟

– أنا جوعانة .

فقال (بريان) لمارى :

– ألم أقل لك ؟ .. انها أصيبت بالحبل .

وعادا الى الحديقة ، وحملت (مارى) الطفل معها وهو فى مهده ،  
فانها لم ترد أن تتركه فى البيت مع جثة أمها المتوفاة .. وكان الطفل  
مستغرقا فى نوم هادئ بعد أن أصاب أكلته الطيبة .. ثم تعاون الاثنان  
فى رفع الاحجار من البثر ، وكانت عميقة عمقا كافيا ، لكنها كانت ضيقة  
متعرجة .. فقال (بريان) :

– غفر الله لنا .. لا بد لنا من طي الجثة لدفنها .

– لا يوجد مكان غير هذا ، اللهم الا اذا ذهبنا بها الى المستنقعات .

فقال العجوز .

– لا يمكننا أن نحملها تلك المسافة .. لا مفر من دفنها هنا بأية  
صورة .

وفرغا من هذه المهمة فى مستهل المساء .. فعادت (مارى) مسرعة

الى الطفل وحملته من مهده ، فما كادت تضمه الى صدرها حتى خنقتها  
العبرات .. وحمل العجوز المهد الى داخل البيت و (مارى) فى أثره ...  
وشعرت بجوع شديد .. فتناولت اناء اللبن الذى جاء به القس ورفعته  
الى شفتيها وشربت اللبن حتى آخره دون أن تتوقف للتنفس .. ثم ذهبت  
الى غرفتها دون أن تكلم العجوز واستلقت فى الفراش بعد أن وضعت  
الطفل بجانبها .

وقال لها العجوز وهو فى المطبخ :

— هل تنامين ؟

فلم تجب .. ففقد برح بها التعب حتى عجزت عن الكلام ..  
وأغمضت عينيها ، وشعرت بدوار ، وخيل اليها كأن قلبها يوشك أن  
يكف عن الحفق ، وأحست بانطباق حلقها ، فلم تتمالك أن جلست فى  
الفراش مرتاعة والعرق يتحلب فوق جبينها ، فراحت تقول همسا وهى  
فى ظلام حالك :

— لن أموت ! لن أترك نفسى للموت !

وعلى هذه الصورة جلست وقتا طويلا حتى سمعت الكلب ينبع ..  
فطرات على ذهنها فكرة مروعة جعلتها تشب من الفراش وتهرب الى المطبخ  
وتنادى العجوز قائلة :

— هل أطلقت الكلب من مربطه ؟

وبينما كانت تنتظر الجواب سمعت وقع أقدام فى الخارج ، وصوت  
رجل يأمر الكلب بالسكوت .. فتلمست طريقها الى الباب بحركات محمومة  
وجعلت تتحسس فى الظلام مكان المزلاج حتى وجدته .. وما كادت تهيم  
بفتح الباب حتى سمعت من يطرقة .. ولما فتحت على سعته طالعها شبح  
رجل .. فهتفت قائلة :

— من القادم ؟

فقال الرجل :

— هل تقيم عائلة (كيلمارتن) هنا ؟

لكن (مارى) بلغت من الانفعال حدا عجزت معه عن الجواب .. فجاء  
العجوز فى أثرها وتولى الجواب قائلا :

— أنا (بريان كيلمارتن) .. مالى الذى جاء بك أيها الغريب فى هذه  
الساعة ، حفظك الله ؟

وهمست (مارى) بدورها وهى لا تكاد تقوى على الكلام من شدة  
الانفعال :

— أى أخبار جئت بها ؟ .. قل لى ! .. لكن استحلفك بالله ألا تقول  
لنا شرا ! .. لا تبلغنا أخبار السوء أيها الغريب ، فان قلبى قد امتلأ  
بالأحزان حتى فاض .. تكلم يا رجل .

فقال الغريب بصوت هادئ :

- لا تخافى . . لم أحضر اليكم بأخبار مكدره . . جهزى ملبسك واستعدى للذهاب الى (كلوجر) . .

فصرخت (مارى) :

- هل هو بخير ؟ . . أين هو ؟

فجعل الغريب يقول :

- استمعى لما أقول . . بعد أن تصلى الى الملجأ خارج بلدة (كلوجر) فى الطريق المؤدى الى البحر ، عليك أن تنتظرى هناك عند بوابة الملجأ حيث يأتى شخص ويسألك ان كنت قد رأيت رجلا أصفر الشعر يمر فى الطريق . . ان هذا الشخص سيخبرك عن مكان الرجل الأصفر الشعر وسيذهب بك اليه . . استعدى بسرعة وسيبرى الى (كلوجر) ، فعليك أن تكونى هناك بعد الفجر بقليل لتقابلى الشخص الذى كلمتك عنه .

قال الرجل هذا واستدار عائدا الى الطريق . . فهتفت به (مارى) وهى تخرج الى الفناء فى أثره :

- أيها الغريب ! . . أليس عندك كلام آخر تقوله لى عن (مارتن) ؟

فأجاب الرجل دون أن يتوقف عن السير :

- لأستطيع أن أقول الا ما قلته لك .

فهمت (مارى) وهى تجرى خلفه :

- لكن ألا يمكنك أيها الغريب أن تقول من أنت ؟

فأجاب وهو يشب من فوق السياج الى الزقاق :

- أنا رجل من الهاربين وأمامى مسافة طويلة لابد أن أسيرها حتى  
المخبا . .

- بارك الله فيك ورعاك .

قالت (مارى) هذا باسطة ذراعيها فى أثر شبج الرجل الذى اتجه شمالا فى اطواء الظلام . . وسرعان ما تفجرت دموعها ، وعادت الى البيت فلما وجدت العجوز واقفا لدى الباب طوقت عنقه بساعديها قائلة :

- هلا منحتنى بركتك يا عمى قبل أن أخرج فى رحلتى ؟

فأجاب العجوز برقة :

- سأفعل هذا يا بنتى . . أدعو الله أن يرعاك ويحفظك .

فقالت له همسا :

- هناك شئ من الطعام فى الكيس ، مع كسرة من الجبز الذى جاءنا به القسيس .



فقال لها (بريان) •

– لاتهتمى بنا •• أنا و (ماجى) بتنا فى ليل لن يطلع له فجر •• نحن  
على استعداد للرقاد الأبدى فى الأرض الطيبة التى أمضينا فيها كل حياتنا  
فى ظل جبال (الوادى الأسود) •

وحزمت (مارى) متاعها وودعت العجوزين وهى تبكى عاليا • •  
وبينما هى تخرج من الباب أعطاهما العجوز حفنة من التراب أخذها من ركن  
المدفأة ، وقال لها :

– اعطى هذه لمارتن •

وبارك الطفل بيديه المعروقتين •

## الفصل الرابع والخمسون

في منخفض من الأرض معشوشب مجاور لسور الملجأ القائم عند مشارف (كلوجر) تمددت هياكل بشرية بدت في ضوء الفجر الباهت كجثث الموتى ، لولا ما كان ينبعث من بعضها من أنين وتذمر .

وعند بوابة الملجأ المغلقة المطلة على تقاطع الطريقين المؤديين الى (كلوجر) و (كروم) ، جلست امرأتان على الأرض تتبادلان الحديث احدهما (مارى هالوران) التي كانت تعمل مشرفة في القصر عند (شادويك) . وكانت ترتدى ثوبا أسود وجوربا من الصوف السميك ، ولكنها كانت بغير (حرملة) ولا حذاء حتى بلى أسفل جوربها ، مما يدل على أنها اضطرت الى بيع (الحرملة) والحذاء تديرا للقوت . وكان شعرها مهذلا خلف ظهرها والطل يلمع فوقه ، وكانت ترتعد لهبوب نسيم بارد باقتراب الفجر . وكانت تقول لرفيقتها :

— لافائدة لك من الذهاب الى (كلوجر) بعد ما حدث للمساكين الذين ذهبوا الى هناك أمس . وما دمت لا تملكين بنسا واحدا فانهم لن يدعوك تبقيين في البلدة بعد الغروب . الطف بنا يارب ! . ان الطريقة التي يعامل بها الأغنياء الفقراء في أرلندا تكاد تجعل الانسان يفقد ايمانه بكل شيء ! . ان المساكين يقصدون الى البلدة هاربين من المناطق الجائعة يتطلعون الى المساعدة ، لكنهم يطردون من حيث جاءوا خائبين جائعين . انهم وضعونا فوق عربات النقل جماعات وجاءوا بنا هذه المسافة الطويلة لكن الملجأ كان ممتلئا والباب مغلقا عندما وصلت . وقال رجل انه سوف يسمح لعدد قليل بدخول الملجأ عند فتح الباب في الصباح ، بدل الذين يموتون في الليل . وكل هؤلاء الناس الممددين هناك في الحفرة جاءوا معى مطرودين من البلدة . فتأكدى اذن أنه ليس للفقراء مكان هنا .

فجعلت المرأة الثانية تتمايل أسي . وكانت جالسة القرفصاء يغطيها شال أسود من رأسها حتى قدميها . لكنها لم تشأ أن تسلم بكلام زميلتها ، وقالت مجادلة :

— ولماذا يطردون الفقراء ويسوقونهم الى الموت على هذه الصورة ، الا اذا كان هناك سبب لذلك ؟

— ان الحقيقة هي ما أقولها لك . . . لقد حدث أمس عراك شديدة في شارع البلدة الرئيسى بين رجال البوليس وبين العمال . فقد جاءت جموع العمال الى الشارع حاملين أعلاما عليها كتابات ، وجعلوا يصيحون طلبا للعمل . ثم هجموا على أحد المخابز واكتسحوا رجال البوليس أمامهم . وعند ذلك جاء الجنود المسلحون ونشب بينهم وبين العمال قتال شديد .

ان الحكومة الانجليزية فى نيتها قتل جميع الفقراء فى البلاد ، وهذا ما حدثنى به من يعرفون حقيقة الأمور . ان رجال الحكومة يطوفون بالشوارع كل يوم لجمع جثث الموتى التى تلقى من البيوت على الارصفة لدفنها ، وتأكدى أنهم ماكانوا يفعلون هذا لولا خوفهم من زيادة انتشار الطاعون ، ثم انهم لايدفنون الموتى فى التوابيت . . وانما يستعملون تابوتا واحدا يحملون فيه الميت الى الحفرة ويرمونه فيها ، ثم يعودون به ليحملوا فى التابوت غيره .

فقالت المرأة الثانية :

— لم أتصور فى حياتى أبدا أن يأتى يوم أجلس فيه خارج بوابة الملجأ فى انتظار من يموت فيه لكى أحل محله فى الملجأ . . هذا أكبر عار للانسان ! . . اننا كنا أغنى الناس فى قرية (جاريمور) قبل المجاعة ، وكان لنا بقرتان فى المربط .

فقالت (مارى هالوران) :

— ان مصيبتك لاتذكر بجانب مصيبتى . . فانى كنت رئيسة الخدم فى (قصر كروم) قبل مقتل صاحبه ، وكان اللحم يقدم لنا كل يوم والشراب تحت طلب الانسان فى كل وقت . . وكان أكابر الناس يترددون دائما على القصر . . وكنت أشرف على خمسين غرفة كنت أنا المتصرفه فيها .

فقالت المرأة الثانية غير مبالية بتفاخر (مارى هالوران) :

— لقد كانت قريرتنا لامثيل لها فى خيراتها . . فالزرع يخرج من الأرض ، والاسماك من البحر المجاور . . كانت مائدتنا دائما مليئة بالسماك الطازج أو المملح مع البطاطس ، حتى حلت الآفة بالأرض . . وعند ذلك أخذت جموع الناس تأتى من داخل البلاد الى الشواطىء . . وجاءوا معهم بالامراض والحميات . . ان الحمى هى التى أهلكتنا جميعا ، بعد أن جلبها الهاربون من المناطق المنكوبة بالجوع . . لقد كانت قريرتنا قبل المجاعة تضم أربعين بيتا ، ولكن آلاف الجياع توافدوا عليها وانتشروا على شواطئها يصيدون السمك ويجمعون المحار من بين الصخور حتى لم يبق شىء يؤكل . . ولما تفشى الطاعون بينهم أفناهم عن آخرهم ، ولم يبق من أسرتى على قيد الحياة سوى شخصى أنا .

فقالت (مارى هالوران) :

— انى أنصحك أن تحاولى دخول الملجأ ولا تذهبى الى البلدة . . . فسوف تضمنين على الأقل أن تدفنى فى قبر لائق .

— صدقت . . . اسمعى ! . . . هذا شخص يسير فى الطريق .

وكانت عجلات العربات تسمع عن بعد مقترنة بوقع حوافر الخيل . . فما لبثت أن تزايدت أصواتها مقترنة بهدير أمواج البحر .

وقالت (مارى هالوران) وهى تحقق فى اتجاه الهيكل المقرب :



- هي امرأة آتية من ناحية كروم ) ... يا الهى ! أقسم أنها  
(ايلي جليسون) !

- من تقولين ؟

فلم تجب (مارى هالوران) ، وجعلت تحقق نحو المرأة التي كانت  
تدنو منها ... وكانت فارعة ، نحيلة ، منتصبية القامة ، رافعة الرأس ،  
تحمل فوق صدرها شيئاً تحت (الحرملة) ، وعلى ظهرها لفافة كبيرة ... ولما  
وصلت أمام البوابة وقفت برهة ، ثم تقدمت نحو المرأتين ... فقالت (مارى  
هالوران) :

- هي شقيقة (ايلي) ... أهذه أنت يا (مارى) ؟

فانتفضت (مارى) ووقفت مكانها وهي تحقق في المتكلمة مبهوتة ...  
وما لبثت أن ابتسمت وهرولت الى ناحية المرأتين الجالستين قرب سور  
الملجأ ... وقال بصوت خافت :

- ألسنت أنت (مارى هالوران) التي كانت في (قصر كروم) ! ...  
كيف حالك ؟ ... هل هذه بوابة الملجأ ؟

فأجابت (مارى هالوران) بخشونة :

- نعم ...

- الحمد لله ...

قالت (مارى) هذا وهي تتنهد من أعماق صدرها ، ثم تهالكت الى  
الارض قرب الجدار وأسندت اليه رأسها ... فمالت امرأة ( جاري مور )

- ان المسكينة تعبت من طول المشى ... أهو طفل هذا الذي تحمله ؟

فقالت (مارى هالوران) بلهجة التشفى :

- اذن ستدخلين الملجأ لتنامي في الأقدار مثلنا ؟ ... أنت التي كنت  
مثال التكبر ، مع اختك ؟ ... ان اختك سبب جميع المصائب ... لكن  
مافات مات ... أنا لا أحقد عليك لما كان منكم ... ان حقد الفقير أهون شيء  
في الدنيا ... ماأخبار الوادى ؟

- لم يبق في الوادى الأسود من الأحياء سوى (بريان) و (ماجى) ...  
وقد تركت لهما بعض الطعام في كيس ... ولم أصادف أحداً في القرية ...  
وانما سمعت صياح الكلاب وهي تتقاتل ... ان القرية أشبه بقبر كبير  
وقد أخبرنا الأب (جيلان) أن (جون هاينز) ترك القرية .

فجعلت (مارى هالوران) تقول :

- لعنة الله عليه ... أحمد الله لذهابه ... من حقى أن اشميت فيه وهو  
ابن عمى ... انى ذهبت الى المتجر الكبير الذي يملكه ابنه (تونى) في  
(كلوجر) وكان من قبل ملكاً لرابيت ... ولما قابلت (هاينز) نفسه تبرأ منى  
هو وولده ... لقد كنت أعلل النفس بأن أفوز بالعمل عندهما بعد أن صار

لهما بيت كبير .. انه نال ما يستحق ب وفاة ولده الطبيب ، برغم كل الجهود  
انتى اشتراها بالمال لعلاجه .. ان المال لا يجلب للانسان كل شيء ! ..  
انهم جمعوا أموالا كثيرة بسبب المجاعة .. ان السفينة الراسية هناك ،  
والتي ستحمل الناس الى أمريكا اليوم ، جلبت الى (هاينز) شحنة أخرى  
من القمح من (فيلادلفيا) .

فلم تتمالك (مارى) أن هتفت وهى تتشبث بذراع المرأة :

— أهنأك سفينة ستبحر اليوم ؟

فأجابت (مارى هالوران) بلهجة الحزن والأسى :

— نعم .. ان هناك سفينة تبحر كل بضعة أيام .. كان يجب أن  
أكون فى أمريكا الآن ، لولا المرض الذى أقعدنى واستنفد ماكان معى من  
نقود .. ان (ريلى) السائس و (هيجارتى) الجابى ذهبوا أيضا .. بل ذهب  
كل من استطاع تدبير أجر الرحلة .. ان الاغنياء هم الذين رحلوا ، ولم  
يبق الا الفقراء الذين كتب عليهم الموت والفناء .

وكانت (مارى) ترتعد انفعالا وهى تسمع هذا الكلام ، وجعلت تدير  
النظر حوالىها فى قلق ولهفة .. ثم قالت وكأنما تخاطب نفسها بصوت  
مسموع :

— انى رأيت الموتى على جوانب الطريق .. وقال شخص قابلنى ان  
الكولونيل ( بودكين ) قاضى المحكمة يوزع الطعام ، ولكن بين مستأجرى  
أرضه فقط .. وقال الرجل أيضا ان الأب (روش) أصبح شديد الضعف  
وهو يوزع طعامه على المتسولين كل يوم .. وقال أيضا ان الحكومة سوف  
تستأنف تشغيل الناس ، لكن لم يبق بين الناس أحد به قوة على العمل .

وتزايدت أصوات عجلات العربات وحوافر الخيل مختلطة بقرقة  
السياط وصياح الرجال .. فأيقظت هذه الجلبة الجموع الممددة فى المنخفض  
الجاور لسور الملجأ حتى جلس بعضهم يثن ويتوجع ، وتقلب آخرون على  
الأرض ، وجمد غيرهم فى مراقدهم لا يتحركون .. وأخذت صبية صغيرة  
نهز أمها وتناديها بصوت مؤثر .. ولم تتمالك امرأة ( جاري مور ) أن  
قالت :

— لطفك يارب .. هم أشبه بالموتى يقومون من قبورهم عند مطلع  
الفجر آه ! .. انظروا الى الجنود الراكبين ذوى الأردية الحمراء !

فقد لاح لهم ثلاثة فرسان قادمين من الجهة الشرقية .. وفى الوقت  
نفسه ظهر من جهة الغرب حمار يجر عربة جلس فيها رجل على رأسه قبعة  
عالية وعلى كتفيه (حرملة) رمادية ، وما لبثت العربة أن سلكت الطريق  
المؤدى الى بوابة الملجأ .. وتبعته الفرسان قافلة عربات محملة بالأكياس  
بين صفين من الجنود المشاة تسلحوا بالبنادق ، أما الفرسان فكانوا  
شاهرى السيوف وقد رفعوا عقيرتهم بانغناء .

وفجأة نهض من أقصى المنخفض المجاور للملجأ رجل طويل القامة وهو نصف عار ورفع يده صائحا وهو يهز قبضته نحو القافلة :

— أيها اللصوص .. انكم تأخذون مازرعه الشعب الى خارج البلاد . انكم تسرقون غلالنا ونحن نموت من الجوع ! نحن الآن منهزمون ولكننا سننهض مرة أخرى .. اننا سنسحق المستعمرين الطغاة الذين يمتصون دماءنا ! .. سوف ينهض الشعب الايرلندى من جديد .

وعلى أثر هذه الصيحة سرت همهمة الغضب بين الموجودين فى المنخفض الارضى ، وكأنهم يهتفون للمتكلم تأييدا له وتحديا لعدوهم الغاصب ونهض آخرون وراحوا يتوعدون أفراد القافلة بقبضات أيديهم .. فتشجع الرجل العارى بهذا وجرى الى الامام صائحا .. فلطمه أحد الجنود على رأسه بطرف بندقيته حتى سقط الرجل على الارض .. ثم تابعت القافلة سيرها بسرعة وقد تعالى غناء الجنود جميعا .. فقالت (مارى هالوران) حين رأت امرأة تخرج من المنخفض وتجذب الرجل الصريع :

— هذا هو جزاء من يخرج على القانون .. ان روح التمرد والعصيان هذه هى سبب المجاعة .

فقالت امرأة (جاريمور) :

— ان المسكين لم يقل الا الحق .. خير للناس أن يقوموا ويقاتلوا الانجليز ، من أن يموتوا من الجوع فى الخنادق ! .. ليتنى كنت أملك بندقية أطلقها على اللصوص القتلة الانجليز ، الذين يسلبون أقوات ايرلندا ويحملونها الى البحار .

وكانت (مارى) قد سمرت نظراتها فى راكب العربيه ذات الحمار وقد مر بالبوابه ثم رجع مرة أخرى .. وظل ينظر اليها طويلا .. ثم رآته يومئ الى ناحيتها خفية .. فقامت وهرولت الى العربيه .. فرأت فيها رجلا متقدما فى السن مقوس الأنف ضيق العينين حاد النظرات .. وقال لها همسا حين اقتربت منه :

— هل رأيت رجلا أصفر الشعر ؟

فأجابت ( مارى ) هامسة :

— نعم ... أنا هى التى تبحث عنها .. أين هو ؟ ..

فقال لها الرجل :

— اركبى .. سأذهب بك اليه ..

فصعدت ( مارى ) الى العربيه التى سارت بها مسرعة وقد جسرت الدموع على خديها واختلطت بضحكاتها الخافتة .. وقال لها الرجل وهما ينعطفان غربا فى طريق ( كلوجر ) :

— ان زوجك سالم على ظهر السفينة .. الحقيقة ان تهريب أى شخص الى خارج البلاد أصبح شيئا سهلا فى هذه الايام نظرا لتفرق رجال البوليس



هنا وهناك وكثرة الفتن في الاقاليم .. ان زوجك مختبئ في السفينة  
والربان واحد منا ، واذن فلا تخافى شيئا .. واذا استجوبوك وأنت  
تصعدين الى السفينة فابكى وقولى انك فقدت كل أمل فى لقائه .. هذا  
كل ما يجب عليك أن تفعله ..

فقالت ( ماري ) :

— أدعو الله أن يجزيك خير الجزاء مهما تكن ! ..

فقال الرجل :

— ان الذين يقاتلون في سبيل الوطن يستحقون أن نسهر عليهم  
ونزعاهم .. أما الذين يتخلفون عن القتال فليموتوا جوعا وليذهبوا الى  
جهنم ملعونين .. اننا سنسير في أثر هذه القافلة .. اليك التذكرة التي  
تدخلين بها السفينة ..

وأخرج من جيبه تذكرة وقدمها اليها .. فرفعتها الى شفيتها وقبلتها  
.. فقال الرجل :

— لا تنسى أبدا متى وصلت الى أمريكا أن الكفاح من أجل حرية  
الوطن يجب أن يستمر حتى تتحقق حرية الوطن ويتم استقلاله ، وأن  
عليك أن تساهمي في هذه الغاية بكل ما في طاقتك .. هذا هو الشكر  
الوحيد الذي نريده منك ..

فقالت ( ماري ) همسا :

— أواه ! انى لا أكاد أصدق ما أرى .. ليس حقا انى سأجد  
( مارتن ) واننا سنتمكن من الهرب .. لا يمكن أن يكون هذا حقيقة ! ..

واستحوذ عليها الرعب عندما وصلت العربة الى الشارع الرئيسي  
في أثر القافلة .. وكان الشارع خاليا في هذه الساعة المبكرة ، لكن المنازل  
نفسها بدت وكأنها تهددها بالخطر ، وكانت ( ماري ) تتوقع أن تمتد اليها  
الأيدي بالاعتقال بين لحظة وأخرى ..

وبلغت العربة سوق السمك ، ولاحت لهم أرصفة الميناء .. وهنا  
طلب اليها الرجل أن تنزل من العربة ، قائلا :

— سنمشي المسافة الباقية ..

وربط حماله في عمود وسار الى الارصفة تتبعه ( ماري ) .. وشعرت  
بدوار من أثر الخوف .. وأخذ الطفل يبكى وقد أفزع صراخ وعويل سمعهما  
عن بعد .. فهمست ( ماري ) تقول له :

— إسكت يا حبيبي .. ستري ( بابا ) حالا ! ..

وقال لها الرجل بصوت خافت :

— هاهي السفينة هناك .. لا تنسى ما أوصيتك أن تقولىه اذا سألك

رجال البوليس عن شيء .. قدمي تذكرتك للرجل الواقف على سلم السفينة واصعدى اليها .. لا تخافى ولا تضطربى .. مع السلامة ، وأرجو أن يكبر ابنك ليصبح جنديا من جنود التحرير .. حفظك الله وصانك ..

فصافحته ( ماري ) مودعة وقد بلغ منها الاضطراب حدا عجزت معه عن الكلام .. ثم تقدمت الى السفينة .. وكانت ذات أشعة ثلاثة ، وقد ألقت مراسيها فى مواجهة متجر ( تونى هاينز ) .. ولم تتمالك ( ماري ) أن قالت لنفسها :

— أواه ! .. ان أشرعتها بنية اللون ! .. وليست بيضاء ! ..

وكان عدم وجود أشعة بيضاء فى السفينة ، طبقا لما رآته فى منامها السالف ، باعثا لها على التشاؤم والاعتقاد بأن كل شيء سيفشل .. ثم ان أصوات الصياح والعويل المنبعثة من حناجر كثيرة زادت من خوفها واضطرابها .. ولم تلبث القافلة أن وقفت على مسافة من سفينة المهاجرين وأخذ الحمالون ينقلون من العربات أكياس الغلال الى سفينة أخرى مبحرة الى انجلترا .. واضطرم السخط فى صدور الجماهير التى جاءت لتوديع المهاجرين عندما شاهدوا أقواتهم تؤخذ منهم وترسل الى بلاد المستعمر ، فأخذوا يهتفون ويستنزلون اللعنات على رؤوس الجنود .. وكان بعضهم يبيكون عاليا وقد بسطوا أيديهم شطر المهاجرين فوق ظهر السفينة ، وكان هؤلاء يبادلونهم بكاء وبكاء ، ولكن وقف بينهم نفر من الشباب جعلوا يهزؤون قبضاتهم فى وجوه الجنود الانجليز هاتفين متوعدين بالانتقام فى المستقبل القريب ..

وأمسكت ( ماري ) بتذكرة السفر وشقت طريقها بين الجمع المحتشد حتى وصلت الى صف رجال البوليس الواقفين عند سام السفينة ... فلم يحاول أحد منهم اعتراضها ، وتركوها تصعد الى ظهر السفينة .. وهناك هوت مغمى عليها ..

ولما أفاقت ( ماري ) وجدت نفسها فى غرفة صغيرة مظلمة يتسرب اليها ضوء يسير من فتحة ضيقة فى الجدار ... وكان ( مارتن ) منحنيا فوقها يدلك يديها ويكلمها همسا بانفعال وتأثر .. فتطلعت الى محياها الاسمر الملتحي وأغمى عليها مرة أخرى .. ولما فتحت عينيها أخيرا شعرت بمارتن يحملها ويضعها فوق لفافة من الحبال على سطح السفينة ... وشاهدت عن كثب منها امرأة تهدهد ( ميخائيل ) الصغير وهو يصرخ غضبا واحتجاجا .. فأسرعت ( ماري ) وانتزعت طفلها من المرأة ، ثم نظرت الى ( مارتن ) بشدة وقالت له :

— أين كنت كل هذا الوقت ؟ ..

فلم يجد ( مارتن ) وقتا للجواب ، اذ أدنت رأسه منها فجأة وقبلته بنهم .. وجعلت تقول له بين القبلات :

— لا بأس .. اننا هربنا .. لقد انتهى كل شيء ، أليس كذلك ؟ ..

هل تم لنا الهرب ؟ ..

فقال لها مارتن :

— انظري !!

ووضع ذراعه فوق منكبها ووجه نظرها نحو اليايسة التي كانت تتباعد عنهما .. وعند ذلك جثت ( ماري ) على ركبتيهما وأخذت تصلي شكرا .. واقتدى بها ( مارتن ) .. وجعلا يتابعان اليايسة المتباعدة بعيون مغرورة بالدموع والسفينة تعلو وتهبط بين الامواج ..

وقال لها ( مارتن ) :

— وما هي أخبار العجوزين ؟

فأخذت ( ماري ) حفنة التراب من جيبها وأعطته اياها وقالت منتحبة :  
— ان العجوز طلب مني أن أعطيها لك .. انها من ركن المدفأة في البيت ..

فقال ( مارتن ) همسا وهو ينظر الى حفنة التراب :

— سأبذل جهدي وأنا في الدنيا الجديدة أن أكون جذبرا بالانتساب الى أبي ..



## خاتمة ..

نزل الصقيع فى الليل ٠٠ وانعكست عليه أضواء الصباح فوق سفوح الجبال وعلى امتداد ( الوادى الاسود ) ٠٠ وتراكت طبقاته فوق سقوف الاكواخ الخالية وفى ربوع الحقول التى عدت عليها الآفة وأخذت تستحيل الى جذب وقفار ٠٠ واكتست الجدران الحجرية والكتل الصخرية والشجيرات الشوكية بحلة من الصقيع ناصعة البياض ٠٠ وانتشرت طبقة رقيقة من الجليدى فوق سطح (البحيرة السوداء) .. ولم يسلم من التجمد سوى النهر الذى اتصل جريانه تحت السماء المربدة .

ثم خرج بريان ( كيلمارتن ) من بيته يحمل مجرفة ويتبعه كلبه ٠٠ ولم يكن يكسوه سوى قميصه ، وقد اتخذ من المجرفة عصا يتوكأ عليها ، وأخذ الكلب يعرج فوق أرجله الثلاث ٠٠ وكانت آثار أقدام العجوز والكلب تنطبع فوق الصقيع ، وأنفاسهما تستحيل الى دخان يتمدد أمامهما ٠٠٠ وجعل الكلب ينبج ويقف بين لحظة وأخرى كأنما يحاول منع العجوز من التقدم ٠٠

وتسور العجوز السياج المنخفض بمشتقة كبيرة ، وأفضى منه الى رقعة الارض التى كانت مرعى للبقرة ٠٠٠ ولما توسطها وقف مكانه واستقام على نفسه وأخذ ينظر الى الأرض حوله ، ثم جعل يجسها بالمجرفة وهو يغغم قائلا : « سأحفر قبراً ناجى هنا » .

وحاول أن يبصق فى يديه ولكن لعابه جف ٠٠٠ ثم دفع طرف المجرفة فى الأرض المسكوة بالصقيع وضغط بقدمه العارية عليها وانكأ بكل قواه ٠٠٠ لكن المجرفة لم تنفذ فى الأرض ٠٠٠ وانبطح الكلب على بطنه وأخذ يزمر عالياً ٠٠٠ وأطبق العجوز شفتيه واستجمع قواه مرة أخرى ودفع طرف المجرفة فى الأرض وهو يضغط بقدمه العارية ٠٠٠ فعصته المجرفة مرة أخرى واختل توازنه من المجهود وسقط على وجهه فوق المجرفة ٠٠٠ فنهض الكلب وجعل ينبج ٠٠٠

وسكن العجوز مكانه برهه ٠٠٠ ثم تحامل على نفسه ونهض على ركبتيه وهو يئن عالياً ثم استوى على قدميه معتمداً على المجرفة ٠٠٠ وهنا جعل الكلب ينبج غاضباً وأخذ يخدش الصقيع بقدمه الأمامية اليمنى ٠٠

وحاول العجوز من جديد أن يبصق على يديه ، لكن فمه بقي مفتوحا ،  
وتدلى لسانه على شفته السفلى . . . ثم أمسك بمقبض المجرفة ومال الى  
الأمام وهم أن يدس طرفها في الصقيع وهو يرفع قدمه . . . فانبعثت من  
حلقه حشرة عميقة وهوى ممددا على الأرض . . . فانزلقت المجرفة فوق  
الصقيع وتدحرجت الى جوف حفرة مجاورة . . . أما العجوز فقد جمد في  
مكانه وذراعا مبسوطتان . . .

وبقى الكلب منبطحا على بطنه ساكنا برهة . . ومالبت أن رفع أنفه  
وجعل يتشمم الهواء . . . فسرت فيه رعدة . . . ثم جر نفسه على الأرض  
حتى وصل الى قدم العجوز العارية . . . فشمها . . . ثم استوى ببطء على  
قوائمه ورفع معرفته يسيرا وتقدم خطوة خطوة وهو يشم ساقى العجوز  
العاريتين ومن بعدهما فخذيه . . . ثم انتفض وزمجر حين بلغ القميص . . .  
ثم دار دورة صغيرة وانبطح على بطنه مرة أخرى وأخذ يزحف الى رأس  
العجوز وهو يزمجر . . . ثم شم الوجه وزمجر . . . ثم كرر الشم ،  
وسرعان ما هبط شعر معرفته على الأرض . . .

ورفع الكلب أنفه فجأة ، وجلس على قوائمه ، وارتفع عواؤه ممدودا  
متصلا ، وما لبث أن تمدد على جنبه ورقد ملتصقا بكتف العجوز .

( تمت )

# فهرس

الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة
٥	الفصل الأول
١١	الفصل الثانى
١٩	الفصل الثالث
٢٩	الفصل الرابع
٣٢	الفصل الخامس
٣٦	الفصل السادس
٤٠	الفصل السابع
٤٤	الفصل الثامن
٤٨	الفصل التاسع
٥٦	الفصل العاشر
٦٣	الفصل الحادى عشر
٦٦	الفصل الثانى عشر
٦٩	الفصل الثالث عشر
٧٥	الفصل الرابع عشر
٧٩	الفصل الخامس عشر
٨٤	الفصل السادس عشر
٩١	الفصل السابع عشر
١٠٠	الفصل الثامن عشر
١٠٥	الفصل التاسع عشر
١٠٩	الفصل العشرون
١١٣	الفصل الحادى والعشرون
١١٥	الفصل الثانى والعشرون
١١٩	الفصل الثالث والعشرون
١٢٥	الفصل الرابع والعشرون
١٣٤	الفصل الخامس والعشرون
١٣٨	الفصل السادس والعشرون



## الصفحة

## الموضوع

١٤١	الفصل السابع والعشرون
١٤٧	الفصل الثامن والعشرون
١٥٦	الفصل التاسع والعشرون
١٥٨	الفصل الثلاثون
١٦٣	الفصل الحادي والثلاثون
١٦٦	الفصل الثاني والثلاثون
١٦٨	الفصل الثالث والثلاثون
١٧٣	الفصل الرابع والثلاثون
١٨٠	الفصل الخامس والثلاثون
١٩٠	الفصل السادس والثلاثون
١٩٣	الفصل السابع والثلاثون
١٩٧	الفصل الثامن والثلاثون
٢٠٠	الفصل التاسع والثلاثون
٢٠٧	الفصل الأربعون
٢١٣	الفصل الحادي والأربعون
٢١٨	الفصل الثاني والأربعون
٢٢١	الفصل الثالث والأربعون
٢٢٢	الفصل الرابع والأربعون
٢٢٧	الفصل الخامس والأربعون
٢٥٠	الفصل السادس والأربعون
٢٥٤	الفصل السابع والأربعون
٢٥٩	الفصل الثامن والأربعون
٢٦٩	الفصل التاسع والأربعون
٢٧٦	الفصل الخمسون
٢٨٤	الفصل الحادي والخمسون
٢٩٤	الفصل الثاني والخمسون
٢٩٨	الفصل الثالث والخمسون
٣٠٣	الفصل الرابع والخمسون
٣١١	الخاتمة





## الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عتيق - روض الفرس

٤١٠١٢ / ٤٠٧٥٣ } لمقرون  
٤٠٨١٤ / ٤٠٥٨٨ }







الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبّيد - روض الفنت

٤١٠١٢ / ٤٠٧٥٣ } لفيون  
٤٠٨١٤ / ٤٠٥٨٨ }

Bibliotheca Alexandrina



0401678